المنهل دالية الكرمل

[redacted]

تهذيب الرياسة
و ترتيب السياسة

القلعي

تهذيب الرياسة وترتيب السياسة

للإمام أبي عبد الله محمد بن علي القلعي

المتوفى سنة ٦٣٠ هـ .

فهرس محتويات الرسالة

الموضوع الصفحة

القسم الدراسي

الباب الأول

الفصل الأول: ترجمة الإمام أبو عبدالله محمد بن علي القلعي ثم اليمني وتحقيق نسبته

مذهب الإمام القلعي المؤلف

الفصل الثاني: شيوخ المؤلف وأقرانه

وفاة الإمام القلعي المؤلف

تلاميذ المؤلف وتلاميذ تلاميذه

الفصل الثالث: مؤلفات الإمام القلعي

الباب الثاني

الفصل الأول: نسبة الكتاب إلى مؤلفه

عرض النسخ الموجودة في المكتبات الإسلامية

الفصل الثاني: طريقة التحقيق

الفصل الثالث: منهج الكتاب وأسلوبه

أهمية الكتاب في الحياة العلمية والسياسية

نص الكتاب

مقدمة المؤلف لكتابه تهذيب الرياسة وترتيب السياسة

باب في ذكر وجوب الإمامة والاحتياج إلى السلطان

باب في ذكر الوالي العادل وما له من الأجر والوالي الجائر وما عليه من الوزر

باب في ذكر ما يجب على الرعية للولاة من الطاعة

باب في ذكر ما يجب أن يتصف به الملك من الطرائق الجميلة

باب فيما يجب على السلطان مزج حسن السياسة وما يلزمه من الصيانة

للرعية والحراسة
باب في اختيار الوزراء والعمال وذكر ما يجب أن يتصفوا به
باب في ذكر الولاية والعمل وما يتصل بهما من المدح والذم وما يتعلق بهما من العز والذل في حالة الولاية والعزل
باب في مصاحبة الملوك ومخالطتهم وكيفية التحرز منهم في حال مجالستهم
باب في اختيار الأجناد والحماة ووصف الأبطال منهم والكماة
باب في مدح الاستشارة وذم الاستبداد بالرأي
باب في مدح العدل وايثاره وذم الجور وآثاره
فصل في ذكر البغي
باب في ذكر العفو ومدح مستعمله والانتقام ومحل استعماله
فصل في أسباب الانتقام وتعجيل العقوبة
فصل في الانتقام ممن يجوبه العفو محل اقتحام الجرائم والآثام
باب في ذكر الأناه وذم العجلة في الأمور
فصل في المقصود من الأناه هو الاستظهار والاستبصار والنظر في العواقب
باب في إيثار السلم والموادعة على الحرب والمنازعة وكيفية الدخول في الحرب
عند الحمل عليها والاضطرار إليها
فصل في من ابتلى بعدو كيف يعمل
فصل في العدو الذي لا يرجى صلاحه وكيفية العمل معه
فصل في أهمية الحزم والنظر في العواقب
فصل في انتهاز الفرصة من العدو
باب في ذم الحجاب بين الرعية وسلطانها

القسم الثاني من تهذيب الرياسة وترتيب السياسة
في مناقب الخلفاء والوزراء والعمال والأمراء
الدالة على مناقبهم وارتفاع مراتبهم

الكلام على خلافة معاوية بن أبي سفيان وحلمه ومآثره وأعماله وعماله ووصاياه

ذكر سياسة زياد بن سمية في ضبط الأمور

الكلام على خلافة يزيد بن معاوية

الكلام على خلافة عبدالله بن الزبير وقتال مصعب بن الزبير للمختار بن عبيد الثقفي

الكلام على خلافة عبدالملك بن مروان وأعماله وعماله

ذكر سياسة الحجاج في الحجاز والعراق

الكلام على خلافة الوليد بن عبدالملك بن مروان

الكلام على خلافة سليمان بن عبدالملك وإحسانه إلى الرعية واستخلافه عمر بن عبدالعزيز

الكلام على خلافة عمر بن عبد العزيز وعدله وورعه وتقشفه وعفته عن مال الرعية

الكلام على خلافة هشام بن عبدالملك

الكلام على خلافة الوليد بن يزيد وذكر شيء من أشعاره ومحاربته لابن عمه يزيد بن الوليد

الكلام على آخر خلفاء به أمية مروان بن محمد ومقتله

الكلام على خلافة السفاح أول ملوك العباسيين ومآثره وسيرته في رعيته وذكر بعض خطبه

الكلام على خلافة المنصور وحزمه وأعماله وعماله وتوجيهاته وذكر بعض خطبه

الكلام عن خلافة المهدي
ذكر شيء من مناقب معن بن زائدة الشيباني
الكلام على خلافة هارون الرشيد وسيرته وسيرة وزرائه من البرامكة وكرمهم وإحسانهم إلى الشعراء ثم نكبته لهم
الكلام على خلافة المأمون وحكمته وعلمه وعدله وذكر بعض خطبه ومناقبه وأشعاره
الكلام على خلافة المعتصم وفتوحاته وشجاعته ونجدته ومآثره
الكلام على الواثق وكرمه وإحسانه
الكلام على خلافة المتوكل
الكلام على الدولة العلوية بطبرستان
فهرس المحتويات

البَابُ الأوّل
الفصلُ الأولُ
ترجمةُ الإمام القلعي

اسمهُ وكنيتهُ:

هو الإمامُ أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ عليٍّ بنِ الحسنِ بنِ عليِ بن أبي عليٍّ القلعي.

وقد اختلفَ المؤرخون في نسبةِ الإمامِ القلعي وفي ضبطِ هذهِ النسبة تبعاً لاختلافهم في القلعةِ المنسوبِ إليها الإمامُ وفي أي بلادِ المسلمينَ هي فقيل القَلْعي بفتح القَاف وسكون اللام نسبةً إلى قلعةِ حلبَ المدينةِ المعروفةِ بالشامِ. وذكرت كتبُ البلدانِ أن في حلبَ ونواحيها قلاعاً كثيرةً أهمُها قلاع ثلاث مشهورةٌ.

الأولى: قلعةُ المسلمين التي كانت تسمى قديماً قلعةَ الروم تقعُ في الغربِ الشماليِّ من حلبَ على بُعدِ خمسِ مراحلَ منها تُعدُّ من أحصنِ القلاعِ وأكثرِها شهرةً ويمر بها نهرٌ يعرفُ بمرزبانَ يصبُ في الفراتِ.

والثانيةُ: قلعةُ أَبِيْ قُبَيْس – بهمزةٍ مفتوحةٍ وباءٍ موحدةٍ مكسورةٍ بعدها ياءٌ ساكنة ثم قاف مضمومة وباءٌ موحدةٌ مفتوحةٌ وياءٌ مثناةٌ تحت ساكنةٌ ثم سينٌ، مهملة في الآخرِ تقعُ في الغربِ من حلبَ على بُعدِ ثلاثِ مراحلَ منها.

والثالثةُ: قلعة حَارِم بحاءٍ مهملةٍ مفتوحةٍ وألفٍ ثم راءٍ مهملة مكسورةٍ وميم في الآخرِ تقع على بعدِ مرحلتينِ من حلبَ وهي ذاتُ بساتينَ وأشجارٍ وبها نهرٌ صغيرٌ وبينها وبين انطاكيةَ نحُو مرحلة.

وهناك قلاعٌ أخرى أقلُ أهميةً منتشرةً في نواحي حلبَ. ويرجعُ السببُ في كثرة هذه القلاعِ أن حلبَ كانت ثغراً من ثغورِ الإسلامِ وأن الجيشَ الإسلاميَ كان ينزلُ أولاً بقنسرينَ، ثم تحولَ إلى حلبَ فعمرها المسلمون وأشادوا وحصنوا كثيراً من قلاعها وأصبحت وخاصة في عهدِ بني حمدانَ غرةَ بلادِ الشامِ وثاني حواضره بعدَ دمشقَ، ولم يذكرْ المؤرخون الذين ترجموا للإمامِ القلعي إلى أي القلاعِ ينسبُ وكلُ الذي ذكره

الجنديُ في السلوك والخزرجيُ في العقود اللؤلؤيةَ ورجحه الزركليُّ في الأعلام أنها نسبة إلى قلعة حلَب. وقيل إنها نسبةٌ إلى بلدٍ في اليمن يقَالُ لها القلعةُ بينها وبين زبيدَ نحُو يومٍ وهذا ما ذهَب إليه الأسنويُّ في طبقاته. ولم يذكرْ لنا في أي ناحيةٍ هي من زبيدَ وإلى مثلِ هذا ذهب ياقوتٌ الحمويُ في معجمِ البلدان. فقال: (القلعةُ موضعٌ باليمن ينسبُ إليها الفقيهُ القلعيُ). وقيل إن النسبةَ بفتح القافِ واللامِ نسبة إلى بلدةٍ بالمغربِ وأورد هذا الاحتمالُ الخزرجيُ والجنديُ ولم يذكرْه الأسنوي ولا غيرهُ.

وذكر ابنُ الأثيرِ في اللبابِ أن القَلَعي بفتح القاف واللام وفي آخرها عينٌ مهملةٌ نسبة إلى بلدٍ يقال لها القلعةُ ولم يذكرْ في أي بلادِ المسلمين هي والأرجحُ والله أعلم أنها نسبةٌ إلى قلعةِ حلّب لجملة اعتبارات:

١ – أنه لو كان من قلعة اليمنِ كما ذكره الأسنويُ في طبقاته والحمويُ في معجمِ البلدانِ لما فوجئ به أهلُ مرباطَ ولكان معروفاً لديهم أو لقاضيهم وسلطانهم على أقلِ تقديرٍ ولكنهم ذكروا أنهم بمجردِ أن سمعوا بوصولِ فقيهٍ خرجوا إليه وسأله القاضي عن عدةِ مسائل ليَتَبينَ حقيقة خبره. ولهذا نجدُ صاحبُ العقودِ اللؤلؤية يقولُ بعدَ أن نقلَ قولَ الأسنوي وهذا غلطٌ واللهُ أعلمُ.

٢ – أنه لو كان من قلعةِ اليمنِ لكانَ الذهابُ متيسراً ولما ألحَ عليه أهلُ مرباطَ وقاضيها وسلطانُها في البقاءِ عندهم وشرطوا له أن لا يدعوه يحتاجُ لشيءٍ وهو يقولُ أريدُ أن أذهبَ إلى بلدي ما خرجتُ على هذا العزمَ.

٣ – ولو كان من قلعةِ اليمنِ لذهبوا إليه أو بعضُهم بعد أن عرفوا بلدَه وأنه قريبٌ منهم سيما وهم يشعرونَ بحاجتهم إلى الفقهِ والرغبةُ لديهم أكيدة نلمسُها من إصرارهم على بقائه بينهم والرحلةُ في طلبِ العلمِ معروفة سيما والمكان قريبٌ.

٤ – أنهم يذكرون أنه قَدمَ عليهم من الحجِ تاجراً وهذا يُشعرُ ببعدِ موطنه وأنه يريدُ أن ينقلَ إلى بلده سلعاً لا توجدُ فيه مما ينقلُ إلى اليمنِ عن طريقِ البحرِ من الهندِ ونواحيها.

٥ – أن تلميذَ الإمامِ القلعيِّ الفقيهَ ناصرَ بن عبدِ الله والذي أخذَ عن الإمام كتابَ اللفظ المستغرب قال في مقدمة الكتاب وهو يُعرفُ بالإمام القلعي أخبرنا الإمامُ العالمُ الفقيهُ العلامةُ أبو عبدِ الله محمدُ بنُ علي بن أبي علي القلعي ثم اليمنيِّ.

وهذا يشعرُ بأنه معروف عند تلاميذه بأن له نسبتين إحداهما إلى القلعة والأخرى إلى اليمن فلو كانت القلعةُ باليمن لاكتفى بقوله القلعي أو اليمنيِّ أو لقال القلعي اليمنيِّ ولكنه فصلَ بينَ النسبتين "بثم" فقال القلعي ثم اليمنيِّ.

٦ – أما أن النسبةَ إلى بلد بالمغرب فبعيدٌ واللهُ أعلمُ لأنه شافعيٌّ مشهورٌ وأهل المغرب في الأعم الأغلب يتمذهبون بمذهب مالك وقلَّ أن تجدَ فيهم شافعياً ولو وُجدَ لاشتُهرَ فلم يبقَ بعد كل هذا إلا النسبةُ إلى قلعة حلَب.

و لم تذكرْ لنا كتبُ التراجم شيئاً عن مولد الإمام القلعي وطفولته وتلقيه العلمَ كما لا نكادُ نجدُ شيئاً عن أبويه وأسرته وشيوخه الذين تتلمذَ عليهم في طفولته وصباهُ أو الذين أخذَ عنهم الفقهَ والعلمَ في شبابه ورَيعان عمره.

وكلُ الذين ترجموا لأبي عبد الله القلعيِّ رددوا ما ذكره بهاءُ الدين الجنديُ في كتابه السلوكُ في طبقات العلماء والملوك وتكادُ تكونُ كلُ الترجمات اختصاراً لما أورده الجنديُ دون زيادة شيء جديد.

ويبدو أن الجنديَ استقَى ترجمتَه للإمام من أفواه الرواةَ وفقهاء تلكَ الناحية وهو يذكرُ ذلك بأوضح عبارة إذ يقول: (أخبرني شيخٌ قديمٌ من أهل تلك الناحية وأهل الفقه بها قال سمعتُ قدماءَ بلادنا يذكرونَ أن هذا الفقيهَ قدمَ عليهم من الحجِّ إلى مرباطَ). وبذلك تكونُ ترجمةُ الجندي أقدَم ترجمة معروفة للإمام القلعيِّ وهي لم تعرضْ لشيء من حياة الإمام الشخصية والعلمية قبل قدومه إلى مرباطَ [١]، و لم يذكرْ لنا أيضاً تاريخَ هذا القدوم ولا في أي سنة كان ولكنْ يبدو أنه كان قبلَ سنة ٥٨٥ هـ . لأنه يذكرُ أن الإمامَ حج من مرباطَ وأُخذ عنه بمكةَ. ووجدتْ في مقدمة كتاب الإمام القلعيِّ (اللفظُ المستغربُ في ألفاظ المهذب) أنه أخذ عنه بمكةَ سنة ٥٨٥ هـ . والله أعلم هل أخذ عنه قبل قدومه إلى مرباطَ أو في حجته التي حجها من مرباطَ. وكان سبق قدومه إلى مرباطَ على ما ذكروا أنه بعد أن قضى حجه وأدى مناسك فرضه قدمَ إليها مع رفقة له تجارٍ فدخلوا

١١) مرباط بكسر الميم وسكون الراء وفتح الباء ثم طاء مهملة، مدينة قديمة على الساحل، كان فيها مرسى جيد، كثر ذكره على أفواه التجار، والمخرب لها أحمد بن محمد الحبوضي، معجم البلدان، ج ٥ ص ٩٧.

مرسى مرباطَ وأرسوا فيه مركبَهم وَضُربتْ للفقيه خيمةٌ على الساحل يستريحُ من وعثاء السفرِ ودخل الآخرونَ إلى البندرِ ليبيعوا ويشتروا ويتزودوا فبلغ خبرُ قدومِ الإمامِ قاضي البلدِ فما أن بلغه الخبرُ حتى خرجَ إليه وجماعة من أعيان مرباط وتجارها واستأذنوا عليه فرحبَ الإمامُ القلعي بهم وآنسهم وأنسوا به وسأله القاضي عن جملةِ مسائلَ فأجابه الإمامُ عنها أبين جوابٍ وبعباراتٍ صريحةٍ مرضيةٍ فازداد اعجابُ القاضي ومن معه بعلمه وفضله وحسن خُلُقه وورعه وسألوه أن يسكنَ معهم فهم في أمسِ الحاجةِ إلى علمه فالفقهُ بتلك الناحية قليلٌ والواردُ إليها من العلماء قليلٌ أيضاً وشرطوا له مبالغةً في رغبتهم به ألا يدعوه يحتاجُ إلى شيءٍ من أمورِ معاشه، فهم يكفلونها على أن يقومَ بتعليمهم أمور دينهم وفرائضَ ربهم. فلم يقبلْ أولَ الأمر وعاوده الحنينُ إلى بلده ومسقطِ رأسه وظن أنَّ ذلكَ منهمْ على سبيلِ المجاملة، وقالَ لمْ أخرجْ من بلدي على هذه النية. ولكنَّ القاضي وَمَنْ معهُ من أعيانِ مرباطَ وتجارها وسراتها لم يقطعوا الأملَ منهُ، فذهبوا إلى سلطانِ مرباطَ وكان يومئذ أبو عبد الله محمدُ بنُ أحمد الأكحلِ المنجوي من قومٍ يقال لهم المنجويونَ من بيتٍ يقالُ لهم آلُ بُلُخْ بضمِ الموحدةِ واللامِ وسكونِ الخاءِ ونسبُهم من مذحج، وكان هذا السلطانُ أوحدَ عصره كرماً وحلماً وتواضعاً ذكرَ المؤرخونَ له من الكرمِ والحلمِ والتواضعِ مآثرَ تسير بها الركبانُ ويتناقلُها الرواةُ جاؤا فأخبروه خبرَ الفقيه ووصوله إلى بلدهم وما كانَ من أمرهم معه وشَكوْا إليه شدةَ حاجتهم إلى علمه وفضله وفقهه وأنهم في أمَسِّ الحاجةِ إلى مثله وأثنوْا عليه لشدة إعجابهم به وطلبوا منه أن يخرجَ إليه بنفسه ويلازمَهُ لعلَّهُ يقبلُ البقاءَ عندهم فما كان من السلطانِ إلا أن استجابَ لهم وشعرَ بشعورهم وخفَّ سريعاً في موكبه إلى خيمةِ الإمامِ على الساحلِ ورجاه، ورغبه في الإقامةِ في بلدهم وألحَّ في ذلكَ وأكثرَ على الإمامِ وشرطَ على نفسه للإمامِ القلعيِّ ما أحبَّ ولا يَدَعَهُ يحتاجُ إلى شيءٍ من أمورِ المعاش. وأمامَ هذا الإلحاحِ الشديدِ والرغبةِ الصادقةِ الأكيدةِ في العلمِ وأهله من سلطانِ مرباطَ وأهلها وأعيانها لم يجدُ الإمامُ بُداً من أنْ يجيبَهم إلى طلبهم وأن ينزل على رغبتهم وأن يُضَحِّيَ في سبيلِ دينه فيعيشَ بعيداً عن مسقطِ رأسه وبلده حسبةً لله وابتغاءً للأجر عندَهُ ونشراً للعلم. وهكذا همُّ العلماء يؤثرونَ طاعةَ اللهِ عزَ وجلَ على عاجلِ أمرِ الدنيا لإيمانهم أن ما عندَ اللهِ يبقى وأن أمرَ الدنيا صائرٌ إلى زوال. فما أن تسامعَ الناسُ بأن الإمامَ قد رَضِيَ البقاءَ عندهم حتى فرحوا واسْتَبشَروا به خيراً وحَمَلوا متاعَهُ

على الفورِ من المركبِ إلى البلدِ وأُنزِلَ في دارٍ تليقُ به كَعَلَمٍ من أعلام الفقهِ وإمامٍ من أئمةِ الإسلامِ وأحاطُوه بوافرِ الحفاوةِ والتكريمِ.

وهناكَ بدأَ الإمامُ أبو عبدِ اللهِ نشاطَهُ وأقبلَ على التدريسِ ونشرِ العلمِ وتسامعَ الناسُ به وأطبقتْ شهرتُهُ النواحيَ فقصدَهُ طلابُ العلمِ من كلِ ناحيةٍ وتتلمذوا على يديْه وأخذُوا عنه كُتُبَهُ في الفقهِ والفرائضِ والسياسةِ وإليه يرجعُ الفضلُ في نشرِ الفقهِ في تلكَ البلادِ يذكرون لهُ الجميلَ فيقولونَ إنهُ لم ينتشرِ العلمُ عن أحدٍ بتلكَ الناحيةِ كما انتشرَ عن الإمامِ القلعيِّ.

وعنه أخذَ أعيانُ فقهائها فهم أصحابُه أو أصحابُ أصحابُه. وكانَ للإمامِ المنزلةُ الرفيعةُ عند عامةِ سلاطينِ مرباطَ وكلُّهم يقدرُ له قدرَهُ ويعرفُ له فضلَهُ ويحيطُهُ بما يجبُ له من حفاوةٍ وتكريمٍ يدلُّ على ذلكَ ويؤيدُه أنه لما أحدثَ محمدُ بنُ أحمدَ الحبوضيُّ ظفارَ سنة ٦٢٠ هـ . بعدَ وفاةِ الأكحلِ وأمرَ أهلَ مرباطَ أن ينتقلوا إليها وهَدَمَ عامةَ بيوتِ مرباطَ إلا بيتَ الإمامِ القلعي إجلالاً له واعترافاً بفضله ورعايةً لمنزلته. ولكن الإمامَ ابتنى بيتاً بظفارَ وكان يتردُدُ بينَها وبينَ مرباطَ حتى لا ينسبَ إلى مخالفةِ السلطانِ وليقومَ بواجبِ نشرِ العلمِ وتبليغه للناسِ ويلتقيَ بتلاميذه.

وكانَ عامةُ أهلِ مرباطَ وظفارَ وحضرموتَ يقدرونَ للفقيه جهادَهُ وتفانيَهُ في نشرِ العلمِ فلهُ في قلوبهم المحبةُ والإكبارُ حتى أنَ أهل السعة منهم كانوا يوقفونَ الأوقافَ ويحبسونَ الأحباسَ علي تلاميذِ الإمامِ ومن يفدُ إليه حتى أنَّ تاجراً منهم أعدَّ داراً وجهزها وكان يقومُ بكفايةِ الطلبةِ الذين يرغبونَ في العلمِ ويلازمونَ الإمامَ وإن كَثُرُوْا.

مذهبُ الإمامِ القلعيِّ:

تفقَه الإمامُ أبو عبدِ اللهِ محمدُ بن علي القلعيُّ على مذهبِ ابنِ عمِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ، الذي تُرْتَجى الرحمةُ بذكره ويستنزلُ رضاءُ الرحمنِ بدعائه- الإمامِ الشافعي- الذي أطبقت مذاهبُ الخَلْقِ على أنهُ مجددُ الدينِ ومحيي الملةِ وناصرُ السنةِ على رأسِ المائةِ الثانيةِ للهجرةِ تطبيقاً لما روى أبو هريرةَ عن النبي صلى اللهُ عليه وسلَم أنهُ قالَ: (إن اللهَ يبعثُ لهذه الأمةِ على رأسِ كلِ مائةِ سنةٍ من يجددُ لها دينَها).

فقدْ كانَ أحمدُ بنُ حنبلَ يقولُ في هذا الحديثِ إنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ على رأسِ

المائة الأولى والشافعي على رأس المائة الثانية.

وكانَ الإمامُ القلعيُّ، رحِمَهُ اللهُ، قد أوتِيَ بالمكيالِ الأوفى من الفقهِ والتقوى والعلمِ وحسن الخُلُق، فهو صاحبُ القدمِ الراسخةِ في فقه الشافعية ويدلُ على تبحره في هذا المذهبِ ما خلَّفَ من تراث فقهي شافعي شادَّ العلماءُ به، وأخذُوه عنه وانتفعُوا به وتدلُّ مؤلفاتُهُ على أنه رحِمَهُ اللهُ كان إماماً جامعاً فقيهاً موسوعياً أكثرَ من التأليفِ في فروعِ الشافعيةِ منْ مثلِ مؤلفه قواعد المهذب واحترازات المهذب، ومستغرب ألفاظه. ولم يَحُلْ تبحُر الإمام بمذهبِ الشافعي دونَ اطلاعه على مذاهبَ أخرى فقد كانَ على إلمام حسنٍ واطلاع واسع ببقيةِ المذاهب يُرْشِدُ إلى هذا ما ذَكَرَهُ الجنديُ في السلوكِ في ترجمةِ الإمامِ القلعيِّ أنه جمعَ في مصنفه إيضاحَ الغوامض في علمِ الفرائضِ بين مذهبِ الشافعي وغيرِه وأوردَ فيه طَرَفاً منَ الجبرِ والمقابلةِ والوصايةِ.

الفصل الثاني

شيوخُ الإمامِ القلعيّ

لم تذكرْ كتبُ التراجم شيئاً عن شيوخِ الإمام القلعّي، الذينَ تتلمذَ على أيديهم وأخذَ عنهمُ الفقهَ والدينَ والتاريخَ والحسابَ فإنه كان ضليعاً بكلِ هذه العلومِ متمرساً بها. ولعل مردَّ ذلكَ إلى أن الإمامَ تتلمذَ على شيوخِ بلده ثم رَحَلَ منها عالماً محققاً وفقيهاً مصنفاً فعرَفَهُ الناسُ هكذا و لم يَعرفوا شيوخهُ كما أنه لم يَذكرْ لنا في مؤلفاته التي بينَ أيدينَا أسماءَ شيوخِه الذين أخذَ عنهمُ العلمَ وإن كنا نقطعُ بأن هذا العلمَ والفقهَ لا بد وأنهُ قد أخذَهُ بالتلقي ومجالسة كبارِ علماءِ زمانه حتى تفتحتْ قريحتهُ وأصبحَ من كبار علماء عصرِه. إذ العادةُ جاريةَ بهذا في زمانه مانعة من ضده ويدلُّنا على ذلكَ غزارةُ علمه وسعةُ اطلاعه على ما كُتَب قبلَهُ في فروع العلمِ المختلفة فقهاً وسياسةً، وعزْوه كثيراً من مسائلِ هذا العلمِ إلى أصحابها أو إلى كتبهم كما هو الحالُ في مؤلَّفه تهذيب الرياسة.

أقرانُ الإمام عبد الله القلعي:

اشتهر الإمامُ القلعيُّ في اليمنِ كفقيه لمرباطَ ومفتى لها ولنواحيها و لمْ تذكرْ كتبُ التراجمِ شيئاً عن أقرانه ومعاصريه الذينَ التقى بهم وأخذَ عنهم وأخذوا عنه أو الذين حاوَرَهم وناظَرَهم. وكلُّ ما ذكروه عمومياتٌ وأنه التقى بعلماءِ مكةَ وزبيدٍ وأخذوا عنه. وبرجوعنَا إلى كتبِ التراجم التي تَرْجمتْ لعلماءِ اليمنِ في تلكَ الفترةِ وجدنا علماءَ أجلاءَ كُثر كانوا يعاصرونَ الإمامَ ويجاورونَه في نواحي مختلفة فلا بدَ وأنه اتصلَ بهم وناظَرَهم وناظَرُوه ورحلَ إليهم ورحَلوا إليه وإنْ كنَّا لانقطعُ بصلة لواحدٍ بعينه ومن هؤلاءِ العلماءِ المعاصرينَ للإمام علىَ سبيلِ المثال سالمُ بنُ محمدِ بنُ سالم المتوفى في نفسِ السنةِ التي تُوفيَ فيها الإمامُ وهي سنة ٦٣٠ هـ . وكان مُحَدِّثاً فقيهاً يأتيه الناسُ من بعدٍ لقراءةِ العلم على يديه.

ومنهُم الفقيهُ أبو الحسن عليُ بنُ محمدِ بن أحمدَ بنِ جديدٍ المعروف عندَ أهلِ اليمنِ بالشريف ابن الجديد، الذي نفاهُ الملكُ المسعودُ بنُ الكاملِ إلى الهند فخرَج إليها في صحبة الشيخِ الصالحِ مدافعِ بن أحمدَ فعصفتِ الريحُ بمركبهم فدخلوا ظفارَ بلدَ الإمامِ القلعيِّ

وأقاما بها مدة ثم رحلا عنها وعادا إليها بعدَ شهرين وفيها تُوفي الشيخُ مدافعُ بنُ أحمدَ. فلا بدَّ وأنه قد التقى بالإمام القلعي وجالَسَهُ وأخذَ كلّ عن صاحبه.

كما أنَّ من العلماء المعاصرينَ للإمام أبي عبد الله القلعي الفقيه يحيى بنَ فضل بنَ أسعدَ بن حمير فإنه كانَ من المعاصرينَ للإمام زماناً ومكاناً والعادةُ جاريةٌ بتزاور العلماء للبحث والدرس والمناقشة.

وفاةُ الإمام القلعي:

تُطْبِقُ كتبُ التراجم على أنَّ الإمامَ القلعيَّ طالَ به العمُرُ وامتدتْ به الحياةُ وأفسح اللهُ له في الأجل (وخيرُ الناس مَنْ طال عُمُره وحسنَ عَمَلُهُ).

ويذكرونَ أنه تُوفيَ سنةَ ٦٣٠ هـ . بعدَ أن عَمَّر طويلاً وكانتْ وفاتُهُ بمرباطَ ودُفنَ بمقبرتها وقبرُه هناكَ مشهورٌ يزارُ. ويقصدُهُ الناسُ منْ بُعْد ليترحَمُوا عليه ويقرأُوا له الفاتحةَ فجزاهُ اللهُ عن العلم وأهله أحسنَ الجزاء وأسبَغَ عليه نعمتَهُ وأدخلهُ فسيحَ جناته.

تلاميذُ الإمام:

على الرغم من أهمية الإمام أبي عبد الله محمد بن علي القلعيّ في تاريخ الفكر الإسلامي، وما أسهَم به منْ دراسات فقهية وسياسية إلا أن كتبَ التراجم لم تذكرْ لنا إلا القليل من تلاميذه وأصحابه رغمَ أن كلَّ من ترجمَ للإمام أثنى عليه بكثرة تلاميذه وأصحابه. فلقدْ ذكَر بهاءُ الدين الجندي في كتابه السلوك في طبقات العلماء والملوك عند ترجمة الإمام القلعي (أن أكثرَ أصحابه في حضرموتَ ونواحيها وأنَ أعيانَ فقهائهَا أصحابه في حضرموت ونواحيها وأنَ أعيانَ فقهائهَا أصحابُهُ وأصحابُ أصحابه) وكذلك قال الخزرجيُ في العقود اللؤلؤية في ترجمة الإمام.

ولعلَّ مردَّ هذا إلى قلة الدراسات المتعلقة بذلك الصقع من بلاد المسلمينَ وأنه لمْ ينلْ بعدُ منَ العناية ما نالَ غيرُهُ من حواضر العالم الإسلامي وأسأل اللهَ أن يهيئَ أناساً مخلصين، يبحثونَ تاريخَهُ وتاريخ رجاله الذين أسهمُوا في خدمة دينهم وأمتهم، فعندها سنعرفُ الكثير عَنْ إمامنا وتلاميذه، وقد بدأتْ بوادرُ هذه العناية بحمد الله تبدُو في الأفق بإنشاء مركز الدراسات اليمانية في صنعاء، وهو يتولى نشرَ وتحقيقَ تراث اليمني بما يكشف الكثيرَ عن مساهمات علماء تلكَ الناحية في خدمة الإسلام والمسلمينَ ومن هؤلاء التلاميذ الذين

ذكروهم لنا:

الأولُ: هوَ الإمامُ محمدُ بنُ أحمدَ بنِ يحيى بنِ صمعٍ أخذَ الفقهَ عن الإمامِ أبي عبد الله القلعيّ وكان مشهوداً له بالفقه والفضلِ مبارك التدريسِ وهو الذي لزمَ مجلسَ الإمامِ القلعيّ بعدَ وفاتِه. تفقه على يديهِ جمعٌ كثيرٌ، منهم الفقيهُ الصالحُ أبو عبد الله محمد البستي المتوفى سنة ٧١٢ هـ ..

أما تلميذُه الثاني: فهو الفقيهُ عليٌّ بنُ أحمدَ بنِ سالمِ بنِ محمدِ بن علي المَكنى بأبي مروانَ من بيتِ أبي علوي المشهودِ له بالفقهِ والورع والتقوى فلقدْ ذكَر الجنديُ أن هذا البيتَ بيتُ صلاحٍ، وعلم خرَّج جماعة من العلماءِ منهم حسن بنُ محمدِ بن علي بنُ أبي علويَ كان غاية في الورعِ والحفظِ حفظَ الوجيزَ للغزالي غيباً، وعدد كثير من أهلِ هذا البيتِ ممن اشتهروا بالفقهِ والورعِ والصلاحِ، وأسهَمُوا في الحياةِ الإسلاميةِ في زمنهم. وكان الفقيهُ عليُ بنُ أحمدَ تلميذُ الإمامَ القلعيّ صاحبَ مصنفاتٍ عديدةٍ فقيهاً فاضلاً خيراً مباركَ التدريس انتشَر عنه العلمُ بحضرمَوت انتشاراً موسعاً أخذَ الفقهَ عنه جماعةٌ من العلماءِ منهم أبو زكريا الذي خرج إلى مقدشوه فنشرَ العلمَ بها وبنواحيها نشراً موسعاً.

أما تلميذُه الثالثُ: فهو الفقيهُ المفتي ناصرُ بنُ عبد الله بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ حاتمِ العطار بمكةَ. يكنى بأبي الفتح المكي، سمعَ صحيحَ البخاري من أبي الحسني عَلى بنِ حميدِ الأطرابلسيِّ، وحدَّثَ عنه وعن أبي محمدِ بنِ الطباخَ وأخذَ عن الإمام أبي عبدِ الله القلعي بمكة وأخذ عنه الرشيدُ العطارُ صحيحَ البخاري تُوفي بمكةَ في سنةِ ٦٤٣ هـ . وممنْ تفقه على يديهِ الإمامُ أبو ن نزارٍ ربيعةُ بنُ الحسنِ.

أما تلاميذُ تلاميذه: فلم تذكرْ كتبُ التراجمِ منهم سوى الن نزر اليسيرَ ذكروا من تلاميذِ تلاميذه، الإمامَ الحافظَ أبا الخيرَ بنَ منصورِ بنِ أبي الخيرِ الشماخيَّ نسبةً إلى شماخَ اسمِ جَدٍ لهُ السعديَّ نسباً إلى سعدِ العشيرةِ من مذحج أصلُ بلده حضرموتُ قدَم زبيدٌ في شبيبته فأقامَ بها مدة يطلبُ العلمَ ثم سافَر إلى مكةَ فأخذَ عن جمعٍ من العلماءِ ثم رجعَ إلى زبيدَ وقد تضلعَ في العلوم فأرادَ الرجوعَ إلى بلده فرغبه المظفرُ في الإقامةِ باليمنِ لينتفعَ الناسُ بعلمه وأعلى قدرَهُ فاستوطنَ اليمنَ وتأهَّلَ بزبيدَ وكانَ إماماً في الفقهِ والنحو واللغةِ والحديثِ والتفسيرِ.

والفرائض وأخذَ عن أبي عبدِالله محمدِ بن أحمدَ صاحب أحورَ عن يحيى بن أبي نصيرَ

الطفاويِّ عن الإمام القلعيِّ و لم يكنْ لهُ في آخرِ عمرهُ نظيرٌ في جودةِ العلمِ وضبطِ الكتبِ حتى جمعتْ خزائنه مئةَ أم سوى المختصراتِ تُوفي بزبيدَ سنة ٦٨٠ هـ . بعد أن بلغَ عمرُه نحواً من ٩٠ سنة.

ومن تلاميذِ تلاميذه الإمام. ربيعةُ بنُ الحسنِ بنِ علي بن عبدِالله بن يحيى الصنعانيُّ الذماريُّ الفقيهُ المحدثُ ولدَ سنةَ ٥٢٥ هـ . وتفقهَ بظفارَ على الفقيهِ محمدِ بنِ عبدِالله بن حمادةِ وغيرِه وقرأَ اللفظَ المستغربَ من ألفاظِ كتابِ المهذبِ على الإمام ناصرِ بنِ عبدِالله سنه ٦٠١ هـ . ودخلَ ديارَ مصرَ وسمعَ من السلفي وروى عنه المنذري والإمامُ الحافظُ عبدُ العظيمِ بن عبدِ القويّ وتُوفي سنةَ ٦٠٩ هـ ..

كذلكَ ذكرَ الجنديُ من تلاميذِ تلاميذِ القلعيِّ الإمامَ أبا زكريا أخذَ الفقهَ على يدِ عليِّ بن أحمدَ تلميذِ الإمامِ القلعيِّ فلما تضلعِ بالفقهِ خرَج إلى مقديشوه فنشرَ العلمَ بها وذكرَ الجنديُ أنه لمْ يتحققْ تاريخ وفاتِه.

الفصلُ الثالثُ

مؤلفاتُ الإمامِ

يتبين لنا منْ خلال دراستنا لحياة الإمامِ القلعيِّ، أنه كتبَ الكثيرَ وصنفَ العديدَ من المؤلفات التي أثرى بها الحياةَ العلميةَ والمكتبةَ الإسلاميةَ وأجادَ البحثَ في كَلِ فنٍ، إلا أنه غلبَ عليه أمرُ الفقه حتى كانتْ أغلبُ مصنفاته وأشهرُها فيه. فقد تركَ لنا تراثاً فقهياً ضخماً انتفعَ به المسلمونَ وتناقلُوه وأثنَوا عليه وكلٌّ من ترجَم للإمام عدَ ما انتهى إليه علمُهُ من مصنفاته وما وصلَه خبرُهُ ثم قالَ بعدَ ذلك: وكتبهُ أكثرُ من ذلكَ وبعضُهم أشارَ إلى مضانّ وجودها. فقدْ قالَ الجنديُ في كتابه السلوك في طبقات العلماء والملوك: (ومصنفاتُه أكثرُ مما ذَكرتُ وهي توجدُ بظفارَ وحضرموتَ ونواحيها) ومثلُ ذلكَ قالَ الخزرجيُّ في العقود اللؤلؤية فقال: بعدَ أن عدَّد مصنفاته وله غيرُ ذلك وأكثرُ ما توجدُ مصنفاتُه في ظفارَ وحضرموتَ ونواحيها). والكتبُ التي ذكَرها الأئمةُ له هي:

١ – قواعدُ المهذب، ذكرَهُ الجنديُ في السلوك في طبقات العلماء والملوك والخزرجي في العقود اللؤلؤية وصاحبُ معجم المؤلفين وهو مفقودٌ لمْ أقعْ لهُ على أثرٍ.

٢ – إحترازُ المهذب، ذكرَهُ الجنديُ في ترجمة الإمامِ القلعيِّ ومعجم المؤلفينَ، والخزرجيُّ في العقود اللؤلؤية، والسبكيُّ في طبقات الشافعية الكبرى، وقد أثنى العلماءُ على هذا المصنف فقال الجندي وهذا المصنفُ شهدَ به أعيانُ الفقهاءِ أنهُ لمْ يصنَّفْ لهُ في الاحترازِ نظيرٌ وهو مفقودٌ أيضاً.

٣ – إيضاحُ الغوامضِ في علم الفرائضِ، وهو في مُجَلَّدَيْن جَمَعَ فيه بينَ مذهب الشافعي وغيره وأوردَ فيه طرفاً من الجبرِ والمقابلَة والوصايا ذكرَهُ الجنديُ في السلوك، والخزرجيُّ في العقود اللؤلؤية، وصاحبُ معجمِ المؤلفينَ، والزركلي في الأعلام، وقال السبكيُ في طبقات الشافعية الكبرى عن هذا الكتاب وله مصنفٌ حافلٌ في الفرائض. وهو مفقودٌ لم نعرفْ له وجوداً رغمَ بحثنا في فهارسِ المخطوطات.

٤ – كَنز الحفاظ في غرائب الألفاظ، أعني ألفاظَ المهذب ذكرهُ بهاءُ الدين الجندي في السلوك، والخزرجي في العقودِ اللؤلؤية والزركليُّ وهو مفقودٌ أيضاً.

٥ – لَطائفُ الأنوارِ في الصحابةِ الأبرار، ذكرَهُ الخزرجيُّ في العقودِ اللؤلؤيةِ وبهاءُ الدينِ الجنديُّ في السلوكِ وصاحبُ معجمِ المؤلفينَ، والزركليُّ في الأعلام وهو لا زالَ مخطوطاً لا نعرفُ له وجوداً.

٦ – اللفظُ المستغربُ منْ ألفاظِ المهذب، ذكرَهُ الجنديُ بقولِه في ترجمة الإمامِ ومنها– أيْ مؤلفاته مستغربَ ألفاظِه وقال السبكي وله كتابٌ آخرُ في مستغربِ ألفاظِه وفي أسماءِ رجاله، وهو لا زالَ مخطوطاً وتوجدُ منه نسختان بدارِ الكتبِ المصريةِ الأولى تحت رقم ب ٢١٨٥٤ وهي مخطوطةٌ قديمةٌ في صفحاتها خروقٌ وآثارٌ رطوبةٌ وتقطيعٌ إلا أنها يمكنُ قراءتُها إذا دققَ القارىءُ فيها. مبدؤُهُ.. بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ أخبرنا أبو نـ زارَ ربيعةُ بنُ الحسنِ بنِ علي بنِ عبد اللهِ بنِ أبي شجاع اليمانيُّ الحضرمي بقرأتي عليه في رجبَ سنةَ إحدى وستمائة قال أخبرنا الفقيهُ الزاهدُ المجاورُ بمكةَ حرسَها اللهُ تعالى ناصرُ بنُ عبد اللهِ بنِ عبدِ الرحمنِ المقريُّ بقرأتي عليه في جمادَ الآخرةِ سنةَ خمسٍ وثمانينَ وخمسمائة.

قالَ أخبرنا الإمامُ العالمُ الفقيهُ العلامة أبو عبدالله محمدُ بنُ علي بنِ أبي علي القلعي ثم اليمني رحمَهُ اللهُ تعالى قال: الحمدُ للهِ على ما منحَ منَ العطاءِ ودفعَ من البلاءِ وصلواتُهُ على محمدٍ خاتمِ الأنبياءِ وعلى آلِ محمدٍ السادةِ النجباءِ أما بعدُ، فإني قد جَمَعْتُ في هذا المختصرِ من الألفاظِ اللغويةِ والأسماءِ الوضعيةِ الواقعةِ في كتاب المهذبِ ما قد يخطئ بأكثرِه أو يجهلُ تفسيرَها أكثرُ المتدرسينَ بل أكثر المدرسينَ وقسَّمه إلى قسمين:

الأولُ في الألفاظِ اللغويةِ وهو مرتبٌ على ترتيبِ أبوابِ الكتابِ والقسمُ الثاني في الأسماءِ والكُنَى.

والنسخةُ تقعُ في ٦١ ورقةً كلُ ورقةٍ بها ١٤ سطراً وأما النسخةُ الثانيةُ فهي منسوخة عن النسخةِ الخطيةِ التي أشرنا إليها وتحملُ رقم ٢١٩٤٢ وكان الفراغُ من نسخها في ٨ مارس ١٩٤١م وتقعُ في ٨٢ صفحةً ومسطراتها ٢١ سطراً وما أحوجَ هذا الكتابَ بالدراسةِ والتحقيقِ وأن يُطبَعَ مع المجموعِ لعظيمِ فائدته وكثرة الحاجةِ إليه.

٧– كتابُ أحكامِ المختصرِ، ذكرَهُ الجنديُ في السلوكِ في طبقاتِ العلماءِ الملوكِ وهو مفقودٌ لا أعرفُ له وجوداً رغمَ بحثي في المكتباتِ الإسلامية.

٨ – ولهُ كتابُ أحكامِ القضاة، ذكرُه الخزرجيُّ في العقودِ اللؤلؤيةِ والزركليُّ في الأعلامِ وهو مفقودٌ لا أعرف له مكاناً.

٩ – وله كتابُ تهذيب الرياسةِ وترتيبِ السياسةِ، وهو من أشهرِ كتبِ الإمامِ ذكرَهُ الجنديُ في السلوكِ، والزركليُّ في الأعلام، والخزرجي في العقودِ اللؤلؤيةِ.

القسم التحقيقي

كتابُ

تهذيبِ الرياسةِ وترتيبِ السياسةِ

تأليفُ الشيخ

العارفِ أبي عبد الله محمد بنِ علي بنِ أبي عليٍ القلعيِّ

رحمةُ الله عليه "المؤلفْ"

الحمدُ للهِ وصلّى الله على سيدنا محمدٍ

وعلى آلِه وسلم ق / ١

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ (وباللهِ أثقُ وعليهِ أتوكل).

والحمدُ للهِ حمداً كثيراً دائماً متواتراً متواصلا مترادفاً متكاثفاً متظاهراً متظافراً حمدَ من اعترفَ ببرهِ وآلائه شاكراً وسلَّم لقدرهِ وقضائه صابراً وأشهدُ أنْ لا إلهَ الاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ إلهاً واحداً أولاً آخراً صمداً[١] قيوماً[٢] باطناً ظاهراً حياً مريداً عالماً قادراً سميعاً بصيراً ناهياً وآمراً.

وأشهدُ أن محمداً عبدُهُ ورسولُهُ ابتعثَهُ ليعمرَ من الدين داثراً وينعشَ من الحق عابراً ويقطعُ من الكفرِ دابراً ويغيضُ من الضلالة بحراً زاخراً فلمْ يزلْ (صلى اللهُ وعلى آله وسلَم) لحسامِ الإسلامِ شاهراً وبإعلانِ الحقِ مجاهراً ولجهادِ أهلِ العنادِ مصابراً وعن عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ زاجراً حتى عادَ ربعُ [٣] الدينِ عامراً.

وأضاءَ فلكَ اليقينِ داثراً ورجعَ الكفرُ والضلالُ إلى الثباتِ والحسارِ داحراً صلى اللهُ عليهِ وعلَى آلهِ ما انهلَ النوءُ[٤] السماكي ماطراً وحدى العيسَ [٥] حاديها وارداً وصادراً

(١) الصمد: السيد الذي يقصد إليه بالحوائج، مختار الصحاح.

(٢) القيوم: اسم من أسماء الله تعالى معناه القائم بتدبير ما خلق.

(٣) الربع محلة القوم ومنـ ـزلهم، المصباح المنير.

(٤) النوء: سقوط نجم من المنازل بالمغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها، مختار الصحاح.

(٥) الإبل: البيض التي في بياضها ظلمة خفية، المصباح المنير.

وبعدُ..

فهذا الكتابُ جمعتُهُ في تهذيبِ الرياسةِ وترتيبِ السياسةِ وجعلتُهُ قسمينِ: القسمُ الأولُ منهُ يشتملُ على أنواعِ أبوابٍ يحتوي على غررٍ [1] من كلامِ الحكماءِ ودررٍ من نظامِ الفصحاءِ مما ينسبكُ في قالبِ الأمثالِ الشاردةِ وينتظمُ في سلكِ الحكمِ الواردةِ يتضمنُ محاسنَ الأوصافِ المحمودةِ من ذوي الأمرِ وذمِ أضدادِها وما يجبُ استعمالُهُ أو تركهُ من الأمورِ التي يحمدُ متبعُها عاقبةَ إصدارِها وإيرادِها.

والقسمُ الثاني بحكاياتٍ من الخلفاءِ ووزرائِهم وعمالِهم وأمرائِهم مما يدلُ على نبلِهم وغزارةِ فضلِهم وحسنِ سيرتِهم وكمالِ مروءتِهم وما اشتملت عليه طرائقُهم وحوتْهُ خلائقُهُم من العدلِ والإنصافِ والبذلِ والإسعافِ والعفوِ عند الاقتدارِ ومعرفةِ حقوقِ ذوي الأقدارِ وقبولِ- النصحِ من الناصحينَ وسماعِ الموعظةِ من الصالحينَ مع ما اتصفوا به منْ علمٍ وأدبٍ ووقارٍ وحلمٍ وفصاحةٍ وبراعةٍ وسماحةٍ وشجاعةٍ فمن اتخذَ ذلك إماماً ارتفعَ وانتفعَ ومنْ عملَ بما شاكَلَه رشدَ وحُمدَ.

وقد ابتدأتُ ذلكَ بذكرِ وجوبِ الإمامةِ وعدمِ الاستغناءِ عن الولاةِ وما يجبُ لهم على الكافةِ من الطاعةِ والموالاةِ واللهُ تعالى الموفقُ لانتظامِه والتيامِه والمعينُ على إتمامِه واختتامِه.

---

(١) غرر: بالضم والغره: بياض في جبهة الفرس فوق الدرهم، القاموس.

بابٌ في ذكرِ وجوبِ الإمامةِ والاحتياجَ إلى السلطانِ وعدَمِ الاستغناءِ عنه في جميعِ الأزمانِ

أجمعتْ الأمةُ قاطبةً إلا من لا يعتدَّ بخلافِه على وجوبِ نصبِ الإمامِ على الإطلاقِ وإن اختلفوا في أوصافِه وشرائطِه.

فأقولُ نظامُ أمرِ الدينِ والدنيا مقصودٌ، ولا يحصلُ ذلك إلا بإمامٍ موجودٍ. لو لَمْ نَقُلْ بوجوبِ الإمامةِ لأدى ذلكَ إلى دوامِ الاختلافِ والهرجِ [١] إلى يومِ القيامةِ. لوْ لَمْ يكنْ للناسِ إمامٌ مطاعٌ لا نثلم شرفُ الإسلامِ وضاعَ. لوْ لَمْ يكنْ للأمةِ إمامٌ قاهرٌ لتعطلتْ المحاريبُ [٢] والمنابرُ، وانقطعتْ السبلُ للواردِ والصادرِ، لو خلا عصرٌ من إمامٍ لتعطلتْ فيه الأحكامُ وضاعتْ الأيتامُ، ولم يُحجَ البيتُ الحرامُ. لولا الأئمةُ والقضاةُ والسلاطينُ والولاةُ لما نكحتِ الأيامى ولا كفلتِ اليتامى. لولا السلطانُ لكانَ الناسُ فوضى ولأكلَ بعضُهم

(١) الهرج: الفتنة والاختلاط وفسره النبي صلى الله عليه وسلم في إشراط الساعة بالقتل/ مختار الصحاح.

(٢) المحاريب: المحراب في اللغة كل موضع مرتفع وقيل للذي يصلي فيه محراب لأنه يجب أن يرفع ويعظم وقيل المحاريب المساجد/ تفسير القرطبي، سورة سبأ.

بعضاً [١]. وفي الحديث "السلطانُ ظلُ اللهِ الممدودُ في الأرض يأوي إليه كلُ مظلومٍ" [٢].

وقالَ عثمانُ [٣] رضْيَ اللهُ عنهُ: ما يزعُ اللهُ بالسلطانِ أكثرُ مما يزعُ بالقرآنِ. ومعنى يزعُ أي يمنعُ ويكفُ ويردع. وقالَ بعضُ القدماءِ الدينُ والسلطان تؤمانِ. وقيلَ الدينُ أسٌ والسلطانُ حارسٌ فما لا أسَ له فمهدُوم، وما لا حارسَ له فضائعٌ.

وقال عمروُ بنُ العاصِ [٤]: إمامُ عادل خيرٌ مِنْ مطرٍ وابلٍ [٥]، وأسدٌ حطومٌ خيرٌ من سلطان غشومٍ [٦]، وسلطان غشومٌ خيرٌ من فتنةٍ تدوم.

(١) نسبت هذه الجملة للجاحظ في كتاب آداب السياسة وبالعدل مصور رقم ٤٣٠٠.

(٢) ورد الحديث باختلاف يسير في بعض ألفاظه، في السنن الكبرى للبيهقي، ج ٨ ص ١٦٢؛ مشكأة المصابيح، ج ٢ ص ١٠٩٧؛ مجمع الزوائد، ج ٥ ص ١٩٦؛ وفيه رواه البزار وفيه سعيد بن سنان أبو مهدي وهو متروك، منتخب كنـ ز العمال في سنن الأقوال والأفعال على هامش المسند، ج ٢ ص ١٣١؛ كشف الخفاء وذكرَ فيه طرق أخرى للحديث، ج ١ ص ٥٢٢.

(٣) هو أمير المؤمنين: عثمان بن عفان بن أبي العاص ذو النورين وصاحب الهجرتين وزوج الابنتين. وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى ثالث الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين من السابقين للإسلام. ولد في السنة السادسة بعد الفيل بويع له سنة ٢٤ هـ . وقتل سنة ٣٥ هـ . وله من العمر ٨٢ سنة ودفن بالبقيع رضي الله عنه وأرضاه/ البداية والنهاية، ج ٧ ص ١٩٨؛ الطبقات الكبرى، ج ٣ ص ٣٦؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٤٠؛ الاستيعاب لابن عبد البر، ق ٣ ص ١٠٣٧؛ المعارف، ص ٨٢.

(٤) عمرو بن العاص: هو أبو محمد عمرو بن العاص الصحابي القرشي أحد سادة قريش في الجاهلية. أسلم يوم الهدنة وهاجر ثم ولي الأمرة في غزو الشام لأبي بكر وعمر، ثم افتتح مصر ووليها لعمر بن الخطاب ثم لمعاوية، كان صاحب دهاء وخبرة توفي سنة ٤٣ هـ . بمصر / النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦١ – ٦٢؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٥٣؛ البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥؛ الطبقات الكبرى، ج ٤ ص ٢.

(٥) وابل: المطر الشديد.

(٦) الغشم: الظلم/ القاموس المحيط.

وقالَ كعب الأحبار [١]: مثلُ (الإسلام والسلطان) مثلُ عمود وفسطاط [٢]، فالفسطاط الإسلامُ، والعمودُ السلطانُ، والأوتادُ الناسُ، ولا يصلُح بعضُهم إلا ببعض.

وقال الأفوهُ الأوديُ [٣]:

لا يصلُحُ النَّاس فوضى لا سراةَ لهم ... ولا سراةَ إذا جُهّالُهم سادُوا
كالبيت لا يبتنى إلا له عمدٌ ... ولا عمودَ إذا لم تُرسى أوتادُ
فإن تجمَّعَ أوتادٌ وأعمدةٌ ... وساكنُ بلغوا الأمرَ الذي كادُوا

وقالَ ابنُ المعتز [٤]: فسادُ الرعية بلا ملك كفساد الجسم بلا روح. وقال بعضُ البلغاء: السلطانُ زمامُ [٥] الملة [٦]، ونظامُ الجملة، وجلاءُ الغمة [٧] ورباطُ [٨] البيضة [١]،

(١) كعب الأحبار: هو أبو اسحاق كعب الأحبار بن نافع الحميدي من مسلمي أهل الكتاب، أسلم على يد أبي بكر الصديق، وهو من الطبقة الأولى من التابعين، أخذ عنه الصحابة كثيراً من أخبار الأمم الغابرة وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة. توفي في حمص سنة ٣٢ هـ . عن مائة وأربع سنين. النجوم الزاهرة، ج ١ ص ٩٠.

(٢) الفسطاط بيت من الشعر/ مختار الصحاح

(٣) الأفوه الأودي: هو صلاءة بن عمرو بن مالك، شاعر جاهلي غلب عليه لقب الأفوه/ الشعر والشعراء، ص ٢٢٣.

(٤) ابن المعتز: هو أمير المؤمنين الراضي بالله أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله بن المتوكل العباسي. ولد في شعبان سنة ٢٤٧ هـ . وأخذ عن المبرد وثعلب، وكان فاضلا شاعراً بويع له بالخلافة يوماً واحداً، ولم يتم له الأمر ثم قتل خنقاً ٢٧٦ هـ ./ تاريخ بغداد، ج ٧ ص ٢١٤؛ تاريخ الطبري، ج ١٣ ص ٢٢٨٢؛ الفهرست، ص ١١٦؛ فوات الوفيات، ج ١ ص ٢٤١.

(٥) الزمام: الخيط الذي يشد به ويسمى المقود زمام، وزم البعير خطة والمزمزمة صوت الرعد/ مختار الصحاح.

(٦) الملة: الدين والشريعة/ مختار الصحاح.

(٧) الغمة: الكربة ويقال أمر غمة أي مبهم ملتبس/ مختار الصحاح.

(٨) الرباط: ما تشد به الدابة والقربة/ مختار الصحاح.

وعمادُ الحوزةِ [٢]. وقالَ آخرُ: السلطانُ يدافعُ عن سوادِ الأمةِ [٣] ببياضِ الدعوة.

بابٌ في ذكرِ
الوالي العادلِ (وما لهُ منَ الأجرِ)
والوالي الجائر وما عليه من الوزرِ

قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ: سبعةٌ يظِلُّهُمُ اللهُ عزَ وجلَ تحتَ ظلِ عرشه يومَ لا ظلَ إلا ظلُّهُ، إمامٌ عادلٌ وشابٌ نشأ في عبادةِ ربه ورجلٌ قلبُهُ معلقٌ في المساجد، إذا خرجَ حتى يعودَ إليه، ورجلٌ ذَكَرَ اللهَ خالياً ففاضتْ عيناهُ، ورجلانِ تحابا في اللهِ عزَ وجلَ اجتمعا على ذلكَ ثم تفرقا، ورجلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ حسنٍ وجمالٍ إلى نفسها فقال: إني أخافُ اللهَ عزَ وجلَ، ورجلٌ تصدقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالُهُ ما تنفقُ يمينُهُ [٤].

فبدأ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ بالإمامِ العادلِ وحقيقٌ [٥] أن يبدأ به، لأنه من العالمِ

=

(١) البيضة: بيضة القوم ساحتهم وبيضة كل شيء حوزته/ مختار الصحاح.

(٢) الحوزة: الناحية وكل من ضم شيئاً إلى نفسه فقد حازه/ مختار الصحاح.

(٣) سواد الأمة: عامتهم/ مختار الصحاح.

(٤) ورد الحديث بتقديم وتأخير بعض الألفاظ، صحيح مسلم، ج ٣ ص ٩٣. السنن الكبرى للبيهقي، ج ٤ ص ١٩٠. مشكاة المصابيح، ج ١ ص ٢٢٠- ٢٢١. موطأ مالك، بشرح الزرقاني، ج ٤ ص ٣٤٢. والراعي هو الحافظ الملتزم صلاح ما قام عليه وفيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه.

(٥) حقيق به: أي خليق به وجدير به/ مختار الصحاح.

بمنزلة السواد من العين بل بمنزلة السويداء [١] من القلب، بل هو بمنزلة القلب من الجسد، فبصلاحه يصلحُ الجسدُ وبفساده يفسُدُ.

كما قال عليه الصلاة والسلامُ: "إنَّ في الجسد مضغةً [٢]، إذا صلحتْ صَلَحَ الجسدُ كُلُّهُ، وإذا فسدتْ فَسدَ الجسدُ كُلُّهُ ألا وهي القلبُ [٣].

وقدْ تقدَّمَ قولُ ابنِ المعتزِ، فسادُ الرعية بلا ملك كفساد الجسمِ بلا روح. وإنما كانَ السلطانُ بهذه المثابة لأنه في نفسه إمامٌ متبوعٌ، وفي سيرته دينٌ مشروعٌ، فإن ظلمَ لم يعدلْ أحدٌ في حكمه، وإن عدَل لمْ يستجري أحدٌ على ظلمٍ.

وَرُوِيَ أن عمرَ بنَ الخطاب [٤]، رضيَ اللهُ عنهُ، لَمَّا حُمل إليه مغانمُ العراق عند افتتاحها، وما أصيبَ من كنوزِ كسرى ورأى ما فيها من الجواهرِ النفيسة جَعَلَ يتعجبُ منها، ويقولُ: (إن الذي أدى هذا لأمينٌ)، فقال له عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ[٥]: أنا أخبرك

(١) سويداء القلب: حبته/ مختار الصحاح.

(٢) مضغة: قطعة من اللحم، وقلب الإنسان مضغة من جسده/ مختار الصحاح.

(٣) صحيح البخاري، ج ١ ص ٢٠. صحيح مسلم، ج ٥ ص ٥٠. مسند أحمد، م ٤ ص ٢٧٠. سنن ابن ماجه، ج ٢ ص ١٣١٩. والحديث دليل على عظيم دور القلب في استعمال الجوارح لأنها تابعة والقلب متبوع.

(٤) عمر بن الخطاب: هو أمير المؤمنين أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي. ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، أسلم وله من العمر ٢٧ سنة، وشهد بدراً وأحداً، والمشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم. وهو أول من دعي أمير المؤمنين، وأول من أرخ بالهجرة، وفتح الفتوح، ومصر الأمصار، ووضع الخراج، ودون الدواوين، واستقضى القضاة. لقب بالفاروق لعدله، استشهد وله ستون سنة، وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام. الاستيعاب ق/٣ ص ١١٤٤. الطبقات الكبرى، ج ٣ ص ١٩٠. البداية والنهاية، ج ٣ ص ١٣٣. شذرات الذهب، ج ١ ص ٣٣. المعارف، ص ٧٧.

(٥) هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد بن الحارث كان يسمى في الجاهلية عبد عمرو، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن، ولد بعد الفيل بعشر سين، هاجر الهجرتين، وتوفي سنة ٣١ هـ ،، وهو ابن ٧٥ سنة، ودفن بالبقيع، وصلى عليه عثمان. الاستيعاب ق/ ٢ ص ٨٤٤. =

بذلك يا أميرَ المؤمنين أنتَ أمينُ اللهِ وهم أمناؤُك، فما دمتَ مؤدياً للأمانة أدوها ومتى رَتَعْتَ رَتَعُوا.

وفي بعضِ الآثارِ "الناسُ على دينِ الملك". وهذا معنى قولِه صلى اللهُ عليه وسلَم في كتابِه إلى هرقل عظيمِ الروم: "أسلمْ يؤتِكَ اللهُ أجرَكَ مرتين إنْ أبيتَ فإنَ عليك أثمَ الأريسيينَ" [(١)]. والأريسيونَ الأكاريونَ[(٢)]، قيلَ معناهُ أنَّ الرعيةَ اتباعٌ للملوكْ الخيرِ والشرِ، والإسلامِ والكفرِ، فمتى أبيتَ قبولَ الإسلامِ وتخلفتَ عنه وأقمتَ على الكفرِ، كانَ ذلكَ سببَ تخلفِ رعيتكَ عنْ الإسلامِ وتركهم الدخولَ فيه فيكونَ عليكَ مثلُ أثمهم.

وهذا مثلُ قولي صلى اللهُ عليه وسلَم: "مَن سنَّ سنةً حسنةً كانَ لهُ أجرُها وأجرُ مَنْ عملَ بها إلى يومِ القيامةِ ومنْ سنَّ سنةً سيئةً كانَ عليه وزرُها ووزرُ من عملَ بها إلى يومَ القيامَة". [(٣)] قال رسول الله صلى الله عليه وسلَم: "منْ دعَا إلى هدىً كان لهُ من الأجرِ مثل أجرِ من تَبِعَهُ لا ينقصُ ذلكَ من أجورِهم، ومن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الأثمِ مثلُ آثامِ منْ تبعهُ لا ينقصُ ذلكَ من آثامِهم شيءٌ) [(٤)].

=

المعارف، ص ١٠٣.

(١) كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى هرقل، ذكره الإمام مسلم، في صحيحه كاملاً، ج ٥ ص ١٦٣. البخاري، ج ٤ ص ٥٧. مسند أحمد، م ١ ص ٢٦٣. تاريخ الطبري، ج ٣ ص ١٥٦٥. السيرة الحلبية، ج ٢ ص ٣٦٦.

(٢) الأكار: الحراث/ القاموس المحيط.

(٣) سنن الترمذي، ج ٤ ص ١٤٩، باختلاف في بعض الألفاظ، وقال حديث حسن صحيح. سنن النسائي، ج ٥ ص ٧٦. سنن ابن ماجه، ج ١ ص ٧٤.

(٤) سنن ابن ماجه، ج ١ ص ٧٥. سنن الترمذي، ج ٤ ص ١٤٩. وقال حديث حسن صحيح. سنن أبي داود، ج ٤ ص ٢١٠. صحيح مسلم، ج ٨ ص ٦٢. قوله صلى الله عليه وسلم، لا ينقص ذلك من أجورهم دفع به ما يتوهم أن أجر الداعي إنما يكون بالنقص من أجر التابع وضمه إلى أجر الداعي. وقوله مثل آثام من تبعه لتولده عن فعله والعبد يستحق العقوبة على السبب وما تولد منه.

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلَم: (إن أحبَ الناسِ إلى الله تعالى وأقربَهُم منهُ إمامٌ عادلٌ، وإنَّ أبغضَ الناسِ إلى الله تعالى وأبعدَهُم منهُ وأشدَّهُم عذاباً إمامٌ جائر" [١].

وفي حديث آخرَ "إنَّ أفضلَ عبادِ اللهِ منـ ـزلةً يومَ القيامةِ إمامٌ عادلٌ رفيقٌ، وإن أشرَ عبادِ اللهِ منـ ـزلةً يومَ القيامةِ إمامَ جائرٌ.

وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: (الإمامُ جُنَّةٌ [٢] يقاتَل من وراءه، ويُتَّقَى به فإنْ أمرَ بتقوى اللهِ وعَدَلَ كانَ لَهُ بذلكَ أجرٌ، وإنْ أمرَ بغيره كانَ عليه وزرٌ) [٣].

وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: "ثلاثةٌ يبغضُهم اللهُ الإمامُ الجائرُ والشيخُ الزاني، والفقيرُ المختالُ [٤]. وروتْ عائشةُ، رضيَ اللهُ عنها، قالت: سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ يقولُ في بيتي هذا (اللهمَّ مَنْ وَلِيَ منْ أمرِ أمتي شيئاً فشق عليهم فأشققْ عليه، ومنْ وليَ منْ أمرِ أمتي شيئاً فَرَفَقَ بهم فارفقْ به". [٥] وهذا عامٌ في كلِ وال ولايتُهُ عمتْ أو خصتْ "قَلت أو كثرتْ عظمتْ أو صغرتْ".

وقالَ عليه السلامُ: "إن المقسطينَ عندَ اللهِ على منابرَ من نورٍ عنْ يمينِ العرشِ الذينَ

(١) سنن الترمذي، ج ٢ ص ٣٩٤، وقال حديث حسن غريب. مشكاة المصابيح، ج ٢ ص ١٠٩٤.

(٢) جنة: وقاية/ القاموس.

(٣) البخاري، ج ٤ ص ٦٠. صحيح مسلم، ج ٦ ص ١٧. سنن أبي داود، ج ٣ //ص ٨٢. سنن النسائي، ج ٧ ص ١٥٥- ١٥٦. وإنما كان الإمام جنة، لأنه يقتدي برأيه ونظره في الأمور العظام والوقائع الخطرة، ولا يتقدم عن رأيه، ولا ينفرد دونه بأمر مهم. يقاتل الناس معه الكفار والبغاة وسائر أهل الفساد. وقيل المراد أن يقاتل الناس أمامه، فإن وراء هنا بمعنى إمام، فلا يترك يباشر القتال بنفسه، لما فيه من تعريضه للهلاك، والصحيح أن المراد أن يقاتل على وفق رأيه وأمره فصار كأنهم خلفه.

(٤) ذكر الإمام أحمد، في مسنده الحديث، بكماله، م ٥ ص ١٥٣، ورفعه إلى أبي ذر. سنن الترمذي، ج ٤ ص ١٠٢، وقال حديث صحيح.

(٥) صحيح مسلم، ج ٦ ص ٧. مشكاة المصابيح، ج ٢ ص ١٠٩٠. هذا الدعاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم، على من ظلم رعيته، وعاملهم بالعسف، ودعاء لمن رفق بهم وعاملهم باللطف والرفق، وهو من أبلغ الزواجر عن المشقة.

يعدلونَ في حكمهم وأهليهم وما ولُوا" [١].

وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: (ما منْ أميرٍ عشره إلا جيءَ به يومَ القيامة مغلولةَ يداهُ إلى عنقه، حتى يكونَ عملُهُ هُو الذي يطلقُهُ أو يوبقُهُ". أي يهلكُهُ، وقال عليه السَلامُ: "عَدْلُ ساعة في حكومة خير من عبادة سنة" [٢] وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: "العامل على الصدقة بالحقِ كالغازي في سبيلِ الله حتى يرجعَ إلى بيته" وعنْ أبي ذر [٣]، رحمة اللهُ تعالى، قالَ: قلت يا رسول الله ألا تستعملُني، قال فضرب بيده على منكبي ثم قالَ: "يا أبا ذرٍ إنكَ ضعيفٌ، وإنها أمانةٌ وإنها يومَ القيامة حسرةٌ وندامة، إلا منْ أخذَهَا بحقها وأدى الذي عليه فيها". وفي رواية أخرى أن النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلمَ قالَ لَهُ: "يا أبا ذر إني أراكَ ضعيفاً، وإني أحـ ـبُّ لَكَ ما أحبُ لنفسي لا تأمَرَّن على اثنين ولا تولينَّ على مالِ يتيم"[٤].

(١) صحيح مسلم، ج ٦ ص ٧. مسند أحمد، م ٢ ص ١٦٠. سنن النسائي، ج ٨ ص ٢٢١. يبين الرسول صلى الله عليه وسلم، ما للعادلين عند الله من الأجر والمنـ ـزلة فهم عنده مقربون ولديه مكرمون. والحديث كناية عن حسن حالهم وعلو مرتبتهم.

(٢) سنن أبي داود، ج ٣ ص ١٣٢. مسند أحمد، م ٣ ص ٤٦٥. سنن الترمذي، ج ٢ ص ٧٩، وقال فيه حديث حسن. سنن ابن ماجه، ج ١ ص ٥٧٨.

(٣) هو جندب بن جناده على المشهور، أسلم قديماً بمكة، فكان رابع أربعة أو خامس خمسة، لم يشهد بدراً ولا أحداً ولا الخندق، لأنه حين أسلم رجع إلى قومه، فأقام حتى مضت هذه المشاهد، ثم قدم النبي صلى الله عليه وسلم، ولزمه ثم خرج في خلافة أبي بكر إلى الشام، فلم يزل بها حتى ولي عثمان، رضي الله عنه، فأسكنه الربذة، فمات بها سنة ٣٢ هـ .، وصلى عليه عبد الله بن مسعود. الاستيعاب، ق/ ١ ص ٢٥٢. الطبقات الكبرى، ج ٢ ص ١١٢. البداية والنهاية، ج ٧ ص ١٦٤.

(٤) صحيح مسلم، ج ٦ ص ٧. سنن النسائي، ج ٦ ص ٢٥٥. ووجه ضعفه أن الغالب عليه كان الزهد واحتقار الدنيا، ومن هذا حاله لا يعتني بمصالح الدنيا وبأموالها، الذين بمراعاتهما تنتظم مصالح الدين ويتم أمره. وقد كان أبو ذر أفرط في الزهد في الدنيا، حتى انتهى به الحال إلى أن يفتي بتحريم الجمع للمال وإن أخرجت زكاته، فلما علم منه النبي صلى الله عليه وسلم هذه =

وعن المقدام بن معدي كرب [١] أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلَم ضربَ على منكبه ثمَّ قالَ: "أفلحتْ يا مقدامُ إن لمْ تكن أميراً ولا كاتباً ولا عريفاً" [٢].

وروي أن رجلاً قالَ لرسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلمَ إن أبي شيخٌ كبيرٌ وهو عريفُ الماءِ [٣] وهو يسألُكَ أن تجعلَ العرافة لي بعدَهُ قالَ صلى اللهُ عليه وسلمَ: "إن العرافةَ حقٌ، ولا بدَ للناسِ من العرفاءِ ولكنَّ العرفاءِ في النارِ".

وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: «لا يدخلُ الجنةَ صاحبُ مكسٍ». وسنذكرُ إنْ شاءَ اللهُ فيما بعدُ ما وردَ من ألفاظِ الحكماءِ والبلغاءِ في مدحِ العدلِ وذمِ الجورِ في بابٍ مفردٍ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

=

الحالة، نصحه ونهاه عن الإمارة، وعن ولاية مال اليتيم، وأكد النصيحة ببيان حبه له.

(١) هو المقدام بن معدي كرب الصحابي الزبيدي الكندي، أحد الوفود الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من كنده، وبالشام مات سنة ٨٧ هـ .، وهو ابن ٩١ سنة. الاستيعاب، ق/ ٤ ص ١٤٨٢. شذرات الذهب، ج ١ ص ٩٨. البداية والنهاية، ج ٩ ص ٧٣.

(٢) سنن أبي داود، ج ٣ ص ١٣١. السنن الكبرى، ج ٦ ص ٣٦١. مشكاة المصابيح، ج ٢ ص ١٠٩٤.

(٣) العريف: النقيب وهو دون الرئيس والجمع عرفاء/ مختار الصحاح.

بابٌ في ذكرِ ما يجب على الرعيةِ للولاةِ من الطاعةِ وما يكرهُ لها منَ (المعصيةِ) والخروجِ عليهم ومفارقةِ الجماعةِ

قالُ الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَطيعُوا اللهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولي الأَمْرِ منْكُمْ** ﴾ (١) فأوجبَ طاعةَ أولي الأمرِ (وَقَرَنَهَا) بطاعتهِ وطاعةِ رسوله. وقد فَسَّرَ ذلكَ أكثرُ أهلِ العلمِ، بأن المرادَ بأولي الأمرِ أمراءُ المسلمينَ. وروىَ ذلكَ عن أبي هريرَة (٢)، وابنِ عباس (٣) (رضيَ اللهُ عنهما)، وزيدِ بنِ أسلمَ (١) (رضيَ اللهُ عنهُ). وهوَ اختيارُ أكثرِ

(١) آية ٥٩ من سورة النساء وهي مدنية.

(٢) أبو هريرة: هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي على الأشهر. كناه الرسول صلى الله عليه وسلم بأبي هريرة، أسلم عام خيبر وشهدها مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم لزمه وواظب على الصحبة. وكان من أحفظ الصحابة، روى عنه أكثر من ثمان مائة رجل، من صاحب وتابع استعمله عمر على البحرين، ثم عزله ثم أراده على العمل فأبى عليه ولم يزل يسكن المدينة، وبها كانت وفاته سنة ٥٨ هـ . وصلى عليه الوليد بن عقبة بن أبي سفيان وله من العمر ٧٨ سنة/ الاستيعاب، ق ٤ ص ١٧٨٨؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٥١؛ الطبقات الكبرى، ج ٤ ص ٥٢؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٦٣؛ البداية والنهاية، ج ٨ ص ١٣.

(٣) عبد الله بن عباس: هو أبو العباس عبد الله بن عباس، حبر الأمة وترجمان القرآن، وابن عم رسول

العلماء.

وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: "مَنْ أَطَاعَني فَقَدْ أَطَاعَ الله، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عصى اللهَ، ومنْ أَطَاعَ الأميرَ فَقَدْ أطاعَني وَمَنْ عَصَى الأميرَ فقدْ عصاني" (٢).

وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: "لو استعملَ عليكم عبدٌ حبشيٌّ مجدعُ الأطراف يقودُكم بكتابِ اللهِ فاسمعُوْا لَهُ وأطيعُوا" (٣). وَعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصامت (١) قَالَ: "بَايعْنَا

=

الله صلى الله عليه وسلم وأبو الخلفاء العباسيين. ولد في شعب بني هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين، ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم "اللهم علمه التأويل وفقه في الدين وكان عمر بن الخطاب يدعوه للمعضلات ثم لا يتجاوز قوله، شهد مع علي الجمل وصفين وقد استنابه على البصرة، وأقام للناس الحج في بعض السنين، توفي بالطائف سنة ٦٨ هـ ./ الاستيعاب، ق ٣ ص ٩٣٣؛ الطبقات الكبرى، ج ٢ ص ١١٩؛ البداية والنهاية، ج ٨ ص ٢٩٥؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٨٢.

(١) هو زيد بن أسلم بن ثعلبة بن عدي العجلاني الأنصاري، حليف لبني عمرو بن عوف. شهد بدراً واحداً، وهو ابن عم ثابت بن أقرم. الاستيعاب، ق ٢ ص ٥٣٦.

(٢) صحيح البخاري، ج ٤ ص ٦٠؛ صحيح مسلم، ج ٦ ص ١٣؛ مسند أحمد وفيه ورد الحديث كاملاً، م ٢ ص ٢٥٣؛ السنن الكبرى، م ٨ ص ١٥٥؛ سنن ابن ماجه، ج ٢ ص ٩٥٤؛ مسند الحميدي، ج ٢ ص ٤٧٧؛ مشكاة المصابيح، ج ٢ ص ١٠٨٥ وقوله صلي الله عليه وسلم من أطاعني فقد أطاع الله مقتبس من قوله تعالى: ﴿ **مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ** ﴾ الذي أمر بالأمر ابتداء. ولأنه صلى الله عليه وسلم إنما يحكم نيابة عن الله، وكذا الإمام يحكم نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقد ذكر الخطاب سبب اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بشأن الأمراء، حتى قرن طاعتهم إلى طاعته، فقال كانت قريش ومن يليهم من العرب لا يعرفون الإمارة، ولا يدينون لغير رؤساء القبائل فلما كان الإسلام وولى عليهم الأمراء، أنكرت ذلك نفوسهم وامتنع بعضهم من الطاعة، فأعلمهم الرسول أن طاعتهم مربوطة بطاعته ومعصيتهم بمعصيته حثاً لهم على طاعة أمرائهم لئلا تتفرق الكلمة/ فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ج ١٣ ص ١١٢.

(٣) صحيح مسلم، ج ٦ ص ١٤- ١٥؛ سنن النسائي، ج ٧ ص ١٥٤؛ السنن الكبرى، م ٨ ص

رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ على السمعِ والطَاعةِ، في منشطنا ومكرهِنا، وعسرِنا ويسرِنا، وأثرةٍ [٢] علينا وأن لا ننازَع الأمرَ أهْلَهُ، إلا أن تَروا كفراً بَواحاً، عندكمْ من اللهِ فيه برهان" [٣].

وَعَنِ ابنِ مسعودٍ [٤] قالَ: قالَ رسول اللهِ صلى اللهِ عليهِ وسلَم: "إنها ستكون بعدي =

٥٥؛ سنن ابن ماجه، ج ٢ ص ٩٥٥؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ١٢٥، وقال هذا حديث حسن صحيح، قد روي من غير وجه، مشكاة المصابيح، ج ٢ ص ١٠٨٥، والمعنى لو استعمل عليكم أي جعل عاملاً عليكم، بأن جعل الخليفة بعض عبيده أميراً عليكم فاسمعوا وأطيعوا. ولا يرد أن العبد لا يصلح للخلافة فالمطلوب هنا المبالغة وقوله يقودكم بكتاب الله أي يحملكم على مقتضاه، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة.

(١) هو عبادة بن الصامت بن قيس الخزرجي الأنصاري. يكنى أبا الوليد شهد العقبة الأولى، والثانية والثالثة، وكان أحد النقباء آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبي مرثد الغنوي، وشهد بدراً والمشاهد كلها تولى قضاء الشام لعمر، فأقام بحمص ثم انتقل إلى فلسطين ومات بها، ودفن ببيت المقدس. وهو ابن ٧٢ سنة وذلك سنة ٣٤ هـ .، الاستيعاب، ق ٢ ص ٧٠٨؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ٩١.

(٢) الأثرة: استأثر بالشيء استبد به والاسم الأثرة بفتحتين مختار الصحاح.

(٣) البخاري، ج ٩ ص ٥٩؛ صحيح مسلم، ج ٦ ص ١٦- ١٧؛ سنن النسائي، ج ٧ ص ١٣٨-١٣٩؛ السنن الكبرى، ج ٨ ص ١٤٥؛ مشكاة المصابيح، ج ٢ ص ١٠٨٦، والحديث يرشد إلى ما بايعت الصحابة عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، من السمع والطاعة في حالة النشاط والكراهة، والعسر واليسر، وأن لا ينازعوا الأمر أهله أي لا تنازع من ولى الامارة من كان أهلا لها، من أئمة العدل ومن على شاكلتهم، إلا أن تروا كفراً بواحاً أي جهاراً عندكم من الله فيه حجة بينه، من نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل. ومقتضاه عدم جواز الخروج ما دام فعلهم يحتمل التأويل/ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣ ص ٨.

(٤) عبد الله بن مسعود: هو عبد الله بن مسعود بن غافل، يكنى أبا عبد الرحمن، شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً، وبيعة الرضوان وجميع المشاهد وكان على قضاء الكوفة، وبيت مالها =

أثرةٌ، وأمورٌ تنكرونها، قالوا يا رسولَ اللهِ فما تأمرُ مَنْ أدركَ ذلكَ قال تؤدونَ الحقَ الذي عليكمْ وتسألون اللهَ الذي لكمْ" (١).

وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ للأنصارِ: "إنكمْ ستلقونَ بعدي أثرةً، فاصبروا حتى تلقوني على الحوضِ" (٢).

وعن حذيفَة بن اليماني (٣) أن رسولَ اللهِ صلي اللهُ عليه وسلَم قالَ: "تكونُ بعدي أئمةٌ لا يهتدونَ بهداي ولا يستنونَ بسنتي، وسيقومُ فيهم رجالٌ قلوبُهُم قلوبُ الشياطينِ في جثمانِ إنْسٍ قالَ: قلتُ كيفَ أصنعُ يا رسولَ اللهِ إنْ أدركتُ قالَ: تسمعُ وتطيعُ، وإنْ ضربَ ظهرُك وأخذَ مالُكَ فاسمَعْ وأطِعْ" (٤). وقالَ صلى الله عليه وسلَم: "مَنْ خَرَجَ من

=

لعمر وصدراً من خلافة عثمان، كان من أقرأ الصحابة للقرآن، قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أراد أن يقرأ القرآن غضاً كما نزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد" توفي سنة ٣٢ هـ .، وهو ابن بضع وستين سنة ودفن بالبقيع/ الاستيعاب، ق/ ٣ ص ٩٨٧؛ المعارف، ص ١٠٩.

(١) صحيح البخاري، ج ٩ ص ٥٩، صحيح مسلم، ج ٦ ص ١٧- ١٨؛ السنن الكبرى، م ٨ ص ١٥٧؛ وهذا الحديث من معجزات النبوة فإنه صلى الله عليه وسلم أخبر عن ذلك بما أوتي من الغيب، وفيه الحث على السمع والطاعة، وإن كان المتولي ظالماً عسوفاً، فيعطى حقه من الطاعة ولا يخرج عليه ولا يخلع بل يتضرع إلى الله تعالى في كشف أذاه ودفع شره وإصلاحه / صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٢ ص ٢٣٢.

(٢) البخاري، ج ٥ ص ٤١؛ صحيح مسلم، ج ٦ ص ١٩؛ السنن الكبرى، م ٨ ص ١٥٩؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ٣٢٦؛ وقال هذا حديث حسن صحيح، سنن النسائي، ج ١ ص ٢٢٥.

(٣) "حذيفة بن اليماني: هو حذيفة بن اليماني العبسي. واسم اليماني حسيل بن جابر، يكنى أبا عبدالله العبسي صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عمر يسأله عن المنافقين فإذا لم يشهد جنازة أحد لم يشهدها عمر، شهد أحداً توفي سنة ٣٦ هـ .. الاستيعاب، ق / ١ ص ٣٣٤؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٤٤؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٠٢؛ المعارف، ص ١١٤.

(٤) صحيح مسلم، ج ٦ ص ٢٠؛ السنن الكبرى، م ٨ ص ١٥٧، وقال الدارقطني أنه مرسل، لأن

الطاعة وفارقَ الجماعةَ ثم ماتَ ماتَ ميتةً جاهليةً، وَمَنْ قاتلَ تحتَ راية عُمية [١] يغضب للعصبية ويقاتلُ للعصبية، فليسَ مني، وَمَن خَرَجَ مِنْ أمتي يضربُ بَرَّهَا وفَاجِرَها ولا يتحاشَى لمؤمنها ولا يفي لذي عَهْدِهَا فليسَ مني، [٢]. وقالَ صلى اللهُ عليه وسلَم:

"مَنْ رأى مِنْ أميرِه ما يكوهُ، فليصبرْ فإنهُ منْ فارقَ الجماعةَ شبراً فمات فميتةٌ جاهليةٌ" [٣].

=

راويه عن حذيفة هو أبو سلام وهو لم يسمع من حذيفة لكن المتن صحيح، ويخبر الرسول، صلى الله عليه وسلم بمن أوتي من الغيب عن حال أئمة الجور الذين يحيدون عن الحق ولا يهتدون بنور النبوة وحال بطانتهم الذين يحببون لهم المعاصي ويزينون لهم المنكر، فيقومون بدور الشياطين. وبين ما يجب على المسلم عندها من سمع وطاعة ما دام الأمر لم يصل إلى الكفر البواح.

(١) عمية: هي بضم العين وكسرها لغتان مشهورتان والميم مشددة والياء مشددة أيضاً وهي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه.

(٢) صحيح مسلم، ج ٦ ص ٢١؛ السنن الكبرى، م ٨ ص ١٥٦؛ مسند أحمد، م ٢ ص ٢٩٦؛ مشكاة المصابيح، ج ٢ ص ١٠٨٦، بين الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن من خرج عن طاعة إمامه وفارق جماعة الإسلام، فمات على تلك الحال من منابذة الإمام والمسلمين مات ميتة جاهلية، فإنهم كانوا شيعة وأحزاباً متفرقة لا يطيعون أمير، ولا ينضمون إلى جماعة واحدة، بل عصائب متنازعة يقاتل بعضهم بعضاً. ومثله في الضلالة والغواية من قاتل تحت راية اجتمع أهلها على أمر مجهول، لا يعرف أنه حق أو باطل يدعون إليه ويقاتلون لأجله، من غير بصيرة أو حجة. ثم يؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم، هذا المعنى ويبين أن من شق عصا الطاعة، وخرج على أمة الإسلام لا يبالي بما يفعل، يؤذي البر والفاجر دون تفريق بين تقي وشقي ولا يفي لذي عهد بما عاهد، وينقص عهد أهل الذمة يقتلهم وأخذ أموالهم، فقد أخرجه الرسول صلى الله عليه وسلم من جماعة المؤمنين، بقوله ليس مني، أي ليس من أمتي أو ليس هو على طريقي وسنتي/ صحيح مسلم، شرح النووي، ج ١٢ ص ٢٣٨- ٢٣٩.

(٣) صحيح البخاري، ج ٩ ص ٥٩؛ صحيح مسلم، ج ٦ ص ٢١؛ السنن الكبرى، م ٨ ص ١٥٧؛ سنن الدارمي، ج ٢ ص ٢٤١؛ مشكاة المصابيح، ج ٢ ص ١٨٦، قوله فليصبر أي على جوره

=

وَعَنْ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنهُ قالَ إذا كانَ الإمامُ عادلاً فلهُ الأجرُ وعليكم الشكرُ وإنْ كانَ جائراً فعليكُم الصبرُ وعليه الوزرُ.

وفي الحديث: "مَنْ نزعَ يَدَهُ منَ الطاعة لمْ يكنْ لَهُ حجةٌ يومَ القيامة"(١) وفي آخرَ: "مَنْ فارقَ الجماعةَ واستذلَ الامارةَ لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ ولا وَجْهَ لُهُ عندهُ (٢). وفي حديث آخرَ: "مَنْ أَهانَ سلطانَ اللهِ أهانَهُ اللهُ ومنْ أكرَمَ سُلطانَ اللهِ أكرَمَهُ اللهُ" (٣). قلتُ: ليسَ المرادُ بما وردَ في هذه الأخبارِ أن نطيعَهُ في المعصية إذا أَمَر بها، ونقتديَ فيه بها. بل المرادُ به أنَّ السلطانَ إذا فسقَ وجارَ، لم يخرجْ بذلك عَنْ أَنْ تكونَ طاعتُهُ واجبةً، في سائرِ الأحكامِ التي لا معصيةَ فيها.

بلْ تجبُ مخالفتُهُ في المعصيةِ وطاعتُهُ في (الأمور اللازمة). قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَم: (على المرءِ المسلمِ السمعُ والطاعةُ، فيما أحبَّ وكرِه الا أن يؤمَر بمعصيةٍ، فلا سمعَ ولا طاعةَ) (٤).

=

وظلمه والأمر بالصبر يستلزم وجوب السمع والطاعة، وقوله ميتة جاهلية أي كالميتة الجاهلية حيث لا يرجعون إلى طاعة أمير، ولا يتبعون هدى إمام، بل كانوا مستنكفين عن ذلك مستبدين في الأمور لا يجتمعون في شيء ولا يتفقون على رأي وليس المراد أنه يكون كافراً بذلك/ إرشاد الساري، لشرح صحيح البخاري، ج ١٠ ص ٢٢٠.

(١)صحيح مسلم، ج ٦ ص ٢٢؛ باختلاف لفظي يسير، مسند أحمد، م ٢ ص ٧٠؛ مشكاة المصابيح، ج ٢ ص ١٠٨٨، يدل الحديث على أن من نازع إمامه حتى خرج عليه ونزع نفسه من طاعته لم يكن له حجة في فعله ولا عذر له ينفعه مهما كانت الأسباب كشف هذا حرصاً على سلامة الأمة واجتماعها/ صحيح مسلم، بشرح النووي، ج ١٢ ص ٢٤٠.

(٢) مسند الإمام أحمد، م ٥ ص ٣٨٧؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج ٢ ص ١٧٨؛ مجمع الزوائد، م ٥ ص ٢٢٢، وقال ورجاله ثقات.

(٣) سنن الترمذي، ج ٣ ص ٣٤١، وقال هذا حديث حسن غريب؛ مجمع الزوائد، ج ٥ ص ٢٥١؛ مسند أحمد، م ٥ ص ٤٢.

(٤) البخاري، ج ٩ ص ٧٨؛ صحيح مسلم ج ٦ ص ١٥؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ١٢٥- ١٢٦؛ =

وقالَ، عليه الصلاةُ والسلامُ: (لا طاعةَ لمخلوقَ في معصيةِ الخالقِ) [١].

وفي حديث آخرَ: (منْ أمركم من الولاةِ بغيرِ طاعة الله فلا تطيعُوه) [٢].

وروِيَ أن النبيَ صلىَ اللهُ عليه وسلمَ بعثَ جيشاً، وأمَّرَ عليه رجلاً وَأَمرهُمْ أنْ يسمعُوا لَهُ ويطيعُوا، فأغضبُوه في شيءٍ فقالَ اجمعُوا حطباً فجمعُوا، ثمَّ قالَ: أوقدُوْا ناراً فأوقَدُوا ثمَّ قالَ: ألمْ يأمُرْكُمْ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ أنْ تسمعُوا لِي وتطيعُوا، قالوا بلَى قالَ فادْخُلوها قالَ فَنَظَرَ بعضُهم إلى بعض، وقالوا: إنما فَرَرْنَا إلى رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلمَ منَ النارِ، وكانوا كذلكَ حتى سَكَنَ غَضَبُهُ وطُفئَت النارُ، فلمّا رَجَعُوا إلى رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلمَ ذَكَرُوا ذلكَ لَهُ، فقالَ: لو دَخَلُوهَا ما خرجُوا منها إنما الطاعةُ في المعروفِ [٣].

=

وقال حديث حسن صحيح: سنن ابن ماجه، ج ٢ ص ٩٥٦؛ السنن الكبرى، م ٨ ص ١٥٦؛ مسند أحمد م ٢، ص ١٧؛ سنن النسائي، ج ٧ ص ١٦٠. يقرر الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن طاعة ولاة الأمر مقيدة بحدود الشرع، محدودة بطاعة الله ورسوله. وبناء على هذا فإنه يحرم على الرعية وأفرادها عصيان أمر الحاكم المسلم ما دام في تلك الحدود فإذا أمر بخلافها وخرج عن حدود ما رسم الله ورسوله، فلا طاعة له لأن الأصل فيه أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر.

(١) مسند أحمد، م ١ ص ٤٠٩.

(٢) سنن ابن ماجه، ج ٢ ص ٩٥٦؛ ونقل عن الزوائد أن اسناده صحيح بعد أن قرر الإسلام أن الطاعة حق على المرء المسلم بين حدود هذه الطاعة، وأنها لا تجب في المعصية. فتحمل الأحاديث المطلقة لوجوب الطاعة على الأحاديث المصرحة بأنه لا سمع ولا طاعة في المعصية. صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٢ ص ٢٢٤ – ٢٢٥.

(٣) صحيح البخاري، ج ٩ ص ٧٩؛ صحيح مسلم، ج ٦ ص ١٥؛ سنن ابن داو، ج ٣ ص ٤٠؛ مسند أحمد، م ١ ص ٨٢؛ سنن ابن ماجه، ج ٢ ص ٩٥٦؛ السنن الكبرى، م ٨ ص ١٥٦؛ سنن النسائي، ج ٧ ص ١٥٩، قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الطاعة في المعروف، دليل عل أن من أطاع ولاة الأمر، في معصية الله كان عاصياً وإن ذلك لا يمهد له عذراً عند الله، بل المعصية =

عَنْ أم سلمةَ [١] رضيَ اللهُ عنها أنَ رسول الله صلى الله عليه وسلَم قالَ: "تستعملُ عليكُم أمراءٌ فتعرفونَ وتنكرونَ، فمن كَرِه فقدْ برئَ، ومَنْ أنكرَ فقدْ سلمَ، لكنْ من رضيَ وتابع، قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلُهُم قال لا ما صَلُّوا" [٢]. وقال عليه الصلاةُ والسلامُ: "خيارُ أَئمَّتكُم الذينَ تحبونَهم ويحبونَكم، وتصلونَ عليهم ويصلون عليكمْ، وشرارُ أمرائكُمُ الذينَ تبغُضونَهُم ويبغضُوْنكم، وَتَلْعَنُونهُم وَيَلْعَنونَكُم، قيلَ: يا رسولَ الله أفلا ننابذُهُمْ بالسيف، قالَ: لا ما أَقامُوا فيكُمْ الصلاةَ، فإذا رأيتمْ من ولاتكمْ شيئاً تكرهونَه فاكْرَهُوا =

لاحقة له وإن كان لولا الأمر لم يرتكبها، وعلى هذا يدل الحديث/ عون المعبود، شرح سنن أبي داود، ج ٧ ص ٢٩٠.

(١) أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، زوج النبي• • كانت قبله، عليه السلام، عند أبي سلمة بن عبد الأسد، فولدت عمر، ودره، وزينب، وهي أول ضعينة دخلت المدينة مهاجرة، شهدت مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة خيبر وطال عمرها وهي آخر أمهات المؤمنين وفاء. الاستيعاب، ق/٤ ص ١٩٣٩؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٦٩- ٧٠؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٥٥- ١٥٦.

(٢) صحيح مسلم، ج ٦ ص ٢٣، وقد ورد باختلاف لفظي يسير: مجمع الزوائد، ج ٧ ص ٢٣٠؛ السنن الكبرى، م ١٠ ص ٦٥٨؛ مشكاة المصابيح، ج ٢ ص ١٠٨٧؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ٣٦١؛ هذا الحديث فيه معجزة ظاهرة بالأخبار بالمستقبل. ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم، فيه حال المسلم، مع أئمة يخلطون عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فيستحسن بعض أعمالهم، ويستقبح بعضها. فمن عرف المنكر و لم يشتبه عليه، فقد صارت له طريق إلى البراءة من أثمه وعقوبته، بأن يغير ذلك باليد أو باللسان إن قدر، فإن عجز فلا مناص من أن يكره ذلك المنكر من قلبه، حتى يسلم من مشاركتهم في أثمه وجرمه، أما من رضي بفعلهم بقلبه وتابعهم عليه بالعمل، فإنه لم يبرأ عند الله و لم يسلم من طائلة عقابه. وفي الحديث دليل على أن من عجز عن إزالة المنكر، لا يأثم بمجرد السكوت بل إنما يأثم بالرضى به والمتابعة عليه. وقوله صلى الله عليه وسلم عندما قالوا: (أفلا تنابذهم بالسيف قال لا ما صلوا). فيه أنه لا يجوز الخروج على الأئمة بمجرد الفسق والجور ما لم يغيروا شيئاً من قواعد الإسلام. صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٢ ص ٢٤٣.

عَمَلَهُ، ولا تنزعُوا يداً منَ الطاعة»[١].

وقالَ عليه الصلاة والسلامُ: "سيكونُ بعدي امراءُ فَمَنْ دَخَل عليهم فصدَّقَهم في كَذبِهم، وأعانَهم على ظلمِهم، فليس مِني ولستُ منهُ وليسَ بوارد على الحوضَ، ومن لم يدخلْ عليهم ولم يُعِنْهُم على ظلمِهم، ولم يصدِّقْهُم على كذبِهم فهوَ مني وأنا منهُ، وهو واردُ على الحوض" [٢].

فهذه الأحاديثُ تَدُلُّكَ على أنه يجبُ على المرءِ كراهةُ ما أحدَثُوا منْ بدعة، وتركُ موافقتِهم على مخالفةِ السنَّة، والامتناعُ عن طاعتِهم في المعصيةِ مع الانكفاءِ عن الخروج عليهم، وملازمةِ جماعتهم في الطاعة، وامتثالِ أوامرِهم في المباحِ، والانقيادِ لأحكامِهم في المعروف، فيستديمُ بذلكَ سلامةُ دينِه وصلاحُ دنياهُ وحقنُ دمِه وحفظُ مالِه وحياتِه وعرضِه.

وقالَ بعضُ الحكماء: من عصَى السلطانَ فقدْ أطَاعَ الشيطانَ. وقالَ بعضُ الكتاب: من نَابَذَ [٣] السلطانَ، كانَ في الأشقينِ مكتوباً (والندم والغم) مكتوباً. وقال آخر: منْ

(١) صحيح مسلم، ج ٦ ص ٢٤؛ صحيح البخاري ج ٩ ص ٤٧؛ السنن الكبرى، م ٨ ص ١٥٨؛ مشكاة المصابيح، ج ٢ ص ١٠٨٧؛ ويرشد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن خيار الحكام هم القربون إلى رعيتهم، الحريصون على إقامة العدل بينهم، الداعين لهم بالخير. وإن أشرارهم الذين يقسون على رعاياهم. كما ويحذر الرسول من خطر الخروج والمنابذة لما قد يجره من مفاسد لا يعلم مداها إلا الله.

(٢) مسند أحمد، م / ٢ ص ٩٥؛ السنن الكبرى، م ٨ ص ١٦٥؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ٣٥٨؛ وقال هذا حديث صحيح غريب؛ سنن النسائي، ج ٧ ص ١٦١. يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أمته بالحال التي سيصير إليها ولاة الأمور بعده ويحذر من مخالطتهم وتصديقهم وإعانتهم، على ظلم العباد وتزيين الظلم لهم، فمن هذه الحالة فالموالاة بينه وبين الرسول مقطوعة. ومن لم يصدقهم في كذبهم ولا أعانهم على الظلم فهو من المسلمين، الذين وعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يشربوا من حوض الكوثر، الذي من شرب منه لا يظمأ بعدها أبداً.

(٣) نبذت الأمر: أهملته ونابذتهم خالفتهم، ونابذتهم الحرب كاشفتهم إياها وجاهرتهم بها/ المصباح

فارقَ الاعتصامَ بحبله حالفهُ الخسرانُ، وعانَقَهُ الخذلانُ، وترصدتْ له المَنُوْنُ [١] وَطَحَنَتْهُ الحربُ الزبون [٢]. ومن كتاب المبهج [٣] أَخْلِقْ بدمِ المستخف بالجبابرة أن يكونَ دمُهُ جهاراً. وقال بعضهم: من تعرضَ لمساوئ سلطانه، تعرض لقطع لسانه.

بابٌ في ذكرِ مجامعِ
ما يجبُ أَنْ يتصفَ به الملكُ منَ الطرائقِ الجميلةِ،
والمذاهبِ النبيلةِ والشيمِ الزكيةِ والسيرِ المرضيةِ

قالَ بعضُ الحكماءِ: السلطانُ ظلُّ اللهِ في أرضه [٤]، والحاكمُ في حدودِ دينه وفرضه قد حصنه اللهُ بإحسانه وأشركهُ في سلطانه ونَدَبَهُ لرعايةِ خلقه ونَصَّبَهُ لنصرةِ حقه إنْ أطاعهُ في أوامره ونواهيه تكفلَ بنصرته وحراسته وإنْ عصاهُ فيهما وَكَلَهُ إلى نَفْسه.

ومَنْ مَكَّنَهُ اللهُ في أرْضه وبلاده، وائتَمَنَهُ في خَلْقه وعباده وبسطَ يَدَهُ وسلطانَه وَرَفَعَ محلَّهُ ومكانَه، فحقيقٌ عليه أن يؤديَ الأمانةَ ويخلصَ الديانةَ ويجملَ السيرةَ ويحسنَ السريرةَ ويجعلَ العدلَ دأبَهُ المعهودَ، والأجرَ غَرَضَهُ المقصودَ.

وقالَ بعضُ الحكماءِ: إذا بَنَى الملكُ على قواعدِ العدلِ، ودعمَ بدعائمِ الفضلِ، وحصنَ بدوامِ الشكرِ، وحرسَ بأعمالِ البرِ، نَصَرَ اللهُ مواليَهُ وخَذَلَ معاديَه، وعضدهُ وسلَّمه من الغيرِ.

=

المنير.

(١) المنون: المنبه لأنها تقطع المدد وتنقص العدد/ مختار الصحاح.

(٢) الزبون: الحرب الضروس لأنها تدفع الأبطال عن الأقدام خوف الموت لأن الزين لغة الدفع فزينت الشيء زينًا إذا دفعته. وقيل للمشتري زبون لأنه يدفع غيره عن أخذ المبيع/ المصباح المنير.

(٣) المبهج: كتاب ألفه عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري المعروف بالثعالبي. ألفه للأمير شمس المعالي قابوس بن أبي طاهر جمع فيه ألفاً من الجمل تجري مجرى الأمثال رتبه على سبعين باباً.

(٤) يشير بذلك إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم".

وقالَ: اعدلْ فيما وليتَ واشكرْ على ما أوتيتَ، يمدكَ الخالقُ وتؤيدُكَ الخلائقُ. ليسَ من قُوَّتكَ وإن تَمت فضلٌ على قضاءِ حقِّ الله عليكَ ولا لقدرتكَ وإن دامتْ فضلٌ على القيام بشكرِ ما أسداهُ إليك، ولا لعُمُرِكَ وإنْ طالَ فضلٌ عنِ النظرِ فيما يصلحُ جندَك ورعيتَك، ولا لمَالكَ وإن كثرَ قدرٌ عما يصونُ عرضَك ومروءتَك [١]. فاجعلْ أيامَك أربعةً، يوماً (تجعلُهُ) لحسنِ العبادة، ويوماً تستقبلُهُ بشكرِ النعمة منهُ، ويوماً تقصرُهُ على النظرِ في القَصَصِ والمظالمِ، ويوماً تمضيْه في ابتناءِ المعالي والمكارمِ.

وقالَ بعضُ الحكماءِ: مَنْ جَعَلَ مُلْكَهُ خادماً لدينه، انقادَ لَهُ كلُّ سلطانٍ ومَنْ جَعَلَ دينَه خادماً لملكه، طَمِعَ فيه كل إنسان.

وقالَ ابرويز [٢]: أطعْ مَنْ فَوْقَكَ يُطِعْكَ من دُوْنَكَ.

وقال اردشيرُ [٣]: أسعدُ الملوكِ من سعدتْ رعيتُهُ بعدله، ونَالَها الرفاهيةُ في أيامه، وَجَرَتْ لَهُ صوالحُ السنينَ في دهرِه، وأشقاهُمْ مَنْ كانَ بخلافِ ذلكَ. وقالَ: الناسُ ثلاثُ طبقاتٍ تجبُ سياستُهُم في ثلاثِ سياساتٍ منهم. طبقةٌ من الخواصِ الأعيانِ تسوسُهُم بمحضِ اللطفِ والإحسانِ وطبقةٌ من العوامِ الأوساطِ تسوسُهم منَ العنفِ واللطفِ ما بينَ الاقتصادِ والإفراطِ وطبقةٌ من العوامِ والأطرافِ تسوسُهم بمحضِ الغلظةِ والاعتسافِ.

وقالَ أيضاً: على الملكِ أن يأخذَ نفسَه بثلاثٍ: تعجيلِ مكافأةِ المحسنِ على إحسانِه،

(١) يشير بذلك إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق". الجامع الصغير، ج ١ ص ١٠١.

(٢) ابرويز: هو ابرويز بن هرمز، أحد ملوك الفرس، تولى الملك بعد خلع أبيه. غزا الشام وبلغ مصر وحاصر ملك الروم بالقسطنطينية، ثم صالحه. جار وأخذ أموال الناس وسفك الدماء فمقته الناس وخلعوه وجاءوا بابن له يقال له شيرويه. وكان ملك ابرويز ٣٨ سنة. المعارف، ص ٢٩٣؛ تاريخ اليعقوبي، م ١ ص ١٦٨-١٧٢.

(٣) اردشير بن بابك بن ساسان، أحد ملوك الطوائف على أرض اصطخر وهم من أولاد الملوك المتقدمين. ولد بقرية اسمها طبروده من رستاق اصطخر، وسمي اردشير شاهنشاه، بنى ثمان مدن ولم يزل محمود السيرة عادلاً، وكانت مدة ملكه أربعة عشر سنة وستة أشهر. المعارف، ص ٢٨٥-٢٨٦؛ تاريخ اليعقوبي، م ١ ص ١٥٩.

وتأجيلِ عقوبةِ العاصِ على عصيانه، والأناةِ عند طوارقِ الدهرِ وحدثانه، فإن في تعجيلِ مكافأةِ المحسنِ شحذَ الضمائرِ على الطاعة، وفي تأجيلِ عقوبةِ العاصي إمكانَ العفوِ والإقالةِ ومراجعةِ التوبةِ والندامة، وفي الأناةِ عندَ الطوارقِ انفساحُ مذاهبِ الرأيِ والسياسةِ وإيضاحُ غوامضِ السدادِ والإصابة. وقالَ أيضاً: لا يصلحُ لسدِ الثغورِ وقودِ الجيوشِ وتدبيرِ الخيولِ، وحراسةِ الأرضينَ والأقاليمِ، إلا من تكاملتْ فيه خمسُ خصالٍ، حزمٌ يتيقنُ به عندَ مواردِ الأمورِ حقائقَ مصادرِها، وعلمٌ يحجزُهُ عن التهورِ في المشكلاتِ إلى عندِ تجلي فرصِها، وشجاعة لا تنقصها الملمات بتواترِ حوائجِها وعظمِ هولها، وصدق في الوعيدِ والوعدِ يوثقُ منه بالوفاءِ عليها وجودٌ يهونُ عندَهُ تدبيرِ الأموالِ عندَ ازدحامِ السؤالِ عليه.

وقالَ أيضاً: لا ينبغي للملكِ أن يكونَ فيه خمسُ خصالٍ لا يكونْ كذاباً لأنهُ إنْ وَعَدَ أو أوعدَ لم يُرْجَ ولم يُخَفْ، ولا ينبغي أَنْ يكونَ بخيلاً فإنه إنْ كانَ كذلكَ لم يناصحْهُ أحدٌ، ولا تصلحُ الولايةُ إلا بالمناصحة، ولا ينبغي أَنْ يكونَ جباناً فإنه إنْ كانَ كذلك اجترءَ عليه عَدُوُّه وضاعَتْ الأمورُ ولا ينبغي أن يكونَ حديداً فإنه إنْ كانَ كذَلكَ مَعَ القدرةِ هَلَكَ الناسُ مَعَه ولا ينبغي أن يكونَ حسوداً فإنه إنْ كانَ كذلك لم يشرفْ أحداً ولا يصلحُ الناسُ لا بأشرافهم.

وقالَ أيضاً: خيرُ الملوكِ من أشبهَ النسرَ حولَهُ الجيفُ، وشرُّهُم من أشبهَ الجيفَ حولها النسورُ.

وقالَ بعضُ البلغاءِ: أربعة لا يزول مَعَها ملكٌ، حسنُ الدينِ واستكفاءُ الأمينِ وتقديمُ الحزمِ وإمضاءُ العزمِ. وأربعةٌ لا يثبَتُ معها ملكٌ، غشُّ الوزيرِ وسوءُ التدبيرِ وخبثُ النيةِ وظلمُ الرعية. وأربعةٌ لا بقاءَ لها، مالٌ يجمعُ من الحرام وحالُ تعقدُ من الآثامِ ورأيٌ يغوى من العقلِ وملكٌ يخلو من العدلِ.

وقال الحريري [1]: أسعدُ الناسِ مَنْ سعدتْ به رعيتُه، وأشقاهُم في الدارينِ من ساءتْ سريرتُه.

(١) الحريري: هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري، أديباً فاضلاً صنف المقامات، وله كتاب درة الغواص في أوهام الخواص، توفي بالبصرة سنة ٥١٦ هـ .. الكامل في التاريخ، م ٨ ص ٣٠٥؛ وفيات الأعيان، م ١ ص ٤١٩؛ تاريخ أبي الفداء، ج ٢ ص ٢٣٥.

ومنْ كلامِ الثعالبي في المبهجِ: الملكُ من يوالي لأوليائه صلاتِه وتباري هبوبَ الريحِ هباتُهُ، وتفرُس الفوارسَ لحظاتُهُ، وتضغُمُ الضراغمَ [١] سطواتُهُ، الملك من جمعَ سدادَ الأمورِ إلى سدادِ الثغورِ وكان أيدُهُ [٢] متيناً، وكيدُهُ مبيناً، الملكُ من رَجَعَ إلى رأيٍ سديدٍ من كماله وركنٍ شديدٍ من أمواله ورجاله، الملكُ من سيفُهُ يُفني وسيبُهُ [٣] يغني، الملكُ من جودُهُ مطير وبأسُهُ مستطيرٌ، الملكُ من عدلُهُ كافٍ كافل [٤]، وفضلُهُ هام هاطلٌ. الملكُ من تثنى عليه الخناصرِ وتثنى عليه السباباتُ وتعضُ عليه من الغيضِ الأباهيمُ، الملكُ من لا يسلمُ الإسلامَ، ولا يفارقُ الفرقانَ، ولا يهملُ الملةَ، ولا يعدلُ عن العدلِ إذا جمع الملكُ بين شرفِ الانتسابِ والاكتسابِ، ونظم حاشيتي الفضلِ والعدلِ، فتقريضُهُ وإن أفرط فيه تفريطٌ ومدحُهُ وإن نبلَ قصاراهُ تقصير، إذا عني الملكُ بتسكينِ الدهماء [٥]، وحقنِ الدماءِ بعدَ قرع باب السماءِ في استحفاظِ بابِ النعماءِ.

إذا كانتْ يدُ الملكِ مفتاحَ الأرزاقِ، وسيفُه حتفَ أهلِ الشقاقِ، فقدْ فاقَ ملوكَ الآفاقِ. الملكُ من كان كالغيث يحيي إذا هَمى، والسيلِ أردى إذا أطمى [٦]، والبدرِ يهدي إذا سما، والدير يصمى [٧] إذا رَمى.

(١) الضرغام: الأسد.

(٢) أيده: آد يئيد أيداً: اشتد وقوي. والاد: الصلب. والقوة كالايد. القاموس المحيط.

(٣) السيب: العطاء. القاموس المحيط.

(٤)كافل: الكافل الذي يكفل إنساناً ويعوله ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا** ﴾ . المصباح المنير؛ مختار الصحاح.

(٥) الدهماء: سواد الأمة وكثرتها. فال دهمة: السواد. يقال: فرس أدهم. وقال الله تعالى: ﴿ **مُدْهَامَّتَانِ** ﴾، أي سوداوان من شدة الخضرة من الري. مختار الصحاح؛ المصباح المنير.

(٦) اطمى: طم الأمر طما: ارتفع وغلب، ومنه قيل القيامة طامة. وطم السيل: علا وغلب. المصباح المنير؛ مختار الصحاح.

(٧) يصمى: يرمى بالموت، ففي الحديث كل ما أصميت، والمعنى: كل ما قتله كلبك وأنت تراه. المصباح المنير.

الملكُ من تبيضُ أياديه [١]، وتسودُ أيامَ معاويةَ، وتخضرُ مواقعُ سيبِه وتحمرُ مواقعُ سيفه [٢]. الملكُ من تشهدُ بفضله مشاهدُه، ويعمرُ وفدَهُ فوائدُهُ كفُ الملكِ سماءٌ، صوبُها [٣] أموالٌ ودماءٌ أدبُ الملكِ الأريبُ [٤] في مكارمَ يبْتنيها، ومآثرَ يقتنيها، وعلمٍ يحصِّله وكرم يوصلهُ ورعيةٍ يرعاها ويحمي حماها، همة الملكِ الهمامْ، في أربابِ السيوفِ لا في ربات السقوف، وفي البيضِ القواضبِ [٥]، لا البيضِ الكواعبِ [٦]، وفي سمرِ الرماحِ، لا في السمرِ الملاحِ، وفي إيجادِ الصنايعِ لا في ابتناءِ المصانعَ.

وقالَ بعضُ الكتابِ في مدحِ أميرٍ: هو مستقرٌ في ذروةِ عزِّه، مستقلٌ بأعباءِ مُلكه، يتصرفُ بالرئاسةِ بين رفقٍ من غيرِ ضعفٍ، وخشونةٍ من غيرِ عنفٍ [٧]. وقالَ آخرُ: قَدْ عوَّدَ ممالكَه الحياطةَ، حتى لا يحلَّ حرَامها، ولا يذعرَ سوامُها ولا تراعَ جوانبُها، ولا تذبُّ عقاربُها. وقال آخرُ: قد صرفهم بينَ خشونة أبعادِه ولينِ معتادِه، وأراهم بريقَ حسامه مشفوعاً بتزويقِ أنعامه. وقالَ آخر في وصفِ ملكٍ: قد أحيا سَنَن العدلِ وأماتَ سُنَنَ الجورِ فحمى الدينِ منيعٌ وجنابُ الملكِ وسيعٌ. وقالَ آخرُ: قدْ جدتَ بصنعَ العدلَ فثبت أصلُه وَسَمَا فَرعُهُ، وفتّتَ في عضدِ الظلمِ، فاجتث قرارُهُ وحُصِدَ زَرْعُهْ.

---

(١) آياديه: صنائعه.

(٢) كل ذلك كناية عن شدة بأسه.

(٣) الصوب: الانصباب والسحاب ومجيء السماء بالمطر. القاموس المحيط؛ المصباح المنير؛ مختار الصحاح.

(٤) الأريب: العاقل. مختار الصحاح.

(٥) القواضب: السيوف القواطع. القاموس المحيط.

(٦) الكواعب: أثداء المرأة ونهود ثدييها. القاموس المحيط.

(٧) مأخوذ من قول عمر رضي الله عنه: "إنه والله لا يصلح لهذا الأمر يا ابن عباس إلا القوي في غير عنف، اللين من غير ضعف. الأحكام السلطانية، ص ١٢.

بابٌ فيما يجبُ
على السلطانِ منْ حسنِ السياسةِ
وما يلزمُهُ من الصيانةِ للرعيةِ والحراسةِ

قالَ صلى اللهُ عليهِ وسلَم: «كُلُّكُمْ راعٍ وكلكم مسؤولَ عنْ رعيتِه، فالأميرُ الذي على الناس راعٍ مسؤولَ عن رعيتِه، والرجلُ راعٍ في أهلِ بيتِه ومسؤولٌ عنهم والمرأةُ راعية على بيت زوجها وولدِه وهيَ مسؤولةٌ عنهمْ والعبدُ راعٍ على مالِ سيدِه وهو مسؤولٌ عنه فَكُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُم مسؤولٌ عن رعيتِه»[1].

(١) صحيح البخاري، ج ٣ ص ١٥٧؛ سنن أبي داود، ج ٣ ص ١٣٠؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ١٢٤، وقال حديث حسن صحيح؛ مسند أحمد، م /٢ ص ٥؛ مجمع الزوائد، ج ٥ ص ٢٠٧؛ السنن الكبرى، ج ٨ ص ١٦٠؛ مشكاة المصابيح، ج ٢ ص ١٠٩٠؛ صحيح مسلم، ج ٦ ص ٨.

راع: أي حافظ مؤتمن صلاح ما قام به وما هو تحت نظره والحديث دليل على أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته فقد قال الخطابي اشترك الإمام والرجل وجميع من ذكر في الحديث في الوصف بالراعي ومعانيهم مختلفة فرعاية =

وقَالَ بعضُ الشعراءِ في ذلكَ:

وُكُلُّكُمْ راعٍ ونحنُ رعيّةٌ وكل سَيَلْقَى ربَّه فيُحاسبُهْ

وقالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَم: "مَا مِنْ عبدٍ يسترعيْه اللهُ رعيةً يموتُ يومَ القيامةِ يموتُ وهو غاشٌ لرعيته إلا حَرَّمَ اللهُ عليه الجَنَّةَ» (١).

ودخلَ أبو مسلم الخولَانيُ (٢) على معاويةَ فقالَ: السلامُ عليكمْ أيها الأجيرُ فقيلَ له: قل أيها الأميرُ فقال معاوية: دعوا أبا مسلمٍ فإني أعلمُ بما يريدُ وعليكَ السلامُ يا أبا مسلم فقال أبو مسلم: اعلمْ أنه ليس راعٍ استرعى رعيةً إلا وربُّ أجرِه سَائلَهُ عن رعيته فإنْ كان داوى مرضاها وهنأَ جربانها وجبرَ كسرانَها وردَّ أولَها على آخرِها وَوَضَعَهَا في أنفٍ من الكلأ وصفوٍ من الماءِ وفآهُ أجرَهُ وإلا لم يوفِّه فانظرْ من أنتَ مِنْ ذلكَ فقال معاويةُ: يرحمُك الله يا أبا مسلم الأمرُ على ذلكَ.

=

الإمام حياطة الشريعة بإقامة الحدود والعدل بالحكم ورعاية الرجل لأهله سياسته لأمرهم وإيصال حقوقهم إليهم ورعاية المرأة تدبير أمر البيت والأولاد والنصيحة للزوج في كل ذلك ورعاية الخادم حفظه ما تحت يده والقيام بما يجب عليه من الخدمة/ فتح الباري؛ شرح صحيح البخاري، ج ١٣ ص ١١٣.

(١) صحيح البخاري، ج ٩ ص ٨٠؛ صحيح مسلم، ج ٦ ص ٥٩، ونصه "ما من عبد يسترعيه الله رعيه يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة". ومثله سنن الدارمي، ج ٢ ص ٣٢٤. قوله صلى الله عليه وسلم يسترعيه الله رعية أي يستحفظه إياها ويطلب منه رعايتها فإذا غش وظلم وجار حرم الله عليه الجنة فإن كان مستحلا لغشهم فتحرم عليه الجنة ويخلد في النار وإن كان لا يستحل غشهم منع من دخولها مع الفائزين بل يؤخر عنهم عقوبة له، صحيح مسلم، شرح النووي، ج ١٢ ص ٢١٤ – ٢١٥.

(٢) أبو مسلم الخولاني: هو أبو مسلم الخولاني، اليماني الزاهد، من سادات التابعين واسمه عبد الله بن ثوب أسلم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم المدينة في خلافة أبي بكر وله كرامات وفضائل مشهورة، توفي سنة ٦٢ هـ . في دمشق/ شذرات الذهب، ج ١١ ص ٧٠؛ البداية والنهاية، ج ٨ ص ١٤٦؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٥٦– ١٥٧.

ومعنى هنأ جربانها طلاها بالهناء وهو القطران ويقالُ روضةٌ أنفٌ إذا لم تُرْعَ قبلَ ذلكَ.

وقالَ بعض البلغاء: من آثَرَ اللهوَ ضاعتْ رعيتُهُ ومَنْ داومَ السكرَ فسدتْ رويتُهُ ومن قصر عن سياسة نفسه كان عن سياسة غيره أقصرَ.

وقال: إنَّ مِنْ حُسْنِ الاختيارِ، وحسنِ الاستظهارِ، أنْ تَعْدلَ في القضاء وتُجريَ الحكمَ على الخاص والعامِ بالسوى، فمنْ جارتْ قضيتُهُ، ضاعتْ رعيتُهُ، ومنْ ضعفت سياستُهُ بطلتْ رياستهُ.

وقالَ عمرُ بن الخطاب، رضيَ الله عنهُ: أشقى الولاة من شقيتْ به رعيتُهُ.

وقالَ بعضُ الحكماءِ: أَحْسِنْ عقدَ نِيَّتِكَ وأعدلْ في جندِكَ ورعيتكَ تخلُصْ الطاعةُ لكَ وتحسنْ الاحدوثةُ عنكَ.

وقال: الزمَ الزرعَ فإنه يؤيدُ المُلكَ واحذر الطمعَ فإنه يدني الهلَك.

وقالَ أردشيرُ: إنما أملكُ الأجسادَ لا النياتِ وأحكمُ بالعدلِ لا بالرضى وأعاقبُ على الذنبِ لا على الهوى وافحصُ عن الأعمالِ لا عن السرائر وقالَ معاويةُ بن أبي سفيانَ لا أضعُ سيفي حيثُ يكفيني سوطي ولا سوطي حيث يكفيني لساني ولو أن بيني وبينَ الناسِ شعرة ما انقطعتْ قالوا وكيفَ ذلك يا أميرَ المؤمنينَ قال كنت إذا أرخوها مَدَدْتُها وإذا مَدُّوها جَرَرْتُها.

وقالَ عتبةُ بنُ أبي سفيانَ [١] في خطبة لَهُ بمصرَ وقدْ أرجفَ [٢] بموت معاوية: "يا أهل مصرَ قد طالت معاتَبَتُنا إياكمْ بظبات [٣] السيوفِ وأطرافِ الأسنةِ حتى صِرْنا شجىً

(١) هو عتبة بن أبي سفيان، صخر بن حرب بن أمية، أخو معاوية لأبيه ولد في عهد رسول اله صلى الله عليه وسلم وشهد مع عثمان يوم الدار ولي المدينة والطايف والمرسل لمعاوية، ثم ولاه أمرة مصر بعد وفاة عمرو بن العاص فقدمها سنة ٤٣ هـ . وهو من خطباء بني أمية المعدودين، توفي سنة ٤٤ هـ .؛ النجوم الزاهرة، ١ ص ١٢٢- ١٢٣.

(٢) أرجف القوم بالشيء أرجافاً أكثروا من الأخبار السيئة واختلاق الأقوال الكاذبة حتى يضطرب الناس منها. المصباح المنير.

(٣) الظبة بالتخفيف حد السيف والجمع ظبات، القاموس المحيط.

[١] في حلوقكم وقذىً في عيونكم فحينَ اشتدتْ عُرى الحقِ عليكم عقداً واسترخَتْ عقدُ الباطلِ سحلاً أرجفتُم بالخليفةِ وأردتُم توهينَ الخلافةِ وخضتمْ الحقَ إلى الباطلِ فاربحوا أنفسَكم إذ خسرتُم دينَكم وضنوا [٢] بدُنْيَاكم إذا سمحتُم بآخرتكم. واعلموا أن سلطانَنا على أبدانكم دونَ قلوبكم فأصلحُوا لنا ما ظهرَ نكلكُمْ إلى اللهِ فيما بطنَ فاظهرُوا خيراً وان أسررتُم شراً فانكم حاصدونَ ما أنتم زارعُون.

ومثلُ ذلكَ ما قالَ زياد [٣] في خطبةٍ لهُ: "قد كانتْ بيني وبينَ قومٍ أشياءُ قد جعلتُها دبرَ أذني وتحتَ قدمي فَمَنْ كان منكمُ محسناً فلْيزدَدْ ومَنْ كان منكم مسيئاً فلينزعْ فإني لو علمتُ أن أحدَكم قَدْ قَتَلَهُ السلُ منْ بُغضي لم أكشفْ له قناعاً ولم أهتكْ له ستراً حتى يبدي لي صفحتَه فإذا فعلَ ذلكَ لم أناظِرْهُ فأعينوني على أنفسكم واستأنفوا أمرَكُم. وهذا كُلُّهُ من قوله عليه الصلاةُ والسلامُ: (أحكمُ بالظاهرِ واللهُ يتولى السرائرَ).

ومنْ حُسْنِ السياسةِ وتمامِ السيادةِ والرياسةِ اختيارُ الخاصةِ والوزراءِ وانتخابِ الكتابِ والجلساءِ واستشَارَةُ ذي الرأي من الفضلاءِ ونحنُ نفردُ لكلٍ من ذلكَ باباً نبينُ فيه

(١) شجى الرجل يشجو شجى حزن؛ المصباح المنير.

(٢) ضن بالشيء يضن بخل/ المصباح المنير.

(٣) هو زياد بن عبيد الثقفي. ويقال زياد بن أبيه وزياد بن أمه وهو زياد بن أبي سفيان الذي استلحقه معاوية بأنه أخوه وكان هذا الاستلحاق أول قضية غير فيها حكم النبي صلى الله عليه وسلم كما يقول السيوطي في تاريخ الخلفاء، ص ١٩٦؛ وذكر المقدسي في البدء والتاريخ، ج ٦ ص ٢؛ عن الحسن والشعبي أن سرك أن لا تكذب فقل زياد بن أبيه وأمه سمية جارية الحارث بن كلده زوجها عبيداً فولدت سمية زياداً على فراش عبيد واختلف في وقت مولده فقيل ولد عام الهجرة وقيل غير ذلك أسلم زمن الصديق وكان عاقلاً في دنياه داهية خطيباً يضرب به المثل في العقل والحزم والدهاء استعمله عمر على بعض صدقات البصرة وكتب لأبي موسى الأشعري ثم صار لعلي بن أبي طالب عاملاً على فارس وخراسان فظهرت عبقريته التي بهرت الجميع فتلطف اليه معاوية واستماله إلى صفه وألحقه بنسبه وولاه العراقين ولم يزل كذلك إلى أن توفي بالكوفة سنة ٥٣ هـ . وصلى عليه عبدالله بن خالد بن أسيد/ سير أعلام النبلاء، ج ٣ ص ٣٢٥- ٣٢٦؛ الاستيعاب ق ٢ ص ٥٢٣- ٥٣٠؛ وفيات الأعيان، م ٦ ص ٣٥٦- ٣٦٢.

صفاتِهم وأحوالِهم إن شاء الله تعالى.

بابٌ

في اختيارِ الوزراء والعمالِ
وذكرُ ما يجبُ أنْ يتصفوا به منَ الخصالِ

قالَ بعضُ الحكماءِ: اعلمْ أنَّ الملوكَ تحتاجُ إلى وزيرٍ وأشجعُ الناسِ يحتاجُ إلى سلاحٍ وأجودُ الخيلِ يحتاجُ إلى سوطٍ وأجودُ الشفارِ يحتاجُ إلى مسنٍ.

وقال ابنُ المعتمد:

هيهاتَ لم تَصدُقْكَ فكرتُكَ التي ... قد أوهمتْكَ غنىً عن الوزراءِ
لم تُغنِ عن أحدٍ سماءٌ لم تجدْ ... أرضاً ولا أرضٌ بغيرِ سماءِ

وقالَ الثعالبيُّ [١]: لا بدَّ لكلِ فاضلٍ من صاقلٍ [٢]. وقالَ صلى الله عليهِ وسلمَ:

(١) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، كان إماماً في اللغة والأخبار، وأيام الناس راعى تلعات العلم له التصانيف الكثيرة في النظم والنثر، ولد سنة ٣٥٠ هـ .، توفي سنة ٤٢٩ هـ .. البداية والنهاية، ج ١٢ ص ٤٤. وفيات الأعيان، م ١ ص ١١٠. شذرات الذهب، ج ٣ ص ٢٤٦.

(٢) صاقل اسم فاعل من صقل وصقلت السيف صقلاً جليته وشيء صقيل أملس مصمت لا يخلل الماء أجزاءه/ المصباح المنير.

"وزرائي في الأرض أبو بكرٍ وعمر" [١].

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلَم: "منْ وليَ شيئاً من أمورِ الناسِ فأرادَ اللهُ به خيراً جعلَ مَعَهُ وزيراً صالحاً إن نَسِي ذَكَّرَهَ وإنْ ذَكَّرَ أعانَهُ [٢]"، وقيل: إذا أردتَ نايلَ الأميرِ فالطفْ به منْ جهة الوزيرِ.

وقيلَ مثلُ الملكِ الصالح إذا كانَ وزيرُهُ فاسداً مثلُ الماءِ الصافي العذبِ الميرُ الذي فيه التماسيحُ فلا يستطيعُ الإنسانُ ورودَهُ وإن كانَ سباحاً وإلى الماءِ ضامئاً، وقال بعضُ الحكماءِ لا يغرُّك كِبَرُ الجسمِ ممنْ صَغُرَ في المعرفةِ والعلمِ ولا طولُ القامةِ ممن قَصُرَ في الكفايةِ والاستقامةِ فإن الدرَّةَ على صغرِها أعودُ من الصخرةِ على كِبرِها واعلمْ أن ٱلأيديَ بأصابعِها والملوكَ بصنائعها وأن وزيرَ الملكِ عينَه وأمينَه أذنَه وكاتبَه نطقَه وحاجبَه خلقَه ورسولَه عقلَه ونديمَه مثلُه بهم تستقيمُ الأعمالُ وتجتمعُ العمالُ ويقوى السلطانُ وتعمرُ البلدانُ فإن استقاموا استقامت الأمورُ وإن اضطربوا اضطربَ الجمهورُ.

وقالَ: أعلمْ أن معايبَ عمالكَ والمنصرفينَ في أعمالكَ من أقبحِ معايبكَ ومآثرُهم ومناقبُهم من أحسنِ مآثرِكَ ومناقبِك لأن بهمْ يستدلُ على مقدارِ معرفتك بمقاديرِ الرجال ويوقفُ على كيفية تصرفِك بتصاريفِ الأحوال فأحسنْ الاختيارِ لهم [٣] وأكثرْ الاستظهارَ

(١) سنن الترمذي، ج ٥ ص ٢٧٨. ونص الحديث كما ورد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من نبي إلا وله وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض، فأما وزرائي من أهل السماء، فجبريل وميكائيل، وأما وزيراي من الأرض، فأبو بكر وعمر. وقال الترمذي حديث حسن غريب.

(٢) سنن أبي داود، ج ٣ ص ١٣١. سنن النسائي، ج ٧ ص ١٥٩. السنن الكبرى، ج ١٠ ص ١١١. يرشد هذا الحديث بأن يتخيروا بطانتهم من صالحي رعيتهم، ومن يجدون عنده النصيحة إذا نسوا والعون إذا ذكروا، وعندها تكون هذه البطانة نعمة من الله تعيينهم في توجيه أمور الدولة.

(٣) لقول الرسول صلى الله عليه وسلم من وليّ على المسلمين رجلاً وفيهم من هو أصلح منه، فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين. المستدرك، ج ٤ ص ٩٣. وقال حديث صحيح الإسناد.

عليهم [١] واعلمْ أنهم أنفاسُ الملوكِ وحرابُهُ فَدُمْ على مراعاةِ أحوالِهم، ولا تُمْهِلْ مكافآةَ أفعالِهم، فأوْلِ المحسنَ ما يستحقُّه من حسنِ الولاءِ، والمسيءَ ما يستوجبه من سوءِ الجزاءِ، ليتصرفوا لكَ في الأمانةِ ويتعففوا عن الخيانةِ.

وقالَ يحي بنُ خالدٍ [٢] لبنيه: إنكمْ لا بدَّ لكمْ من عُمَّالٍ وكُتَّاب فاستعينوا بأشراف الناسِ وإياكمْ والسفلةَ فإن النعمةَ على الأشرافِ أزينُ والمعروفُ عندهم أثمنُ والشكرُ منهم أحسنُ.

وهذا المعنى يلاحظُ قولَ أرسطا طاليس [٣] لما كَتَبَ إليهِ الإسكندرْ [٤] يستشيرُهُ في

(١) وأكثر الاستظهار عليهم يمكن رد هذا الشرط إلى ما ذكره الماوردي من أن الواجب على الإمام أن يباشر بنفسه، مشارفة الأمور وتصفح الأحوال، لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة، فقد يخون الأمين ويغش الناصح، وقد قال الله تعالى ﴿ **يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ** ﴾ [سورة ص: ٢٦]، فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة ولا عذره في الاتباع حتى وصفه بالضلال، وهذا وإن كان مستحقاً عليه بحكم الدين ومنصب الخلافة فهو من حقوق السياسة لكل مسترع. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته". الأحكام السلطانية، ص ١٧.

(٢) هو أبو الفضل يحي بن خالد بن برمك. وزير هارون الرشيد، ضم إليه المهدي ولده هارون وجعله في حجره ورباه وأرضعته امرأته، فلما استخلف هارون عرف له حقه وفوض إليه أمور الخلافة ولم يزل كذلك حتى نكب الرشيد البرامكة، فغضب عليه، وحبسه حتى مات في الحبس سنة ١٩٠هـ . وكان كريماً فصيحاً ذا رأي سديد. وفيات الأعيان، م ٦ ص ٢١٩، البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٠٤. النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ١٣٣

(٣) أرسطا طاليس: هو الفيلسوف اليوناني أرسطا طاليس (معناه محب الحكمة)، من ولد اسقليادس الذي اخترع الطب لليونان، ولد باسطاخاريا، وتتلمذ على يد أفلاطون، ولقب بالمعلم الأول لأنه أول من وضع التعاليم المنطقية، صحب الإسكندر وكان يشاوره ويصدر عن رأيه. توفي آخر أيام الإسكندر وله ٦٦ سنة. الفهرست، لابن النديم، ص ٢٤٦. سرح العيون، ص ٢١٠.

(٤) هو الإسكندر بن فيلقوسي، أبوه أحد ملوك اليونان وكانوا طوائف، وهو الذي وحدهم وغزا

قتلِ ملوكِ فارسَ أو استبقائهم فكانَ في جملةِ ما ردَّ من الجوابِ أنْ قالَ لستُ أرى قَتْلَهُمْ صواباً لأنه متَى قَتَلَ الملكُ ملوكَهُم وسراتِهم لم يكنْ بدٌّ من أنْ يستعمل عليهم بعضهم فتدعو الضرورةُ إلى رفعِ السفلةِ وسياسةُ الملوكِ أسهلُ من سياسةِ السفهاءِ لأنَّ الملوكَ أحسن طاعة وأسلسُ انقياداً وأعرفُ بالصنيعِ وأرجى للمكافآةِ وسياسةُ السفلةُ صعبةٌ واستياقُهم إلى الإرادةِ متعبةٌ وقد رأيتُ رأياً يكفي به الملكُ مؤنةَ قتلِهم إن استصوبه وتجمعُ له به طاعتُهُم ويتعبدُهم ويتخلصُ به نياتهم ويخلصُ من الإثمِ بسببهم وهو أن يعمدَ الملكُ إلى أولادِ الملوكِ والرؤساءِ كلِّهم فيقسمُ المملكةَ بينهم ويفردُ كل واحدٍ منهم ببلدةٍ ويأمرُهُ أن يؤدي الأتاوةَ عنها ويجعلَها وظائفَ في أيديهم فإنه إذا رأى المالكُ منهم أنه قد ساوى نظيرِه في التملكِ لمْ تطعْهُ نفسُهُ الانقيادَ إلى من هو مثلُهُ وإذا تبينَ أحدُهُم مقدارَ الطائفةِ التي في يدِه نقصتْ همتُهُ عن معصيةِ الملكِ والخلافِ لأمرِه فتجتمعَ للملكِ طاعتُهم ويكفي ما يخوفُهُ منهم ورأى الملكِ العالي الموفقْ ففعلَ الإسكندرُ ذلكَ بما أشارَ به أرسطا طاليسْ فلم تزلْ الملوكُ تؤدي الأتاوة إلى ملوكِ الروم خمسمائةَ سنةٍ ونيفاً إلى أنْ مَلَكَ أردشيرُ بنُ بابكَ فكانَ يقولُ إن ملوكَ الأرضِ ضربوا بسيفِ أرسطا طاليس خمسمائةَ سنةٍ يعني تدبيرَهُ وتفريقَ كلمتهم.

وقالَ بعضُ الحكماءِ: لا تستكف إلا الكفاةَ [1] النصحاء ولا تستبطنْ إلا الثقاتِ الأمناءَ، وإذا استكفيتَهم شغلاً أو وليتَهم أمراً، فأحسنْ الثقةَ بهمْ وأكِّدْ الحجةَ عليهمْ، فإذا رأيتَ منهم غدراً وتبينتَ منهم عجزاً، فاستبدلْ بهم واستوفِ ما لَكَ عليهمْ ولا تقلدْ منهمْ أحداً ولا تعتمدْ عليهمْ أبداً فمنْ عارضَ مع الاستقلالِ والأمانةِ قمعَ كفاتِه وعماله ومنْ

=

الفرس وملكهم، ثم غزا الهند وأطراف الصين، ثم انصرف عنهم وبنى الإسكندرية، وكان ملكه نحو ثلاث عشرة سنة، وهو صاحب أرسطا طاليس وتلميذه، وهو غير ذو القرنين المذكور في القرآن، فإن ذا القرنين كان في زمن إبراهيم الخليل، عليه السلام، قيل إن اسمه افريذون، وقيل غيره، وتوفي الإسكندر بناحية السواد وعمره ٣٦ سنة. تاريخ أبي الفداء، ج ١ ص ٤٥. تاريخ ابن الوردي، ج ١ ص ٦٢ – ٦٣.

(١) الكفاة: من يحصل بهم الاستغناء عن غيرهم/ المصباح المنير.

قلَّدَ مع العجزِ والخيانة ضيعَ أعمالَهُ ومالَهُ.

ومنْ كتاب المبهج: إذا تصفَّحَ الملك وجوهَ عماله وفحصَ عن الأصلحِ لأعماله فلا يقعن اختيارُهُ إلا على مَنْ سبق له اختبارُهُ ولا يتوجَهَنَّ اعتمادُهُ إلا إلى مَنْ تقدَم اجتهادُهُ ولا يكونَنَّ من ثقاته إلا من يتقي اللهَ حق تقاته.

وقالَ أيضاً: خيرُ العمالِ من كفىَ وكَفَ وعفىَ وعفَ وشرُهُم من حذقَ وسرق. وقال شرُ العمالِ من تعدَ السعايةَ من مساعيه. وقال: شرُ العمالِ من إذا ولىَ ثارَ وجارَ وإذا عُزلَ حارَ وخار.

ووقعَ جعفرُ بنُ يحي بنِ خالد [1] إلى بعضِ عماله قد كَثُر شاكوك وقلَ شاكروكَ فإما اعتدلتَ وإلا اعتزلتَ. وقال يحي بنُ خالدٍ: ثلاثةٌ تدل على عقولِ أصحابها الرسولُ، والكتابُ، والهديةُ.

وقالَ الشاعرُ:

تخيَّرْ إذا ما كنتَ مرسلاً ... فمبلغُ آراءِ الرجالِ رسولها
ورجعْ وفكرْ في الكتابِ فإنما ... بأطـ ـرافِ أقـ ـلامِ الرجالِ عقولُها

وقالَ (صالحُ بنُ عبدِ القدوس):

إذا كنت في حاجةٍ مرسلاً ... فأرسلْ حكيماً ولا توصه
(وإنْ بابَ أمرٌ عليك التـ ـوى ... فشـ ـاورْ حليمـ ـاً ولا تعصـ ـهِ)

---

(١) هو أبو الفضل جعفر بن يحي بن خالد بن برمك، وزير هارون الرشيد، كان من علو القدر ونفاذ الأمر عند الرشيد بحالة انفرد بها و لم يشارك فيها، وكان من الأجواد المشهورين، تفقه عل القاضي أبي يوسف، فلأجل ذلك كانت توقيعاته عل منهج الفقه، ولاه الرشيد الشام، واستوزره، ثم تغير له وقتله بسبب أمور انضم بعضها إلى بعض سنة ١٨٧هـ .. وفيات الأعيان، م ١ ص ٣٤٨. شذرات الذهب، ج ١ ص ٣١١. النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ١٨٧. البداية والنهاية، ج ١٠ ص ١٩٤.

بابٌ في ذكرِ الولايةِ والعملِ
وما يتصل بهما من المدحِ والذمِ وذكرِ ما يتعلق بهما
من العزِ والذلِ في حالتي الولايةِ والعزلِ

مِنْ فصلِ الخوارزمي [١]:

لا صغيرَ مع الولايةِ والعمالةِ، كما لا كبيرَ مع العطلةِ، والبطالة وإنما الولايةُ أنثى تصغُرُ وتكبرُ بواليها، ومطيةٌ تحسنُ وتقبحُ بمتطيها، والصدرُ لمنْ يليهُ، والدستُ [٢] لمن يجلسُ فيه. وله أيضاً: ولاية المرء ثوبهُ فإن قصرَ عنه عرى عنه، وإن طالَ عليه عثُر فيه. وقالَ الفضلُ بنُ مروانَ [٣]: مثلُ الكاتبِ كالدولابِ، إذا تعطَلَ تكسرَ. وقالَ غيرُهُ: غُبارُ

(١) الخوارزمي: هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر المشهور كان إماماً في اللغة والأنساب أقام بالشام مدة وسكن بنواحي حلب وكان مشاراً إليه في عصره، اتصل بالصاحب بن عباد توفي سنة ٣٨٣ هـ ./ شذرات الذهب، ج ٣ ص ١٠٥.

(٢) الدست من الثياب ما يلبسه الإنسان ويكفيه لتردده في حوائجه/ المصباح المنير.

(٣) هو أبو العباس الفضل بن مروان وزير المعتصم والذي أخذ البيعة له ببغداد عندما كان المعتصم ببلاد الروم ففوض إليه الوزارة في رمضان سنة ٢١٨ هـ . وخلع عليه ورد أموره كلها إليه فغلب =

العملِ خير من زعفرانِ العطلَ.

وقالَ المهلبيُ [١]: التصرفُ أسنى وأعلى والبطالةُ أعفَى وأصفَى.

وقالَ الشاعرُ:

ما أطْيَبَ الأمرَ ولو أنه على رذَايَا [٢] نَعَمٍ في مراحْ

وقيلَ: منْ عمل عَملا فتاهَ فيه أخبر أن قدرَهُ دونَه ومن تواضَعَ فيه دَلَّ على أنَّ قدرَهُ فَوْقَه.

وقالَ: سكرُ السلطانُ أشدُّ من سكرِ الشراب.

وقال بعضُهُم من ولاهُ السلطانُ، صبعَه الشيطانُ. وهذا المعنى أراد بعضهم.

قد كنتَ أكرمَ صاحب وأبرَّه حَتَّى دهتْك أصابعُ الشيطان

جـ ـدَّ الإلهُ بنانَه ـا وأبـ ـانَها كم غيّرتْ خَلقاً من الإنْسان [٣]

وقالَ بعضُهم: أرضَ من أخيكَ إذا ولِيَ ولايةً بعشرِ وده قبلَها.

وقالَ الشاعُر:

وكلُّ ولايةٍ لابـ ـدّ يوم . . ـاً مغيِّرةُ الصديقِ على الصديقِ [٤]

=

عليه لطول خدمته وكان نصراني الأصل له ديوان رسائل وكتاب المشاهدات والأخبار التي شاهدها توفي سنة ٢٥٠ هـ ./ وفيات الأعيان، م ٤ ص ٤٥؛ النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٣٣٢؛ شذرات الذهب، ج ٢ ص ١٢٢.

(١) هو أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون الأزدي، المهلبي الوزير. كان من ارتفاع القدر وعلو الهمة على ما هو مشهور عنه ولد سنة ٢٩١ هـ . بالبصرة وتولى وزارة معز الدولة أحمد بن بويه الديلمي سنة ٣٣٩ هـ . وتوفي سنة ٣٥٢ هـ ./ وفيات الأعيان، م ٢ ص ١٢٤؛ شذرات الذهب، ج ٢ ص ٩؛ يتيمة الدهر، ج ٢ ص ٢٢٣.

(٢) رذايا: جميع رذية، وهي الهزيلة من الإبل، التي لا تستطيع براحاً ولا تنبعث/ القاموس المحيط.

(٣) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ٧٤؛ ربيع الأبرار، ج ١ ص ٣٨٧.

(٤) الصداقة والصديق للتوحيدي مع اختلاف في الشطرة الأولى إذ وردت فيه فكل إمارة إلا قليلاً. والبيت منسوب لأبي رشيد الطائي/ التمثيل والمحاضرة، ص ١٥١ والمعنى أن الولاية والحكم يغيران =

وقال زيادُ بنُ الأعجمَ [١]:

فتى زادَهُ السلطَان في الحمدِ رغبةً ... إذا غيِّر السلطانُ كل خليلِ [٢]

وللفرزدق [٣] يمدحُ والياً:

قلْ لنصْرٍ والناسُ في زمنِ السلطا ... نِ أعمى ما دامَ يُدعى أميرَا

فإنْ زالَتِ الولايةُ عنهُ ... واستوَى بالرجالِ عادَ بصيرا [٤]

=

الصديق على صديقه فينقلب المتواضع صلفاً متكبراً والودود جافياً وهيهات أن يبقى الصديق على ما كان عليه إذا انتهت إليه الولاية إلا من رحم ربك.

(١) هو أبو يمامة مولى عبد قيس لقب بالأعجم لعجمة كانت في لسانه، أدرك أبا موسى الأشعري وعثمان بن أبي العاص وشهد معهما فتح اسطخر وحدث عنهما عده ابن سلام من الطبقة السابعة من شعراء الإسلام. كانت وفاته بحدود ١٠٠ هـ ./ شذرات الذهب، ج ١ ص ١٢٣؛ فوات الوفيات، ج ٢ ص ٢٩.

(٢) التمثيل والمحاضرة، ص ١٥١؛ البيان والتبيين، ج ١ ص ٥٢؛ حماسة أبو تمام، ج ٢ ص ٣٦٦ ونسبه إلى حبيب بن عوف. والمعنى أنه رجل كريم الأخلاق حسن الشمائل لم يبطره الغنى ولا أطغاه السلطان والإمارة.

(٣) هو أبو فراس همام بن غالب الشاعر المعروف بالفرزدق، كان أبوه غالب من جلة قومه وسراتهم وجده لأمه الأقرع بن حابس وفد الفرزدق مع أبيه عل علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، فقال لأبيه علمه القرآن فهو خير له من الشعر وكان يقال الفرزدق أشعر الناس عامة، وجرير أشعر الناس خاصة. توفي بالبصرة سنة ١١٠ هـ . قبل جرير بأربعين يوماً/ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ٢٦٨-٢٦٩؛ وفيات الأعيان، م ٦ ص ٨٦؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ١٤١؛ البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٦٥.

(٤) ديوان الفرزدق، ص ٩٢؛ نهاية الأرب، ج ٣ ص ٧٥؛ التمثيل والمحاضرة، ص ٧٠؛ بهجة المجالس، ق /١ ص ٣٤٣؛ شرح نهج البلاغة، م ٤ ص ٤٧٦. وكأن هذا القول مأخوذ من معنى قول الإمام علي، كرم الله وجهه، الولايات مضامير الرجال. أي أن الرجال تعرف بالولايات فمنهم من تظهر منه أخلاق حميدة ومنهم تظهر منه أخلاق ذميمة.

وقالَ آخرُ:

إذا عُزل المرءُ واصْلتُه وعند الولاية استكبرُ
لأنَّ الـ ـوُلَّـ ـى لـ ـه نـ ـخـ ـوةٌ ونفسـ ـي على الذّلِ لا تصبرُ [١]

وقال آخر:

يا مَنْ تولَّى فأَبْدَى لنا الجَفَا وتبدَّلُ
أليـ ـس منـ ـكَ سـ ـمـ ـعْ نَا مَـ ـن لـ ـم يمـ ـتْ فسيُعـ ـزلْ [٢]

وقيلَ: الولايةُ حلوةُ الرضاعِ مرةُ الفطامِ. وقالَ آخرُ: ذلُ العزلِ يضحكُ من تيهِ الولاية. قالَ:

سُكْرُ الولايةِ طيبٌ وخمارُها صفعٌ شديدُ
كـ ـم تـ ـائـ ـهٍ بـ ـولايـ ـ . . ـةٍ وبعَـ ـزْلِه ركـ ـضَ البَـ ـريـ ـدُ [٣]

وقال:

العَزْلُ للكتاب حيضٌ لحاهُ اللهُ من حَيْضٍ بَغيضِ
فإنْ يك هكذا فأَبُو عَـ ـلي مـ ـن اللائي يَئسْنَ من المَحيضِ [٤]

ولابنِ بسام [٥] في بعضِ الولاةِ:

(١) زهر الآداب، ج ٢ ص ٨٢٦؛ التمثيل والمحاضرة، ص ١٥٠ ونسبه صاحب زهر الآداب إلى منصور الفقيه.

(٢) زهر الآداب، ج ٢ ص ٨٢٦؛ التمثيل والمحاضرة، ص ١٥٠ وهما منسوبان إلى منصور الفقيه.

(٣) زهر الآداب، ج ٢ ص ٨٢٦، وفيه البيت الثاني قبل البيت الأول. ديوان ابن المعتز، ص ١٧٥.

(٤) التمثيل والمحاضرة، ص ١٥٠؛ وفيات الأعيان، م ٥ ص ١١٦؛ الوافي بالوفيات، ج ٤ ص ١١٠، وقيلت في الوزير ابن مقلة.

(٥) ابن بسام: هو علي بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام، أبو الحسن الشاعر المشهور إلا أن غالب شعره كان في الهجاء، فلم يسلم منه أمير ولا وزير حتى هجا أهل بيته. تولى البريد في أيام عبد الله بن سليمان بن وهب توفي سنة ٣٠٢ هـ . وله كتاب أخبار عمر بن أبي وبيعة ومتناقضات الشعراء/ وفيات الأعيان، م ٣ ص ٣٦٣؛ النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٨٩؛ فوات الوفيات، ج ٣ ص ٩٢.

سنصبرُ إن تجلتْ كما صبرنَا ... لغيرِك من أميرٍ أو وزير
رجوناهم فلما أخلفونا ... وفتنا فيهم نوب الدهورِ
فبتنا بالسلامة وهي حظٌّ ... وباتوا في القيودِ أو القبورِ
فلما لم نرى منهم سـ . ـروراً ... رأينـ ـا فيهـ ـم كـ ـلَ السرورِ [١]

وللبستي [٢]:

عذلوني عن وزارةِ بُستٍ ... ورأوْها من أرفعِ الدّرجات
قلت لا أشتهي وزارة بستٍ ... إنني لـ ـم أمَلُّ بعـ ـد حيـ ـاتي [٣]

وله أيضاً:

وزارةُ الحضرة الكبيرهْ ... خطيئة لا بل هي الكبيرةُ
فـ ـلا تـ ـُردها ولا تـ ـردَهـ ـا ... فإنَّهـ . ـا مهنـ ـةٌ مبيـ . . ـرةُ [٤]

ولسليمان بن مهاجر [٥]:

إنَّ الوزيرَ وزيرَ آل محمـ . ـدٍ ... أوْدى بمن يشناك كانَ وزيـ ـرا [٦]

وللحريري:

لجَوْبُ البلاَد مَعَ المتربَة ... أَحَبُّ إليَّ من المَرتَبَه

(١) المستطرف، ج ١ ص ٩٣؛ خاص الخاص، ص ١٣٦ وذكر البيت الأول والأخير الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قسم/ ١، م ٢ ص ٨٨٥؛ التمثيل والمحاضرة وذكر البيت الأخير.

(٢) البستي: هو أبو الفتح علي بن محمد الكاتب البستي. شاعر عصره ولد ببست قرب سجستان وإليها نسب توفي سنة ٤٠٠ هـ . وقيل سنة ٤٠١ هـ . ببخارى/ وفيات الأعيان، م ٣ ص ٣٧٦؛ يتيمة الدهر، ج ٤ ص ٣٠٢؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٣٤٥.

(٣) التمثيل والمحاضرة، ص ١٤٤.

(٤) المتشابه للثعالبي، ص ٥٢٨؛ التمثيل والمحاضرة، ص ١٤٤.

(٥) هو سليمان بن المهاجر البجلي، لم أعثر له على ترجمة فيما لدي من المراجع.

(٦) وفيات الأعيان، م ٢ ص ١٩٦، وفيه قيل هذا البيت في أبي سلمة الخلال وزير السفاح؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٥٥٤؛ التمثيل والمحاضرة، ص ١٤٤.

لأنَّ الوُلاةَ لَهُمْ نَبْوَةً ومَعْتَبةٌ يا لَها مَعْتَبَه
فَمَا فيهمُ مَنْ يَربُّ الصَّنيع وَلاَ مَنْ يُشَيّدُ ما رَتّبَه
فَلا يَخْدَعَنْكَ لُموع السَّراب وَلا تَأْتِ أَمْراً إذَا ما اشْتَبَه
فَكَمْ حَالِمٍ سَرَّهُ حُلْمُهُ وَأَدْرَكَهُ الرَّوْعُ لَمّا انْتَبَه [١]

وقالَ أردشيرُ[٢]: إذا ساوى الوزيرُ الملكَ في المال والهيبة والطاعة من الناسِ فليصْرعهُ وإلا فليعلمْ أنه المصروعُ. وقيلَ أنه لم يزلْ الرشيد مروياً في أمورِ البرامكة حتى وقفَ عليه فصممَ.

باب

في مصاحبة الملوك ومخالطتهم وكيفية التحرز منهم في حال مجالستهم لهم ومباسطتهم

يجبُ أولاً على الملوك أن يختاروا لمجالستهم، مَنْ جَمَعَ الرأيَ والعقلَ وجودة الأدب والفضلِ، واتصفَ بمكارمِ الأخلاق، وطيبِ الأعراق [٣].

قالَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم: "مثلُ الجليسِ الصالحِ كالداري إنْ لَمْ يحذيكَ من عطرِه، عَلَقَكَ من ريحه، ومثلُ جليسِ السوء، ككيرِ الحداد إن لم يحرقْك بنارِه، عَلَقَكَ من دخانه) [٤]. (قلتُ الداري: العطارُ، ويحذيكَ: أي يعطيكَ ويهبُ لكَ).

وقال بعضُ الحكماءِ: مجالسةُ أهلِ الديانة تجلي القلوبَ، وتصدي الذنوبَ، ومجالسةُ

=

(١) مقامات الحريري والأبيات وردت في آخر المقامة السادسة المراغية، ص ٣٧..

(٢) تقدم ترجمته في: باب في ذكر مجامع ما يجب أن يتصف به الملك من الطرائق الجميلة.

(٣) الأعراق: الأصل والمنبت. والجمع: عروق وأعراق. القاموس المحيط.

(٤) صحيح مسلم، ج ٨ ص ٣٨ باختلاف في بعض الألفاظ؛ سنن أبي داود، ج ٤ ص ٢٥٩، وفي الحديث دليل على الرغبة في صحبة الصلحاء والعلماء ومجالستهم، فإنها تنفع في الدنيا والآخرة، وإلى الاجتناب عن صحبة الأشرار والفساق فإنها تضر ديناً ودنيا؛ عون المعبود، شرح سنن أبي داود، ج ١٣ ص ١٧٨.

ذوي المروءات تدلُّ على مكارم الأخلاق [١].

وقيلَ: من ضيعَ عاقلاً دلَّ على ضعفِ عقله، ومن اصطنَع جاهلاً أعربَ عن فرط جهله[٢].

قال الشاعر:

عنِ المرءِ لا تَسَلْ وسلْ عن قرينه ... فكل قرين بالمُقارنِ يَقْتَدي [٣]

وقال آخر:

قارنْ إذا ما قارنتَ حراً فإنما ... يزينُ ويزرى بالفتى قرناؤُهُ [٤]

وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: (المرءُ على دينِ خليله، فلينظرْ أحدُكُمْ مَنْ يخالِلْ) [٥].

ومن كتاب المبهج: لا يتخذُ الملك الأعوانَ، إلا أعيانْ، والأخلاءَ إلا أجلاءَ والندماءَ إلا كرماءَ. ويجبُ على من يجالسُ ملكاً، ملازمةُ الأدبِ في جميعِ أحواله وأن لا يغترَّ بإدناءِ الملكِ له وإقباله. وقال بزرجمهرُ[٦]: مَنْ جالسَ الملوكَ بغيرِ أدبٍ، فقد خاطَر بنفسه. وقال

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص ٣٣٤.

(٢) سلوك المالك في تدبير الممالك، ص ١٤٧؛ كتاب الأمثال، للثعالبي، ص ٥٤.

(٣) العقد الفريد، ج ٢ ص ٢٠٤ وفيه: عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه؛ الصداقة والصديق، ص ٨٥؛ نهاية الأرب، ج ٣ ص ٦٥؛ بهجة المجالس ق/ ١، ص ٧٤٩؛ ديوان الحماسة، للبحتري، ص ٢١١، والبيت منسوب في هذه المصادر لعدي بن زيد.

(٤) الموشى، أو الظرف والظرفاء، ص ٢٤ ونسبه إلى يحيى بن أكثم؛ ديوان طرفة بن لعبد، ص ١٣٨؛ تهذيب تاريخ ابن عساكر، ج ٦ ص ٣٧٨ ونسبه إلى صالح بن عبد القدوس.

(٥) سنن أبي داود، ج ٤ ص ٢٥٩؛ المستدرك، ج ٤ ص ١٧١ وقال. حديث صحيح؛ سنن الترمذي، ج ٤ ص ١٧، وقال حديث حسن غريب ومعناه والله أعلم، أن المرء يعتاد ما يراه من أعمال صحبه، فلهذا أمر أن لا يصحب إلا من يرى منه ما يحل ويجمل فمن رضي دينه وخلقه خالله؛ عون المعبود شرح سنن أبي داود، ج ١٣ ص ١٧٩.

(٦) هو بزرجمهر بن البخت. كان وزير ابرويز والغالب عليه والمدبر لأمره وهو معدود من حكماء الفرس، ثم اتهم بالزندقة وحبس، ثم أمر به وقتل وعندها تغيرت الأمور على ابرويز، واختلط عليه ملكه، ولبزرجمهر في أيدي الناس حكم ومواعظ وكلام كثير في الزهد وغيره. مروج الذهب، ج =

الفضلُ بنُ الربيع: مساءلةُ الملوكِ عن أحوالهم، تحيُه النوكى [١] أو الحمقاء. وقال غيرُه: الأمراءُ لا ينصتون. وقال آخرُ: لا تسلم على الملك فإنه إن أجابك شق عليه وإن لم يجبك شق عليك.

وقال بعضُ الحكماءِ البلغاء: إذا جلستَ على موائدِ الملوكِ، فصم عن الكلام، ولا تشره إلى الطعام، وإذا حدثك الملكُ فاستمعْ إليه، وأقْبِل بوجهك عليه، ولا تُعْرِض عن قوله، ولا تعارضُه بمثله. وقال: إذا جعلك الملكُ من خاصته وأهلكَ لمعاشرته، فلا تؤمنُ على دعوته، ولا تشمته على عطسته، ولا تسألْهُ عن حاله، ولا تعزْه على ميته، ولا تلقَهُ بالسلام، ولا تعالجه بالكلام، ولا تزاحمْه بالتدبير، ولا تعاتبْه في التقصير، ولا تعرضْ عنه إذا أخبرَ ولا تكثرْ عليه إذا استخبرَ، ولا تصلْ حديثاً بحديث، ولا تعارضْ أحداً في الحديث، ولتكن ألفاظُك شهيةً لا تملُّ، ومعانيك صحيحةً لا تختلُّ.

وقالَ الرشيدُ لاسماعيل بنِ صبيح[٢]: إياكَ والدالة فإنها تفسدُ الحرمة ومنها أتى البرامكةُ، قال المتنبي [٣]:

(وَكَمْ ذَنْبٍ مُوَلِّدُهُ دَلَالٌ ... (وَكَمْ بُعْدٍ مُوَلِّدُهُ اقترابُ)[٤]

=

١ ص ٢٠٨- ٢٠٩.

(١) هو أبو العباس الفضل بن الربيع بن يونس. تولى وزارة الرشيد، وكانت نكبة البرامكة على يديه وبسعايته، مات الرشيد وهو على الوزارة، وهو الذي قام بأعباء خلافة الأمين، فلما قتل الأمين اختفى، ثم أمنه المأمون ولم يزل خاملاً حتى مات سنة ٢٠٨ وله من العمر ٦٨ سنة. شذرات الذهب، ج ٢ ص ٢٠؛ وفيات الأعيان، م ٤ ص ٣٧؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٦٣.

(٢) هو اسماعيل بن صبيح الكاتب، ولاه المهدي زمام ديوان الخراج سنة ١٦٨هـ . فجعله المأمون ومعه علي بن صالح على ديوان التوقيعات. خلاصة الذهب المسبوك، ص ١٧٤.

(٣) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي المعروف بالمتنبي. حامل لواء الشعر في عصره، ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ وأكثر المقام بالبادية طلباً للأدب، ففاق أهل زمانه، مدح الملوك ولزم جناب سيف الدولة بن حمدان، ثم رحل إلى مصر وامتدح الأخشيد ثم هجاه، وهرب منه. لقب بالمتنبي لأنه كان قد ادعى أنه علوي، ثم ادعى أنه نبي يوحى إليه، ولكن المتنبي كان ينكر ذلك ويجحده ويتنصل منه، قتل سنة ٣٥٤ هـ .. وفيات الأعيان، م ١ ص ١٢٠- ١٢٥؛ شذرات الذهب، ج ٣ ص ١٣- ١٥؛ النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ٣٤٠.

(٤) ديوان المتنبي بشرح البرقوقي، م ١ ص ٢١٠، والمعنى قد يتولد الذنب من الدلال فيأتي المدل

وقال أبو الفتح البستي: أجهلُ الناس مَن كان على السلطانِ مدلاً وللإخوان مذلاً. ومن كتاب كليلة ودمنة [١]: موصلُ الدالة[٢] على السلطانِ كالعابثِ بالأسدِ والمستأنسِ بالنمرِ. وقال ابنُ المقفعِ [٣]: من خدمَ الملوكَ فعليه بالملازمة من غيرِ المعاتبة.

ومن كتاب المبهج: لا تستقبلُ سخطَ الملكِ عليكَ بمعارضته ومناقضته ولا تستجلبْ رضاه بمحاجته وملاحاته[٤] لكن بالتزام الجناح وركوب الصعب والذلول في التماس عفوه وتجشم الحرون[٥] والسهول بالاستعاذة من سطوته، ثم إياك والتهكم في التحكم على الملوك. وقيل: اعتذر رجل إلي عبيد الله[٦] وزير المهدي بعذر غير سديد،

=

بالذنب يظنه دلالا وقد يكون البعد سببه القرب، أي أنهم أدلوا عليك لفرط إحسانك إليهم فأتوا في ذلك بما صار ذنباً وجناية منهم.

(١) كليلة ودمنة، كتاب وضعه بيدبا الفيلسوف الهندي على ألسنة البهائم والطير من مجموعة من القصص تدور حول ما يجب أن يجري عليه الحكام في حكمهم وسياسة دولهم. وسمي الكتاب باسم أخوين من بنات آوى وهما كليلة ودمنة، وأخبارهما في بابين من أبواب الكتاب هما باب الأسد والثور، وباب الفحص عن أمر دمنة. وقد ترجم هذا الكتاب عبد الله بن المقفع واقتبس منه كثيراً.

(٢) الدالة: دل المرأة ودلالها: تدللها على زوجها، تريه جراءة عليه كأنها تخالفه وما بها خلاف. والدالة: ما تدل به عل حميمك. وأدل عليه: انبسط فأفرط. القاموس المحيط.

(٣) ابن المقفع: هو عبد الله بن المقفع، الكاتب الفارسي الأصل، أسلم على يد عيسى بن علي، عم السفاح والمنصور، كان متهماً بالزندقة وهو الذي ترجم كَتاب دليلة ودمنة عن اللغة الفهلوية- الفارسية القديمة- إلى اللغة العربية، وله كتاب الأدب الكبير، والأدب الصغير، قتل على يد سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب والي البصرة بأمر من المنصور سنة ١٤٥. البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٩٦؛ الفهرست، ص ١١٨.

(٤) ألح في السؤال: ألحف. والملاحاة: المراددة بالكلام والطلب بالعنف.

(٥) حرنت الدابة في حرون، أي لا تنقاد وإذا اشتد به الجري وقف. القاموس المحيط.

(٦) الصواب هو عبيد الله. واسمه معاوية بن يسار، كان أوحد الناس علماً وخبرة، كتب للمهدي قبل الخلافة فلما تولى المهدي إمرة المؤمنين فوض إليه تدبير المملكة فاخترع أمورًا منها نقل الخراج إلي المقاسمة وصنف كتاباً في الخراج، ومات أبو عبيد الله معاوية بن يسار في سنة ١٧٠ هـ ..

=

فقال: ما رأيتُ عذراً أشبه باستئناف ذنب من هذا.

وقال آخر: في مثله عذرك هذا يحتاج إلى معذرة. وقال أبو بكر الطبري لتلميذ له اعتذر إليه بعذر فاسد: عُذرك هذا عَذْرَةٌ لا معذرةٌ[١]. وقال الصاحب بن عباد[٢]: رضي السلطان لا يغلو بشيءٍ من الأثمان ولو ببذل الروح والجنان.

وقال المأمون: الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثًا: الطعن في الملك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم. وقال العباس [٣] لابنه عبد الله [٤] رضي الله عنهما، وقد كان يختص بعمر: يا بني أني أرى هذا الرجل يدينك وإني موصيك بخلال لا تفشين له سراً ولا تخونن له عهداً ولا تغابن عنده أحدًا ولا تطوي عنه نصيحة.

وقال ابن المعتز: إذا زادك الملك تأنيساً فرده إجلالاً.

=

الفخري، ص ١٨٢؛ وفيات الأعيان، م ٧ ص ٢٦.

(١) العذرة: الغائط، وتطلق على فناء الدار أيضًا. والمعذرة والعذرى بمعني العذر. واعتذر إلى: طلب قبول معذرته. واعتذر عن فعله: أظهر عذره. والمعتذر يكون محقًا وغير محق.

(٢) هو أبو القاسم: الصاحب إسماعيل بن عباد الوزير المشهور بكافي الكفاة من الطالقاني أصلاً، كان يعد نادرة دهره وأعجوبة عصره في فضائله ومكارمه. وقال فيه أبو بكر الخوارزمي: (الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها ودب ودرج من وكرها، ورضع أفاويق درها، كان يصحب ابن العميد ومن هنا لقب بالصاحب. توفي سنة ٣٨٥ هـ .. شذرات الذهب، ج ٣ ص ١١٣ – ١١٤؛ وفيات الأعيان، م ١ ص ٢٢٨؛ النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ١٧١.

(٣) العباس: هو أبو الفضل العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم، شهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة، وأكد له البيعة على الأنصار، أسلم عام الفتح، ويقال إنه أسلم قبل ذلك ولكنه أقام بمكة بإذن الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان الرسول يكرمه ويجله والخلفاء من بعده، توفي سنة ٣٢ هـ . وصلى عليه عثمان رضي الله عنه. شذرات الذهب، ج ١ ص ٣٨؛ المعارف، ص ٥٣؛ الطبقات الكبرى، ج ٤ ص ١ – ٢٢؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ٨٩.

(٤) هو أبو العباس عبد الله بن عباس حبر الأمة، وترجمان القرآن وأبو الخلفاء العباسين.

وقال الشاعر:

إذا أدناكَ سلطان فزِدْهُ من التعظيم واحذَرْهُ وراقبْ
فما السلطانُ إلا البحرُ عُظْمًا وقُرْبُ البحرِ مَحْذُورُ العواقب (١)

وقال ابنُ عباد:

إذا صحبتَ الملوكَ فالبس من التحلي أجلَّ ملبس
وادخلْ إذا ما دخلـ ـتَ أعمى واخرج إذا ما خرجت أخرس (٢)

وقيلَ: السلطانُ كالنارِ إن باعدْتَها بطل نفعُها وإن قاربتَها عظُم ضررُها. وقالَ آخرُ: ليكنْ السلطانُ عندكَ كالنار لا تدنو منها إلا عند الحاجة فإن ابتليتَ فعلى حذر.

وقالَ ابنُ المعتز: أشقى الناسِ بالسلطانِ صاحبُه كما أنَّ أقربَ الأشياءِ إلى النار أسرعُها احتراقاً. وقيلَ: صاحبُ السلطانِ كراكبِ الأسد يهابُهُ الناسُ وهو لمركوبه أهيبُ.

وقيلَ: مثلُ أصحابِ السلطانِ، كقوم رقوا جبلاً، ثم وقعوا منه فكانَ أبعدَهم في المرقى، أقربَهم إلى التلف.

وقيل: مثل السلطان مثلُ الجبلِ الصعبِ الذي فيه كلُّ ثمرةٍ طيبة، وكلُّ سبعٍ حطومٍ (٣)، فالارتقاءُ إليه شديدٌ والمقامُ فيه أشدُّ. وقال ابنُ المعتز: من صحبَ السلطانَ فليصبرْ على قسوته، كما يصبرُ الغواصُ على ملوحةِ بحره. وقال أيضاً: لا تلتبسْ بالسلطانِ في حالَ اضطرابِ الأمورِ عليه فإنَّ البحرَ لا يكادُ يسلَمُ راكبُهُ في حالِ سكونه فكيفَ عند اختلافِ رياحه واضطرابِ أمواجه. وقال أيضاً: إن كانَ البحرُ كثيرَ الماءِ فإنه بعيدُ المهوى. وقال أبو الفتح البستي، شعراً:

(١) زهر الآداب، ج ٢ ص ٦٧٥ ونسبها للصاحب بن عباد؛ نهاية الأرب، ج ٦ ص ١٥؛ ديوان الصاحب بن عباد، ص ١٩١- ١٩٢.

(٢) التذكرة السعدية في الأشعار النجدية، ص ٣٩؛ التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ص ٨٥؛ مجمع الحكم والأمثال، ص ٤٦٧؛ برد الأكباد في الاعداد، للثعالبي، مخطوط ونسبها إلى أبي الفتح البستي.

(٣) الحطم: الكسر. والحاطوم: السنة الشديدة. القاموس المحيط.

صاحبُ السلطان لا بُدَّ لهُ من هُمُومٍ تعْتَريه وغُمَمْ
كالذي يَرْكَبُ بَحْراً سَيَرى قُحَمَ الأهْوَالِ من غير قُحَمْ (١)

وقالَ ابنُ المعتز: مَنْ شاركَ السلطانَ في عزِّ الدنيا، شاركَهُ في ذلِّ الآخرة. وقالَ أيضاً: لا يُدْرِكُ الغنى بالسلطان، إلا نفسٌ خائفةٌ ودين. منثلمٌ.

وفي بعض الأخبار: (من اقتربَ من أبواب السلطان افتتنَ).

ويجبُ على من صحبَ (الملوكَ) وجالسَهم، وصارَ من أهلِ المباسطة لهم والمؤانسة، أن لا يطوَي عنهم نصيحةً تعودُ عليهم في صلاحِ الدينِ ودوامِ المملكة، وحسنِ الأحدوثة عنهم. قالَ صلى اللهُ عليه وسلم: "رأسُ الدينِ النصيحةُ" (٢) ولا يحملْهُ ما يراهُ من محبة الملك لما يرتكبُه من لذيذ شهواته وسروره بما يتأتى له من درك إرادته، وارتياحه إلى تنفيذ أوامره ونواهيه واغتباطه من السياسة بما يذرهُ ويأتيه، مما يكسبُه اثماً أو يلحقُه وصماً أو تعودَ عاقبتُه إلى فسادٍ في مملكته أو اختلالٍ في دولته، على موافقته في استحسان ما استحسنَه، ومتابعته على استصواب، ما خيلَ إليه رأيُه من ذلكَ وزينَه، فإنَ ذلكَ من أعظمِ دلائلِ الخيانة، وهو مباينٌ لسبيلِ النصحِ والأمانة بل ينبغي أن يتلطف له في حال استئناسه به وميله إليه وإدنائه منه وإقباله عليه بإرشاده إلى أوضحِ الطرق وأنهجِ السبلِ ويبينُ لهُ ما ينتجُه فعلُهُ من الفسادِ والخللِ، فإنهُ متى قصدَ بذلكَ من إخلاصِ قلبه ونيته وصدق

(١) التمثيل والمحاضرة، ص ١٥١- ١٥٢؛ زهر الآداب، ج ١ ص ٢١٢. والقحم: المصاعب.

(٢) ورد الحديث بهذا اللفظ في الجامع الصغير، ج ٢ ص ٢٠؛ وعند الطبراني في كتابه الأوسط وروى في مصادر السنة الأخرى كسنن النسائي، ج ٧ ص ١٥٦ "إنما الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"؛ وفي سنن الترمذي، ج ٣ ص ٢١٧، "الدين النصيحة" وقال هذا حديث حسن؛ وفي سنن أبي داود، ج ٤ ص ٢٨٦ بلفظ (إن الدين النصيحة) والنصيحة كلمة يعبر بها عن جملة، هي إرادة الخير للمنصوح له فمعنى النصيحة لله، اعتقاد وحدانيته، والإخلاص في عبادته، والنصيحة لكتاب الله، التصديق به والعمل بما فيه، ونصيحة الرسول صلى الله عليه وسلم التصديق بنبوته ورسالته، والانقياد لما أمر به ونهى عنه، ونصيحة الأئمة، أن يطيعهم في الحق، ولا يرى الخروج عليهم، ونصيحة عامة المسلمين، إرشادهم إلى مصالحهم عون المعبود، ج ١٣ ص ٢٨٨.

ضميره، ورغبته إظهار النصح الواجب عليه لأميره وسلطانه ومنْ أنعمَ عليه بعوائده وإحسانه[١]، وتأدية النصح والأمانة والتنكب عنْ مناهج الغش والخيانة. أوقعَ اللهُ تعالى في قلب سلطانه قبولَ نصيحته والاصغاءَ إلى مشورته. ولو اتفقَ لسلطانه مثلاً كراهيةٌ لقوله واتهاماً في نصحه وغضبٌ من موعظته له واستعظامٌ للإنكار عليه في الحال فيوشكُ عن قرب أن ينصحَ له عندَ اختلال تدبيره وفساد أموره استصواباً لما سبقَ من رأيه ونصيحته، ويندمَ على ما فرطَ من إنكاره عليه، ومخالفته فيكسبُه ذلك عندَه من نزلةً لا يساميه فيها سواه ولا يساويه أحدٌ من قصرَ عن وصول مداهُ ومتى تابعَهُ على رأيه المعتلِ ونظره المختلِ مع علمه بفساده خوفاً من سخطه وإبعاده فيوشكُ أن يسخطَه اللهُ عليه وترجع عاقبة مكره إليه[٢].

قالَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلمَ «من التمسَ رضى الله بسخط الناسِ رضيَ اللهُ عنهُ وأرضَى الناسَ ومن التَمس رضى الناسِ بسخط الله سخطَ اللهُ عليه وأسخط الناسَ»[٣].

ودخلَ الفضلُ بنُ سهل[٤] على المأمون وبين يديه الشطرنجُ[٥] يلعبُ بها فرمَى بها

(١) بعوائده بره وإحسانه.

(٢) فمن حق إمام المسلمين على الأمة، أن تطيعه وتنصح له، وتأمره بالمعروف، وتنهاه عن المنكر، لأن الدين النصيحة... لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. والنصيحة للأئمة معاونتهم على ما تكلفوا القيام به وتحذيرهم سن السوء وعاقبته وقد ضرب لنا أهل الصدر الأول النماذج الرائعة في هذا.

(٣) سنن الترمذي، ج ٤ ص ٣٤، باختلاف لفظي يسير.

(٤) هو أبو العباس الفضل بن سهل السرخسي. أسلم على يد المأمون سنة ١٩٠ هـ . ووزر له، وكان يلقب بذي الرياستين الحرب والسياسة وغلب على المأمون بخلاله الجميلة من الوفاء والبلاغة والكتابة حتى صار الأمر كله إليه، قتل بسرخس سنة: *** وقيل سنة ٢٠٢ هـ .، النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ١٧٢- ١٧٣؛ وفيات الأعيان، م ٤ ص ٤١؛ شذرات الذهب، ج ٢ ص ٤.

(٥) قالوا: إن أصل الشطرنج من وضع الفرس وضعه رجل يسمى صصه وقيل أنه من مبتكرات الهند وإن بعض ملوكهم كان له ولد يسمى شاه أخرجه إلى بعض الحروب، فقتل فيها فهاب الناس أن =

وقالَ: أنا أحدثُ الناسَ أن أميرَ المؤمنين منفردٌ بالصلاةِ والعلم، والنظر في أمورِ المسلمينَ، وهو على هذه الحال، فشكَر له على ذلكَ.

ومن النصحِ أن ينبهُ دائماً على طرقِ المكارمِ والمفاخرِ والمساعي الحميدةِ والمآثر ليسلكهَا ويهجنَ عنده المساوئ والقبائحَ ويبالغَ في ذمها ليتجَنبها ويذكرَ عنده طرق الأخيارِ ومحاسنَ السيرِ والآثارِ وما جرى للملوكِ من قبله، من المساعي الشريفةِ والآثارِ الحميدةِ وحسنِ السيرةِ ليقتديَ بهم في المناقبِ والفضائل ويتنكبَ عن سبلِ المثالبِ [1] والرذائلِ ليستعملَ ما يوردُهُ من أمثالِ الحكماءِ وأقوالِ البلغاءِ وليكنْ على الجملةِ كما سبقَ في وصيةِ العباسِ رضيَ اللهُ عنه لابنه.

أو كما قال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ من صحبنَا فليصحبْنا بأربعِ خصال يدُلُنا على عيوبنا، ويرفعُ إلينا حاجة من لا يصلُ إلينا، ولا يفشينَّ لنا سراً ولا يغتابنَّ عندنا أحداً، وينبغي له أن يكونَ حسنَ المحضرِ في حقِ الغائب، مجتهداً في بذلِ الشفاعة للمذنب والمطالب. قال الله تعالى: ﴿ **مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا** ﴾ [2].

=

يعلموه موت ولده، فوضع حكماؤه الشطرنج ولعبوا بها بين يدي الملك، فقال الغالب للمغلوب شاه مات، ففطن الملك للمراد وأصل الشطرنج شش رنك ومعناها في لغتهم ستة ألوان غرر الخصائص، ص ١٢٠.

(١) المثالب: ثلبه ثلباً عابه وتنقصه، والمثلبة المسبه والجمع المثالب/ المصباح المنير.

(٢) آية ٨٥ من سورة النساء. وأصل الشفاعة من الشفع وهو الزوج في العدد ومنه الشفيع لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعاً والشفع ضم واحد إلى واحد وهي كما قال الإمام القرطبي إظهار لمن نزلة الشفيع عند المشفع وإيصال المنفعة إلى المشفوع له واختلف المفسرون في هذه الآية على أقوال نقلها الإمام القرطبي في تفسيره لسورة النساء. فقال مجاهد والحسن وغيرهم في شفاعات الناس بينهم في حوائجهم فمن يشفع، لينفع فله نصيب، ومن يشفع ليضر فله كفل. وقيل يعني بالشفاعة الحسنة الدعاء للمسلمين والسيئة الدعاء عليهم. وقيل المعنى من يكن شفعًا لصاحبه في الجهاد يكن له نصيبه من الأجر ومن يكن شفعًا لآخر في باطل يكن له نصيب من الوزر وكأن =

وقالَ صلىَ اللهُ عليهِ وسلمَ: «اشفعُوا تؤجروا ويقضِي اللهُ على لسانِ نبيهِ ما شاءَ» [١] وقالَ صلىَ اللهُ عليهِ وسلمَ: "من كانَ وصلةً لأخيهِ إلى ذي سلطانٍ في منهجِ برٍ أو تيسيرِ عسيرٍ أعانَه اللهُ على إجازةِ الصراطِ يومَ تدحضُ فيه الأقدامُ" [٢] وقال زيادٌ: اشفعوا لِمَنْ وراءكم فليس كلُ أحدٍ يصلْ إلى السلطانِ ولا كلُ من يصلُ إليهِ يقدرُ على كلامه. وقالَ بعض الكتابِ بقدحِ الشفيعِ توري نارَ النجاحِ ومن كفِ المغيضِ ينتظرُ فوزَ القداحِ.

وقال البحتريُ [٣]:

=

هذا القول جامع: تفسير القرطبي، سورة النساء. وذكر الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن في تفسير هذه الآية أن معناها: فليشفع الإنسان الشفاعة الحسنة، ليصل خيراً إلى من يستحق الخير، غير مضار لبرئ، أو مضيع حقاً على صاحب حق، أو معطل لحد من حدود الله فهذه هي الشفاعة الحسنة التي تنفع ولا تضر وليتق الشفاعة السيئة التي تؤدي إلى أكل مال بالباطل أو تعويق صاحب مكان عن مكانه أو إهدار لحرمة من حرمات الله والناس فإن لصاحب الأولى نصيباً طيباً من شفاعته ولصاحب الأخرى وزراً يحتمله من سيئته/ ظلال القرآن، ج ٥ ص ٥١؛ تفسير سورة النساء.

(١) سنن أبي داود، ج ٤ ص ٣٣٤؛ سنن الترمذي، ج ٤ ص ١٤٨، وقال هذا حديث حسن صحيح؛ صحيح البخاري، ج ٨ ص ١٥؛ صحيح مسلم، ج ٨ ص ٣٧، ومعنى الحديث أنه إذا عرض المحتاج حاجته فاشفعوا له، فإنكم إن شفعتم حصل لكم الأجر، قبلت شفاعتكم أم لا فإن قضيت حاجته من شفاعتكم، فهو بتقدير الله وإن لم تقض فهو بتقدير الله أيضاً/ عون المعبود؛ شرح سنن أبي داود، ج ١٤ ص ٤٠.

(٢) السنن الكبرى، ج ٨ ص ١٦٧. لما كان لا يصل إلى السلطان كل أحد فقد تكون هناك حاجة لا تقضي إلا بعرضها على السلطان لذلك جعل الإسلام إيصالها إلى السلطان، وإنهاء خبرها إليه، ليقوم بحلها مساعدة للمظلومين ورفعاً للحيف عنهم، وجعل لمن قام بها، أن أعانه على تجاوز الصراط يوم العرض الأكبر.

(٣) البحتري: هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي. أمير شعراء العصر، ولد بمنبج سنة ٢٠٥ هـ ،، ونشأ بها ورحل إلى العراق ومدح الخلفاء وأكثر في مدح المتوكل على الله ثم عاد إلى الشام =

وعطاء غيرِكَ أن بذل . ت عنايةَ فيه عطاؤك (١)

وقالَ آخرُ:

خليليَّ ماذا ارتجي من غدٍ أمرئ طَوَى الكَشْحَ (٢) **عني اليومَ وهوَ مكينُ**
وإنَّ أمراً قد ضن يوماً بمنطق يسـ ـد بـ ـه فقـ ـر امـ ـرءٍ لضنيـ ـن (٣)

وقالَ آخرُ:

وأَهونُ ما يُعْطى الصديقُ صديقَهُ من الهيِّن الموجودِ أن يتكلما (٤)

وليتجنب السعايةَ بكل حال، فإنها دناءةٌ وسخفٌ.

قالَ صلىَ اللهُ عليهِ وسلمَ: "لا يدخلِ الجنةَ قتاتٌ" (٥) (قلتُ القتاتُ: النمائمُ" قال

=

بعد قتل المتوكل على الله، توفي سنة ٢٨٤ هـ .؛ وفيات الأعيان، م ٦ ص ٢١؛ شذرات الذهب، ج ٢ ص ١٨٦؛ النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ٩٧؛ البداية والنهاية، ج ١١ ص ٧٦.

(١) ديوان البحتري، ج ٢ ص ١٥٠؛ نهاية الأرب، ج ٣ ص ٩٨؛ شرح نهج البلاغة، م ٤ ص ٢٧٣.

(٢) الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع، والكاشح الذي يطوي كشحه على العداوة، وقيل الذي يتباعد عنك/ المصباح المنير.

(٣) زهر الآداب، ج ٢ ص ٦٩٦؛ ونسب الأبيات، لدعبل الخزاعي؛ والضنين: الخيل المتهم.

(٤) زهر الآداب، ج ٢ ص ٦٩٧.

(٥) صحيح البخاري، ج ٨ ص ٢١؛ السنن الكبرى، ج ٨ ص ١١٦؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ٢٥٣؛ وقال هذا حديث حسن صحيح، سنن أبي داود، ج ٤ ص ٢٦٨، لا يدخل الجنة نمام لأنه يتتبع عورات الناس ويفتش عن معايبهم ليتخذ من ذلك سلاحاً يطعنهم به من الخلف ثم هو لا يبالي باختلاق الكذب، واختراع الباطل في سبيل ايذاء الأبرياء ولقد ذكر الأئمة وكل من كتب في الأحكام السلطانية أخطار النميمة والسعاية بالناس إلى السلطان بعد أن عرفوها وبينوا حكمها وحقيقتها فقد قال الغزالي: "هي كشف ما يكره سواء كرهه المنقول عنه، أو المنقول إليه وسواء كان الكشف بالقول أو الكناية"، وقال البلالي: "هي نقل مكروه ليفسد"، وحكمها التحريم لتظافر الأدلة على ذلك، ومنعه من دخول الجنة التي جعلها الله داراً للمتقين، وحرمها عل =

الأحنفُ بنُ قيس [١] في ذكرِ السعاة، ما ظنُك بقوم الصدق محمودٌ إلا منهم وقالَ لهُ رجل، أخبرني ثقةَ عنك بسوء مقالَ الثقةُ لا يذُّم وقالَ بَعْضهُمْ: الساعي كاذبٌ لِمَنْ يَسْعَى لَهُ أَوْ خَائِن لِمَنْ يَسْعَى عَليه وَقِيل السَّاعي يَقْتُل ثَلاَثةً: نفْسَهُ وَسُلْطانَهُ وَالمَسْعِيَّ به. وَكَتَبَ سوارُ بنُ عَبد الله [٢] القاضي إلى المنصور أن رَجُلاً مِنْ حمير يَشْتُمُ السَّلَفَ فَكَتَبَ إليه المنصورُ: إنَّا بَعثناكَ قاضياً وَلَمْ نَبْعَثكَ ساعياً. وَرفعَ إلَى بعضِ الخُلفاءِ أن رجلاً ماتَ وترك مالاً كثيراً وَلا وارثَ لَهُ إلا ولدّ صغيرٌ فوقَّعَ عَلى ظَهْرِ الرقعِ المرفوعِ إليه الميت رحمهُ الله

=

المفسدين. كما بينوا مفاسدها وأنها كثيرة ومنها إفساد المحبة بين الناس وإيقاع الضرر بعباد الله الأبرياء، كما بينوا مضارها على السلطان وإنها قد تسبب خراب الملك حتى قال ابن حزم: "ما هلكت الدول ولا انتقضت الممالك ولا سفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الأستار بغير النمامُ والكذب والواجب على السلطان عندها أن يكون يقظاً مثبتاً في أمر العامة والخاصة وكل ما ينهى إليه وأن يكشف عن ذلك ويوبخ الساعي حتى لا يعود إلى مثله فقد يفسد الساعي بالمضرة ما لا يفسد الساحر". انظر: بدائع السلك، ج ٢ ص ١٧- ٢٤؛ مختصر منهاج القاصدين، ص ١٧٥- ١٧٦؛ سراج الملوك، ص ١٣٣- ١٣٦.

(١) هو أبو البحر الضحاك بن قيس بن معاوية المري. ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، وكان ثقة مأموناً قليل الحديث، وفد على عمر عندما آلت إليه الخلافة فاحتبسه حولاً ثم قال يا أحنف قد بلوتك وخبرتك فلم أرى إلا خيراً ورأيت علانيتك حسنة وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك وأمر أبا موسى الأشعري بمشاورة الأحنف والسماع منه وكان صديقاً لمصعب بن الزبير وفد عليه بالكوفة وتوفي بها، ورؤى مصعب في جنازته يمشي بغير رداء/ وفيات الأعيان، م ٢ ص ٤٩٩- ٥٠٦؛ الطبقات الكبرى، ج ٧ ص ٦٦؛ المعارف لابن فتيبة، ص ١٨٦- ١٨٧.

(٢) هو سوار بن عبدالله القاضي تولى قضاء البصرة للمنصور ثم جمع له المنصور القضاء والصلاة بعد عزل والي البصرة الهيثم بن معاوية سنة ١٥٦هـ .؛، وكان عادلا في حكمه لا يحابي شكاه أهل البصرة للمنصور، فلم يستجب لطلبهم، توفي سنة ١٧٥، وصلى على ابن دعلج/ الطبري، ج ١٠ ص ١٢٤، ٣٧٨، ٣٨٠؛ النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٣٠.

واليتيم جَبَرُه اللهُ والمالَ أنماهُ الله والساعي لعنهُ اللهُ.

وقالَ الحريري: زَيَّنْ الرُّعاة مَقْتُ السُّعاة [١] وقَالَ آخر: جزاءُ السُّعاةِ مَقْتُ الرَّعاةِ.

باب

في اختيار الأجناد والحماة

ووصف الإبطال منهم والكماة

قالَ الصابيُّ [٢]: المَلكُ أحقُّ باصطفاءِ رجاله منْهُ باصطفاءِ أمواله لأنَّهُ مَعَ اتساع الأمرِ وجلالة القَدْرِ لا يَكتفي بالوحدة ولا يَسْتغني عَنِ الكثرة وَمَثَلُهُ في ذلكَ مثل المسافرِ في الطَّريقِ البعيدة الذي يَجبُ عليه أنْ تكونَ عنايتُهُ بفَرَسِه المجنوب [٣] مثلَ عنايته بفَرَسِه

(١) مقامات الحريري، المقامة السابعة عشر المسماة القهقرية، ص ٩٤.

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم الحراني الصابي كاتب الرسائل للخليفة القادر بالله ولمعز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه الديلمي فلما قتل عز الدولة وملك عضد الدولة اعتقله ثم أطلقه وكان الصابي على دين الصابئة ومات عليه ومع هذا كان يقرأ القرآن من حفظه ويستعمل منه في رسائله توفي سنة ٣٨٤ هـ . وله من العمر ٧١ سنة ورثاه الشريف الرضي وقال: إنما رثيت فضائله وعلق ابن كثير على هذا القول: (بقوله ليس له فضائل ولا هو أهل لها ولا كرامة)/ وفيات الأعيان، م ١ ص ١٦٧؛ النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ١٦٧؛ البداية والنهاية، ج ١١ ص ٣١٣.

(٣) المجنوب والجنيبة: الفرس تقاد ولا تركب فيقال جنبته أجنبه إذا قدته إلى جنبك/ المصباح المنير.

المركوب.

قالَ الشاعرُ:

وَشَرْطُ الفلاَحَة غرْسُ الثِّمارِ وشَرْط الرِّياسَة غَرْسُ الرِّجَالِ (١)

وَمن كتَاب المُبهج أمورُ الملك بأصحاب الذرائع والأقلام وأرباب الدّروع والأعلام فأولئكَ للكتُب والآراء وهؤلاء للكتَائب والرَّايات للأعداء. وقال: إذا شَحَنَ الملكُ قلوبَ جُنْده بالشّحناء فلا ينتظرَن منْهُمْ حُسْنَ البلاءِ وقالَ: خَادمُ الملك لا يتقدّمُ في رضاه خطوةً إلا استفادَ بهَا حَظْوَةً.

وقَالَ: إذا اصطنَعَ الملكُ أمراً فَلْيُثبِّتَ قَدَمَهُ وَليبثَ قوادمَهُ.

وقالَ غَيْرُهُ: أَفضْ على جُنْدكَ واصرفْ إليهم حُسْنَ غناكَ فإنَّهُم أَهلُ الأَنفَة والحميَّة وحَفَظَة السَّادَة والرَّعيَّة وسيوفُ الملك والسلطان وحصونُ الممالك والبُلْدَان بهم تُدفعُ العوادي وَتُقْهَرُ المَعادي ويزولُ الخلَلُ وَيُضْبَطُ العملُ فَقَوِّ ضعيفَهُم يَقْوَ أَمْرُكَ وأَغنِ فقيرَهُمْ يَشْتَدْ أزْرُكَ وامْنَحْهُمْ قبْلَ العرْض واحترمْهُمْ قَبْلَ الفَرَض ولا تَثبُت منْهُم إلا على الوفيِّ الكميِّ (٢) الذي لا يعدلُ عن الوَفَاء ولا يَجْبُن عندَ الهيْجَاء فإنَّ المرادَ بهم قُوَّةُ العُدّة لا كثرةَ العَدِّة ومَنْ قُتلَ منْهُم في طاعَتكَ واستشهَدَ تَحْتَ رايَتكَ فاكْفلْ بَنيه وذبْ عَنْ أهليه فإن ذلكَ مما يزيدُهم رَغبةً في خدمتكَ وَيُسَهِّلُ عَلَيْهِمْ بذلَ المُهَجِ والأرواحِ في نُصْرَة دَوْلَتكَ.

وقَالَ: مَنْ أَبلى بدمه في خدمَتكَ وأَوْفَى في طَاعَتكَ فارْعَ ذمَامَهُ في حياته واكفلْ أيتامَهُ بَعْدَ وَفَاته فَإنَّ الوفاءَ لَكَ بقَدْر الجزاء منْكَ.

وقالَ: لا تُغْفلْ مكافأةَ مَنْ يَعْتَقدُ لَكَ الوفاءَ ويناضل عنْكَ الأعداءَ فمن حرمتَهُ مكافأةَ مثله زَهدَ في معاوَدَة فعْله.

وَقيلَ: مَنْ حَفظَ مالَهُ ضَيَّعَ رجالَهُ. أَيُّ مَلك أَحْسَنَ إلى كفاته وأعوانه استظهَرَ مُلْكَهُ وسلطانَهُ وأيُّ مَلك أساءَ إلى جيشَهَ وجنده أحْسَنَ إلى عَدُوِّه وَضدِّه.

(١) التذكرة السعدية في الأشعار العربية، ص ٤٠٢؛ التمثيل والمحاضرة، ص ١٢٧.
والبيت منسوب لأبي الفتح البستي.

(٢) الكمي: الشجاع المتكمى في سلاحه أي المتغطي المتستر بالدرع/ مختار الصحاح.

قالَ الصَّابِيُّ: الملكُ بمن غَلطَ من أَتباعه واتَّعَظَ أَشَدُّ انتفاعاً منْهُ بمَنْ لَمْ يَغْلطْ فَلَمْ يَتَّعظْ لأن الأولَ كالقارحِ [١] الذي أَدَّبَتْهُ الغرةُ وأصلحتْهُ النَّدامَةُ والثاني كالجذعِ المنهوكِ الذي هُوَ راكبٌ للغرةِ وراكنٌ إلى السلامَةِ والعربُ تَزْعُمُ أَنَّ العَظْمَ إذا جُبرَ بَعْدَ كَسْرٍ عادَ صاحبُهُ أَشَدَّ بَطْشاً وأقوى أيداً. وقالت العجَمُ ينبغي أن يكونَ في قائد الجيشِ وَثبةُ الأسد وأسلابُ الحداة [٢] وَختَلُ الذِّئْبِ ورَوغانُ الثَّعلَبِ وصَبْرُ الحمارِ وحملةُ الخنزيرِ وبَكورُ الغرابِ وَحراسةُ الكركيِّ [٣]. ومن كتابِ المبهجِ: أَحْسَنُ الجيوشِ ما كانَ ذَا أَفواجٍ كالأمواجِ وخيولٍ كالسيولِ ومراكبَ كالكواكبِ. الفارسُ من يَسبقُ فرَسهُ الرّيحَ ورَمْحُهُ الروحَ، الفارسُ مَن يَكمنُ كُمونَ الأَسَدِ ثم يبرُزُ بروز الأسد.

البطلُ مَنْ يؤثرُ مقارعَةَ القنَا القواني على مُنَادَمَةِ القينات والقياني. البطلُ من يَنْظُمُ جسومَ الأعداءِ برِمَاحِهِ وَينْثُرُهَا بِصفاحِهِ، البطلُ من إذا ضَرَبَ صَمَّ وإذا رَمَى أَصْمى وإذا قَصَدَ أقصْدَ.

السلاحُ جُنةَ [٤] الأبدانِ ووقايةُ الأنفسِ، قد يَجْبُنُ الشجاعُ بلا سلاحٍ ويشْجعُ الجبانُ بالسلاحِ، استعصامُ الفارسِ بالدَّرعِ السَّابِلِ والرُّمْحِ الذابلِ. وقالَ غَيْرُهُ: السلاحُ ثُمَ الكفاحُ. قالَ وقَبْلَ نزولِ الحربِ تُملأ الكنانين.

(١) يقال قرح الحافر انتهت أسنانه، أي بلغ من العمر خمس سنين لأنه في الأولى حولى ثم جذع ثم ثني ثم رباع ثم قارح/ المصباح المنير.

(٢) الحدأة: بكسر الحاء المهملة، تعتبر من أخس الطيور وكنيته أبو الخطاف والحدأة تبيض بيضتين وربما ثلاث وتحضن عشرين يوماً وهي لا تصيد، وإنما تخطف، حياة الحيوان الكبرى، ج ١ ص ٢٢٩.

(٣) الكركي: طائر كبير وكنيته أبو عريان وهو أغبر طويل الساقين وهو من الحيوان الذي لا يصلح إلا برئيس لأن في طبعه الحذر والتحارص في النوبة والذي يحرس يهتف بصوت خفي كأنه ينذر بأنه حارس فإذا قضى نوبته قام الذي كان نائمًا يحرس مكانه حتى يقضي كل ما يلزمه من الحراسة/ حياة الحيوان الكبرى، ج ٢ ص ٢٧٣.

(٤) جنة: بالضم كل ما وقى/ القاموس المحيط.

وقال الأميرُ شَمْسُ المعالي [١]: قُوّةُ الجَناحِ بالقوادِمِ والخوافِي، وعَمَلُ الرماحِ بالأسنَّةِ والعوالِي.

بابُ
في مَدْحِ الاستشارَةِ
وذَمِّ الاستبْدَادِ بالرَّأي

قالَ اللّه تعالى لِنبيه صلّى اللهُ عليه وسلّمَ: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾[٢].

(١) هو أبو قابوس بن أبي طاهر وشمكير بن زياد أمير جرجان وطبرستان أثنى عليه الثعالبي في يتيمة الدهر وقتل سنة ٤٠٣ هـ ./ وفيات الأعيان، م ٤ ص ٧٩؛ يتيمة الدهر، ج ٤ ص ٥٩.

(٢) آيةُ ١٥٩، سورة آل عمرانَ، وقَدْ نقلَ الإمامُ القرطبي في تفسيرِه لهذه الآية عنْ ابنِ عطيَّةَ قولَهُ والشوري مِنْ قواعدَ الشريعةِ وعزائمِ الأحكام منْ لا يستشيرُ أهل العلم والدينِ فعزلَهُ واجبُ هذا ما لا خلافَ فيه ونقل عنْ ابنِ خويز منداذَ أنّهُ واجبٌ على الولاةِ مشاورة العلماء فيما لا يعلمونَ وفيما أشكلَ عليهمْ مِنْ أمورِ الدِّينِ ووجوهِ الجيشِ فيما يتعلَّقُ بالحربِ ووجوهِ النَّاس فيما يتعلَّقُ بالمصالحِ ووجوهِ الكتابِ والوزراءِ فيما يتعلقُ بمصالحِ البلادِ وعمارتِها وفي الآيةِ دليل على جوازِ الاجتهادِ في الأمورِ والأخذ بالظُّنون مَعَ إمكان الوحي فإنَّ الله أذنَ لرسوله في ذلكَ واختلفَ أهلُ التأويل في المعنى الذي أَمَرَ اللهُ نبيَّهُ عليْه السَّلام أنْ يُشاورَ فيه أصحابَهُ فقالت طائفةٌ: ذلكَ في مكائدِ الحروبِ وعِنْدَ لقاءِ العدوِّ وتطييباً لنفوسهم ورَفعاً لأقدارهم وتألفاً على دينهم وإنْ كانَ اللهُ تعالى قد أغناهُ عن رأيهم بوحيه. وقالَ الطبريُّ في تفسيرِه بعدَ أن ساقَ الأقوالَ الكثيرة وأوْلى الأقوال بالصوابِ في ذلك أنْ يُقالَ أنَّ اللهَ عز وجل أمرَ نبيَّهُ صلَّى الله عليه وسلَّم بمشاوَرَةِ أصْحَابِه =

قالَ الحسنُ [١]: كانَ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم غَنِيًّا عن مشاورَتِهم ولكنْ أَرادَ أَنْ يستنَّ بذلكَ الحكامَ. وقالَ غيره: بَلْ أَرادَ بذلكَ لما فيه منَ الفَضْلِ ولتأَسِّي أمَّته بذلكَ بعدَهُ. وَقيلَ إِنَّمَا أَمْرُهُ بذلكَ تطييباً لقلوبِهم) وقيلَ إِنَّما أُمرَ أن يشاورَهُم فيما لَمْ يكُنْ عندَهُ وحيٌ لأَنَّهُ قَدْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِم فيه عِلْمٌ والناسُ قَدْ يَعْرِفُونَ منْ أُمورِ الدنيا ما لَمْ تعرفْ =

فيما حَزَبَهُ من أمر عدوِّه ومكايد حربه تألفاً منْهُ بذلكَ مَنْ لَمْ تكنْ بصيرتُهُ بالإسلامِ البصيرةَ التي يُؤْمَنُ عليه معَها فتنةُ الشيطانِ وتعريفاً منْهُ أمتَه مآتي الأمورِ التي تحزبُهُم منْ بعده ومطلبُها فيتشاوروا فيما بينهم كما كانوا يرونَهُ صلى الله عليه وسلَّمَ يَفْعَلُه فأمَّا النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم فإن الله كان يُعَرِّفُهُ مطالبَ وجوهِ ما حَزَبَهُ منَ الأمورِ بوحْيِه وإلهامه إيَّاهُ صوابَ ذلك وأما أمته فإنهم إذا تشاوروا مستنين بفعله في ذلك على تصادُقٍ وتآخٍ للحقِ، وإرادةِ جميعهم للصوابَ منْ غيرِ ميلٍ إلى هَوى، ولا حَيْدٍ عَنْ هُدى فاللهُ مُسدِّدُهُم وموفقُهم. وبيَّن الرازي في تفسيره الأمورَ التي لا تجوز فيها المشاورةُ. فقالَ انفقُوا على أنَّ كُلّ ما ن زلَ به وحي منْ عند الله لَمْ يَجُزْ للرسولِ أن يشاورَ فيهَ الأمة لأنَّهُ إذا جاء النَّصُ بَطُلَ الرأيُ والقياسُ فأَمَّا ما لا نَصَّ فيه فَهَلْ تجوزُ المشاورةُ فيه في جميع الأشياءِ أمْ لا. قالَ الكلبي وكثيرٌ منَ العلماءِ هذا الأمرُ مخصوص بالمشاوَرَة في الحروبِ وحُجَّتُهُ أَن الألفَ واللامَ في لفظِ الأمر ليسَا للاستغراقِ لِمَا بَيَّنَ أن الذي ن زلَ فيه وحيٌ لا تجوز المشاورة فيه فوجَبَ حَمْلُ الألف واللام ها هُنا على المعهودِ السابقِ والمعهودُ السابقُ في هذه الآية إنَّما هُو ما يتعلَّقُ بأمرِ الحربِ ولقاءِ العدوّ فكانَ قولُهُ ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ مُختصاً بذلك وظاهرُ الأمرِ للوجوبِ فقولُهُ وشاورْهُمُ يقتضي الوجوبَ، وحملَ الشافعيُّ رَحِمَهُ الله ذلكَ على النَّدبِ فقالَ هذا كقوله عليه الصلاةُ والسلامُ: "البِكْرُ تُستأمَرُ في نَفسِهَا" ولو أكرهَهَا الأبُ على النِّكاحِ جازَ لكنْ الأولى بذلكَ تطييباً لنفْسها فكذا ها هُنا.

انظر: تفسيرَ القرطبيَّ، م ٢ ج ٤ ص ٢٥٠؛ تفسير الطبري، ج ٧ ص ٣٤٥- ٣٤٦؛ التفسير الكبير (تفسير فخر الدين الرازي)، م ٣ ص ٨٢-٨٣.

(١) هو الحسن بن أبي الحسن البصري أبو سعيد إمام أهل البصرة وخير أهل زمانه، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر وشهد يوم الدار وقال ابن سعد في طبقاته كان جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً حجة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً/ شذرات الذهب، ج ١ ص ١٣٦- ١٣٧.

الأنبياءُ عليهم السلامُ.

قال الله تعالى في مَدْحِ المؤمنين: ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** ﴾ (١). وقال صلى الله عليه وسلم: "ما خاب من استخار ولا ندم من استشار) وقالَ عليه السَّلام: "ما شَقِيَ عبدٌ بمشورةٍ ولا سَعُدَ مَنْ اسْتغنى برأيٍ".

وقال الشعبي (٢): مكتوبٌ في التوراةِ من لَمْ يستشرْ يندمُ.

قالَ أبو هريرةَ: ما رأيتُ من الناسِ أحداً أكثرَ مشورةً لأصحابه مِنْ رَسُولِ الله صلى الله عَلَيْهِ وسَلمَ (٣). وَقَدْ صَحّ عَنْ رسول الله صَلى الله عليه وسلمَ الاستشارةُ لأصحابه في قصَصٍ كثيرةٍ منها أَنَّهُ لَمَّا أرادَ مُصالَحَةَ عيينةَ بنِ حصنٍ الفَزَاريَّ (٤) والحارثِ

(١) آية ٣٨ من سورة الشورى، ولقد ذكر سيد قطب في تفسيره لهذه الآية أن الله تعالى جعل أمرهم شورى ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة ثم يقول إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية وهي من ألزم صفات القيادة أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوباً في قالب حديدي فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية، ظلال القرآن، ج ٢٥ ص ٤٧. وذكر الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية أن الله مدح المشاورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب وذلك في الآراء كثير ولم يكن يشاورهم في الأحكام لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام/ تفسير القرطبي، م ٨ ج ١٦ ص ٣٦- ٣٧. وقيل أن ذلك مدح من الله لهم بأنهم كانوا إذا وقعت بينهم اجتمعوا وتشاوروا فأثنى الله عليهم أي لا ينفردوا برأي ما لم يجتمعوا عليه/ التفسير الكبير (تفسير فخر الدين الرازي)، م ٧ ص ٣٩٩.

(٢) هو أبو عامر بن شرحبيل الشعبي تابعي جليل القدر وافر العلم ولد سنة ١٩ هـ . تولى السفارة لعبد الملك بن مروان إلى ملك الروم وخرج مع ابن الأشعث فلما ظفر بهم الحجاج اعتذر اليه فعفى عنه توفي سنة ١٠٣هـ ./ الطبقات الكبرى، ج ٦ ص ١٧١؛ النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٢٥٣.

(٣) سنن الترمذي، ج ٣ ص ١٢٩؛ السنن الكبرى، م ٧ ص ٤٥.

(٤) هو عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري أسلم بعد الفتح وكان من المؤلفة قلوبهم سماه

بنِ عوفٍ المريِّ [١] حينَ حَصَرَهُ الأحزابُ في الخندقِ على أنْ يعطيَهُمْ ثُلُثَ ثمارِ المدينة ويرجعا بمَنْ مَعَهُما منْ غطفانَ عنهُ قالَ عليه الصلاةُ والسلامُ حتى أشاورَ السعودَ يعني سَعْدَ بنَ معاذ [٢] وَسَعَدَ بنَ عبادة [٣] وسعدَ بنَ زرارة [٤] فاستشارَهُم فأشاروا عَلَيْه أن لا يُعطيهما فَلَمْ يُعطهما شيئاً.

وَمِنْها أَنهُ استشارَ في أسارَى بدْرٍ فأشارَ أبو بكر [٥] بالفداءِ وأشارَ عمرُ بالقتلِ

=

الرسول صلى الله عليه وسلم أحمقاً مطاعاً/ الاستيعاب، ق/ ٣، ص ١٢٤٩؛ المعارف، ص ١٣١.

(١) هو الحارث بن عوف المري من بني مرة يكنى أبا أسماء وهو صاحب الحمالة في حرب داحس وأحد رؤساء المشركين يوم الأحزاب ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وبعث معه رجلاً من الأنصار إلى قومه/ الاستيعاب ق/ ١، ص ٢٩٦-٢٩٧؛ المعارف، ص ١٣٧.

(٢) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرء القيس من بنى عبد الإشهل. أسلم بالمدينة بين العقبة الأولى والثانية على يد مصعب بن عمير وشهد بدراً وأحداً والخندق ورمى يوم الخندق بسهم فعاش شهراً ثم انتقض جرحه فمات منه/ الاستيعاب ق /٢ ص ٦٠٢..

(٣) هو سعد بن عبادة بن ديلم الخزرجي الأنصاري أحد النقباء شهد العقبة ذكره جماعة من أهل بدر كان سيداً في قومه مقداماً جواداً وكانت. له راية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح. مات بحوران من أرض الشام سنة ١٥هـ . / الاستيعاب، ق /٢ ص ٥٩٤؛ المعارف، ص ١١٢.

(٤) هو أخو أسعد بن زرارة ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب، فقال: أخشى أن لا يكون أدرك الإسلام / الاستيعاب، ق/ ٢ ص ٥٩١.

(٥) هو عبد الله بن عبد الرحمن لقبه رسول الله عتيقاً لجمال وجهه ويقال سمي عتيقاً لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال. له: أنت عتيق من النار وسمي صديقاً لتصديقه خبر الإسراء يلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب وكان من أول من اتبع رسول الله من الرجال وأسلم على يده جماعة وأعتق أعبداً افتداهم من أيدي المشركين بويع له بالخلافة في اليوم الذي قبض فيه صلى الله عليه وسلم توفي يوم الجمعة لتسع ليال بقين من جمادي الآخرة سنة ١٣ هـ . فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتسع ليال/ شذرات الذهب، ج ١ ص ٢٤؛ المعارف، ص ٧٣.

فَعَمِلَ صلى الله عليه وسلمَ برَأْيِ أَبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [١].

ولَمَّا نزلَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ببدرٍ نزلَ بأدْنَا ماءٍ فقال الحُباب بنُ المنذرِ [٢]: يا رسولَ الله أرأيتَ هذا المنزلَ أمنزلٌ أنزلكهُ الله ليسَ لنا أنْ نتقدمَهُ ولا نتأخرَ عنهُ أمْ هُوَ الرأيُ والحربُ والمكيدةُ، فقالَ: "بَلْ هُوَ الرأيُ والحربُ والمكيدةُ"، قالَ: إنَّ هذا ليسَ لَنَا بمنزل. فانهضْ بالناسِ حتى نأتيَ أدْنَى منزلٍ منَ القومِ فننزلَهُ ثُمّ نغورُ ما وراءَه من القلْبِ ونبني لك حوضاً فنملأهُ ماءً ثمَّ نقاتلُ الناسَ فَنَشْرَبَ ولا يشربُونَ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: "لقَدْ أشرتَ بالرأي" فنهض صلى الله عليه وسلَّمَ بمَنْ مَعَهُ حَتّى أَتى أدنى ماءٍ منَ القومِ فَنزلَ عليهِ وَفَعَلَ ما أشارَ بهِ الحُباب بن المنذرِ. وشاوَرَ عليه أفضل الصلاةِ والسلامِ عليّاً بنَ أبي طالب[٣] عليه السلامُ وأسامةَ بنَ زيدٍ [١] في قصةِ الافْكِ

(١) مسند أحمد، م ١ ص ٣٠- ٣١؛ السنن الكبرى، م ١٠ ص ١٠٩.

(٢) هو الحباب بن المنذر بن الجموح يكنى أبا عمر وشهد بدراً وهو ابن ثلاثاً وثلاثين سنة وهو الذي أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل على ماء بدر فكان يقال له ذو الرأي وشهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مات في خلافة عمر/ الاستيعاب، ق/ ١ ص ٣١٦؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة رقم الترجمة ١٠٢٣.

(٣) هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه يكنى أبا الحسن أول من آمن بالله ورسوله بعد خديجة وهو ابن خمسة عشرة سنة فقد قال علي رضي الله عنه صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا لا يصلي معه غيري إلا خديجة وأجمعوا على أنه صلى للقبلتين وهاجر وشهد بدراً والحديبية وسائر المشاهد وأنه أبلى ببدر وبأحد وبالخندق وبخيبر بلاء عظيمًا وكان لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده في مواطن كثيرة ولم يتخلف عن مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تبوك فإنه خلفه فيها على المدينة وعلى عياله، وقال له: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة وقال لها: (زوجك سيد في الدنيا والآخرة وإنه أول أصحابي إسلاماً وأكثرهم علمًا وأعظمهم حلمًا) وكان رضي الله عنه من فقهاء الصحابة بويع له بالخلافة يوم قتل عثمان واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار. قتل ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان سنة ٤٠ هـ . وكانت خلافته أربعة سنين وتسعة أشهر وستة أيام/ الاستيعاب، ق/٣ ص ١٠٨٩- ١١٣٣.

وفي أمرِ عائشةَ فقالَ أسامَةُ: أَهْلَك يا رسول الله ولا نعلمُ إلا خيراً [٢]. ورَويَ أيضاً في حديث الافْك أنهُ قالَ صلى الله عليه وسلم وَهوَ على المنبرِ "ما تشيرونَ عليَّ في قوم يسبُّونَ أهْلي ما علمتُ عليهمْ إلا خيراً" [٣]. وكانَ أَبو بكرٍ رضيَ الله عنهُ إذا نزلَ به أَمْرٌ يريدُ فيه مشاوَرَة ذوي الرأي والفقه دعا رجالاً من المهاجرينَ والأنصار، دعا عُمَرَ وعثمانَ وعليّاً وعبدَ الرحمنِ بنَ عَوْفٍ ومعاذَ بنَ جبل [٤] وأُبيَّ بنَ كعب [٥] وزيدَ بنَ ثابتٍ [٦]، فمضى أبو بكرٍ رضي الله عنهُ على ذلك. ثُمَّ وَلِيَ عُمرُ رضي اللهُ عنهُ وكانَ =

(١) هو أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن عشرين سنة سكن بعد النبي صلى الله عليه وسلم وادي القرى ثم عاد إلى المدينة ومات بالجرف في آخر خلافة معاوية ولما فرض عمر بن الخطاب للناس فرض لأسامة خمسة آلاف ولابن عمر ألفين وقال أن أسامة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوه كان أحب إلى رسول الله من أبيك توفي سنة ٥٤ هـ . في خلافة معاوية/ الاستيعاب، ق/ ١ ص ٧٥- ٧٨.

(٢) صحيح البخاري، ج ٩ ص ١٣٩؛ صحيح مسلم، ج ٨ ص ١١٥؛ سيرة ابن هشام، ج ٣ ص ٢٥٥.

(٣) صحيح البخاري، ج ٩ ص ١٣٩؛ صحيح مسلم، ج ٨ ص ١١٥.

(٤) هو معاذ بن جبل بن عمر الخزرجي الأنصاري، يكنى أبا عبدالرحمن أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار، آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين عبدالله بن مسعود شهد بدراً والمشاهد كلها بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم قاضياً ومعلماً مات بناحية من الأردن في طاعون عمواس/ الاستيعاب، ق/٣ ص ١٤٠٢- ١٤٠٧ المعارف، ص ١١١.

(٥) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصاري يكنى أبا المنذر شهد العقبة الثانية وبايع الرسول صلى الله عليه وسلم وكان أبي من كتبة الوضى وشهد بدراً وهو أحد فقهاء الصحابة وأحد الذين جمعوا القرآن/ الاستيعاب، ق/ ١ ص ٦٥؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٣٢.

(٦) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري يكنى أبا سعيد قتل أبوه يوم بعاث وقدم الرسول وهو ابن ١١ سنة استصغره الرسول يوم بدر فلم يشهدها كان من كتاب الوحي وهو الذي جمع القرآن =

يدعو هؤلاء النفرَ. وروى أن القراء كانوا أصحابَ مشورةِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كُهولاً كانوا وشباناً [١].

وَرويَ أَنَّهُ استشارَ في حَدِّ الخمرِ فقالَ علي عليه السلامُ: تراهُ إذا سَكِرَ هذى، وإذا هذى افتَرى، وعلى المفتري ثمانونَ جلدةً، فعمل برأيه [٢]. واستشارَ في قصة المرأة التي بَعَث إليها فَألقت جنيناً مَيتاً من الفزَعِ، فقالَ عثمانُ وعبدُ الرحمنِ بْن عَوف: إنَّما أنتَ والٍ مؤدَّبٌ، وقالَ عليٌّ عليه السلامُ: أرى عليكَ ديَّتَهُ لأنَّك أَفزَعْتها. وأخذَ برأيه.

والأخبارُ في هذا البابِ عَنْ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم والخلفاءِ الراشدينَ تكثُرُ جداً وتخرجُ بنَا عَنْ حَدَ الاختصارِ، فلنقتصرْ منهَا على هذا المقدارِ، ولنذكرْ شيئاً من كلامِ الحكماءِ والبُلغاءِ.

فَمِنْ كتابَ المُبهجِ: يَنبغي للملكِ إذا كانَ ذا رأيٍ أصيلٍ أَنْ يستشيرَ فيستنيرَ ويستمدَّ ولا يستبدُّ فإن ثمرةَ المشورةِ أَحلَى منَ العَسَلِ المشورِ.

قال بعض البلغاءِ: مَنِ استشارَ استبصرِ ومن استخارَ استظهرَ، وقيل: من استبدَّ برأيه خَفتْ وطأتُه على أعدائه. وقالَ بعضهم: لا يَستغني حليمٌ عن مشورةٍ ولا ذُو تجربةٍ عن تَبصرٍ. وقالَ بعضُ العربِ: العاقلُ منَ الرجالِ لا يستغني عَنْ مشورةِ ذَوِي الألبابِ ولا يستفزهُ الغَضَبُ عندَ الأصحابِ. وقالَ آخر: إذا أنكرتَ عقلَكَ فامْزجْهُ بآخَرَ لعاقل ورُبَما

=

في خلافة الصديق استخلفه عمر على المدينة ثلاث مرات توفي سنة ٤٥ هـ ./ الاستيعاب، ق /٢ ص ٥٣٧؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٥٤؛ المعارف، ص ١١٣؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٣٠- ١٣١.

(١) صحيح البخاري، ج ٩ ص ١٣٩.

(٢) صحيح مسلم، ج ٥ ص ١٢٥، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم أُتي برجل قد شرب الخمر فجلده بجريدتين نحو أربعين. قال: وفعله أبو بكر، فلما كان عمر استشار الناس فقال عبدالرحمن: أخف الحدود ثمانين فأمر به عمر؛ موطأ مالك بشرح الزرقاني، م ٤ ص ١٦٧، وفيه قال ابن عبد البر وانعقد عليه إجماع الصحابة ولا مخالف لهم منهم، وعليه جماعة التابعين وجمهور فقهاء المسلمين.

احتاجَ السيفُ الصقيلُ إلى مسنِ الصَّاقلِ.

وقالَ الحسنُ [١]: واللهِ ما تشاوَرَ قومٌ قَطُّ إلا هداهُمُ اللهُ لأفضلِ ما يحضُرهم.

وقالَ مالكَ بنُ أنس [٢]، رَحمهُ اللهُ: ما تشاورَ قومٌ قط إلا هداهُمُ اللهُ إلى رُشدِهم.

قالَ بعضُ البُلغاء: "مِنْ جَهْلِ المرءِ وَسَفَه رأيه، أنْ يتصوَّرَ في نَفْسه ويتقرَّرَ في حسِّه أن استمدادَ الآراء واستشارةَ النُّصحاءِ مما يُزري به ويَضَعُ من قدرِه فَيستبدَّ بالتدبيرِ وَيعرضُ عن المُشيرِ فيبقى في ظُلمة الحَيْرَة ويحصُلُ على الهمِّ والحسرَة.

قالَ: من حَقِّ العاقلِ أنْ يُضيفَ إلى رَأيه رأيَ العلماءِ وإلى عقلِه عقولَ الحكماءِ ويلتمِسَ الاسترشادَ ويتركَ الاستبدادَ، فَمَن استشاد العالمَ فيما ينويه واسترشد العاقلَ فيما

(١) هو أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب. سيد شباب أهل الجنة وسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان الحسن أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم، ما بين الصدر إلى الرأس تواترت الآثار الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لحسن بن علي: إن ابني هذا سيد وعسى الله أن يبقيه حتى يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين. كان من المبادرين إلى نصرة عثمان والذابين عنه، بويع له بالخلافة بعد مقتل أبيه بالعراق وبويع لمعاوية في الشام، ثم صالح الحسن معاوية ورجع إلى المدينة، فمات بها، ويقال أن امرأته سمته، ودفن ببقيع الغرقد وصلى عليه سعيد بن العاص وكان أميراً بالمدينة توفي سنة ٤٩ هـ .. الاستيعاب، ق/ ١ ص ٣٨٣؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٥٥-٥٦؛ المعارف، ص ٩٢.

(٢) هو الإمام أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأعلام، أخذ العلم عن ربيعة الرائي، ولد سنة ٩٥ للهجرة وكان قد حمل به ثلاث سنين. روى عن غير واحد من التابعين وحدث عنه خلق من الأئمة. قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر. وكان الشافعي يقول: إذا ذكر العلماء فمالك النجم وكان من أشد الناس انتقاداً للرجال وتحفظاً في رواية الحديث وكان إذا أراد أن يحدث توضأ وتطيب وسرح لحيته ولبس أحسن ثيابه، ومناقبه كثيرة وفضله أشهر من أن يذكر، توفي سنة ١٧٩هـ . بالمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ودفن بالبقيع. وفيات الأعيان، م ٤ ص ١٣٥- ١٣٩، النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٩٦-٩٧؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٢٨٩- ٢٩٠؛ البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٧٤.

يأْتيه وَضُحَتْ لَهُ الأمورُ وَصَلُحَ لَهُ الجمهورُ واستنارَ فيه القلبُ وسَهُلَ عليه الصعبُ. وقالَ: لا تأنفْ من الاسترشادِ ولا تستنكفْ منَ الاستمدادِ فَلأنْ تستشير وتندَم خيرٌ من أن تَستَبدَّ وتَسْلَمَ.

وقالَ آخرُ: المشاورُ بينَ إحدَى الحسنيين صوابَ يفوزُ بِهِ أو خطأ يشارك في مكروهه.

وقالَ ابْنُ المعتزِّ: مَنْ أكثرَ المشورةَ لَمْ يعدمْ عندَ الصَّواب مادحاً وعندَ الخطأ عاذراً.

وقالَ: المشورةُ راحةٌ لَكَ وَعَوْن على الخَطْب. وقالَ: المشورةُ راحةٌ لكَ وتعبٌ على غيرِكَ. وقالَ: المستشيرُ على طَرفِ النجاحِ. وقالَ غيرُهُ: المشورةُ عينُ الهدايةِ. وقال: خاطَرَ مَنْ استغنى برأيه.

وقال: نصفُ عقلِكَ مَعَ أخيكَ فشاورْهُ. وقالَ آخرُ: إذا شاورتَ العاقلَ كانَ لكَ نصفُ عَقله.

قال الشاعر:

الرأْيُ كاللَّيل مَسْوَدٌ جوانبُهُ ... والليلُ لا يَنْجلي إلا بإصْباحِ
فاضْممْ مصابيحَ آراء الرِّجال ... إلى مِصباح رأيك تزْدَدْ ضَوْءَ مِصباح

ومما قيلَ في ذلكَ قولُ بشار [١]:

إذَا بلغَ الرأيُ المشورَةَ فاستَعنْ ... بعزم نصيحٍ أوْ نصيحَةِ حازم
ولا تجعلْ الشُورى عليك غضاضَةً ... فريشُ الخوافي نافعٌ للقوادِم [٢]

وقالَ رجل من عَبْس: وَقَدْ سُئلَ ما أكثرَ صوابَكُمْ فقالَ: نحنُ ألفُ رَجُل فينا رجلٌ وأحِدٌ حازِمٌ فنحنُ نشاورُهُ فكأنَّا ألفُ حازِمٍ.

(١) بشار بن برد: هو أبو معاذ بشار بن برد العقيلي الشاعر المشهور أصله من طخرستان من سبي المهلب بن أبي صفر، ولد أعمى جاحظ الحدقتين، رمي بالزندقة عند المهدي فأمر بضربه حتى مات سنة ١٦٧ هـ .. وفيات الأعيان، م ١ ص ٢٧١؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٢٦٤؛ النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٥٣.

(٢) ديوان بشار بن برد، ج ٤ ص ١٧٢-١٧٣. والمعنى: إما أن تعمل برأي النصيح أو تترك الأمر بنصيحة الحازم، وتنتظر زمان إمكانه.

وقيلَ: استشارَ قومٌ منَ العرَبِ شيخاً لهُم قدْ قاربَ التسعينَ فيما يُدْرَكُ به الثأرُ ويُنفَى به العارُ، فقالَ: إنَّ وَهَنَ قوايَ قَدْ فَسَخَ همَّتي وَنَكَثَ عزيمَتي ولكنْ شاوِروا الشُّجعانَ منْ أولي العزمِ والجبناءَ منْ أولي الحزمِ فإنَّ الجبانَ لا يألوا برأيِه ما يقي مهجكم والشجاعُ لنْ تعدَمُوا بمشوَرَتِه ما يشيدُ ذكرَكُم، ثم خَلَّصوا بين الرأيين بنتيجة تَنأى بكُم عن مَعَرَّة تقصيرِ الجبانِ وتَهوُّرِ الشُّجاعِ، فإذا نَجَمَ الرأيُ بهذا العلمِ كان أنفَذُ على عدوّكم من السَّهمِ الزالجِ.

قالَ: شاورِ في أمرِكَ مَنْ تثقُ منهُ بعقلٍ صحيحٍ وَوِدٍّ صريح فالعاقلُ ما ينصَحُ ما لم يَصفُ ودُّه والوَدودُ لا يصفُ ما لَمْ يَصِحُّ عقلُهُ.

قالَ بعضُ الشعراءِ:

خصائصُ من تشاورُهُ ثلاث ... فَخُذْ منهَا لنفسك بالوثيقةْ
ودادٌ خالصٌ ووفُورُ عَقْل ... ومعرفةٌ بحالكَ في الحقيقةْ
فمن تخلُص لَهُ هـ ـذه المعـ ـاني ... فتـ ـابعْ رأيـ ـهُ والـ ـزَمْ طريقـ ـةَ

وقال بعضُ البلغاءِ: المرءُ إذا استشارَ الرشيدَ وعملَ بمشورتِه واستنصحَ الرشيدَ وبَنَى على نصيحته لم يفتْهُ حزمٌ و لم يغلبْهُ عَزْمٌ.

وقالَ: مَنْ استوزَرَ غيرَ كافٍ خاطرَ بملكِه ومن استشارَ غيرَ أمينٍ أعان على هُلكه.

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ الحسنِ [1]: إحذرْ مشورةَ الجاهلِ، وإنْ كانَ ناصحاً كما تَحذرُ غيلةَ العاقلِ، إذا كانَ عدوّاً، فيوشكُ أن تورّطُكَ مشورةُ الجاهلِ ويسبقُ إليكَ مَكْرُ العاقلِ، وقيلَ: صوابُ الجاهلِ كزلةِ اللبيبِ.

وعَين ابنِ شهابٍ [2] قالَ: بَلَغني أن عمرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: استشرْ في أمرِكَ الذينَ

(١) هو عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، أمه فاطمة بنت الحسين، وفد على عمر بن عبدالعزيز فأكرمه ووفد على السفاح فأعطاه ألف درهم، ثم عامله المنصور بعكس ذلك، توفي سنة ١٤٥هـ .. البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٩٥.

(٢) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب الزهري من الطبقة الرابعة من تابعي أهل المدينة، حافظ زمانه، وأعلم الناس في وقته، ثقة، كثير الحديث، ولد سنة ٥٨ هـ . في آخر خلافة معاوية، توفي سنة ١٢٤هـ . وله من العمر ٧٢ سنة. النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٢١-١٢٥؛ شذرات =

يخشون اللهَ.

وقالَ علي عليه السَّلامُ: رأيُ الشيخِ خيرٌ مِنْ مَشْهَدِ الغلامِ.

وقالَ لقمانُ الحكيمُ [١]: شاورْ مَنْ جرَّبَ الأمورَ فإنَّهُ يُعْطيكَ مِنْ رأيِهِ ما كان عليه بالغلاء وأنتَ تأخذُهُ بالمجّان.

وقيلَ: لِتَكُنْ مشورتُكَ بالليل، فإنَّه أجمعُ لِلرأي والفكرِ، وأعونُ على الذكرِ.

=

الذهب، ج ١ ص ١٦٢.

(١) هو لقمان بن باعوداء بن ناحور بن تارح ابن أخت أيوب أو ابن خالته، وقيل كان من أولاد آزر، عاش ألف سنة وأدركه داود عليه السلام وكان يفتي قبل مبعث داود، فلما بعث قطع الفتوى. واختلف في نبوته والراجح أنه لم يكن نبيًا في رأي أكثر الناس المعارف، ص ٢٥؛ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ١٢٤.

بابٌ
في مَدْحِ العَدْلِ وإيثارِه
وذمِّ الجوْرِ وآثارِه

العدلُ ميزانُ اللهِ في أرضِه وَضَعَهُ للخلقِ ونصبَهُ للحقّ فمن خالفهُ في ميزانِه وعارَضَهُ في سلطانه فقد عرضَ دينَهُ للخبالِ ودولتَهُ للزَّوالِ وعزَّهُ للذُّلِّ وكَثْرَتَهَ للْقلِّ.

وقيلَ كُل دولةٍ بُنيَ أساسُها على العدْلِ أَمِنَتْ الانعدامَ وسلمتْ الانهدامَ.

وفي الزبور [1]: العدلُ ميزانُ الباري فلذلك هو مُبرأ مِنْ كُل زللٍ وميلٍ.

وقالَ صلى الله عليه وسلمَ: "عدلُ ساعةٍ في حكومةٍ خيرٌ من عبادَة ستين سنة".

وقالَ بعضُ الحكماءِ: عدلُ السلطانِ خيرٌ من خصْبِ الزمانِ. وقالَ أردشيرُ: المملكةُ لا تصلحُ إلا بأعدادِ الأجنادِ ولا تعدُّ الأجنادُ إلا بإدرارِ الأرزاقِ ولا تدرُّ الأرزاقُ إلا بكثرةِ الأموالِ ولا تثمرُ الأموالُ إلا بعمارَةِ البلادِ ولا تعمُرُ البلادُ إلا بالأمنِ والعدلِ في العبادِ.

وقالَ جعفرُ بنُ يحيى بنُ خالدٍ: الخراجُ عمادُ الملكِ فما استغزرَ بمثلِ العدلِ وما استنـ ـزرَ بمثلِ الجورِ.

ومَمَّا يدلُّ على صحةِ هذا الكلامِ ما رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنهُ حينَ جَنَى سوادَ العراقِ مِئَةَ ألفِ ألفٍ وتسعةً وثلاثينَ ألْفِ ألفٍ ثُمَّ جناهُ الحجاجُ في زمانِه ثمانيةَ

(١) الزبور: كتاب أنزله الله على سيدنا داوود عليه السلام.

عشرَ ألف أَلْف ثُمَّ جناهُ عمرُ بنُ عبد العزيز في خلافته مئَةَ ألف ألف وأربعةً وثلاثينَ ألف ألف وقالَ: إنْ عشتُ إلى قابل جنيتها كما جَنَاهَا عُمرُ بنُ الخطاب رضيَ الله عنهُ.

فانْظُر إلى هذا التفاوُت العظيم بينَ جَنْيِ العُمَرين وجنيِ الحجَّاج وَليسَ لزيادَته سببٌ ولا لنقصانه سببٌ سوى العدْل والجور.

وقَالَ أنو شروانَ [١]: إنَ المَلكَ إذَا كَثُرَتْ أموالُهُ ممَّا يأخُذُ منْ رَعيته كانَ كَمَنْ يُعَمِّرُ سَطْحَ بيته بما يَقْتَلعُ منْ قواعد بُنيانه.

وكتَبَ عَبْدُالمَلك بنُ مروانَ إلى الحجّاج في أَمْر أهْلِ السَّواد ابْقِ لَهُمْ لحوماً يعقدوا بها شَحوماً.

وقالَ بعضُ الحكماء: لا يكونُ العمرانُ حيثُ يجورُ السلطانُ.

وقيلَ العَدْلُ أَقوى جيش والأمنُ أهنئُ عَيْش. وقالَ بعضُهُم الدُّولُ إذا افْتُتحَتْ بالعدل امتدت آمادُها وثَبَتَتْ أعمادُهَا.

ومَنْ كتاب المبهج إذا مَلَكَ العادلُ زالَ الرَّوْعُ وأفرخَ [٢] وإذا مَلَكَ الظالمُ عَشَّشَ الشَّرُّ وفرَّخَ. وقالَ إذا نَطَق العدْلُ في دار الإمارة فَلَهَا البُشْرَى بالعزِّ والعمارة. وقالَ عَدْلُ السّلطان لدينه أَحْوَطُ وَلدُنياهُ أضبطُ ولأوليائه أثبتُ ولأعدائه أكبتُ. وَقيل إذا عَقَد السلطانُ بالعدل عقيدَتَهُ وَطَوَى على الإحسان طوَيتَهُ فَليبشرْ بالنِّجم الأسعد والجَدِّ الأصْعَد.

وقالَ ما أَحْرى الملكَ العادلَ بالارتفاع إلى نفاع الملك والصُّعود إلى سُعود الفلك.

قالَ منْ عَدَلَ نَفَذَ حكمُهُ وقرْطَس [٣] في المَطالب سَهْمَهُ وَمَنْ ظَلَمَ تعجَّلَ زوالَ

(١) هو أنو شروان بن قباذ بن فيروز ملك الفرس ثمان وأربعين سنة وهو الذي قتل مزدك وجمع أهل مملكته على المجوسية وكان يدعى كسرى الخير وقد ذكرته الشعراء في أشعارها كشعر عدي بن زيد/ مروج الذهب، ج ١ ص ١٩٩.

(٢) الفرخ: ولد الطائر وكل صغير من الحيوان والنبات. وأفرخ الأمر استبان بعد اشتباه وأفرخ روعك أي سكن جأشك وفرخ بتشديد الراء الروع تفريخاً ذهب/ القاموس المحيط.

(٣) القرطاس: ما يكتب فيه وكسر القاف أشهر والقرطس وازن جعفر لغة فيه والقرطاس أيضاً قطعة من أديم تنصب للنضال فإذا أصابه الرامي قيل قرطس.

النِّعَم وحَلولَ النِّقَم. وقيلَ مَنْ عَدَلَ حَصَّنَ مُلْكَهُ وَمَنْ ظَلَمَ فَقَدْ استعجلَ هُلْكَهُ. وَقيلَ مَنْ عَدَلَ زادَ قدرُهُ وَمَنْ ظَلَمَ نَقَصَ عمرُهُ وَقيلَ مَنْ عَدَلَ في سُلْطَانه اسْتَغْنَى عَنْ أعوانه. وَقيلَ أفضلُ الملوك مَنْ أَحْسَنَ في فعْله وَنيَته وعَدَلَ في جُنْده ورعيَته. وقيلَ مَنْ ساءتْ سيرتُهُ لَمْ يَأْمَنْ أَبداً وَمَنْ حَسُنَتْ سيرتهُ لَمْ يَخَفْ أحداً.

قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلَّمَ:: (شَرُّ الرُّعاة الحُطَمَةُ) [(١)]، قلْتُ: الحطمة منْ الرُّعاة هوَ العنيفُ برغبة المال فكأَنَّهُ يُحَطِّمُها أَيْ يكسرُها ويأتي عَليهَا وقالَ عيه الصلاةُ والسلامُ: "الظُّلْمُ ظُلُماتٌ يومَ القيامَة" [(٢)].

وفي التَّوراة مَنْ يَظْلِمْ يخربْ بيتُهُ. وفي الزبور إذا ظلمتَ مَنْ دونَكَ فلا تأمَنْ مَنْ فَوْقَكَ.

(وفي الحديث: دارُ الظالم خرابٌ ولو بعدَ حين).

وقال مُعاويةُ [(٣)]: أنقصُ النَّاس عَقْلاً مَنْ ظَلَمَ مَنْ هُوَ دونَهُ.

وفي بعض الأحاديث اتَّقُوا ظُلْمَ مَنْ لا نَاصرَ لَهُ إلا الله [(٤)].

وقيلَ: الهأم الظُّلم ظُلْمُ الضَّعيف. (وَقيلَ: الظُّلمُ مَسلبَةٌ لِلنِّعَم مجلبة للنِّقَم).

(١) ورد الحديث كاملاً في مسند أحمد م ٥ ص ٦٤، بإضافة إياك أن تكون منهم، صحيح مسلم، ج ٦ ص ٩؛ السنن الكبرى، م ٨ ص ١٦١؛ مشكاة المصابيح، ج ٢ ص ١٠٩٠؛ والحطمة هو الراعي الظلوم ضربه مثلاً لوالي السوء الذي يظلم الرعية ولا يرحمهم.

(٢) صحيح البخاري، ج ٣ ص ١٦٩؛ صحيح مسلم، ج ٨ ص ١٨؛ سنن الترمذي، ج ٤ ص ٣٧٧. وقال حديث حسن غريب مسند أحمد، م ٢ ص ١٠٦؛ السنن الكبرى، م ١٠ ص ٣٤، ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم ظلمات يوم القيامة، قيل هو على ظاهره فيكون ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيام سبيلاً حين يسعى نور المؤمنينَ بين أيديهم وبإيمانهم ويحتمل أن الظلمات هي عبارة عن الأنكال والعقوبات.

(٣) هو معاوية بن أبي سفيان.

(٤) لم أجد حديث بهذا اللفظ وإنما ذكر صاحب كشف الخفاء حديثاً في معناه بلفظ أشد غضب الله على من ظلم من لا يجد ناصراً غير الله) وقال رواه القضاعي والديلمي بسند فيه كذاب عن علي/ كشف الخفاء، ج ١ ص ١٤٣، مثله حديث في المعجم الصغير للطبراني، ج ١ ص ١٣١.

وَقيلَ: أقربُ الأشياءِ صَرْعَةُ الظُّلومِ وأنفذُ السِّهامِ دَعوةُ المَظلومِ.

قالَ صلى اللهُ عليه وسلم: "اتَّقُوا دَعْوَةَ المظلومِ فإنَّهَا تُرْفَعُ على الغَمامَ". يقول اللهُ عز وجل: (وعزَّتي وجَلالي لأنصرنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حينٍ) (١).

وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: "ثلاثُ دعواتٍ مستجاباتٌ لا شَكَّ فيهنَّ، دعوةُ المظلومِ ودعوُة المسافرِ ودعوةُ الوالد على وَلَدِه ". وقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِمَوْلى لَهُ وقَدْ استعمَلَهُ على الحِمَى: اتقِ دَعوةَ المظلومِ فإنها مجابة.

وقالَ بعضُ الحكماءِ: مَنْ ساءتْ سيرتُهُ سرت منيتُهُ وَمَنْ قَبُحَ مُلْكُهُ حَسَنُ هُلْكُهُ وَمَنْ طالَ تعدّيه كَثُرَ أعاديه ومَنْ طَالَتْ عداوَتُهُ زالَ سلطانُهُ مَنْ طالَ اعتداؤه قَربَ فناؤه من تَغدَّى بسوءِ السيرةِ تَعَشى بزوال القُدْرَة.

وَفي بَعْضِ الآثارِ: المُلْكُ يبقى على الكُفْرِ ولا يبقَى على الظُّلمِ. وقالَ بعضُ البلغاء: مَنْ ظَلَمَ يتيماً ظَلَمَ أولادَهُ وَمَنْ أفسدَ أمرَهُ أَفْسَدَ معادَهُ.

وَمنْ كتابِ المبهج أخلِقْ بالملكِ الظَّلومِ أَنْ يصيرَ عِظَةً للرَّائينَ وعبرةً للراوينَ. بشِّرْ الملكَ الغشومَ بالمحَنِ مِنْ وجوهِ المِنَحِ والنوائبِ مِنْ مواضعِ المواهبِ والفتوقِ مِنْ جهَةِ الفُتُوحِ.

إذا كانَ المُلْكُ جائراً فَسَلامٌ على سلامةِ الرَّعيَّة.

أخلِقْ بالظالمِ أَنْ ينهارَ في جُرْفِ هارٍ.

وَمِنْ نَتائجِ الظُّلْمِ قِصَرُ المُدّةِ وانحسامُ المادةِ وانقطاعُ المَدَدِ وانفصالُ العُدَدِ. ظِلُّ المالِ المستثمرِ مِنْ ظُلْمِ الرِّجالِ كَسَحابٍ تمزقُهُ أَيْدِي الجَنوبِ والشِّمالِ وتُفرِّقُهُ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ.

قيل: الظالمُ قليلُ (المعونة) قبيحُ الذِّكرِ والأحدوثَةِ الظُّلمُ لا يُقالُ صريعُهُ ولا يساغُ ضريعُهُ ما أبينَ سُوءَ الشؤمِ في وَجْهِ الغَشومِ.

قال ابنُ المعتزِّ: الظالمُ بَعيدٌ الوثبةِ قريبُ الصَّرعَةِ. قيلَ مَنْ لَمْ يعدلْ عَدَلَ اللهُ فيه وَمَنْ حَكَمَ لِنَفْسِه حَكَمَ اللهُ عليه، وقالَ: اذكُرْ عِنْدَ الظَّلمِ عدلَ اللهِ فيكَ وعِنْدَ القُدْرَةِ قُدْرَةَ

(١) ورد الحديث كاملاً في مسند أحمد، ج ٢ ص ٣٠٥؛ وفي سنن ابن ماجه، ج ١ ص ٥٥٧؛ وسنن الترمذي، ج ٤ ص ٨٠، وقال فيه الحديث ليس إسناده بذلك القوي وليس هو عندي بمتصل.

الله عليكَ.

وقالَ: الظّلْمُ مِنَ اللؤمِ والإنْصافُ مِنَ السَّخاءِ. وقالَ آخَرْ الظُّلْمُ أَسْرَعُ إلى تبديلِ نعْمَةٍ وتعجيلِ نقَمَةٍ وقيلَ: الظُّلْمُ طريقٌ إلى سُخْطِ اللهِ تعالى ووقَّعَ يَحيى بنُ خالدٍ البرمكيَّ بِئْسَ الزادُ إلى المَعادِ (ظُلمُ) العِبادِ.

قالَ أبو العتاهيّة [1]:

أَمَا واللهِ إنَّ الظُّلمَ لُؤْمٌ ... وما زالَ المُسيئُ هو الظَّلُومُ
إلى دَّيانِ يومِ الدّيـ ـنِ نَمْضِـ ـي ... وعنـ ـدَ اللهِ تجتَـ ـمِـ ـعُ الخُصـ ـومُ

وقالَ آخَرُ:

وَمَا منْ يَدٍ إلاَّ يَـ ـدُ اللهِ فَوْقَهَا ... ومـ ـا ظالِمٌ إلا سَيُبْـ ـلَى بظالِـ ـمِ

وقال آخرُ:

إذا جَارَ الأميرُ وكاتباهُ ... وقاضي الأرضِ أسرفَ في القَضَاءِ
فَوَيْلٌ للأميرِ وكاتبيـ ـ . . . ـهِ ... وقاضي الأرضِ من قاضي السَّماءِ

(١) هو أبو إسحاق إسماعيل بن قاسم الشاعر المعروف ولد بعين التمر سنة ١٣٠ هـ . نشأ بالكوفة وسكن بغداد، كان في أول أمره يبيع الجرار واتصل بالخلفاء ومدحهم ثم ترك قول الشعر فسجنه المهدي فعاد إليه فأطلقه توفي سنة ٢١١ هـ ./ وفيات الأعيان، م١ ص ١٩ ٢؛ شذرات الذهب، ج ٢ ص ٢٥؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٦٥.

فصْلٌ

في ذِكْرِ البَغْيِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ **ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ** ﴾ (١).

وقَالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: "لَيْسَ شيءٌ أسرَعَ عُقوبَةً منْ بَغْيٍ" (٢).

وَفِي بَعضِ الآثارِ: لَوْ بَغَى جَبَلٌ على جَبَلٍ لَجعَلَهُ اللهُ دَكاً (٣).

قالَ أَبو بَكْرٍ الصديقُ رَضي اللهُ عَنْهُ: ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كُنَّ عَلَيهِ البغي والنكث والمكر.

---

(١) آية ٦٠، من سورة الحج، ونصها في كتاب الله: ﴿ **ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** ﴾

ذكر ابن كثير أنها نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم فقاتلهم المسلمون فنصرهم الله عليهم. وقد ذكر الأستاذ سيد قطب في تفسيره لهذه الآية أن الذين يقع عليهم العدوان من البشر لا يحلمون ولا يصبرون فيردون العدوان ويعاقبون بمثل ما وقع عليهم من الأذى فإن لم يكف المعتدون وعاودوا البغي على المظلومين تكفل الله عندئذٍ بنصرة المظلومين على المعتدين وشرط النصر هنا أن يكون العقاب قصاص على اعتداء لا عدواناً ولا تبطراً / ظلال القرآن، ج ١٧ ص ١١٥.

(٢) كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق على حاشية الجامع الصغير، ج ٢ ص ٧٦، وقال. المناوي أخرجه البيهقي.

(٣) كنوز الحقائق، ج ٢ ص ٧٢؛ وقال أخرجه الحاكم؛ كشف الخفاء، ج ٢ ص ٢١٠، وقال رواه البخاري في الأدب المفرد وأبو نعيم عن ابن عباس موقوفاً، ومثله في تمييز الطيب من الخبيث، ص ١٣٤، وزاد طرقاً أخرى للحديث.

وَقِيلَ: مَنْ سلَّ سَيْفَ البغْيِ قُتِلَ به. وَقِيلَ: البَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخيمٌ.

وَقِيلَ: احذرْ مَصارعَ البغي: قالَ بعضُهُمْ: من سَلْ سَيْفَ البَغْيِ أَغْمَدْ في رَأْسِه وَمَنْ أَسَّسَ أساسَ السُّوءِ أَسَّسَهُ عَلَى نَفْسه.

بَابٌ في ذِكْرِ العفْو
وَمَدْحَ مُسْتعمله في كَثْرَ أحواله
والانتقامِ وَمَحَلِّ استعماله

اعلمْ أن الحُلْمَ محمودٌ في مَحَلِّه، والعفوَ مُسْتَحْسَنٌ إذا اسْتُعْمِلَ مَعَ أهله. قالَ اللهَ تعالى: ﴿ **وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ للتَّقْوَى** ﴾ (١).

وقال جل وعلا: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (٢).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٣٧. ونص الآية: ﴿ **وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ من قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾.

وهو خطاب للرجال والنساء في قول ابن عباس فغلب الذكور، واللام بمعنى إلى أي أقرب إلى التقوى. والآية تتحدث عن المطلقة قبل الدخول، التي فرض لها مهراً معلوماً، وفي هذه الحالة يجب لها نصف المهر المسمى، هذا هو القانون. ولكن القرآن يدع الأمر بعد ذلك للسماحة والفضل واليسر، فالزوجة ولوليها إن كانت صغيرة أن تعفوَ، وتترك ما يفرضه القانون، والتنازل في هذه الحالة هو تنازل الإنسان الراضي، القادر العفو السمح الذي يعف عن مال رجل قد انفصمت منه عروته. ومع هذا فإن القرآن يظل يلاحق هذه القلوب كي تصفو، وتخلو من كل شائبة وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير/ تفسير القرطبي، م ٢ ص ٢٠٤؛ الظلال، ج ٢ ص ٢١٢.

(٢) آية ١٣٤ من سورة آل عمران ونص الآية: ﴿ **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ =

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ** ﴾ (١).

وَكانَ معاويةُ (٢) يقولُ: أَنَى لأنف أَنْ يكونَ في الأرضِ جَهْلٌ لا يَسَعُهُ حِلْمي، وَذَنْبٌ لا يسَعُهُ عَفْوي، وحاجَةٌ لا يَسَعُهَا جُودي. وأغلظْ لَهُ رجل أَسْمَعَهُ ما يكرَهُ في وَجْهه فقالَ: لَوْلا أَنِّي لم أتجرّع جُرْعة قَطُّ، هيَ أَلَذُّ عنْدي من جُرعة غَيْظ وَحَنَق، رَدَدْتُها بعَفْوٍ، لَسَقَيتُ الأرض منْ دَمكَ، ارجعْ إلى أَهْلكَ سَالماً. وَقَالَ أردشيرُ مَنْ عاقَبَ على الذَّنْب فَقَدْ عَدَلَ، وَمَنْ صَفَحَ عَنْهُ فَقَدْ تَفَضَّل، فاجعلْ لَكَ منَ العفْوِ ما تَسْتَدعي بِهِ منَ الله النَّصْرَ، وتستنزلُ به جَميل الصُّنْع.

وهذا نظيرُ قولِ عبد الحميد الكاتب (٣): الانتقامُ عَدْلٌ، والتجاوزُ فَضْلٌ، وأَنَا أعيذُكَ

=

تقرر هذه الآية بعض صفات المتقين، الذين أعدت لهم الجنة فهم ينفقون في العسر واليسر، ويعرفون حق الله في أموالهم ويكظمون غيظهم ويعفون عن الناس. وقد قال الإمام القرطبي العفو عن الناس أجل ضروب فعل الخير حيث يجوز للإنسان أن يعفو، وحيث يتجه حقه وكل من استحق عقوبة فتركت له فقد عفى عنه واختلف في معنى عن الناس فقيل هم المماليك وهو قول الكلبي والزجاج، وقيل عن كل الناس وهذا هو ظاهر الآية.

ولقد ذكر الأستاذ سيد قطب في تفسيره لهذه الآية فقال: وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى وهي وحدها لا تكفي، فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن فيتحول الغيظ الغائر إلى أحنة فائرة ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين... لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الحقد الكظيم في نفوس المتقين إنها العفو السمح العفو الجميل/ تفسير القرطبي، م ٢ ج ٤ ص ٢٠٦-٢٠٧؛ ظلال القرآن، ج ٤ ص ٣٤.

(١) آية ٣٧ من سورة الشوري، وذكر الأستاذ سيد قطب في تفسيره لهذه الآية أنها جاءت بعد الإشارة الخفية إلى سماحة الله مع الإنسان في ذنوبه وأخطاءه، فتحبب في السماحة والمغفرة بين العباد. وتجعل صفة المؤمنين أنهم إذا ما غضبوا هم يغفرون/ ظلال القرآن، ج ٢٥ ص ٤٦.

(٢) هو معاوية بن أبو سفيان، ترد ترجمته في القسم الثاني.

(٣) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد، مولى بني عامر، الكاتب البليغ الذي يضرب فيه المثل بالبلاغة فيقال: "فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد". أصله من قيسارية، سكن الشام

=

بالله أَنْ تَرْضَى لِنَفسكَ بأبخَسِ الحظَّيْنِ، وأوكسِ [١] النَّصيبينِ دُونَ أَنْ تَبْلُغَ أعلى الدَّرجتينِ. واستشارَ المأمونَ الحسنَ بنَ سَهَلٍ [٢] في قَتْل إبراهيمَ [٣] بنِ المهديِّ فقالَ: يا أَميرَ المؤمنينَ إنْ قتلتَهُ فَلَكَ نظيرٌ في قَتْله، وانْ عَفَوْتَ عَنْهُ فلا نظيرَ لَكَ فَعفَى عَنهُ. وَممَّا استُحْسِنَ منْ اعتذارِ إبراهيمَ بْنِ المهديِّ قولُهُ: إنْ بَلَغَ جُرْمي استحلالَ دَمي، فَحُلُمُ أميرِ المؤمنينَ وفضلُهُ، يبلغَاني عَفْوَهُ وَلي بَعْدَ ذَلكَ شُفْعَةُ الإقرارِ بالذَّنْبِ وَحَقُّ الأبِ بَعْدَ الأب.

وقولُهُ شعْراً:

أذنبتُ ذَنْباً عَظيماً وأنْتَ أعظَمُ منْهُ
فَخُذْ بحَقِّكَ أولاً فاصفعْ بحلمكَ عَنْهُ
إنْ لَـمْ أكـنْ فـي فِعـالي مِنَ الـكِـرامِ فكُنْـهُ [٤]

وقولُهُ:

=

وكان أولاً يعلم الصبيان ثم تقلبت به الأحوال إلى أن أصبح وزيراً لمروان بن محمد. وعنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا ولآثاره اقتفوا، قتل مع مروان ببوصير سنة ١٣٢ هـ ./ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٥٥؛ وفيات الأعيان، م ٣ ص ٢٢٨؛ الفهرست، ص ١١٧.

(١) الوكس: النقص، وفي الحديث: "لها مهر مثلها لأوكس ولا شطط أي لا نقصان ولا زيادة" / المصباح المنير؛ مختار الصحاح.

(٢) الحسن بن سهيل: هو أبو محمد الحسن بن سهل الوزير. كان من بيت رياسة، أسلم أبوه في خلافة الرشيد، تولى الوزارة بعد أخيه الفضل، تزوج المأمون بابنته بوران، مات بسرخس، سنة ٢٣٦/ شذرات الذهب، ج ٢ ص ٨٦؛ النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٢٨٧.

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن المهدي بن المنصور، ويعرف بابن شكله. ولد سنة ١٦٢ هـ .، ولاه الرشيد امرة دمشق مدة سنتين ثم عزله عنها، خرج في خلافة المأمون ودعا لنفسه، وبايعه أهل بغداد، ثم ظفر به المأمون وعفى عنه، توفي سنة ٢٢٤ هـ .. يسر من رأى وصلى عليه ابن أخيه المعتصم/ وفيات الأعيان، م ١ ص ٣٩- ٤٢؛ الطبري، حوادث سنة ٢٢٤؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٩٠.

(٤) الآمالي، لأبي علي القالي، ج ١ ص ٢٤٣؛ العقد الفريد للملك السعيد، ص ١١١.

أذنبتُ ذنباً عظيماً وأنتَ للعفو أَهْلُ
فَ إِنْ ع فـ وتَ فَ مَ نٌّ وإنْ جـ . زِي تَ فَ عَ دْلُ [١]

فَقَالَ المأمونُ: لَو لَمْ يكنْ في حَق نَسَبكَ، ما يُقَوِّمُ بالصَّفْحِ عنكَ، لبلغكَ مَا أملتَ: حسنُ تَنصُّلكَ وَلُطْفُ تَوصُّلكَ، وَأن ذنباً أولُهُ هفوة، وآخرُه توبة لَحَقيقٌ أنْ لا يكونَ عَلى مثله عقوبة. وقالَ المأمونُ لإبراهيمَ بنِ المهديِّ لَقَدْ أشَارَ عَلَيَّ كُلّ أحَد بقَتْلكَ، حَتَى أَخي أبي إسحاقَ وابْني العباسِ فقالَ يا أميرَ المؤمنينَ إنَّهُم نَصَحوا لَكَ بذَلكَ في لوازم الخلافَة، وَمَا جَرَتْ به أحكامُ السيَّاسَة، وَلَكنْ يَأْبَى أميرُ المؤمنينَ أَنْ يَسْتَجْلبَ النَّصْرَ إلا كَمَا عَوَّدَهُ اللهُ.

فَقَالَ المأمونُ: قَدْ ماتَ حقْدي، لحياة عُذْرِك، وَعَفَوْتُ عَنْكَ. وأعْظَمُ منْ عَفْوي عَنْكَ أَنِّي لَمْ أُجَرِعْكَ امتنانَ الشافعينَ. ثُمَّ سَجَدَ المأمونُ طويلاً ثمّ رَفَعَ رَأسَهُ فقالَ يا إبراهيمُ أَتَدْري لِمَ سجدتُ فَقُلْتُ شكْراً لله ظَفَرَك بعدوِّ دَولَتكَ، فقالَ مَا أردتُ هَذا وَلكنْ شُكْراً لله على ما ألْهمنيه منَ العفوِ عَنْكَ فقالَ إبراهيمُ:

إنَ الذي خَلَقَ المكارمَ حازَها في صُلْب آدمَ للإمام السّابع
مُلئتْ قلوبُ النَّاس منْهُ مهابةً وَيَضلُّ يكلُؤهم بقَلْبَ خَاشع
فعفوتَ عَمَّنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ مثْله عَفوٌ وَلَمْ يَشْفَع إليكَ بشَافع
وَرحمْتَ أطفالاً كأفراخ القَطَا وَحنين والده بقلب جَازع
رَدَّ الحياةَ عليَّ بَعْدَ ذَهَابهَ . ـا كَ رَمُ المليك القادرِ المتواضع [٢]

فقالَ المأمون: لا تثريبَ عليكَ قَدْ عفوتُ عنكَ، وَرَددتُ مالَكَ وضياعَكَ. فقالَ في ذلك:

(١) المستجاد من فعلات الأجواد، ص ٨١.

(٢) المستجاد من فعلات الأجواد، ص ٨٢- ٨٣، مع اختلاف في البيت الثاني. وذكر الطبري في تاريخه، ج ١١ ص ١٠٧٩، هذه الأبيات غير مرتبة مع اختلاف في بعضها كالاختلاف الحاصل في البيت الرابع فقد ذكره:

فرحمت أطفالا كأفراخ القطا وعويل عانسة كقوس النازع

رَددْتَ مالي ولم تبخلْ عليَّ به ... وَقبْلَ رَدَّكَ مالي قَدْ حَقَنْتَ دَمي
فأبتُ عنكَ وَقَدْ خَوّلتني نعَماً ... هما الحياتان منْ مَوْت وَمنْ عَدَمِ
فلو بذلتُ دَمي أَبغي رِضاكَ به ... والمالَ حَتى أَسلَّ النَّعْلَ منْ قَدَمي
ما كانَ ذاكَ سوَى عارية رَجَعت ... إليكَ لو لَمْ تُعرْها كُنْتَ لَم تَلُم
فإنْ جحَدْتُكَ ما أَوْلَيتَ منْ نعَم ... إنِّي لَفي اللؤْم أَحْظَى منْكَ في الكرم[1]

وكانَ إبراهيمُ بنُ المهديِّ قَدْ ادَّعَى الإمامَة لنفْسه، في زَمن المأمون وبُوَيع لَهُ ببغدادَ، وَمَكَثَ عَلى ذلكَ مَدّةً وأصحابُ المأمون يُحاربونَه إلى أنْ ظَفروا به فَعَفَى عَنْهُ كَمَا تقدَّمَ. وَكَانَ إبراهيمُ يقولُ: واللهِ ما صَفَحَ المأمونُ عنِّي صِلةً لرحمِي، وَلَكْن طارَ لَهُ اسْمُ في العفوِ، فَأَحَبَّ أَنْ يُسْديه إليَّ.

وكانَ المأمُونُ يقولُ: لَقَدْ لَذَّ لِيَ العفُو حَتى حسبتَني لا أثابُ عليه.

وَكَتَبَ معمرُ مولَى سليمانَ من الحبسِ إلى الرشيد: ليست في عِقابي إذا كنت سقيماً بأعظَم ثواباً منْكَ في تخيلتي إنْ كُنْتُ بريئاً.

وقالَ أردَشيرُ: وَجَدْنَا للذةِّ العَفوِ مَا لَمْ نَجدْ للَذة العقوبة. وَأَمَر الحجاجُ بقتلِ أقوام، فَلمَّا قُدِّمَ أحَدُهُم لِلْقتلِ بَعْدَ قَتْلِ جماعة منْهُم، قَالَ: واللهِ لأنْ كُنَّا أسأْنَا في الذَّنْب، فما أَحْسَنْتَ في العَفوِ فقالَ الحجاجُ أمّا كَانَ في هؤلاءِ الجيفِ مَنْ يُحْسنُ مثْلَ هذا وَعَفى عَنْهُ وعمَّنْ بَقيَ منْهُم. وقَالَ عَبْدُ الصَّمَد [2] للّسفاحِ: إذَا قَتَلتَ أكفاءك فبمنْ تباهي بملكك. وَقالَ معاويةُ: أَوْلى النَّاسِ بالعفوِ "أقدرُهم على العقوَبة".

وقالَ عَبْدُ الملكِ بنُ مروانَ [3]: أحق الناس بالإحْسَانِ مَن أَحْسَنَ اللهُ إليه وأولاهُم

(١) المستجاد من فعلات الأجواد، ص ٨٣، مع اختلاف في البيت الأخير، زهر الآداب، ج ١ ص ٥٧٠؛ وذكر الآمالي، ج ١ ص ٢٤٣، الأربعة الأولى، وأغفل البيت الخامس.

(٢) هو عبدالصمد بن علي بن عبدالله بن عباس، ولد سنة ١٠٤هـ .، وكان في القرب لعبد مناف بمنزلة يزيد بن معاوية. ولي إمرةَ دمشق والموسم والمدينة والبصرة، توفي سنة ١٨٥هـ ./ شذرات الذهب، ج ١ ص ٣٠٧؛ النجوم الزاهرة، ج ١٠ ص ١٨٦؛ المختصر في أخبار البشر، ج ٢ ص ١٦؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ١٨٦.

(٣) عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي، ترد ترجمته في القسم الثاني.

بالعفوِ مَنْ بَسَطَ اللهُ بالقُدْرَة يَدَيْه.

وقالَ ابن المعتز: كَفى بالظَّفَرِ شَفيعاً لِلْمذنب إلى الحليمِ. وَقَالَ: حَسبُكَ مِنْ عدوّك ذُلُّهُ في قدرتكَ. وقالَ أَيضًا: مَا عَفَى عَنِ الذنْب مَنْ قُرع به. وقالَ: لا تُشن وَجهَ العفو بالتأنيب. وقالَ آخرُ: أولى السَّائلينَ بالإسعاف مَنْ طَلَبَ العفوَ وقالَ آعف عَمّن أَبطأ بالذَّنْب وأسْرَعَ بالنَّدَم. وَقالَ الأميرُ شَمْسُ المَعالي: العفُو عَنِ المجرمِ مِنْ واجب الكرَم، وقبولُ المعذرة مِنْ محاسنِ الشَّيَم، قيلْ: اعتَذَرَ أَحمَدُ بنُ هشام الكاتب إلى أحمدَ بين أبي خالد[1] بعُذرٍ فقالَ لَهُ أحمدُ بْنُ خالد: واللهِ لا قبلتُ عذرَكَ حَتَّى أُسيئَ إليك. قالَ ابنُ هشامٍ: واللهِ لأنْ فعلتُ لاستعديتُ عليكَ إلا نَفْسَكَ ولا أطْمَعني فيكَ إلا ظُلْمُكَ. فاستحيا منْهُ وَقبلَ عُذرَهُ. وقالَ بعضُ البُلغاءِ: ليس مِنْ عادَة الكِرامِ إسراعُ الانتقام، ولا مِنْ شَرْطِ الكرامِ إزالةُ النِّعَم، ولا تأخُذْ بالسَّهوِ ولا تَزْهَدْ في العفوِ وارحمْ منْ دُونَك يرحمْكَ مَنْ فَوقَكَ.

وَهذا المعْنى قريبٌ مِنْ قَولِ النَبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "الرَّاحمونَ يرحَمُهُمُ الرحمنُ: ارْحَموا مَنْ في الأرضِ يرحَمُكُم من في السماء" [2]. وَقَالَ بَعْضُ الحُكماءِ: عَفوُ الملوكِ أبقَى للمِلْكِ.

---

(١) هو أحمد بن أبي خالد الأحول، وزير المأمون، كان جليل القدر من عقلاء الرجال بصيراً بالأمور كاتباً بليغاً، مات حتف أنفه سنة ٢١٠ هـ ./ الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٢٤– ٢٢٥.

(٢) سنن الترمذي، ج ٣ ص ٢١٧، وقال حديث حسن صحيح؛ سنن أبي داود، ج ٤ ص ٢٨٥؛ السنن الكبرى، م ٩ ص ٤٠، تكفل الله لمن رحم عباده بالرحمة منه ومن ملائكته ورحمة الملائكة لأهل الأرض دعاؤهم لهم بالرحمة والمغفرة والرحمة مقيدة باتباع الكتاب والسنة، فإقامة الحدود والانتقام لحرمة الله تعالى لا ينافي كل منهم الرحمة/ عون المعبود، شرح سنن أبي داود، ج ١٣ ص ٢٨٥.

فَصْلٌ: واعلمْ أنهُ ليسَ لِسُرْعَةِ الانتقامِ وتعجيلِ العقوبةِ والإعراضِ عَنِ الصفحِ وقِلّةِ الرّغبَةِ فِي العفوِ سببٌ سوى قوةِ الغضبِ، فلنذكُرْ مِنْهُ جُمَلاً موجزةً:

قالَ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ: "ليسَ الشديدُ بالصرعةِ إنَّما الشديدُ الذي يَمْلكُ نَفْسَهُ عندَ الغَضَبِ"(١).

وقالَ عَليهِ الصَّلاةُ والسلامُ: "مَنْ كَظَمَ غيظاً وَهُوَ يَقدرُ أَنْ يمضيه ملأ اللهُ قلبَهُ أَمْناً وإيماناً"(٢). وقالَ صلى اللهُ عليه وسلّمَ: إذا غَضبَ أحدُكُم وَكانَ قائماً فليقْعُدْ أَوْ كانَ قاعداً فليضطَجِعْ(٣). وَقالَ عَلَيْهِ السَّلامُ: "إذا عَضِبْتَ فَاسْكُتْ"(٤). وقالَ لَهُ

(١)صحيح البخاري، ج ٨ ص ٣٤؛ صحيح مسلم، ج ٨ ص ٣٠؛ موطأ مالك بشرح الزرقاني، ج ٤ ص ٢٦٠؛ مسند أحمد، م ٢ ص ٢٣٦. ومعنى الحديث أنه ليس القوي هو الذي يصرع الرجال، بل القوي هو الذي يصرع غضبه، فيكظمه ويملك نفسه في ثورة الغضب، فهذا هو صاحب القوة لأن قهر النفس شيء صعب، فإذا تغلب عليها يكون قد قهر أقوى أعدائه وشر خصومه.

(٢)سنن أبي داوود، ج ٤ ص ٢٤٨ باختلاف في بعض الألفاظ؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ٢٥، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣)سنن أبي داوود، ج ٤ ص ٢٤٩؛ مشكاة المصابيح، ج ٣ ص ١٤١٥؛ مجمع الزوائد، ج ٨ ص ٧٠، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقعود عند الغضب، لأن القائم متهيئ للحركة والبطش والقاعد دونه في هذا المعنى والمضطجع ممنوع منهما فيشبه أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أمره بالقعود والاضطجاع لئلا يبدر منه في حال قيامه وقعود ما يندم عليه؛ عون المعبود، شرح سنن أبي داوود، ج ١٣ ص ١٤٠.

(٤)الجامع الصغير، ج ١ ص ٣١، وقال: حديث حسن؛ مسند أحمد، م ١ ص ٢٨٣ عن ابن عباس.

رَجُلٌ: أوصني، قال: لا تَغْضَبْ[١].

وقيلَ: الغَضَبُ غُولُ العقْلِ. وقيلَ: الغضبُ مفتاحُ الشَرِ. وقال بعض الحكماء: الغَضَبُ يُفْسِدُ الإيمانَ كما يُفْسِد الصَّبْرُ العسل. وقيلَ: إذا دَخَلَ الغَضَبُ على الرجُلِ العاقِلِ الورِعِ، أَذْهَبَ منْهُ العقلَ والوَرَعَ، فكيفَ بمنْ لا عَقْلَ ولا وَرَعَ.

وقالَ سَهْلُ بنُ هارونَ[٢]: ثلاثة منَ المجانين وإنْ كانُوا منَ العقلاءِ: الغَيْرَانُ والغَضبانُ والسكرانُ. وقالَ ابنُ المعتزِّ: الغضبُ يُصدي العقلَ، حتى لا يرى صاحبه صورة حَسَن فيفعلَه ولا صورة قُبح فيجتنبَهُ وقالَ: أَوَّلُ الغَضَبِ جُنونٌ وآخرُهُ نَدَمٌ. وقالَ: لا يحملنَّكَ الحَنَقُ على اقتراف إثم، فَتُشفَى غيضَكَ وَتسْقَمَ دينَك. وقالَ: قوَّةُ الحُلْمِ على الغَضَبِ أفضل منْ قُوَّة الانتقام. وقالَ: ابْقِ لرضاكَ من غَضَبِكَ. وقالَ بعضُ الحُكماءِ رأسُ الأدَبِ قَطْعُ الغَضَبِ. وَقالَ: أسرَعُ الناسِ جواباً مَنْ لَمْ يَغْضبْ. وقالَ آخرُ: مَنْ يَمْلكُ غَضَبَهُ ويكظمُ غَيظَهُ فَقَدْ كَمُلَ عَقْلُهُ.

وَقالَ بعضُهم: التباعُدُ من غَضَبِ اللهِ أَنْ لا يغضبَ العبدُ، فَإن بدءَ الغضب منَ الكِبْرِ والحميّة والانفة. قالَ أبو الدرداء[٣]: أَقربُ ما يكونُ منَ العبد غَضَبُ اللهِ تعالى إذا غَضِبَ. ونَظَرَ عبدُالرحمنِ بنُ مُحَمّدٍ إِلَى الرشيدِ وقدْ اشتدَّ غَضَبُهُ على رَجُلٍ،

(١)(١) صحيح البخاري، ج ٨ ص ٣٥؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ٢٥٠- ٢٥١، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقد تكلم الإمام الغزالي في الاحياء عن الغضب وبين أسبابه وحقيقته وعلاجه فليرجع إليه هناك.

(٢)سهل بن هارون: هو أبو عمرو سهل بن هارون بن راهابون من أهل نيسابور، انتقل إلى البصرة وخدم المأمون فكان صاحب خزانة الحكمة، وكان حكيمًا فصيحاً شاعراً فارسي الأصل، شعوبي المذهب شديد التعصب على العرب، له مصنفات تدل على بلاغته وحكمته، كانت وفاته بعد عام ٢٠٠ هـ .. سرح العيون، ص ٢٤٣؛ فوات الوفيات، ج ٢ ص ٨٤؛ الفهرست، ص ١٢٠.

(٣)هو عويمر بن مالك وقيل عامر بن مالك وعويمر لقب الخزرجي الأنصاري أسلم بعد بدر وكان فقيهاً عالماً حكيمًا، آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين سلمان الفارسي، وشهد ما بعد أحد من المشاهد، ولي قضاء دمشق لمعاوية في خلافة عثمان، توفي سنة ٣١ هـ .. الاستيعاب، ق/ ٤ ص ١٦٤٦؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٣٩.

فَخَافَ أنْ يستفزَّهُ الغضبُ، فقالَ يا أميرَ المؤمنينَ إنَّما تَغْضَبُ للهِ فلا تغضبْ بما (لا تغضبُ به لنفسكَ فيغْضَبَ عليكَ).

وفي بَعضِ كُتبِ اللهِ المنزلة: يا بْنَ آدَمَ اذكُرني حينَ تَغْضَبْ أذكُرك حينَ أغضبُ.

(وقالَ بعضُ الحكماءِ: احتمالُ الصَّبْرِ عنْدَ الغَضَبِ أَسْلَمُ من إطْفائه) بإظهارِ السَّفَه. وَقيلَ: يَنْبغي للْسُلْطانِ العَجُولِ أَنْ يَحْذَرَ الطيشَ والغضبَ والحد، فإن السلطانَ الغضُوبَ المفرطَ في العقوبة يُهْلكُ نَفْسَهُ وسلطانَهُ ورعيتَهُ.

وَدَفَعَ أردشيرُ إلى رجل كانَ يقومُ على رأسه ثلاثةَ كُتُب، وَقَالَ: إذا رأيتني وَقَدْ اشتدَّ غَضَبي عَلَى أَحَد فادفعْ إليَّ الكتابَ الأولَ، ثمَّ الثَّاني، ثم الثالثَ، فاشتدَّ يوماً غَضَبُهُ على رَجُل فَدَفَعَ إليه الأولَ فإذا فيه أَمْسكْ فإنَّكَ لَسْتَ بإله، وإنَّما أَنْتَ جَسَدٌ يوشكُ أَنْ يفنَى، ويأكلَ بعضُكَ بعضاً، وَدَفَعَ إليه الثاني فإذا فيه أَرحمْ العبادَ، تُرْحَمْ في المَعاد، وَدَفَعَ إليه الثالثَ فإذا فيه احملْ الخلقَ على الحقِّ، فلا يَسَعُكَ إلا ذلكَ. قالَ معاويةُ: ما غَضَبي على مَنْ لا أملكُ وما غَضَبي على مَنْ أملكُ.

فَصْلٌ:
في الانتقامِ ممَّنْ يُجريه العفوُ على الاقتحامِ الجرائمِ والآثامِ

قالَ بعضُ البلغاءِ: لا يكنْ عفوُكَ وإغضاؤُكَ سبباً للجراءةِ عليكَ، وعلَّةَ الإساءةِ إليكَ، فإنَّ الناسَ رَجُلاَن، عاقلٌ يَكْتَفي بالعذْلِ[1] والتأنيب، وجاهلٌ يُحوجُ إلى الضَّرْبِ والتأديب. وقالَ: العفوُ احتمالُ الذَّنْبِ الذي لا يكونُ عَنْ عَمْد، ولا يقضي بوجوبِ حَدٍّ، فأَمَّا الذَّنْبُ الذي يُرْكَبُ عمداً ويوجبُ حدّاً فذلكَ ما لا تَحملُهُ السياسَةُ ولا تطابقُهُ الشريعة. قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "أقيلوا ذَوي الهيئاتِ عثراتهم إلا في الحدود[2]. قالَ المنصورُ: إذا كانَ الحِلْمُ مَفسَدَةً، كانَ الحُكْمُ

(١)عذلته عذلاً: لمتهُ فاعتذل، أي لام نفسه ورجع. المصباح المنير.

(٢)سنن أبي داوود، ج ٤ ص ١٣٣؛ السنن الكبرى، م ٨ ص ٣٣٤؛ كشف الخفاء، ج ١ ص ١٨٣. وقال الشافعي: ذوو الهيئات الذين يقالون عثراتهم الذين لا يعرفون بالشر يزل =

معْجزَةً. وقيلَ: مَنْ عفى عَمَّنْ يستوجبُ العقوبةَ، كانَ كَمَنْ عاقَبَ مَنْ يستوجبُ المثوبةَ، وَقيلَ: العفوُ يُفْسدُ من اللئيمِ، بقدر ؟ا يُصْلِحُ مِنَ الكريم.

قال أبو الطيّب المتنبي:

إذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَه وأنْ أَنْتَ أَكْرمْتَ اللَّئيم تَمَرَّدا

مُضِر كَوَضْعِ السَّيْفِ وَوَضع النَّدى مَوْضَع السَّيفِ بِالعُلى في ؟وضعِ النَّدَا[١]

وقالَ أيضاً:

إذا قِيلَ رِفقاً كانَ للحلمِ موضعٌ وَعلمُ الفتى في غيرِ موضعه جَهْ ـل[٢]

وهذا مِنْ قول ؟للأحنف بنِ قيس، قيلَ لَهُ: أينَ الحِلْمُ، فقالَ: عندَ الحصي.

وقال أمير المؤمنينَ علي بنُ أبي طالب عليه السَّلامُ: ؟السَّيفُ أَنمَى عدَداً وأَكثَرَ ؟وَلَداً.

وقولُهُ: القتلُ أنفَى للقتلِ. وَهُوَ مَعنى قَوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[٣] ولَمّا أنشَدَ النابغةُ الجعدي[١] رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلَّم،

=

أحدهم زلة.

(١)ديوان المتنبي بشرح البرقوقي، ج ٢ ص ١١، ومعنى البيتين: أن الكريم يقدر الإكرام، فـ إذا أنت أكرمته صار كأنه مملوكاً لك. أما اللئيم فإنك إذا أكرمته زاد عتواً وجراءة عليـ ـك. ويبين في البيت الثاني ما يجب أن يعامل به الناس فمن استحق العطـ ـاء لم يسـ تعمل معـ ـه السيف ومن استحق القتل لم يكرم بالعطاء، ومن فعل هذا أضر بعلاه، وهدم أركان دولته.

(٢)ديوان المتنبي بشرح البرقوقي، ج ٣ ص ٣٠٥. ومعنى البيت: أنه إذا طلب إليه الرفق في ساحات الوغى والحرب قال، قال: موضع الحلم والرفق في السلم أما الحرب فلا رفق فيها والمتحلم فيها جاهل أحمق يضع الشيء في غير موضعه. والشطر الأول من البيت في الديوان:

إذا قيل رفقاً قال للحلم موضع .....

(٣)آية ١٧٩ من سورة البقرة. ومعنى الآية الكريمة: أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم فيه، ازدجر من يريد قتل آخر، مخافة أن يقتص منه فيحييا بذلك معاً. وكانت العرب إذا قتل الرجل الآخر حمى قبيلاهما، وتقاتلوا وكان ذلك داعيًا إلى القتل الكثير، فلما شرع الله =

القصاص قنع الكل به، فلهم في ذلك حياة. وقال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل. وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير والحسن وغيرهم. ولا شك أن هذه الآية أبلغ قولاً وأحسن بياناً وتفصيلاً وأوجز لفظاً مما كانت العرب تعتبره قمة البيان، نحو قولهم السابق: القتل أنفى للقتل، فها هو صاحب كتاب العقد الفريد للملك السعيد يعقد مقابلة بين قول العرب وبنِ ما صرحت به الآية. فيقول:

أجمع أرباب علم المعاني والبيان، على أن قولهم: القتل أنفى للقتل أوجز كلمة كانت العرب تستعملها ويعدونها واسطة عقد الإيجاز ويحمدونها بلسان التفضيل والامتياز، فلما نزل القرآن الكريم وفيه قوله تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ وقرعت آياته أسماعهم وقطعت فصاحته عن معارضته أطماعهم، أذعنوا له واعترفوا برجحان قول الله لما فيه من الكشف والبيان، والتكملة والإيضاح وأوجه التفضيل هي خمسة أمور:

الأول: أن قوله في القصاص حياة، عري عن تكرار اللفظ، خلى عن إعادته، وقولهم القتل أنفى للهول، مشتمل على تكرار لفظ القتل، وذكرها مرتين والتكرار يسقط فصاحة الكلام وجزالته. الثاني: أن الآية أوجز وأخصر في العبارة وأقل تطويلاً فإن حروفها أقل عددًا من حروف قولهم.

الثالث: أن قول الله أحسن تأليفاً للحروف المباينة، فإن الخروج عند النطق من الفاء إلى اللام، في قوله تعالى في القصاص أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة، في قولهم القتل أنفى، وهي آخر القتل وأول أنفى، لبعد مخرج ما بين الهمزة واللام، وكذلك أيضاً الخروج من الصاد إلى الحاء آخر القصاص وأول حياة، أعدل من الخروج من الألف إلى اللام، وهي آخر أنفى ولام تعريف القتل، إذ الهمزة تسقط وحسن تأليف الحروف أدخل في الفصاحة.

الرابع: اشتماله على إقامة العدل والإنصاف بذكر القصاص الدال على المساواة، فإن القصاص مأخوذ من التساوي، ومنه سمي المقص مقصاً لاستواء جانبيه واعتدال طرفيه، ولا كذلك لفظة القتل، وما كان مشتملا على إقامة العدل والإنصاف كان أرجع.

الخامس: تصريحه بالغرض المطلوب المرغوب فيه، وهو الحياة ولا كذلك قولهم فظهر بهذه

قوله:

ولا خَيْرَ في حلم إذا لم تَكنْ له بوادرُ تَحْمِي صفوَهُ أن يكَدَّرا
ولا خيرَ في جهل إذا لم يكنْ لَهُ حليمٌ إذا ما أوْرد الأمرَ أصدرا[٢]

فقالَ لَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لا يفُضُّ فاكَ".

وللنُّعمانِ بن المُنْذِرِ[٣]:

تَعفُو الملوكَ عَنِ الكبيرِ مِنَ الذُّنوبِ لِفضلِهَا
وَلَقَدْ تُعاقِبُ في القليل وليس ذلك لجهلها
إلا ليُعـ . . رَف فضلُها وُيخَـافُ شـدَّةُ نَكْـلِـهـا

=

الوجوه تفضيل أدلة الرجحان وتفضيل الجزالة والإيجاز. العقد الفريد للملك العبد، ص ١٤٩ – ١٥٠؛ تفسير القرطبي، م ١ ج ٢ ص ٢٥٦؛ تفسير ابن كثير، ج ١ ص ٢١١.

(١)هو قيس بن عبد الله بن عدس، يكنى أبا ليلى أحد القدماء المشهورين والشعراء المخضرمين، أقام ثلاثين سنة منقطعاً عن الشعر، ثم نبغ فيه ومن هنا سمي بالنابغة، وكان ممن أنكر الخمر والأوثان في الجاهلية. ورد على النبي صلى الله عليه وسلم ومدحه بقصيدته التي مطلعها:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنرجوا فوق ذلك مظهرا

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: فأين المظهر يا أبا ليلى، فقال إلى الجنة. فلما أتم القصيدة دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: "أجدت سلم فاك" وشهد مع الإمام علي كرم الله وجهه صفين وظاهره بيده ولسانه، توفي سنة ٥٨ هـ. بعد أن عمر ١٨٠ سنة. الإصابة، ج ٣ ص ٥٣٧؛ تاريخ الطبري، ج ١٣ ص ٢٣٩٧؛ الشعر والشعراء، ج ١ ص ٢٨٩.

(٢)نهاية الأرب، ج ٦ ص ٥٦؛ إنسان العيون (السيرة الحلبية)، ج ٣ ص ٣٧١؛ معجم الشعراء، ص ١٩٥؛ الشعر والشعراء، ج ١ ص ٢٨٩.

(٣)هو أبو قابوس النعمان بن المنذر بن امرئ القيس أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية وهو ممدوح النابغة الذبياني، كان له يومان: يوم بؤس ويوم نعيم. وقتل عبيد بن الأبرص الشاعر يوم بؤسه وكان أتاه يمدحه ولم يعلم أنه يوم بؤسه. المعارف، لابن قتيبة، ص ٢٨٣؛ تاريخ اليعقوبي، م ١ ص ٢١٢– ٢١٤؛ الكامل في التاريخ، م١ ص ٢٨٦.

وقال آخرُ:

فلا يغ ـرُرْكَ طولُ الحلمِ ؟ . ـني فم ـا أبـ ـداً تصادفُني حَليمَا[١]

وقال آخَرُ:

بَطرتُم فطرْتم والعصا زجْرُ مَن عَصا وتقويمُ عبدِ الهون بالهَوْنِ رادِع[٢]

وقال بشار:

الحُر يُلْحىَ والعصا للعبدِ[٣] .....

وقال ابنُ دريد[٤]:

واللوْمُ لِلْحُرِّ مُقيمٌ رادِعٌ والعبْدُ لا يردَعُهُ إلا العَصَا

بابٌ في (ذكر) الأناة
وذمِّ العَجَلة في الأمورِ التي لاَ يستعقبُ
فوتها ضررٌ ولا يُخشَى من تأْخيرِهَا غَرَرٌ

قالَ رسولُ اللهِ صلَى اللهُ عليهِ وسلّمَ لأشجِّ عَبْدِ القيسِ[٥] إنَّ فيكَ خصلتينِ

(١) التمثيل والمحاضرة، ص ٤١٣؛ المخلاة، ص ١٣٣.

(٢) خاص الخاص، ص ١٥٩؛ زهر الآداب، ج ١ ص ٢٦٩؛ التمثيل والمحاضـ ـرة، ص ١٢٢ منسوب إلى أبي الفتح علي بن محمد الحسين بن العميد.

(٣) ديوان بشار، ج ٢ ص ٢٢٤؛ الشعر والشعراء، ج ١ ص ٣٥٥.

(٤) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزي. ولد بالبصرة سنة ٢٢٣ هـ . ونشأ بها، وسكن عُمان ثم عاد إلى البصرة ورحل في نواحي فارس وصحب ابن مكيال فقلـ ـده ديوان فارس فأفاد مالا عظيما إلا أنه لسخائه لم يكن يمسك درهماً، ثم انتقل إلى بغداد سنة ٣٠٨ هـ . واتصل بالخليفة المقتدر بالله، فأجرى عليه خمسين ديناراً في كل شـ ـهر، تـ ـوفى ببغداد سنة ٣٢١ هـ .. وفيات الأعيان، م ٤ ص ٣٢٣؛ شذرات الذهب، ج ٢ ص ٢٨٩؛ النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ٢٤٠؛ تاريخ بغداد، ج ٢ ص ١٩٥.

(٥) اختلف في اسمه فقيل هو عبد الله بن عوف الأشج، وفي الاستيعاب هو المنذر بن عائذ بـ ـن المنذر بن النعمان من عبد القيس يعرف بالأشج سيد قومه وقائدهم إلى الإسلام وفد علـ ـى =

يحبُّهُمَا اللهُ: الحلمُ والأناةُ[١]. وقالَ عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ "التوءدَةُ والاقتصادُ والتثبّتُ جُزءٌ من ستَّة وعشرينَ جُزءاً من النبوّة"[٢].

وقالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ "مَنْ تأنّى أصابَ أو كادَ، ومَنْ عَجَّلَ أخطَأَ أو كادَ". (وَقالَ) الأناةُ حِصْنُ السَّلامةِ والعَجَلَةُ مِفتاحُ الندامةِ (وَقالَ): مَنْ رَكِبَ العَجَلَ أدْرَكَ الزَّلَلَ.

قال القطاميُّ[٣]:

قدْ يُدْرِكُ المتأنّى بعضَ حاجته وَقدْ يكونُ مَعَ المستعْجِلِ الزَّلَلُ

وقيلَ: التَّأني في الأمورِ أولُ الحزمِ والتسرُّعُ في الأمورِ عَينُ الجهْلَ.

وقيلَ: إذا لم تُدرَكُ الحاجةُ بالرِّفقِ والدَّوامِ فَبأيّ شَيءٍ تَدْرَكُ.

وقيلَ: مَنِ استعملَ الرفقَ غنمَ، وَمَن استعملَ الخرقَ نَدمَ، ومن اقتَحَمَ الأُمورَ لقيَ المحذورَ، العجولُ مُخْطِئٌ وإنْ مَلكَ، والمُتأني مصيبٌ وَأنْ هَلَكَ.

وقال ابنُ المعتزِّ: العجلَةُ تضمن العَثْرَةَ بِكُلّ مكررهٍ. وقال: الخرقُ بالرِّفقِ يلحمُ.

=

رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال له: "إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأنـ ـاة"/ المعارف، ص ١٤٧؛ الاستيعاب ق/ ٤ ص ١٤٤٨.

(١) السنن الكبرى، م ١٠ ص ١٠٤؛ سنن ابن ماجه، ج ٢ ص ١٤٠١؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ٢٤٧؛ مسند أحمد، م ٤ ص ٢٠٦، وفيه الحلم والحياء.

(٢) سنن الترمذي، ج ٣ ص ٢٤٧، ونص الحديث (السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة) وقال حسن غريب ومعنى هذا الحديث أن هذه الخلال من شمائل الأنبياء وخصالهم، وليس معنى ذلك أن النبوة تتجزؤ ولا أن من جمع هذه الأجـ ـزاء كان فيه جزء من النبوة فإن النبوة غير مكتسبة ولا مجتلبة بالأسباب إنما هي كرامة من الله تعالى. والحديث ذكره البخاري في الأدب المفرد بلفظ (الهدى الصالح والسمت والاقتصاد جزء من سبعين جزءاً من النبوة) فضل الله الصمد في توضـ ـيح الأدب المفـ ـرد، ج ١ ص ٥٥٥.

(٣) القطامي: هو عمير بن شيم، من بني جشعم شاعر غزل، عده ابن سلام من الطبقة الثانيـ ـة من شعراء الإسلام/ طبقات فحول الشعراء، ص ٤٥٢.

وقالَ غيرُه: (بالتَّأني) تُدرِكُ الغَرَضَ.

فَصلٌ:
اعلمْ أَنَّ الأناةَ
إنما قُصدت للاستظهار والاستبصار

والنّظَرُ في العواقب، وانفساحُ مذاهب الرَّأي في المطالب، وَبَصْرُ أحْسَنِ الأمرين، وأنهج المسلكين، وعند العجلة والمغافصة يُفوّتُ ذلكَ (فالخواطرُ) كالبروق الخواطف ليسَ لها ثباتٌ، فربَّما لاحَ لَهُ رأيٌ وَخطَرَ لَهُ فكْرٌ فَعمِلَ به قبلَ التّثبت والتأمّل، ثُمّ يتبَّينُ لَهُ بَعْدَ ذلكَ أنَّ الصوابَ كانَ في غيره، فيندمُ حينَ لا يُغني النَّدَمُ ولا ينفعُ السدمُ[1]، فأمَّا ما وضُحَ فيه وجهُ الصَّواب السَّداد وأمنَ في عواقبه دَواعي الفساد، فينبغي أَنْ ينتهزَ فيه الفرْصَةَ عندَ إمكانها ويبادرَها قبلَ تعذُّرها وفواتها.

قالَ السفاحُ: الأناةُ محمودة إلا عندَ إمكان الفرصَة. وَقَالَ غيرُهُ الفُرَصُ تمرُّ مرَّ السَّحاب. وقَالَ آخرُ: تجرَّعْ منْ عَدوِّكَ الغُصَّةَ، إلى أَنْ تَجدَ الفرصةَ فإذا وجدتَها فانتهزْها قبلَ أن يفوتَك الدَّركُ أو يعينَه الفُلْكُ.

قال الشاعرُ:

وإنْ فرصة أمكنتْ مرةً ... فلا تَبْدَ فعلك إلا بها

فإن لم تلـ ـج بابَه ـا مُسـ ـرعاً ... أتـ ـاكَ عـ ـدوُّكَ مـ ـن بابِه ـا(٢)

ولآخرَ:

إذا هبّتْ رياحُك فاغتنمها ... فعقبى كُلِّ عاصفَةٍ سكونُ

ولا تَغْفُـ ـل تداركَه ـا سريعاً ... فما تدري السَكونُ متى يكونُ(٣)

ولابنِ الرومي[1]:

(١)السدم بفتحتين الندم والحزن، ورجل سادم نادم، وسدمان ندمان/ مختار الصحاح.

(٢)ديوان ابن المعتز، ص ٣١. غرر الخصائص، ص ٢٠٤. الحلة السيراء، ج ١ ص ٣٤.

(٣)ديوان الإمام علي بن أبي طالب، ص ١٢٦. نهاية الأرب، ج ٦ ص ١٣٨. قوانين الوزارة، ص ١٥٦.

عيبُ الأناةِ وإن كانت مباركةً أنْ لا خلودَ وأنْ ليسَ الفتَى حَجَراً[٢]

قيلَ: مَن غافصَ الفرصَ أمنَ الغصصَ. "وقيلَ إذا كانَ الموتُ غير مأمونٍ طرفةَ عينٍ فمنَ الخرَقِ تأخيرُ ما أمكنَ" قالَ بعضُ الحكماءِ: مَن انتظرَ الفرصَةَ، مؤاجلةَ الاستقصاءِ سلبتُه الأيامُ فرصتَه لأن صناعةَ الأيامِ السلب وشرط الزمانِ الافاتة".

بابٌ
في إيثارِ السَّلمِ والموادَعَةِ على الحربِ والمنَازعةِ وكيفيةِ الدُّخولِ على الحربِ عندَ الحملِ عَليهَا والاضطرارِ إليهَا

اعلمْ أنَّ السِّلمَ بابُ السَّلامةِ وسببُ الاستقامةِ.

قالَ الثعالبي: السِّلْمُ سُلَّمُ السَّلامةِ. قَالَ غيرُهُ: اغْمدْ سيفَكَ ما نابَ عنه لسانُكَ واستَملْ عَدُوكَ ما مال به إحسانُك. وقيلَ: مِنْ أتَمِّ النُّصْحِ الإشارة بالصُّلْحِ. وَقالَ بَعْضُهُم مَنْ استَصلَحَ عدوَّهُ زادَ في عَدَدِه ومن استفْسَدَ صديقَه نَقَّصَ مِنْ عَدَدِه. وفي الزبورِ: مَنْ كَثُرَ عدوُّهُ فليتوقَّعَ الصَّرْعةَ. وقالَ داودُ[٣]، عليه السَّلامُ:

=

(١)هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج، المعروف بابن الرومي، الشاعر المشهور، صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب، ولد سنة ٢٢١ هـ . ببغداد، وتوفي سنة ٢٨٣ هـ . مسموماً. وفيات الأعيان، م ٣ ص ٣٥٨. شذرات الذهب، ج ٢ ص ١٨٨. البداية والنهاية، ج ١١ ص ١٧٤.

(٢)ديوان ابن الرومي، ج ٣ ص ١١٤٧.

(٣)هو داود بن ايشا بن عوبد بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم، آتاه الله الملك والنبوة، بعد طالوت، فلما اجتمعت بنو اسرائيل على داود، بعد أن كان ملكاً على بني يهوذا خاصة أنزل الله عليه الزبور، وعلمه صنعة الحديد، وآلانه له ولم يعط الله فيما يذكرون أحداً من خلقه مثل صوته، كان إذا قرأ الزبور فيما يذكرون ترنو له الوحش حتى يأخذ بأعناقها، وكان شديد الاجتهاد دائب العبادة كثير البكاء كما وصفه الله عز وجل في القرآن: ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾، [سورة ص: آية ١٧]. الطبري، ج =

لا تشترِ عداوةَ واحدٍ بصداقةِ أَلْفٍ.

قالَ الشاعرُ:

وليسَ كثيراً ألفُ خلٍ وصاحبٍ وإنَّ عَدُواً واحداً لكثيرُ[١]

وقالَ بعضُهُم: لا تفتحْ باباً يعييكَ سَدُّهُ، ولا تُرْسِلْ سهماً يُعْجِزُكَ رَدُّهُ، ولا تُفْسِدْ أمراً يعييكَ إصلاحُه، ولا تُغْلِقْ باباً يُعجزُكَ افتتاحُهُ.

وَقيلَ: لا لا يغرَّنكَ المُرتَقى السَّهلُ إذَا كانَ المنحدَرُ وعراً. وقيلَ: تَوقَّ كُل التوقي وَلا حارسَ منَ الأجَل، وَتَوكل كلَّ التوكُلِ ولا عُذْرَ في التغريرِ[٢]. وَمنْ كتاب كَليلةَ ودمنةَ أَرْبَعة لا يركبُها إلا أَهْوَجُ ولا يَسْلَمُ منها إلا القليل، مناجزةُ العدُوِّ، وركوبُ البحرِ، وشربُ السَّمِ للتجربة وأئتمانُ النساءِ على الأسرارِ[٣]. وفيه أيضاً القليل منْها كبيرُ النارِ والعداوة والمرض. وَقيلَ: كُل شيءٍ يُنفَقُ عليهِ منَ المالِ، إلا الحربُ فإنَّ النفقةَ عليها من النُّفوس.

قال الشاعر:

كم بين قوم إنما نفقاتهم مال وقوم ينفقون نفوسهم[٤]

وكان السلف، رضي الله عنهم يستحسنون قول عمرو بن معدي[٥].

=

١ ص ٥٥٩-٥٦٦. اليعقوبي، م ١ ص ٥١. المعارف، ص ٢١.

(١)ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ص ٢٤٨. الصداقة والصديق، ص ١٣٣. أدب الدنيا والدين، ص ١٨٢، ونسبة لابن الرومي. الموشى أو الظرف والظرفاء، ونسبة إلى علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه ديوان الإمام علي بن أبي طالب، ص ٦٧.

(٢) قوانين الوزارة ص، ٤٥. وهذا القول معنى حديث (لا يغني حذر من قدر). رواه السيوطي، في الجامع الصغير، ج ٢ ص ٢٠٥.

(٣)كتاب كليلة ودمنة، ص ١٣٧. وفيه قالت العلماء إن ثلاثة لا يجترئ عليهن إلا أهوج، ولا يسلم منهن إلا قليل وهي صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار وشرب السم للتجربة. التمثيل والمحاضرة، ص ٤٧١. بهجة المجالس، ق / ٢ ص ١٢٩

(٤)ديوان أبي تمام، ص ١٥٥.

(٥)وهو عمرو بن معد كرب بن عبد الله الزبيدي، وكنيته أبو ثور، وفد على رسول الله صلى

الحَرْبُ أوَّلُ ما تَكُونُ فَتِيَّةً تَسْعى بِزِينَتِهَا لِكُلِّ جَهُولِ
حَتَّى إذا اشتدت وشَبَّ ضِرَامُهَا وَلَّتْ عجُوزاً غَيْرَ ذَاتِ حَلِيلِ
شَمْطَاءَ جَ ـزَّتْ رأسَهَ ـا وتنكَّرَتْ مكروه ـةً للشَّ ـمِّ والتقبي ـلِ[1]

وقال زهيرُ[2]:

وَمَنْ يَعْصِ أطرافَ الرماحِ فإنهُ يُطيعُ العوالي رُكِّبتْ لِكلِّ لَهْذَمِ[3]

يقولُ: مَن عَصَى الصُّلحَ والموادَعَةَ، قبلَ القتالِ، طَلَبَ ذلكَ وَرضيَ بِهِ وأطاعَه، بَعْدَ أنْ ضرَّستُه الحربُ ونالتْ منْه الفتنةُ.

قالَ الشاعرُ:

وسالَمَت لَمّا طالتِ الحربُ بيننَا إذا لم تُظفِّرْك الحروبُ فسالِمِ[4]

الله عليه وسلم في السنة العاشرة، فأسلم ثم ارتد مع الأسود العنسي، فسار إليه خالد بـ ـن سعيد بن العاصي وأسره دفعه إلى أبي بكر، فأنبه واستتابه، وعاش إلى أيام عثمان وأبلى في وقائع الإسلام بلاء حسنا مثل يوم القادسية واليرموك، توفي سنة ٢٨ هـ ـ، وهو من شعراء العرب وفرسانها المعدودين. طبقات ابن سعد، ت ٥ ص ٣٨٣- ٣٨٤. البداية والنهاية، ج ٧ ص ١١٩. الشعر والشعراء، ص ١٤٣. سرح العيون، ص ٤٣٦.

(١)الشعر والشعراء، ج ١ ص ٣٧٣. مروج الذهب، ج ١ ص ٥٣٧. عيون الأخبار، م ١ ج ٢ ص ١٢٧-١٢٨. صحيح البخاري، ج ٩ ص ٦٨، ونسبها إلى امرئ القيس، ديـ ـوان امرئ القيس، ص ٣٥٣. من زيادات نسخه ابن النحاس. غـ ـرر الخصـ ـائص، ص ٢٠٥. سـ ـراج الملوك، ص ١٥٣.

(٢)هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح بن قرة من مزينة من مضر، أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء، وهم امرئ القيس، وزهير، والنابغة الذبياني، وكان عمر بن الخطاب يسميه شاعر الشعراء. الأغاني، ج ٩ ص ١٤٦-١٥٨. الشعر والشعراء، ج ١ ص ١٣٧.

(٣)ديوان زهير، ص ٣٢، وفيه ومن يعص أطراف الزجاج، فإنه يطيع العوالي ركبت لكل لهذم. والعوالي جمع عالية، وهي التي يكون فيها السنان. واللهذم الحاد القاطع. ديوان الحماسـ ـة، للبحتري، ص ١٦٩.

(٤)يتيمـ ـة الدهر، ج ٣ ص ١٥٠، ونسبه إلى الشـ ـريف الرضـ ـي. التمثيـ ـل والمحاضـ ـرة،

قال زهيرُ يَصفُ الحرْبَ:

وما الحرْبُ إلا ما علمتُم وذقتُم ... وَمَا هُوَ عَنْها بالْحديثِ المرجَّمِ
متى تبعثُوها تبعثُوها ذميمةً ... وَتَضْرى إذا ضريتُموها فَتَضْرمِ
فتعرُككُمْ عَرْكَ الرَّحى بثفالها ... وَتَلْقَحْ كِشافاً ثُمَّ تَحْمِلْ فَتُتْئِمِ
وَتَنتجْ لَكُمْ غِلمانَ أشأمَ كُلهم ... كأحمرِ عادٍ ثُمَّ تُرضعْ فتفطمِ
فَتُغْلِلْ لَكُم مـ ـا لا تغـ ـلْ لأهلِهَا ... قرىً بالعراقِ من قفيزٍ وَدِرْهَمِ[1]

فصل:
وينبغي لمنْ ابتُليَ بعدوٍّ أنْ يكونَ مَعَهُ كمَا قالَ بعضُ وزراءِ العَجَمِ

=

ص ١٥٤.

(١)ديوان زهير، ص ٢٥-٢٦. ومعنى الأبيات، أن زهيراً يقصد تنفير قومه من الحرب وويلاتها، فمعنى البيت الأول: وما حديثي عن الحرب وتخويفكم ويلاتها بالحديث المفترى، بل أنتم قد علمتم شر الحروب وبلائها فلا تقربوها.

ومعنى البيت الثاني: أن الحرب إذا أنبعت وشب أوارها انبعثت ذميمة مكروهة من كل عاقل. ومعنى البيت الثالث: أنكم إن هيجتم الحرب وأشعلتم نارها، كنتم وقودها فتطحنكم كالرحى وتدوم عندها زمناً طويلا، فتكون كالناقة التي تحمل حملتين في عامين متتاليين، ثم هي لا تلد إلا توأمين.

ومعنى البيت الرابع: أن هذه الحرب قد يطول أمرها فتنتج لكم غلمان شؤم كأحمر عاد وهو خطأ من زهير، فإن الأحمر من ثمود واسمه قدار بن سالف عاقر الناقة، فكأن زهيراً سمع بعاد وثمود، فنسب الأحمر إلى عاد على ما توهم وهو من ثمود، وهو الذي ذكره الله في القرآن في سورة الشمس آية ١٢، بقوله ﴿ **إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا** ﴾. قال ابن كثير أي أشقى القبيلة وهو قدار بن سالف. تفسير ابن كثير، ج ٤ ص ٥١٧. ثمار القلوب، ص ٨٠.

ومعنى البيت الخامس: أن الحرب إن طالت غلت لكم غلة من نوع آخر لا كغلات قرى العراق وإنما تغل لكم غلة هي الموت والهلاك.

قالَ: ينبغي لِلْمَلك أنْ يبْني أمرَهُ مَعَ عَدوِّه، على أربعة أوجُه على اللّين والبذل، والكيد، والمكاشفة، ومثلُ ذلكَ مثل الخُرَّاج أولَّ علاجه التمكينُ، فإنْ لَمْ ينفعْ فالانضاجُ والتحليل وإنْ لم ينفعْ فالضمادُ، فإنْ لَمْ يَنفعْ فالكيُّ، وهوَ آخرُ العلاج. وَمنَ الدَّليل على التدابير في أمرِ العدوِّ باللين، حَيْثُ يتوقَّعُ نُجْعُهُ، وُيرْتَجَى نفعُهُ، أصوبُ وإلى استبدال المودة عن العداوة أقربُ قال الله جل ذكرُهُ:﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (١).

(١)سورة فصلت: آية ٣٤، وقد قيل أن هذه الآية نسخت بآية السيف ولقي المستحب من ذلك، حسن العشرة والاحتمال والاغضاء فقد روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية أي ادفع بحلمك، جهل من يجهل عليك وعنه أيضاً هو الرجل يسب الرجل فيقول الآخر إن كنت صادقاً غفر الله لي وإنْ كنت كاذباً فغفر الله لك وقوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ قال مقاتل نزلت في أبي سفيان ابن حرب كان مؤذياً للنبي صلى الله عليه وسلم فصار ولياً في الإسلام حميمًا بالقرابة، وقيل كان هذا الأمر قبل الأمر بالقتال. وقد ذكر الأستاذ سيد قطب في تفسيره ظلال القرآن: (إن النهوض بواجب الدعوة أمر شاق ولكنه عظيم الشأن.. ولا على الداعية بعد ذلك أن تتلقى كلمته بالإعراض، أو بسوء الأدب أو بالتبجح بالإنكار، فهو إنما يتقدم بالحسنة فهو في المقام الرفيع وغيره يتقدم بالسيئة فهو في المكان الدون (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة).. وليس له أن يرد بالسيئة، فإن الحسنة لا يستوي أثرها، كما لا تستوي قيمتها مع السيئة، والصبر والتسامح والاستعلاء، على رغبة النفس في مقابلة الشر، يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة، فتنقلب من الخصومة إلى الولاء ومن الجماح إلى اللين ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ وتصدق هذه القاعدة في الغالبية من الحالات، وينقلب الهياج إلى وداعة والغضب إلى سكينة، والتبجح إلى حياء على كلمة طيبة ونبرة هادئة وبسمة حانية، في وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام، ولو قوبل بمثل فعله ازداد هياجاً وغضباً وتبجحاً، ومروداً وخلع حياءه نهائياً وأفلت زمامه وأخذته العزة بالإثم/ القرطبي، م ٨ ج ١٥ ص ٣٦١-٣٦٢؛ تفسير ابن كثير، ج ٤ ص ١٠٠- ١٠١؛ ظلال القرآن، ج ٢٤ ص ١٣٥- ١٣١.

وقَالَ محمدُ بنُ يندار[١] إذا لم تستطع أنْ تقطعَ يدَ عَدوِّكَ فقبلْها. ومما يدلُّ على أنَّ البذلَ يُكْسبُ المحبةَ وَينفي العدَاوَةَ ما رويَ عَنْ صفوانَ بن أميةَ[٢] أنهُ قالَ: ما كانَ أَحَدٌ أَكرَهَ إليَّ منْ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فمَا زالَ عَلَيْهِ السَّلامُ يُعْطيني حَتّى أَنَّهُ لأحبُّ الناسِ إليَّ[٣].

وَرُوِيَ أَنَّهُ كانَ لعبد الله بنِ الزبيرِ[٤] أرضٌ متاخمةٌ لأرضِ معاويةَ قَدْ جَعَلَ فيها عبيداً منَ الزنوجِ يعمرونَها فَدَخَلوا في أَرضِ ابنِ الزبيرِ، فكتبَ إلى معاويةَ أَمّا بَعْدُ: يا معاويةُ فانْهَ عُبدانَكَ عن الدُّخولِ في أرضي وإلا كانَ لي ولكَ شأنٌ فلمّا وَقَفَ معاويةُ على الكتاب دَفَعَهُ إلى ابنه يزيدَ فَلَمَّا قرأهُ قالَ لَهُ يا بنيَّ ما تَرَى، قالَ أرَى أنْ تنفذَ إليه جيشاً، أولُهُ عِنْدَهُ، وآخرُهُ عندكَ يأتوكَ برأسِهِ قالَ أو خيرٌ منْ ذلك يا بنيَّ عليَّ بدوار

(١)محمد بن يزداد: هو محمد بن يزداد بن سويد المروزي أحد كتاب المأمون ووزرائه كان إماماً كاتباً فاضلاً، مات بسر من رأى سنة ٢٣٠ هـ . بعد ما لزم داره سنين/ النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٢٥٨.

(٢)هو صفوان بن أمية بن خلف القرشي الجمحي، من أشراف قريش هرب يوم الفتح فاستؤمن له، فعاد وشهد حنيناً مع النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر له من غنائمها، فأسلم وأقام بمكة توفي سنة ٤١ هـ ./ الاستيعاب، ق /٢ ص ٧١٨؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٥٢؛ الطبقات الكبرى، ج ٥ ص ٣٣٢؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٢١؛ البداية والنهاية، ج ٨ ص ٢٣.

(٣)مسند أحمد، م ٣ ص ٤٠٣؛ الطبقات الكبرى، ج ٥ ص ٣٢٢؛ السنن الكبرى، م ٧ ص ١٩.

(٤)هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشي الأسدي، يكنى أبا بكر على ما عليه أهل السير وأهل الأثر، وله كنية أخرى أبو خبيب، أمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين رضي الله عنها، وهو أول مولود ولد للمسلمين بعد الهجرة. بويع له بمكة سنة أربعة وستين وبايعه أهل العراق وولي أخاه مصعباً البصرة واجتمع على طاعته أهل الحجاز والعراق واليمن والعراق وخرسان وقتل رحمه الله في أيام عبدالملك سنة ٧٣ هـ . وهو ابن ٧٢ سنة وكان عبد الله كثير الصلاة كثير الصيام شديد البأس كريم الجدات والأمهات والخالات/ الاستيعاب، ق/٣ ص ٩٠٥- ٩١٠؛ وفيات الأعيان، م ٣ ص ٧١ -٧٥.

وقرطاس فكتبَ إليه وقفتُ على كتاب ابن حواريّ[١] رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم وساءني ما ساءه والدنيا عندي بأسْرِها هَينةٌ في جَنْب رضاهُ وقد كتَبْتُ على نفسي صَكّاً بالأرض والعُبدان لَهُ وأشهدتُ عليَّ فيه، فليستَضيفَها مَعَ عبدانها إلى (أرضه وعبدانه) والسَّلامُ فَلَمَّا وَقَفَ عَبْدُالله بنُ الزّبير على كتاب معاوية كتبَ إليه وقفتُ على كتاب أمير المؤمنينَ أطالَ الله بقاءَهُ ولا عدمه الرأيَ الذي أَحَلَّه من قريش هذا المحلَّ والسلامُ فلمَّا وقَفَ معاويةُ على كتاب عبدالله بن الزبير رماهُ إلى ابنه يزيدَ فلما قرأهُ أسفر وجهُهُ وقال يا بُنَيَّ إذا بليتَ بمثلِ هذا الدَّاءِ فداوِه بمثلِ هذا الدواءِ.

فصل:

ف (أمَّا) إذَا كان العدوُّ ممَّنْ لا يُرْجَى انصلاحُهُ بالبذل واللين فيجبُ أنْ يُسارِعَ بالكَيد المبينَ إلى حسم مادته واستئصَالَ شأفَته

فقدْ قيلَ: إنَّ الكيدَ أبلغُ منَ الأيْد وَقالَ: المكيدةُ أبلغُ مِنَ النَّجدَة. وقالَ ابنُ المعتزِّ: أوهنُ الأعداءِ كيداً أظهرُهُم لعداوته.

وقالَ الشاعرُ:

إذا كنتُ لا أرْمِي الضِّباءَ فإنَّني أدُسُّ لها تَحْتَ التراب دسايسا[٢]

وبالجملة فينبغي أنْ لا يدخلَ في الحربِ ويكاشِفَ بها ما دامَ يطمعُ في بلوغِ مآربه ونجاحِ مطالبه بما هو دونَها.

(١)ذكر البخاري أن الزبير كان من حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم فعن جابر رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب" قال الزبير: أنا، ثم قال: "من يأتيني بخبر القوم"، قال الزبير: أنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن لكل نبي حوارياً وحواريي" الزبير: البخاري، ج ٤ ص ٣٣؛ سنن الترمذي، ج ٥ ص ٣١٠. وقال حديث حسن صحيح، مسند أحمد، ج ٤ ص ٤.

(٢)الآمالي للقالي، ج ٢ ص ٢١٣، ونص البيت- كما أورده: فإن كنت لا أرمي الضباء فإنني أدس لها تحت التراب الدواهيا التمثيل والمحاضرة، ص ٣٦١.

قال أبو الطّيّب: وإنّما الحرْبُ غاية المكايد[١].

فحينئذ، ينبغيْ أن يعاجلَه قبلَ أنْ تتمكّنَ بوائقُهُ وتتسعَ طرائقُهُ فكلٌّ أمرٍ لا يُداوَى من قبلِ أن يعضِلَ ولا يدبَّرَ قبلَ أن يستفحِلَ عيي به مداويه وصعُبَ تدارُكه وتلافيه.

قالَ بعضهم: تفقدْ عدوَّكَ قبلَ أنْ يمتدَّ باعُهُ ويطولَ ذراعُهُ وتكبُرَ شكيمتُهُ وتشتدَّ شوكتُهُ ويعضلَ داؤُهُ ويعجزَ دواؤُهُ. ومنْ أمثالِ العرَبِ دواءُ للشقِّ أنْ يحاصُ فيه. فيستعينَ عليه حينئذٍ بالدُّخولِ في الهيجاءِ ومكاشفةِ الأعداءِ.

قال الشاعر:

إذا لم يكنْ إلا الأسنَّةُ مركباً فلا رأيَ للمضطرِّ إلا ركوبُها[٢]

ولآخرَ:

ولا أتمنَّى الشرَّ والشرُّ تاركِي ولكنْ متى أُحمَلْ على الشرِّ أركب[٣]

وهذا مثل قولِه صلى الله عليه وسلَّمَ: "لا تتمنوا لقاءَ العدوِّ وإذا لقيتموهُ فاصبروا"[٤].

---

(١)هذا عجز بيت قاله أبو الطيب من قصيدة له يمدح بها عضد الدولة أبا شجاع وصدر البيت:

يَبْدَأُ مِنْ كَيْدِه بغايَتِه وإنَّما الحَرْبُ غايَةُ الكَائِدْ

ومعنى ذلك، أن عدوكم إن بادر إلى محاربتكم من أول وهلة فيكون قد ابتدأ الكيد من آخره لأن الحرب لا يلجأ إليها إلا إذا لم تجد الوسائل/ ديوان المتنبي بشرح البرقوقي، ج ٢ ص ١٧٧.

(٢)نهاية الأرب، ج ٣ ص ٧٤؛ عيون الأخبار، م ٢ ج ٧ ص ١١٢؛ زهر الآداب، ج ١ ص ٣٨١، والبيت منسوب في هذه المراجع للكميت بن زيد الأسدي.

(٣)نهاية الأرب، ج ٣ ص ٧٣، ونسبة إلى زياد بن زيد؛ العقد الفريد، ج ٢ ص ٢٩٤، ونسبه إلى هدبة العذري؛ عيون الأخبار، م ١ ج ٣ ص ٢٧٦، ونسبه إلى البعيث؛ شعر هدبة بن الخشرم العذري، ص ٦٩.

(٤)صحيح البخاري، ج ٤ ص ٧٧، بلفظ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا) سنن أبي داود، ج ٣ ص ٤٢، برواية أخرى؛ السنن الكبرى، م ٩ ص ١٥٢؛ سنن الدارمي، ج ٢ ص ٢١٦؛ وحكمة =

قال الشاعرُ:

لم أكـ ـن فـ ـي جنباتهِ ـا يَعْلَمِ اللهُ وأَنّـ ـي بِحَرِّهِ ـا صَـ ـالي[١]

وقال آخرُ:

الحربُ يلحق فيها الكارهونَ كما تدنُو الصّحاحُ من الجَرْبى فتُعديها[٢]

وقالَ أبو الطَّيِّب:

لا تلقَ أشجَعَ مِنْكَ تعرفُهُ إلا إذا ما ضاقت الحِيَلُ[٣]

فصلٌ

ويجبُ أَنْ يُستعملَ الحـ ـزمُ في تدبيره، ويلاحظ العواقبَ في جميعِ أمـ ـوره، فمن نَظـ ـرَ في العواقبِ سلـ ـمَ مَن المعاطب،ومن أخرِ تدبيرَه تَقدُّمَ تدميره

وقيلَ: مَنْ نَظَرَ بالرأيَ غَنِم وَمَنْ نَظَرَ في العواقب سَلِمَ ومن أَخْلَدَ إلى التواني حَصَلَ على الأماني ومَنْ تَرَكَ حَزْمَه أعان خَصْمَهُ.

قالَ ابنُ دُرَيد:

مَنْ ضَيَّعَ الحزمَ جَنَى لِنفسه ندامةً ألذعَ مِنْ سَفْعِ الذّكي[١]

=

النهي أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر. وقيل إنما نهى عن تمني لقاء العدو، لما فيـ ـه مـ ـن صورة الإعجاب والاتكال على النفوس، والوثوق بالقوة وقلة الاهتمام بالعدو، وكل ذلك يباين الاحتياط والأخذ بالحزم/ عون المعبود، شرح سنن أبي داود، ج ٧ ص ٢٩٤.

(١)ديوان الحماسة للبحتري، ص ٣٣؛ ٤٣؛ المحاسن والمسـ ـاوي، ج ٢ ص ٢٨٧؛ منسـ ـوب للحارث بن عباد فارس النعامة.

(٢)حماسة ابن تمام، ج ١ ص ١٥٤: التمثيل والمحاضرة، ص ١٥٤ ويريد بهذا البيـ ـت أن شـ ـر الحرب يعدي إعداء الجرب وتنال مضرتها غير الجاني إذا دخل مع الجناة كما يدنو الصحيح إلى الأجرب فيعديه.

(٣)ديوان المتنبي بشرح البرقوقي، ج ٤ ص ٢٥، والبيت في الديوان: لا تلق أفرس منك تعرفه.. يريد بذلك أن الحزم أن لا تعارض من هو أقوى منك إلا إذا اضطررت إلى ذلك.

وقال آخرُ: الحزمُ إنْ ضيعته أبشرْ بقرب التلف.

قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلمَ: "الحزْمُ سوءُ الظن"[٢].

وَقيلَ لمعاويةَ: مَا بَلَغَ مِنْ حَزْمكَ قالَ لَمْ أَثقْ بأَحَد.

(قال بعضُ الحكماء: الاحتراسُ مِنْ كُل أحد حزمٌ وقلة الاسترْسَال إلى النَّاسِ أسْلَمُ). وكَتبَ طاهر بنُ الحسين[٣] إلى إبراهيمَ بن المهدّيّ هذه الأبيات

رُكوبُكَ الهولَ ما لم تلقَ فرصةَ جَهْل ... ورأيُك في الإقحام تغريرُ

أهونُ بدنيا ينالُ المخطئونَ بها ... حظ المصيبينَ والمغرورُ مغرورُ

فإنْ ظَفرتَ بعجزٍ أو نَجَوْتَ به ... قالوا جَهولٌ أعانَتْهُ المقاديرُ

وإنْ حُرِمْتَ بحَزْم أو هلكـ ـتَ بـ ـهِ ... فأَنْتَ عِنْدَ ذَوي الألبابِ معذورُ[٤]

=

(١)مقصورة ابن دريد بشرح الخطب التبريزي، ص ٨٣.

(٢)كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق على هامش الجامع الصغير؛ ج ١ ص ١٢٠، وقـال حديث ضعيف، ونسبه السيوطي في تاريخ الخلفاء إلى الإمام علي كرم الله وجهه، ورفعـه صاحب المنهج المسلوك في سياسة الملوك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير إسناد/ كشف الخفاء، ج ١ ص ٤٢٥، وقال أخرجه الديلمي في مسنده عن علي من قوله وهـو ضعيف. وقال الميداني في مجمع الأمثال أنه من كلام أكثم بـن صـيفي، ج ١ ص٢٠٨، وكذلك قال النويري عنه في غاية الأرب، ج ٣ ص ١٥؛ الفتح الكبير في ضم الزيـادة إلى الجامع الصغير، ج ٢ ص ٨٠؛ منتخب كنـز العمال، ج ١ ص ١٦٤.

(٣)هو أبو الطيب طاهر بن الحسين بن مصعب نائب العراق وخرسان، ولد سنة ١٥٩هـ . وهو الذي انتزع بغداد والعراق من يد الأمين وقتله وخلع المأمون في أواخر أيامه وعـزم علـى الخروج عليه وخطب و لم يدعو للمأمون فوجد في فراشه ميتاً، بعدما صلى العشاء الآخـرة فاستبطأ أهله خروجه لصلاة الفجر فدخل عليه أخوه وعمه فوجوده قتيلاً سنه ٢٠ هـ . /. وفيات الأعيان، م ٢ ص ٥١٧؛ شذرات الذهب، ج ٢ ص ١٦؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٦.

(٤)تهذب تاريخ ابن عساكر، ج ٢ ص ٢٧٤؛ مجمع الحكم والأمثال، ص ١٣٤؛ لباب الآداب، ص ٧٤ مع تقديم وتأخير بعض الأبيات.

ولآخر في المعنى:

على كُلِّ حال فآجعَل الحزمَ عـ . ـدة لِمَا أَنْتَ باغيهِ وعوناً على الدَّهْرِ
فإنْ نِلْـ ـتَ أمـ ـراً نِلْتَـ ـهُ بعزيمة وإنْ قصرتْ عنك الحظوظُ فَعَنْ عذرِ[1]

(وهذا المعنَى مأخوذ منْ قَوْلِ بَعْضِ الحُكماءِ: استعملِ الحزمَ في الأمورِ وليسَ عليكَ ما قضَى اللهُ منْهَا فَإنْ فُزْتَ بِحَظٍّ أَحرزْتَ إليهِ حمداً وإنْ غَرِمْتَهُ عوضت عليه عذراً).

وقَالَ بعضهُم: أذكرْ حسرات التفريط يلذُّ لَكَ الحزمُ. وَمنَ الحزمِ أنْ لا يحتقرَ عدوَّهُ، وإنْ كانَ حقيراً، ولا يستصغرَهُ وإنْ كان صغيراً، (فإنَّ ذلكَ عنوانُ الخذلانِ وفيهِ تَركٌ للْحَزمِ وتوهينٌ للْعَزم).

قالَ ابنُ نباتَةَ[2]:

فلا تحقَرَّن عَدوّاً رَماكَ وَإنْ كانَ في سَاعديهِ قِصر
فـ إن السُّيوف تحـ ـزُّ الرقـ . ـابَ وتعجـ ـزُ عـ ـن ما تنالُ الأبرْ[3]

قيلَ للمُهلّب[4]: منْ أحزَمِ النَّاسِ قالَ مَنْ يوهَمُ عليه الجبنُ منْ شدة احتياطه. وكانَ في قتالِ الأزارِقَة[5] يبث الأحراسَ في الأمْنِ كان يبثُّهُم في الأمْنِ، وَيذْكي

(١)غرر الخصائص، ص ٢٠٣.

(٢)هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد السعدي، من الشعراء المجيدين جمع بـ ـين حسـ ـن السبك وجودة المعنى. مدح الملوك والرؤساء وله في سيف الدولة بن حمدان جملة قصـ ـائد توفي سنة ٤٠٥ هـ .، شذرات الذهب، ج ٣ ص ١٧٥؛ النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ٢٣٨؛ البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٥٥.

(٣)ديوان ابن نباتة السعدي، ج ٢ ص ٧٣ وفيه فإن الحسام يحز الرقاب؛ يتيمة الدهر، ج ٢ ص ٣٩٥؛ خاص الخاص، ص ١٦٩.

(٤)المهلب: هو ظالم بن سراق بن صبح الأزدي، ولد عام الفتح في حياة النبي صلى الله عليـ ـه وسلم كان جواداً شجاعاً ولى إمارة البصرة لمصعب بن الزبير وانتدب لقتال الأزارقة فشرد بهم، ولاه عبدالملك بن مروان خراسان توفي سنة ٨٣ هـ . في خلافة عبدالملك بن مـ ـروان، الطبقات الكبرى، ج ٧ ص ٩٤؛ المعارف، ص ٧٥؛ البداية والنهاية، ج ٩ ص ٤٣.

(٥)الأزارقة: هم أتباع نافع بن الأزرق الذين خرجوا معه إلى الأهواز وغلبوا عليهـ ـا في أيـ ـام

العيون في الأمْصار كَما يُذْكيها في الصَّحاري ويأمرُ أصحابَهُ بالتحرّز ويخوفُهُم البياتَ وإن بَعْدَ عَنْهُم العدوُّ ويقولُ أنظروا أنْ تكادوا كما تكيدونَ، ولا تقولُوا هَذه منَّا ولا عَلينا، فإن القومَ خائفونَ وَجِلونَ وإن الضَّرورَة تفتحُ بابَ الحيلَة.

فصلٌ

وَيَنبغي لَهُ أَنْ يكونَ في حال محاربته وقتاله كَما قَال عبدُالله بنُ صالح[١] في وَصيّة لَهُ لقائد في مُقدّم جَيْش مضى إلى بلاد الروم فقالَ إنَّكَ تاجرُ الله لعباده فَكُنْ كالمضاربِ الكَيّسِ إنْ رأيتَ ربحاً لا يشُكَّ فيه اتجرتَ وإلا احتفظتَ برأسِ المَالِ لا تطلبْ الغنيمةَ حتى تحرزَ السلامَةَ وكنْ في احتيالكَ على عدِّوكَ أخوفَ من احتيالِ عدوّكَ عليكَ.

وكانت الفُرْسُ إذا بَعَثْت أميراً على جَيْش قالتْ احفظْ ما يُلْقَى إليكَ وانتهزْ الفرصَةَ فإنَّها خلسةٌ، وأثبتْ عندَ رأسِ الأمرِ لا عندَ ذَنْبه، وإيّاكَ وشفيعاً مهيباً، وإيَّاكَ والعجزَ فإنَّهُ أوطأُ مَرْكَبٍ، وعليكَ بالصَّبرِ فإنَّهُ سببُ الظَّفَرِ، ولا تخض الغَمَرَ[٢]، حتى تعرفَ القدرَ.

=

عبدالله بن الزبير فأنفذ إليهم عبدالله بن حارث بصاحب جيشه مسلم بن عبيس فقتله الخوارج وتولى المهلب أمر حربهم مدة تسع عشرة سنة ومن بدعهم إباحة قتل أطفال المخالفين ونسائهم وإسقاط الرجم عن الزاني وإسقاط حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال وإن من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر كفر ملة خرج به عن الإسلام جملة/ الملل والنحل، ج ١ ص ١١٨- ١٢٢.

(١)الصواب هو عبدالملك بن صالح كما أطبقت على ذلك المراجع كالعقد الفريد، ج ١ ص ٩٤؛ وشرح نهج البلاغة، م ٣ ص ٤٢٩. وغرر الخصائص، ص ٢١٧؛ وعبدالملك هذا هو أبو عبدالرحمن عبدالملك بن صالح بن علي بن عبدالله بن العباس رضي الله عنه وكانت منبج إقطاعاً له وكان مقيماً بها وتوفي سنة ١٩٩ هـ . بالرقة وله بلاغة وفصاحة، وفيات الأعيان، م ٦ ص ٣٠.

(٢)الغمر: بوزن الجمر الكثير من الماء والمغمر بضمها الملقى بنفسَه في المهالك والشدائد/ مختار الصحاح، القاموس المحيط.

وقال قَطَريُّ بنُ الفُجاءَة[١]: وَقَدْ ذَكَرَ المهلَّبُ بنُ أَبي صُفْرَة لأصْحابه هُوَ مَنْ قَدْ عرفتموهُ، إنْ أخذْتم بطَرَف ثَوْب أَخَذ بطَرَفه الآخر يمدُّهُ إذا أَرْسلتُموهُ ويرسلُهُ إذا مَددتموهُ ولا يبدُؤكُم حَتّى تبدؤوه إلا أنْ يَجِدَ فُرْصَةً فينتهزَهَا فَهو الليثُ المبَرزُ والثعْلَبُ الرّواغُ.

وقالَ مرةً: إنْ جَاءكم المهلبُ لا يُناجزُكُم حَتَّى تناجزُوه، ويأخذ منْكُم ولا يُعطيكُم، فَهَو البلاءُ اللازمُ والمكروهُ الدَّائمُ.

وكانت الخوارجُ[٢] تُسمِّيه السَّاحرَ، لأنَّهُم كَانوا يُدَبِّرونَ الأمْرَ فيجدونَه قَدْ احترسَ منْهُمُ، ويدبِّرونَ التدبيرَ لانفُسهم فيجدونَهُ قَدْ سَبقَ إلى بعض تدبيرهم. وسَألَ الحجَّاجُ بريداً وَرَد عليه منْ قبل المهلبُ، أيَّامَ حربه للأزارقة عَنِ المهلَّب والجند الذين مَعَهُ فقالَ يسوسُهُم سياسَةَ الملوك ويقاتلُ بهم قتالَ الصُّعلوك.

وَقَالَ عَبدُالله بن خالد بنِ الوليد لمعاوية إنَّكَ لتقدِّم إقداماً أراكَ تتعرضُ للقتل، وتتأخَرُ تأخّراً أراكَ تَهمُّ بالهَرَب، فقالَ والله ما أتقدَّمُ لأقتلَ، ولا أتأخرُ لأهرُبَ، ولكنَّني أتقدَّمُ إذا كانَ التقدَّمُ غُنْماً وأتأخرُ إذا كانَ التأخرُ حزماً. كَما قالَ الشاعرُ:

شجاعٌ إذا ما أمكنتني فرصة وإنْ لم تكنْ لي فرصةٌ فجبانُ[٣]

وقالَ بعضُهم: احتلّ للشمسَ والقمر والريحَ أَنْ يكونا معَك لا عليكَ. وقِيلَ:

(١)هو أبو نعامة قطري بن الفجاءة المازني أحد رؤساء الخوارج وفرسانهم المعدودين، معدود في جملة خطباء العرب المشهورين حارب المهلب بن أبي صفرة سنين وادعى أم رة المـ ـؤمنين وسلم عليه بها، حتى توجه إليه سفيان الأبرد الكلبي فظهر عليه وقتله في سـ نة ٧٨ هـ . /. شذرات الذهب، ج ١ ص ٨٦- ٨٧؛ وفيات الأعيان، م ٤ ص ٩٣.

(٢)كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان إلا أن هذا الاسم غلب على بعض الفرق كالأزارقة والنجدات والعجاردة أصـ ـحاب عبدالكريم العجرد والاباضية والصفرية/ الملل والنحل، ج ١ ص ١١٤.

(٣)مروج الذهب، ج ٢ ص ١٤، ونسب البيت الذي استشهد به معاوية إلى القطامي.

الإقدامُ أنفى لِلْعارِ وأدرَكُ للثأْرِ. والشجاعُ موقًى والجبانُ مُلْقَى.

وقال المتنبي:

يُقْتَلُ العَاجِزُ الجَبَانُ وَقَدْ يَعْجِزُ عَنْ قَطْعِ بُخْنُقِ المَوْلُود

وَيُوقَّى الفَتَى المِخَشُّ وَيَدْ خ َوَّضَ فِي م اءِ لَبَّ ة الصِّنْ دِيدِ[١]

ومنْ أمثالِ العَرب: إنَّ الجبانَ حتفهُ منْ فَوقه. عصى الجبان أطولُ. مُحَرِّضُ خيرٌ منْ ألف مقاتل. إذكاءُ العيون أنفى للظنون. لا تغفلْ الحسكَ[٢] إنْ كنتَ نازلاً، والخندقَ إنْ كنت مُقيماً. إذا ابتليتَ بالبيات فعليكَ بالثَّبات. الانصرافُ قبلَ الهزيمة هزيمة. الحربُ سجالٌ وعثراتُها لا تُقالَ.

وقالَ عليه الصلاةُ والسلامَ (الحربً خَدْعَة)[٣].

ومن أمثالِ العرب: إذا لَمْ تغلب فاخلبْ. المحاجزةُ قبل المناجزة.

التغريرُ مفتاحُ البؤسِ. لا تمنعْ عدوَّكَ السَّبيلَ في هزيمته.

الهاربُ لا يُعرِّج على صاحب. الليل جنة الهارب.

الفرار في وقته ظفر. وقال بعضُهم الفرارُ عندَ الخوفِ من سننِ المرسلينَ، قال

(١)ديوان المتنبي، ج ٢ ص ٤٦ ومعنى البيت الأول: أن العاجز الجبان قد يقتل فلا تظنن أن العجز والجبن من أسباب البقاء، البخنق: خرقه يقنع بها الرأس وتشد تحت الحنك ومعنى البيت الثاني: أن الشجاع المغوار قد يسلم وقد خاض الحروب حتى غاص في دماء الصناديد يحث على الإقدام كما نهى عن الجبن قبله، والمخش: الجريء في الأمور والحروب وخوض: بالغ في الخوض واللبة: أعلى الصدر وماؤها: دمها، والصنديد: الشجاع.

(٢)الحسك: حسك السعدان، والحسك أيضاً ما يعمل من الحديد على مثاله وهو من آلات العسكر/ مختار الصحاح.

(٣)صحيح البخاري، ج ٤ ص ٧٧؛ سنن ابن ماجة، ج ٢ ص ٩٤٥؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ١١٢. وقال حديث حسن صحيح قوله خدعة فيها ثلاث لغات مشهورات أفصحهن خدعة بفتح الخاء وإسكان الدال قيل هي لغة الرسول صلى الله عليه وسلم، والثانية بضم الخاء وإسكان الدال، والثالثة بضم الخاء وفتح الدال. واتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب كيف أمكن الخداع إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل/ عون المعبود، شرح سنن أبي داود، ج ٧ ص ٢٩٨.

اللهُ تعالى حكايةً عنْ موسى عليه السلامُ ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [١].

ومن أمثال العرب: الفرارُ بقراب أكيسُ.

ومن أمثال العامة فرَّ أخزاهُ اللهُ خيرٌ منْ قُتِلَ رَحِمَهُ الله.

ومن أبلغِ ما قيلَ في الاعتذارِ من الفرارِ. قولُ الحارثِ بنِ هشام[٢] حيثُ يقولُ:

فصدرتُ عَنْهُم والأحبةُ فيهُم طمعاً لهمْ بعقابِ يومٍ مُرصد[٣]

اللهُ يعلمُ ما تركتُ قتالَهم حتى علوا فَرسي بأشقرَ مُزيْد

وعلمت أني إنْ أُقاتلْ واحداً أقتلْ ولا يبكي عدوَّي بمشهَدي

(وقال هبيرةُ بنُ أبي وهب المخزوميِّ[٤]:

لعمرك مَا ولَّيْتُ ظَهْرِي مُحَمَّداً وأصحابه جبناً ولا خيفَةَ الْقَتْلِ

وَلَكِنَّي قَلَّبْتُ أَمْرِي فَلَمْ أَجِدْ لِسَيْفِي غَنَاءً إِن ضَرَبْتُ وَلا نَبْلِي

---

(١)سورة الشعراء: آية ٢١. ونص الآية ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

(٢)هو الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبدالله القرشي، شهد بدراً كافراً مع أخيه أبي جهل وفر حينئذ وقتل أخوه وعير بفراره فاعتذر عن هذا الفرار بما زعم الأصمعي أنه لم يسمع بأحسن من اعتذاره ذلك، أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه وشهد مع الرسول حنينا فأعطاه كما أعطى المؤلفة قلوبهم خرج إلى الشام أيام عمر رغبة في الرباط والجهاد مات في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ ./ الاستيعاب، ق ١ ص ٣٠١؛ الطبقات الكبرى، ج ٧ ص ١٢٦.

(٣)نهاية الأرب، ج ٣ ص ٣٥٢؛ ديوان الحماسة للبحتري، ص ٤٠؛ حماسة أبي تمام، ج ١ ص ٥٦-٥٧؛ الاستيعاب، ق ١ ص ٣٠١. ومعنى البيت الأول أنه ما انهزم حتى جرح فرسه فعلاه دمه أو جرح هو فعلا فرسه دمه. ومعنى البيت الثاني: أنه إذا بقيت وحدي في ساحة الوغى أقتل لا محالة لكثرة من فر ولا يضر ذلك عدوي شيئاً. ومعنى البيت الثالث: أني أعرضت عن عدوي طمعاً في مقابلتهم في يوم آخر أدرك به ثأري.

(٤)هو هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن مخزوم أحد شعراء المشركين هرب إلى نجران لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فاتحاً وأقام هناك حتى مات كافراً/ الطبري، ج ٣ ص ١٦٤٦- ١٦٤٧؛ سيرة ابن هشام، ج ٤ ص ٣٤.

وَقَفْتُ فَلَمَّا خِفتُ ضيعةً موقفي رجعت بعودٍ كالهزبرِ إلى القتل [١]

بابٌ
في ذَمّ الحجاب

قالَ رسولُ الله صَلى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّم: (مَن وَلِي منْ أُمورِ النَّاسِ شَيْئاً فاحتجبَ عَنْهُم احتجبَ اللهُ عَنهُ دونَ حاجته وَفاقته وَفَقْره)[٢]. وَلَمَّا أخبرَ معاويةُ بهَذا الحديث، جَعَلَ على حوائجِ الناسِ رَجلا[٣]. وَقَالَ الفضلُ بنُ سَهْل لثمامَّة بن[٤] الأشرس: ما أدْري ما أصنَعْ في كَثْرة طلاب الحوائج وغاشية الباب فقالَ: زلْ عَنْ مْوضعكَ وَعليَّ أنْ لا يلقاكَ أحدٌ قالَ: صدقتَ وَقعَدَ لَهُم.

وَفي مَعْنى قولِ ثُمامةَ قولُ الشاعرِ:

فلا تَعْتَذِرْ بالشُّغْلِ عني فإنَّما تُناطُ بكَ الحاجاتُ ما اتصَلَ الشُّغْلُ[٥]

وقولُ الآخرِ:

(١)نسبها البحتري في ديوان الحماسة لصاحبها، ص ٥٧؛ سيرة ابن هشام، ج ٣ ص ٢٢٣-٢٢٤ ويعتذر فيها عن فراره يوم الخندق ويبكي عمرو بن عبدود.

(٢)سنن أبي داوود، ج ٣ ص ١٣٥؛ سنن الترمذي، ج ٢ ص ٣٩٥، وقال حديث غريب، وقد روى هذا الحديث من غير هذا الوجه؛ المستدرك، ج ٢ ص ٩٤، وقال صحيح الإسناد؛ مشكاة المصابيح، ج ٢ ص ١١٠٠.

(٣)سنن الترمذي، ج ٢ ص ٣٩٥؛ بدائع السلك، ج ١ ص ٣٧٠؛ الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء، ص ٦٨.

(٤)هو أبو معن ثمامة بن أشرس النميري، من كبار المعتزلة كان على اتصال بالرشيد ثم المأمون، وقال عنه الشهرستاني في الملل والنحل أنه كان جامعاً بين سفاهة الدين وخلاعة النفس مع اعتقاده بأن الفاسق يخلد في النار، توفي سنة ٢١٣ هـ.، تاريخ بغداد، ج ٧ ص ١٤٥؛ الملل والنحل، ج ١ ص ٧٠.

(٥)نهاية الأرب، ج ٣ ص ٩٣، والبيت منسوب إلى أبي علي البصير (الفضل بن جعفر الكوفي) المتوفى سنة ٢٥١ هـ.؛ زهر الآداب، ج ١ ص ٢٨٦؛ عيون الأخبار، م ٢ ج ٨ ص ١٢٥؛ أدب الدنيا والدين، ص ٢٠٣، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

افْرُغْ لحاجاتنا ما دمتَ مشغولاً فلو فَرَغْتَ لقد أصبحت مملولا[١]

قلنا وَلَيْسَ المرادُ بترك الحجاب، أَنْ يبرزَ السلطانُ إلى العوام على الدوام، في الطرقات ويباشرَ بنفسه أحوالَ الرعية في جميع الأوقات إنَّما المرادُ بذلكَ ألا يحجبَ عن مَجْلسه خواصَ النَّاس، وَذوي المروءات وأرباب الشرف والبيوتات وأنْ يأذنَ لِلْعُلماء وَأَهل الدين إذا استأذَنُوا عليه لإبلاغ نُصْح، يرْجعُ صلاحُهُ إليه وإلى كافة الْمُسْلمينَ. وَأَنْ يُصغيَ بنفسه إلى مخاطبتهم ويأذن لكلامهم ومحاوراتهم ولا يكلَ ذلكَ إلى وُزرائه وَحُجّابه وسائر مَنْ يَعْتَمدُ عليه منْ نوابه، فإنَّ أهلَ العلْمْ والفضل وَذوي الرياسة والنبل قدْ يأنفونَ منْ رَفْع حاجتهم إلى مَنْ لَعَّلة دونَهُم على الحقيقة في القدر والمنزلة، وإنْ كانَ الملكُ قد أَهَّلَهُ من الرياسَة لما هو أَهْلُهُ وَرُبّما استشعرَ بذلكَ عليهم شرفاً وفخراً وشمخَ بأنفه عليهم صَلَفاً وَكِبْراً وذوي المناصب العلّية قدْ لا تسمحُ أنفُسُهم الأبيةُ بقبول ذلكَ وإن عَمَّتُهُم البليةُ ودهمتُهم الرزَّيةُ[٢]، وَرُبَّما قلَّدَهُم بمَا يرفَعُ من مآربهم وينجحُ على يديه منْ مطالبهم منْه يصعُبُ على مثلهم من مثله تحملْها ويعسرُ عليهم تقلُّدها وأيضاً فقد لا ينقلونَ لَفظهُم على صيغَته ولا يُصيبونَ المعنَى المرادَ على حقيقَته فيصيَّرونَ لسوء نَقْلهم ونقصان عَقْلهم، المدحَ قدحاً، والتلطّفَ تعسفاً، والتوددَ تهدُداً والإبانةَ نيابةً[٣]، والأمانةَ خيانَة. ثُمَّ ينبغي للملك إذا اتَّخذَ حاجباً أنْ يكونَ أميناً عاقلاً، أديباً فاضلاً عارفاً بمقادير النّاس ومنازلهم وعالماً بحقهم وَحُرْمَتهم، ليأذَنَ لَهُم على قدرِ أحوالهم ويقدِّمَهُم في الدُّخول على حَسَبَ

(١)عيون الأخيار، م ٢ ج ٨ ص ١٢٥، والبيت من شعر الحمدوني في الحسين بن أيوب والي البصرة.

(٢)الرزية: المصيبة والجمع رزايا.

(٣)عناية، أول من رتب المراتب في الدخول على السلطان زياد بن أبيه في العراق، ولعله اقتبسها من الفرس فجعل الإذن للناس على البيوتات، ثم على الأسنان، ثم على الآداب، فصار ذلك قاعدة مرعية فإذا استأذن جماعة في الدخول، قدم أشرفهم نسباً، ثم أكبرهم سناً، ثم أكثرهم أدباً، وضلت هذه القاعدة مرعية في سائر العصور الإسلامية.

دَرَجاتهم. قالَ عَبْدُالملك بنُ مروانَ لأخيه عَبْدُالعزيز بن مروانَ[١] حينَ وَجَّهَهُ إلى مصرَ: اعرفْ حاجبَكَ وكاتبَكَ وجليسَكَ فإن الغائبَ عَنْكَ يخبرُهُ عَنْكَ كاتبُكَ والمتوسمَ لكَ يُعرِّفُكَ بحاجبكَ والخارجَ يُعرّفكَ بجليسكَ. قَالَ رجل لزياد أنَّ حاجبَكَ يبدأُ بالاذْن لمعارفه، فقالَ قَدْ أحْسَنَ فالمعرفةُ تنفعُ عندَ الكلْبِ العقورِ والجَملِ العضوضِ، كُنْ من معارفه أنتَ أيضاً. ثم يُقيمُ لحوائجِ النَّاسِ وتعريفَها إليه، منْ خواصه أورعَهم وآدبَهم وأحرصَهم على الخير وطلب الأجر، وتجنب العار والوزْرِ واكتساب الثناء والشُّكْرِ، ثُمّ يجعلُ لعوامِ الناسِ وكافة ذَوي الحوائجِ والمتظلمينَ يوماً في الأسبوعِ، أوْ في الشهْرِ، على قَدرِ الحاجَة إليه، يأذَنُ لَهُم في الدُّخول عليه ليستدركَ كُل منُهم ما عَجَزَ عن تداركه بالوسائطِ والذَّرائعِ ويصلَ منْ حقِّه إلى ما لَمْ يوصلُهُ إليه القضاة وأربابُ الصنائعِ وَعَجزَ عَنْ إنصافه ولاةُ المظالمِ وكادَ يخرجُ عمَّا هُوَ فيه عَنْ معلومِ المعالمِ. فهذه أحَمدُ السِّيَرِ وأرْضاها عندَ ذَوي الرَّأي والنظَرة ومما قيلَ في ذَمِّ الحُجَّاب قولُ أبي العتاهية[٢] في أحمدَ بن يوسفَ[٣] وَقَدْ حُجِبَ عَنْهُ.

لأنْ عدتُ بعدَ اليومِ أنّي لظالمٌ سأصرِفُ وجهي حيثُ تُبغَي المكارمُ
متى يظفر الغادي إليكَ بحاجة ونصفُك محجوبٌ ونصفُك نائمُ[٤]

وقال أيضاً: في عَمرِو بنِ العلاءِ[٥]:

(١)هو أبو عمر عبد العزيز بن مروان، ولي مصر عشرين سنة، وكان مولده بالمدينة وكان ولي العهد بعد عبد الملك، عقد لهما أبوهما كذلك، فلما مات عقد عبد الملك البيعة لولده توفي سنة ٨٥ هـ . وتولى مصر من بعده عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان، النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٧١- ١٧٤؛ شذرات الذاهب، ج ١ ص ٩٥.

(٢)أبو العتاهية.

(٣)هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح، كاتب المأمون على ديوان الرسائل كان من أفضل الكتّاب في عصره وأذكاهم وأجمعهم المحاسن، يقول الشعر الجيد توفي سنة ٢١٣ هـ .، النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٢٠٦؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٦٩.

(٤)ديوان أبي العتاهية، ص ٤١٠؛ المحاسن والمساوئ، ج ١ ص ٢٦٧؛ عيون الأخبار، م ١ ج ١ ص ٨٥.

(٥)عمرو بن العلاء.

أتيتُكَ فأشددْ ما بقيتِ حجابكا أكنتَ تراني حَيْثُ أَبغِي بابَكَا
وليس لشيءٍ غيرُ تسليمِ مرةٍ أتيتُكَ يا هذا فأغلفتَ بابَكَ
لك الله ألا جئتُ بابَك غيرَ ما فعلـ ـتُ ولا كلفتُ نفسي طِلابَكَا

ولأحمد بن عبدالله[١] مؤلّف كتاب العقد في آخره:

ما بالُ بابُكَ محجوبٌ بنوَّابِ تَحميهِ مِنْ طارقٍ يأتي ومنتابِ
لا تحجبْ وجهَكَ الممقوتَ مِنْ أَحدٍ فالمقتُ يحجُبُه منْ غيرِ حجاب
واعزلْ عَنِ البابِ مَنْ قدْ ظلَّ يحرسُهُ فإن وجهَكَ طلسمٌ على البابِ[٢]

وقال آخر:

حجابُكَ من مهابَتِه عسيرُ وخيرُكَ من بَرِّ يدِه يسيرُ
خرجتُ كما دخلتُ إليكَ إلا ترابـاً طارَ فـي جَفني كثيرُ[٣]

---

(١)ابن عبد ربه وهو الصواب- كان من العلماء. المكثرين من المحفوظات، والاطـلاع علـى أخبار الناس وصنف كتاب العقد وهو من الكتب الممتعة وله ديوان شعر وكانت ولادتـه سنة ٢٤٦ هـ ،، وتوفي سنة ٣٢٨ هـ . ودفن في مقبرة بني العباس بقرطبة، وفيات الأعيان، م ١ ص ١١٠- ١١٢.

(٢)ديوان ابن عبد ربه، ص ٢٤، والبيت الأول في الديوان ورد:

ما بال بابك محروساً ببواب يحميه من طارق يأتي ومنتاب

العقد الفريد، ج ١ ص ٥٧.

(٣)العقد الفريد، ج ١ ص ٥٥- ٥٦، والشعر منسوب لمحمود البغدادي مع اختلاف في البيت الأول فقد روى في كتاب العقد:

حجابك من مهابته عسير وخيرك في اليدين غدا يسيرا

القسمُ الثاني من الكتابِ :في الحكاياتِ عن الخلفـاءِ والوزراءِ والعمالِ والأمراءِ الدالةِ على مناقبِهم وارتفاعِ مراتِبِهم ولنبدأ بذكرِ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ، رَضي اللهُ عنهُ، لقربِ عهـدِهِ ثُمّ من بعدِهِ على ترتيبِ وجودِهم وتعـاقُبِ أزمنتِهم إلى حيث ينتهي بنا الكلامُ وباللّه التوفيقُ..

رُويَ أنَّ معاوية ()كانَ يجلسُ ويأذنُ كُلَّ يوم خمسَ مراتٍ كانَ إذا صلَّى الفجرَ جلسَ فيقرأ القصصَ)ويقضي حاجَةَ مَنْ حَضَرَ ثُمّ يأخُذ المصحَفَ فيقرأ أجزاءً مِنَ القرآنِ الكريمِ(، ثُمَّ .يَدْخُلُ بيتَه فيأمُر وَيَنْهَى وَيُصلّي أرْبَعَ ركعاتٍ، ثُمَّ يقعُدُ في مَجْلِسِه وَيَدْخُلُ إليهِ خاصةُ الخاصةِ ويدْعُو بالغداء الأصغَرِ مِنْ فضلاتِ العشاءِ، ثمَّ يأمُر بكرسيِّهِ حيثُ المقصورةُ مِنَ المسجِدِ، فيأتيه ابنُ السبيلِ والأعرابيُّ، وَمَنْ تُستدعَى من الاماءِ والعجائِزِ والصبيانِ فيقضي حوائجَهُم، ولا يضجَرُ، ثُمَّ يدخُلُ منـزلَهُ فيأتِيه أشرافُ النَّاسِ والعلماءِ فيقضِي لَهُم الحوائِج، ثُمَّ يدعُو بغدائِهِ الأكبَرِ، فيطيلُ الأكلَ وَيُصْغِي لِكل أصحابِ الحوائج، ثُم يدخُلُ منـزلَهُ إلى الظُّهرِ فلا يراهُ أحدٌ، ثُمَّ يخرُج يُصلي الظُّهرَ ويدخلُ إليهِ الخواصُ، فإنْ كانَ أيامُ الشِّتاء دَعا بالحلواتِ اليابسةِ وإنْ كانَ صيفاً دعا بالفواكِهِ، فيأخذ من الأكل إلى العصْرِ، ثم يَجْلِسُ على سريرِهِ ويأذنُ للنَّاسِ إلى الغروبِ، ثم يأذنُ لخاصتهِ إلى ثُلُثِ الليلِ يسامرونَهُ، وينامُ الثلثَ الأوسطَ، ويصلي الثلثَ الأخيرَ، فلم يزَلْ على ذلكَ حَتى قَبَضَهُ اللهُ تَعالى .قِيلَ سَمِرَ معاويةُ ذاتَ ليلةٍ، فَذكَرَ كلامَ الزرقاءِ بنتِ عديٍّ، امرأةٍ مِنْ أهْلِ الكوفةِ ممنْ نَصرَ عليًّا -عليه السلامُ -يومَ صفِينَ ()فقالَ لأصحابِهِ :أيّكُم يحفَظُ كلامَ الزرقاءِ، فقالُوا :كُلُّنا يا أميرَ المؤمنينَ نحفظُهُ فقالَ فما تُشيرونَ عليَّ فيها، فقالوا :نشيرُ بقتلِها، فقالَ :بِئْسَ الرأيُ رأيتُمْ أيحْسنُ بِمثْلي أنْ يتحدَّثَ الناسُ على، أني قَتَلْتُ امرأةً بعدَما ملكتُ فظفرتُ ثُمّ دَعا بكاتِبِه، فَكَتبَ إلى واليهِ بالكوفةِ أنْ أوفدْ إلى الزرقاءِ بنتِ عَدِيّ مَعَ نفرٍ من عشيرتِهَا وعدةٍ مِنْ فرسانِ قومِها وَمَهّدْ لَها وِطاءً لَيناً فَلَمَّا وَرَدَ عَلَيْهِ الكتابُ رَكِبَ إليهَا فأقرأهَا الكتابَ، فقالت :أمَّا أنَا فغيرُ زائغةٍ عَنْ الطاعةِ، فإنْ كانَ أميرُ المؤمنينَ جَعَلَ الاختيارَ إليَّ لَمْ أرم منْ بَلَدي، وإنْ كانَ حَتَّمَ الأمرَ فالسمعُ والطاعةُ لَهُ، فَحَمَلَها على أحْسَنِ مَطيةٍ في هَودَجٍ وَجَعَلَ غشاءَهِ خزاً مُبَطّناً، وأحسَنَ صحبتَها فَلَمَّا قَدِمَت على معاوية، قالَ لها :مَرْحباً وأهلاً

خيرَ مقدمٍ قَدِمَهُ وافدٌ كَيْفَ حالُكِ يا خالةُ، وَكَيْفَ رأيتِ مَسيرَك فقالتْ خيرَ مسيرٍ كَأَنّي ربيبةُ بيتٍ أو طفل في مهد، فهلْ تعلمينَ لِمَ بعثتُ إليكِ، فقالتْ :لا يعلَمُ الغيْبَ إلا اللهُ فقالَ :ألستِ راكبةَ الجملِ الأحمرِ يومَ صفينَ، وأنت بينَ الصُّفينِ تُوقدينَ نارَ الحربِ، وتحضينَ على القتال، قالتْ :بلى قالَ :فما حملُكِ على ذلكَ، فقالتْ :يا أميرَ المؤمنينَ إنهُ قدْ ماتَ الرأسُ وَبترَ الذنبُ، والدَّهْرُ ذو غِيَرٍ 0، ومنْ تفكرَ أبصرَ، والأمرُ يحدثُ بعدة الأمرُ .قالَ :صدقتِ فَهلْ تحفظينَ كلامَكِ، قالتْ :لا واللهِ، قالَ :للهِ أبوكِ لَقدْ سمعتُكِ تقولينَ :أيها النّاسُ إنكُم في فِتنَةٍ عمياءَ صماءَ غشيتُكم جلابيبُ الظُّلمِ، وجارتْ بِكُم عنْ قَصْدِ المحجَّةِ فيا لَها من فَتنَةٍ لا يُسمعُ لقائِلِها، ولا تنقادُ لسائِقها، أيُّها الناسُ إن المصباحَ لا يضيئُ في الشَّمْسِ وإنَّ الكواكِبَ لا تنيرُ مَعَ القَمرِ وانَّ البغلَ لا يَسبِقُ الفرسَ، ولا يقطَعُ الحديدَ إلا الحديدُ، ألا مَنْ استرشَدَ أرشدْنَاهُ وَمَنْ سألنَا أخبرناهُ أنَّ الحق كانَ يطلبُ ضالتَهُ فوجدَها فصبْراً يا معاشرَ المسلمينَ من المهاجرينَ والأنصارِ على الغصصِ فكأنّه قَدْ التأمَ شعبُ الشَّتاتِ وَظَهَرَتْ كلمةُ العدْلِ وَغَلَب الحقُ باطِلَهُ، فلا يُعَجّلَنَّ أحدُكُم يقولُ :كيفَ ذلكَ لِيقضَي اللهُ أمراً كانَ مفعولا، إن خِضابَ النّساءِ الحناءُ، وخضابَ الرّجالِ الدماءُ، والصَّبرُ خَيْر في الأمورِ عواقب، أيها 0إلى الحربِ قُدَماً غيرَ ناكصينَ فهذا يومٌ لَهُ ما بعدَهُ، قالَ :يا زرقاءُ لقدْ شاركتِ عليَّا -عليهِ السلامُ -في كلِ دَمٍ سَفَكَهُ، قالتْ :أحسنَ اللهُ بِشارتَكَ يا أميرَ المؤمنين وأدامَ سلامَتَكَ مِثْلُك بشَّرَ بخيرٍ وَسرَّ جَليسَه قالَ لَها وقدْ سرَّكِ ذلكَ، قالتْ :نَعَمْ واللهِ سرَّني قولُكَ وأنَّى لِي بتصديقِهِ قالَ معاويةُ :واللهِ لوفاؤُكُم لَهُ بَعْدَ موتِهِ، أعجَبُ إليَّ من حُبِّكُمْ لَهُ في حياتِهِ، ادْكِري حاجَتَكِ فقالت :يا أميرَ المؤمنينَ إنّي آليتُ على نَفْسِي أنْ لا أسألَ أحداً أعنتُ عليه شيئاً أبداً، ومثْلُكَ مَنْ أعطى مِن غَيرِ مسألةٍ، وجادَ مِنْ غيرِ طُلبةٍ قالَ :صدقتِ ثُمّ اقطَعَها ضيعةً استغلّتْ مِنْها أولَّ سَنة عَشَرَةَ آلافِ درهم.

وَذُكِرَ أنَّ سَوْدَة بنتَ عمارةَ 0بن أسَدٍ استأذَنتْ عَليهِ فَلَمَّا أذِنَ لها قالَ :هيهِ يا بنتَ الأسَدِ ألسْتِ القائلةُ يومَ صِفّينَ:

يومَ الطِّعانِ ومُلتقى الأقران	**شَمِّرْ كفعْلِ أبيك يا بن عِمارةٍ**
واقصِدْ لهندٍ وابنِها بهَوَانِ	**وانصرُ عليّاً والحسيْنَ ورَهطه**
عَلَمُ الهدى ومنارة الإيمان	**إن الإمام أخو النبيِّ محمدٍ**
قدُماً بأبيضَ صارم وسِنان	**فقُدِ الجيوشَ وسِرْ أمامَ لوائِه**

فقالت بَلَى يا أميرَ المؤمنينَ فَما مِثلي مَنْ رَغِبَ عَنِ الحقِّ ولا اعتذَرَ بالكذِبِ

قالَ :فَما حملكِ على ذلكَ، قالتْ :حُبُّ عليٍّ واتباعُ الحق، فقالَ :واللهِ ما أرى عَليكُمْ مِنْ أثَر علي شيئاً، فقالتْ :نشدتُكَ اللهَ يا أمير المؤمنينَ مَن إعادَةِ ما مضَى وتذكارِ ما خَلا، فقالَ :هيهاتَ ما مِثْلُ مقامِ أخيكِ يُنْسَى، وما لقيتُ مِنْ أحَدٍ ما لقيتُ مِنْ أخيكِ وقومِكِ، قالت: صدقت يا أميرَ المؤمنينَ لَمْ يكُنْ أخِي واللهِ دَهِش ()المقال، ولا خفيِّ المكانِ، وكانَ والله كما قالتِ الخنساءُ :()

ـه عَلَمٌ في رأسِه نارُ () وإنّ صخراً لتأتَمُ الهُداةُ بهِ كأنَّـ

وأنا أسألُ أمير المؤمنين إعفائِي مما استعفيتُه مِنْه،، فقالَ :قد فعلتُ فما حاجتُكِ فقالتْ :يا أمير المؤمنينَ إنكَ أصبحتَ لِلناسِ سيِّداً، وَلأمرِهِم والياً، واللهُ سائلُك عَنْ أمورِنا، وما افترضَ اللهُ عليكَ من حَقِّنَا، وما يزالُ يقَدّمُ علينَا مَنْ يهجُمُ بِعزكَ ويبطِشُ بِسُلْطانِكَ، فيحصدَنا حَصْدَ السُّنْبلِ ويَدوسَنا دَوْسَ البقَرِ، ويسومَنا الخِسْفَ، هَذا ابن أراطة ()قَدِمَ عَلَينَا فقَتَلَ رجالاً وأخَذَ أموالا، ولولا الطاعةُ لكانَ فينا عِزٌّ ومنعةٌ، فإما عزلته فشكرنَاك، وإلا عرفنَاكَ فقالَ معاويةُ :أبقومِك تُهدِّديني لَقدْ هممتُ أحملك على قتبٍ أشرس ()فاردَّك إليهِ فينفذَ فيكِ حُكْمَهُ، فاطرقتَ وَبَكَتْ .وأنشأتْ تقولُ:

قبرٌ فأصبحَ فيه العَدْلُ مدْفونا صلّى الإلهُ على قبر تَظمَّنَهُ

فصار بالحق والإيمان مقْرُوناً قد حالفَ الحقّ لا يَبغِي به بدلاً

قالَ :ومنْ ذلكَ قالتْ :أميرَ المؤمنينَ عليُّ بنُ أبي طالب عَليهِ السلامُ قالَ وما علمكِ بذلكَ، فقالت أتيتُهُ في رَجُل ولاهُ عَلينا .لَمْ يكُنْ بينَنَا وبينَهُ إلا ما بينَ الغَثِّ والسمينِ، فوجدتُهُ قائماً يُصَلّي فلمَّا نَظَرَ إليَّ انفتلَ مِنْ صلاتِهِ فقالَ برأفةٍ ورحمةٍ ألكِ حاجةٌ، فأخبرتُهُ فَبَكى وقالَ :اللهمَّ أشهدْ عليَّ وعليهِم إني لَمْ أمْرهُم بِظُلْمِ أحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ وَلا بِتَرْكِ شَيءٍ مِنْ حَقّكَ، ثُمّ أخْرَجَ مِنْ جيبِه قطعةَ جِلْدٍ، وكَتَبَ فيها ﴿ :**بسم الله الرحمن الرحيم قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّـاسَ أَشْيَاءَهُمْ** ()﴾

﴿**وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ *بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** ﴾

.()إذا قرأتَ كتابِي هَذا فاحتفظْ بما في يدِكَ، حَتّى يقدِمَ عليكَ من يقبضُه مِنْكَ والسلامُ .فأخذْتُهُ مِنْهُ واللهِ ما حَزَمَهُ بحزامِهِ، ولا خَتَمه بطينٍ فعَزَلَهُ بِهِ .فقالَ معاويةُ : اكتبوا لَها بِرَدَّ مالِها، والعدلِ عليْهَا، فقالتْ :إليَّ خاصةً أمْ لِقومي عامةً فقالَ :ما أنتِ وقَومك فقالتْ :هِي واللهِ الفَحْشَاءُ إذن اللؤمُ، إنْ كانَ عَدْلا شامِلاً، وإلا فَأنا كسائرِ قومِي .قالَ :هيهاتَ يا أهلَ العراقِ لمظكم ()علي بنُ أبي طالب الجرأةَ على

السُلطان، اكتُبوا لها بحاجَتِهَا ولسائِر قومِهَا .وَرُوِيَ أَنَّهُ أُتِيَ معاويةُ برجلٍ مِنْ أصحابِ أمير المؤمنين عليّ بْنِ أبي طالب عَلَيهِ السلامُ كانَ قد أَبْلَى معه بلاءً حسناً فقالَ معاويةُ :الحمدُ للهِ الذي أمكَن مِنْكَ فقالَ :لا تَقُلْ ذلكَ ولكنْ قُلْ :إنا لله وإنا إليهِ راجعونُ، فإنها مُصيبَةٌ، قالَ :وأيُّ نعمةٍ هي أكبَرُ مَنْ أنْ الله قَدْ أظفَرني برَجُل، قَتَلَ بساعَةٍ واحدةٍ جماعةً مِنْ أصحابي، اضربا عنقَه فقالَ :اللهمَّ اشهدْ أنَّ معاوية لَمْ يقتلْني فيكَ وَلا أنَّك رضيتَ قتْلي ولكنْ يقتلْني على سبيلِ الغلْبةِ علَى حُطامِ هذه الدُّنيَا، فإنْ فَعَلَ فافعلْ بهِ ما هو أهلُهُ وإنْ لَمْ يفعلْ فافعلْ بِهِ ما أنتَ أهلُهُ، قالَ معاويةُ : قاتلكَ اللهُ لقدْ سببتَ فابلغتَ بالسُّبّ ودعوتَ فابلغتَ في الدُّعاءِ خليا عَنْهُ.

وَرويَ عَنْ معاوية أنة قالَ :اجْعَلوا لِلشعرِ أكثرَ هَمكُم وأحد دَأبِكم فإن فيه مآثرَ أسلافكُم، ومواضِعَ إرشادِكم، فَلَقدْ رأيتُني يومَ الهرير 0وقد عزمتُ على الهربِ، فما يَردُّني إلا قولُ عَمْرِو بن الاطنابةِ 0حيثُ يقولُ:

وأخْذي الحمدَ بالثَّمن الربيح	**أبتْ هِمَّتي وأبى حيائِي**
مكَانِك تُحْمدي أو تستريحي	**وَقَوْلي كُلما جشأتْ وجاشَت**
وَضربي هامَة البطلِ المُشيح	**وإقدامي على المكروهِ نَفْسِي**
مسافة بَينَ جُثماني وَروحي 0	**لأنـي عـالمٌ أنْ سوفَ تَنـا**

وقال معاوية:

يُدافِعُ عَنْهُ الفرارُ الأجلْ	**كأنَّ الجبانَ يَرى أنَّهُ**
ويسلمُ منهـا الشجاعُ البطلْ0	**فقد تدركُ الحادثاتُ الجبانَ**

وقالَ معاويةُ لعبدِ الرحمن بن الحكمَ 0يا ابن أخي إنَّكَ لَقدْ لَهجْتَ تقولُ الشَّعْرَ، فإياكَ والتشبيبَ، فَتُعِرَّ شريفَاً، وإياكَ والهجَاء، فتهجِي كريماً أو تثر بَهُ لئيماً، وإياكَ والمدحَ، فإنُّه كسبُ الخسيس، ولكنْ أفخرْ بِمآثِرِ قومِكَ وقل في الأمثال، ما تزيِّنُ نَفْسَكَ وَتَؤدَّبُ بِهِ غيرَكَ، فإنْ لَمْ تجدْ بُدَّاً مِنْ المديح، فكنْ كالمبرار حينَ مَدَحَ، فإنه شَفَعَ بِنفسِهِ حينَ بدأ بغيرِهِ فقالَ:

إن الكريمَ للكريم مُجِلُّ 0	**أنـزلتُ نَفسي في بني ثُعَل**

وقيلَ :حَجَّ معاويةُ فلمّا دَخَلَ المدينة، قالَ الحسينُ 0بنُ علي لأخيهِ الحسن بن علي صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ :لا تَلْقَهُ ولا تُسَلِّمْ عَليهِ فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ الحسنُ :إنْ علينَا دَيْناً ولا بدَّ مِنْ إتيانِه، فَرَكِبَ في أثرِهِ فَلَحِقَهُ فَسَلَمَ عَلَيْهِ وأخبَرهُ بِدَيْنِه، فمروا عليهِ بُبختيٌ 0عليهِ ثلاثونَ ألفِ دينارٍ، قَدْ أعيى وتخلَّفَ عن الإبلِ وقومُ يسوقونَهُ فقالَ معاويةُ ما هذا؟ فَذكرَ لَهُ فقال :اصرفُوا ما عَلَيْهِ لأبي مُحَمَّدٍ.

قالَ زيادٌ :ما غَلَبني معاويةُ في شيءٍ منْ أمورِ السِّياسَةِ قطُّ، إلا في شي واحدٍ، وذلكَ أنِّي استعملتُ رجلاً، على دَستْ ميسان ()فكسر عليهِ الخراجُ فلحقَ بمعاوية، فكتبتُ إليهِ أسألُهُ تسليمَهُ إليَّ فكتبَ في جوابه :أمَّا بَعْدُ فليسَ ينبغِي لِمثلي ومثلكَ، أنْ نسوسَ الناسَ جميعاً بسياسةٍ واحدةٍ لكنْ تكونُ أنتَ للغلظَةِ والفظاظةِ، وأكونُ أنا للرأفةِ والرَّحمةِ، فإذا هَرَبَ هاربٌ وَجَدَ لَهُ باباً يلِجُ فيه والسلامُ.

وقيلَ لمعاوية آنتَ أدْهى أمْ زيادٌ؟ فقالَ :إن زياداً ليس يدعُ الأمورَ تتفرَّقُ عليهِ، بلْ يجمعُها قبلَ ذلكَ، وإنها لتتفرقُ عَليَّ ثُمَّ أجمعُها.

قالَ قومٌ لزيادٍ :بِمَ ضبطتَ العِراقَ، ؟قالَ :بالسَّيفِ، قال :أنا ضبطت العراقَ والشَّامَ والحجازَ بالحِلْمِ.

وَلَمَّا هَمَّ معاويةُ بالبيعةِ لابنِهِ يزيدَ، كتبَ إلى زيادٍ يستشيرُهُ فيه فدعا زيادُ .عبدَ بنَ كَعْبِ النميري ()، فأوفَدَه على معاويةُ فقالَ :إن لِكُلِّ مستشيرٍ ثِقَةٌ، ولكُل سِر مستودَعاً، وإنَّ الناسَ قَدْ ابتُدِعَتْ لَهُمْ خِصلتان، إضاعةُ السرِّ وإفسادُ النَّصيحةِ، وليست يُستودَعُ إلا عِندَ رَجلين :رجلٌ يَرجُو ثوابَ الآخِرَة، ورجل لَهُ حَسَبٌ وعقلٌ، يصون حَسَبَهُ وعقلَهُ، وإن أميرَ المؤمنينَ يستشيرني، وعلاقةُ الإسلامِ وضمانهُ شديدٌ، لأنَّ يزيدَ صاحِبُ لَعِبٍ وتهاونٍ، مَعَ ما أولعَ فيهِ من الصَّيدِ .فألقَ أميرَ المؤمنينَ مؤديّاً عَنِّي، فَأخبرْهُ وَقُلْ لَهُ رويدَكَ في الأمرِ يستقيمُ، فإن دَرْكاً في تأخيرٍ خير مِنْ تعجيل أخافُ عاقبَتَهُ ولا تدري إلى ما يصيرُ الأمرُ فلمَّا بَلَّغَة الرسالة، أخذَ معاويةُ برأي زيادٍ وأخَّرَ بيعتَهُ .()وكتبَ إلى سعيدِ بنِ العاصِ ()يستشيرُه، فرجَعَ جوابُه إليهِ أنهُ قد بَقيتْ مشيَخة مِنْ أصحاب رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلَّمَ فرويداً بهذا الأمرِ، لعلَّهُم ينقرضونَ .فقال معاويةُ :صَدَقَ سعيدٌ فأخَّرَ البيعة ولم يزلْ يُداري الناس، بعدَ ذلكَ سبعَ سِنينَ، إلى أنْ تَمَّ لَهُ الأمرُ.

وقيلَ :إنَّهُ استشارَ الأحنفَ بنَ قيس، فقالَ :أدخلُ على يزيدَ فأدخَلَهُ عليهِ، فَلَمَّا خرجَ قال لَهُ معاويةُ :كيفَ رأيتَ يزيدَ، فقالَ :رأيتُ شباباً وجلداً ونشاطاً، ثُمّ قالَ : نخافُكم إنْ صدَقنا ونخافُ اللهَ إنْ كَذبنَا، وأنْتَ أعلمُ يا أمير المؤمنينَ بليلِهِ ونهارِهِ، ومدخلِهِ ومخرجِهِ، وسرّهِ وجهاره، وإيرادِهِ وإصدارِهِ، فإنْ كنتَ تعلَمُ أن فيهِ للهِ رِضىً، ولهذه الأمةِ صلاحاً، فلا تشاورْ الناسَ، وإنْ كنتَ تعلَمُ مِنهُ غيرَ ذلكَ، فلا تزوْدهُ الدّنيا وأنت عائِدٌ إلى الآخرة وإنما علينَا السَّمعُ والطاعة فقالَ معاوية :جزاكَ اللهُ عن الطاعةِ خيراً.

ولما أخذَ معاويةُ في البيعَةِ ليزيدَ، قالَ لَهُ :يا بُني، لَقَدْ ذَللت لكَ الشدَّةَ، ومنحتُكَ

اللينَ، وتحملت دونَك الغِلظَة، وقد وليتُكَ أمراً عظيماً مِنْ أمرِ الأمةِ، وليسَ حيٌّ مِنْ أحياءِ العربِ إلا ولَهُ عِندي ترةٌ ()قدْ كنتُ أشغِلُهُ عنَها بحسنِ الوفادَةِ، وجزيلِ الرّفدِ، حَتّى تركتُ قلوبَهُم كالطينَةِ المؤتثةِ فلا تخالفن فعْلِي فِيهِم فعليكَ بإدرارِ عَطيّتكَ، ومباشرَةِ أمورِكَ، ولا تشغَلْ نفسَكَ بمفاكهة الإماءِ ومداعبتِهن، فإن ذلكَ من فِعْلِ ضعَفَةِ الرِّجالِ .وانْظُرْ هؤلاءِ الأربعةِ مِنْ قريشٍ، أما الحسين بنُ عليّ فإني قد أوصيتكَ فيهِ بِحفْظِ قرابتِهِ ورعايةِ حَقِّ رَحِمِهِ فإن القلوبَ إليهِ جانحةٌ فاجعلْ لَهُ عِندَ ظَفَرِكَ نصيباً من رحمكَ، واطوي كشحاً عَن ابنِ عُمَرَ، وابنِ أبي بَكرٍ، فإنّهما كمثلِ الهقلِ ()لا يحملُ ثقلاً ولا يجمعُ نهوضاً وأما ابنُ الزبيرِ فكالثعلَبِ رواغٌ بالحيلةِ وكالليثِ صال بالجراءةِ .()

وفي روايةٍ أُخرَى أنَّه قالَ :أمّا عبدُ اللهِ بنُ عُمرَ ()فقدْ شغلتْه العبادَةُ

وأمّا عبدُالرحمنِ بنُ أبي بكرٍ ()فليسَ لَه هِمة إلا في النِّساءِ واللهو.

فَلمَّا بُويعَ يزيدُ ()حَجّ بالنَّاسِ وَقَسَّم بمكة والمدينةِ أموالا كثيرةً وقالَ لَهُ عبدُاللهِ بنُ الزبير :إذا خرجْتَ فاخرجْ مَعَكَ الحسينَ بنَ عليّ، واطلبْ من مروان دارَه فإنَكَ لا تأتي بفائدةٍ مِثْلها، فقالَ ما اتَّهُم رأيكَ، أما الحسينُ فإني أوفدُ إليهِ فإنْ خَرج مَعَهُم وأقامَ بالشامِ، عرفنا حَقَّهُ، ورعينا قرابتهُ وإن رجعَ إلى أهلِهِ، لم ندعْ صِلَتَه، فقدْ أقام دهره بالمدينةِ، لم يأتِنا مِنْه ما نكرهُ.

وكَتبَ معاوية إلى سعيدِ بنِ العاصِ، وهو أميرُ بالمدينةِ، بالقبضِ على مالِ مروانَ بنِ الحكمِ ()، فَلَمْ يفعلْ فراجَعَهُ فيهِ، ثُمّ كَتب كتاباً ثانياً فدافَعَه واحتفظَ بالكتابين، فَلمّا عُزِلَ سعيدُ وَوليَ مروانُ بن الحَكَمِ المدينة وَكَتَبَ إليهِ بالقبْضِ على أموالِ سَعيدٍ فأرسل مروانُ بالكتابِ مع ابنِهِ عبدِ الملكِ إلى سعيدٍ وقالَ :لو لَمْ يكنْ الكتابُ لتجافيتُ عَنْ ذلكَ، فَدعَا سعيدٌ بالكتابين، فَأعطاهُما عَبْدَ الملكِ فَجَاءَ بِهما إلى مروانَ، فَلَما قرأهُما قالَ :هو أفضلُ مِنّا فكفَ عن قبضِ أموالِ سعيدٍ.

وقالَ سعيدٌ لولدِهِ :مَنْ أتاكُم في مجالِسِكم، فقد وَجَبَ حَقُّهُ عليكُم ومن أتاكُم في منازِلِكم، فقد وَجَبَتْ حُرمتُهُ عليكُمْ، ومن أتاكُم في حاجةٍ فَلاَ تدخروهُ شيئاً، فمتّتُهُ عليكم أعظمُ إذ رأكم موضعاً لحاجتِهِ.

وَلَمّا حَضَرتْ سعيدَ بنَ العاصِ الوفاة، قالَ لبنيهِ أيّكُم يكفلُ بديني فقالَ ابنُهُ عمرو الأشدقُ ()، :وَكَمْ دينُكَ، قالَ :ثمانون ألفاً، قالَ :وفيمَ استدنتها قالَ :سَدَدْتُ بِها خلةٌ من كريمٍ واشتريت بِها عِرضي مِنْ لئيمٍ، فإذنْ أنَا بها زَعيمٌ، قالَ :هَذِهِ خصلة واحدةٌ يا بُنيَّ وخصلتان قالَ :ما هُما قالَ :بنَاتي لا تزوجوهُن إلا من الأكفاءِ، ولو

تعلّقَ حبلٌ مِن الشَّعْرِ، قالَ عَلّيَّ :يا أبتي قالَ :وإخواني إنْ فَقدُوا وَجْهي لم يفقُدوا مَعروفي قالَ :عليَّ :يا أبتي قالَ :واللهِ يا بُنيَّ، ما زلتُ أعرِفُ الكرمَ في وجهِكَ، وحماليق عينيكَ، وأنتَ في المهدِ، واللهِ يا بُنيَّ ما شتمتُ أحداً، منذُ كنت رَجُلاً، ولا زاحمتُ بركبتي رجلاً ولا كلفت من يرتجيني أنْ يسألني .وقالَ زيادُ :استوصوا بثلاثةٍ منكُم خيراً الشريفِ، والعالمِ، والشيخِ واللهِ لا يأتيني شريفٌ بوضيع، استخف بِهِ إلا ضربتُهُ، ولا يأتيني شَيْخٌ بشابٍ استخف بِهِ إلا أوجعْتُهُ، ولا يأتيني عالِمٌ بجاهِلِ استخفَّ بِهِ إلا نكلتُ بِهِ .ولهذا قالَ :ارحموا ثلاثةٌ :غنيَّ قوم افتقرَ، وعزيزَ قوم ذلَّ، وعالماً بينَ جُهّالٍ.

واختصمَ إلى زيادٍ رَجلان، فقالَ أحدهما :أصلحَ اللهُ الأميرَ إنَّ هذا يدُّلُ بخاصتِهِ، يَزْعَمُ أنها لَهُ مِنكَ، قالَ :صَدَقَ وسأخبرُكَ بما ينفعُهُ عندي مِنْ مودتِه، إنْ كانَ الحق لَهُ عليكَ أخذتُكَ بِهِ أخذاً عنيفاً، وإنْ كانَ الحق لكَ عليهِ أقضي عليهِ، ثم أقضِي عَنْهُ.

وكانَ زيادٌ إذا وَلّيَّ رَجُلا، قالَ لَهُ :خُذْ عَهْدَكَ وَسِرْ إلى عَمَلِكَ، واعلمْ أنكَ مصروفُ رأس سنتك، وأنتَ تصيرُ إلى إحدَى ثلاثِ خصال، فاخترْ لِنفسِكَ، إنْ وجدناكْ أميناً ضعيفاً استبدلْنَا بِكَ لِضَعفِكَ وَسلّمتكَ من معرَّتِنا أمانتُكَ وإنْ وجدنَاكَ خائناً قوياً استهنَا بِقوتكَ وأحسنَا على خيانتِكَ أدبَكَ وأوجعنا ظَهرَكَ وإنْ وجدناكَ قويَّاً أميناً زِدنَا في عَمَلِكَ وَرَفعنَا لَكَ ذِكْرَكَ وأوطئنَا كعبكَ وَكثّرنا مالكَ.

وكانَ لزيادٍ سياسةٌ عظيمة، حتى إنَّهُ كانَ لا يُغْلِق أبوابَ الحوانيتِ في الليل . وَمَا ذُكِرَ مِن حُسْنِ تدبيرِهِ أنهُ أُتيَ بإمرأةٍ كانتْ قَدْ خَرَجتْ مَعَ الخوارج في الحرْبِ، فَقَتَلَها ثُمّ عرَّاها .فَلَمْ يخرجْ النساءُ عليه بَعْدَ ذلكَ وكُنَّ إذا دعينَ إلى الخروج قُلْنَّ لولا التعريةُ لَسَارعنَا إلى الخروج .وكان يقتُلُ المظاهرِ بالخروج، ويستصلِحُ المسر مِنْهُم، حتَّى يستكفي شرهُم، وخروجَهم عَلَيهِ وكان يبعثُ إلى الجماعةِ مِنهُم، فيقولُ ما أحسَبُ الذي يمنُعُكم مِن إتيانِي إلا الرُّجلةُ ()فيقولونَ أجَلْ، فيحملُهُم فيقولُ أغشوني الآنَ، واسمرُوا عِنْدِي.

وَكَانَ عُمَرُ بنُ عبدِالرحمنِ رَحِمَهُ الله يقولُ :قاتلَ اللهُ زياداً جمعَ لَهُم كما تجمعُ الذرةُ، وحاطَهُمْ كما تحوطُ الأمُّ البَرَة، وأصلحَ العراقَ بأهلِ العراقِ، وتَرَكَ أهْلَ الشامِ في شامِهم.

ولمّا وَلّيَّ يزيدُ بنُ معاويَة سَلْمَ بن زيادٍ ()قالَ :إن أبي استكفَى أباكَ كبيراً، وقَدْ استكفيتُكَ صغيراً، فلا تتكلنَّ عليَّ عُذْر مني فَقَدْ اتكلتُ على كفايةٍ منكَ، وإيَّاكَ مِنِّي

قبلَ أنْ أقولَ إيايَ مِنكَ، فإنَّ الظَّنَّ إذا أخلفَ مِنْكَ أخلفَ لَكَ، وأنتَ في أدنى حَظِّكَ، فاطلبْ أقصاهُ وَقَدْ أتعبَكَ أبوك، فلا تريحنَّ نفسَكَ، واطلبْ في يومِكَ أحاديثَ غَدِك، وَكُنْ لِنفسِكَ تَكنْ لَكَ.

وَدَخَلَ عبدُاللهِ بنُ جعفرٍ 0على يزيدَ بن معاوية فأكرَمَهُ، وقالَ بِكَمْ كان يصلُكَ معاويةُ، فقالَ كان يصلُني بألفِ ألفِ درهم وترَّحمَ عليهِ .قالَ يزيدُ :وَقَدْ زدناكَ ألفَ ألفٍ أخرى، لتَرَحُّمِكَ عَلَيْهِ

أخَذَ مُصْعَبُ بنُ الزبيرِ 0رَجُلاً مِنْ أصحاب المختار 0، فأمرَ بضربِ عُنقِهِ فقالَ :أصلحَ اللهُ الأميرَ، ما أقبحَ مِنْ أنْ أقومَ يومَ القيامةِ إلى صورتِكِ هذه الحسنةِ، ووجهِكَ هذا الحسن، الذي يُستضاء بِهِ فأتعلَّقُ بأطرافِكَ فأقولُ :أي رَبِّ سَلْ مُصْعَباً فيمَ قتلَني، فقالَ :أطلقُوهُ، قالَ :أيُّها الأميرُ اجعلْ ما وهبتَ لي مِن عُمْرِي في خفض، قال :قد أمرتُ لك بمائةِ ألفِ درهم، فإني أُشهدُ الله تعالى وأشهدُ الأميرَ، أنَّ لابن قَيْسِ الرقياتِ 0نصفَها، قالَ :وَلِمَ قَالَ لِقولِهِ:

تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ	**إنما مُصْعَبٌ شِهابٌ مِنَ اللهِ**
جبروتُ مِنْهُ ولا كِبْرِياءُ	**مُلْكُهُ مُلْكُ رَحمةٍ ليسَ فيهِ**
أفلَحَ مَن كَانَ هَمُّهُ الاتّقاءُ 0	**يتقي اللهَ في الأمورِ وَقَدْ**

فَضَحِكَ مصعبُ، وقالَ :أرَى فيكَ مَوْضِعً للصنيعةِ، فأحْسَنَ جائزَتَهُ.

ولَمّا بَلَغَ عَبدَاللهِ بنُ الزبير، قتلُ أخيهِ مُصعَبٍ خطبَ الناسَ فقالَ :الحمد لله الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء إنه لم يذل من كانَ الحقُّ مَعَهُ، وإنْ كَانَ فرداً، ولم يُعز مَنْ كان مِن أولياءِ الشيطانِ وإنْ كانَ مَعَهُ الثَّقلانِ .أتانا خبرٌ من العراق، أحزنَنَا، وأفرحَنا، قتلُ مُصْعَبٍ يرحمه اللهِ، فأما الذي أحزَنَنا، فإن لفراقَ الحميمَ لوعةٌ، يجدُها حميمُهُ عندَ المصيبةِ، ثمَّ يَرْعوي ذَوي الرأي، إلى جميلِ الصَّبْرِ وكريمِ العزاء، وأمَّا الذي أفرحَنا فَعَلِمْنَا أنَّ قَتْلَهُ شهادةٌ، وأن ذلكَ لَنا ولَهُ فيه الخيرةُ . ألا وإنَّ أهلَ العراقِ أهلُ الشِّقاقِ والنِّفاقِ؛ باعوهُ بأقلِّ ثَمَنٍ كانوا يأخذونَهُ مِنْهُ، إنَّا واللهِ ما نموتُ حبجاً، وما نموتُ إلا قصعاً بالرماحِ، وتحتَ ظلالِ السيوفِ وليسَ كما يموتُ بنو مروانَ، حبجاً، واللهِ إنْ قُتِلَ منهم رجلاً في جاهليةٍ ولا إسلام ألا وإن الدُّنيا عاريةٌ مِن الملكِ الأعلى، فإنْ تُقْبِلْ عليَّ لا آخذُها أخذَ البَطِرِ الأشرِ 0، وإنْ تدبرْ عنِّي لا أبكي عليها بكاءَ الحَزِنِ المهترِ.

قلتُ الحبجُ، إنْ ينتفخ بطنُ الدابة، مِنْ كثرةِ الأكل فتموتَ .والقصْعُ أنْ يطْعَنَ ويضربَ، فيموت مكانَهُ في الحالِ .والمهترِ الذي يسقطُ في كلامِهِ من الكِبَرِ .وقالَ

المهلّبُ :بنُ أبي صفرةَ لبنيه :يا بنيَّ إن ثيابَكم على غيركم أحسنُ مِنْهَا عليكُم، وإنَّ دوابَكم تحْتَ غيركم، أحسنُ منها تحتَكم.

وقالَ أيضاً لبنيهِ :لا تتكلوا على ما سبقَ من فِعْلِي، وافعَلوا ما يُنسَبُ إليكُم .

وأنشد:

وأحيا فِعالُهُ المولودُ () إنما المجدُ ما بنا والدُ الصِّدْق

وقالَ لابنِهِ يزيدَ :()اخفضْ جناحَكَ، واشتدَّ في سلطانِكَ فإنِّي رأيتُ الناسَ للسلطانِ، أهيبَ مِنْهم للقرآنِ.

ومرَّ في الكوفةِ بحيٍّ من همدانَ، في نادٍ لَهُم فقالَ رجلٌ مِنْهُم واللهِ ما يساوي إلا خمسمائةِ درهم، وكانَ المهلبُ أعوراً، فنظر إلى الرجلِ حتى أثبتَه، فلما خَرَجَ بالعشى، حَمَلَ في كَفّهِ خمسمائةِ دِرْهمٍ، ثُمَّ ضَرَبَ دابتَه حتى وقَفَ في نادي همدانَ، فبصرَ بالشَّاب فقالَ :افتحْ حِجْرَكَ، وقالَ دونَكَ يا ابن أخي قيمة عمّكَ .فَوالله لَو قَوَّمتَهُ بأكثرَ مِنْ هذا لجاءتك فقالَ الفتى :واسوأتاهُ قالَ المهلبُ :لا ضيرَ، فقالَ شيخٌ من همدان :ما أخطأ من سَوّدَكَ.

وَقَدِمَ زيادُ بنُ الأعجمِ، على المُهلّبِ بن أبي صُفْرَة الأزديّ بخرسانَ فنزلَ على ابنه حبيبٍ ()فَجَلَسَا على شرابٍ، وفي الدَّارِ شجرةٌ عليهَا حمامةٌ فَجَعَلَتْ تغَرِّدُ فقالَ زيادُ:

وذِمَّة والدي أن لا تُضاري تَغَنَّيْ أنتِ في ذِمَمِي وعَهْدِي

ذكرتُ أحبّتي وذكرتُ داري إذا غنيت أو طربت يوماً

بقتلِهِم لأنّكَ في جِواري فإمَّا يَقتلوك طلبتُ ثأري

فَأَخَذَ حبيبُ سَهْماً، فَرَماهَا فأثبتَها، بهِ فماتَتْ .فقالَ زيادُ :قَتَلْتَ جاري، بيني وبينَك المهلّبُ، ثُمَّ أتى المهلّبَ، فأخبَرَهُ فقالَ :يا حبيبُ ادفعْ إلى أبي أُمامة ألفَ دينارٍ، فقالَ حبيبُ :أعزَّ اللهُ الأميرَ إنَّما كُنْتُ أَلْعَبُ، فقالَ :مَعَ هذا اللَّعِبِ جارُ أبي أُمامة جاري، فَدَفَعَ حبيبُ إليهِ أَلْفَ دينارٍ، فَأَنْشَأَ زيادُ يقولُ:

قضاهَا فأمْضَاهَا الأميرُ المهلّبُ فلِلهِ عَينا مَنْ رأى مِنْ قضيَّة

مِنَ الطّيرِ حَضانٌ على البيْضِ قضَى ألفَ دينارٍ لجارٍ أجرْتُه

يَنْعَبُ رماهُ حبيبٌ بنَ المهلّبِ رميةً

فأنفذَهُ بالسَّهْمِ والشمسُ تغربُ فألزَمَهُ عقلَ القتيلِ بأسْرِهِ

فقالَ حبيبُ إنَّما كنتُ أَلْعَبُ فقالَ زيادُ لا يروعُ جارَهُ

وجارُهُ جاري بل من الجار أقربُ

فَلَمَّا سَمِعَها المهلَّبُ أجازَهُ بجائزةٍ حَسَنَةٍ وصرفه مكرَّماً .فَبَلَغَ ذلك الحجاجَ فقالَ :ما أخطَأتَ العربِ إذْ جَعَلْتْ المهلَّبَ شَيْخَها.

وَقَفَ أعرابي على عَبدِ الملِكِ بْنِ مروانَ 0، فَسَلَّمَ ثُمَّ قالَ :يَرْحَمُكَ اللهُ أنَّهُ مَرَّتْ بِنا سنونَ ثلاثٌ أمّا إحداها فأخذَتِ المواشيَ وأمَّا الثانِيَةُ فَنَفَضتِ اللَّحمَ، وأمَّا الثالِثَةُ فخَلَصت إلى العظم، وعِنْدَكَ مالٌ فإن يكنْ للهِ فأعطِهِ عِبادَ اللهِ وأنْ يكُنْ لَكَ فَتَصَدّق علينا، إن اللهَ يَجْزِي المتَصَدِّقينَ فَأعْطاهُ عشرَةَ آلافِ درهمٍ وقالَ :لَوْ كانَ النَّاسُ يُحْسِنُونَ يَسْأَلونَ ما حَرَمنا أحداً .قصة إبراهيمَ بنِ محمدٍ بنِ طلحة مع الحجاج الواردَةَ في صَفْحَةِ ١٤٦-١٤٤في هذا الموضعِ ولَمّا كنتُ أُحَقّقُ الأصلَ فَقَدْ اكتَفَيْتُ بذِكرِهَا هُناكَ وَكَما وَرَدَتْ في الأصْلِ مراعاةً لِحرمةِ الأصلِ.(

ولمَّا وَلَّى عبدُ الملِكِ 0، الحجَّاجَ 0كَتَبَ إليهِ إني قَدْ استعملتُكَ على العراقين، صَدْمَةً فَأخْرجَ إليْهِمَا كميشَ الأزارِ، شديدَ العذارِ، مُنْطويَ الخصيلةِ، قليلَ الثميلةِ، غرارَ النومِ، طويلَ اليومِ.

فَلَمَّا دَخَلَ الحجاجُ الكوفَةَ، أتاهُم آتٍ فقالَ :إنَّ الحجاجُ قَدْ قَدِمَ أميراً على العراقِ فاشْرَأبَّ الناسُ نَحْوَهُ، وتطاوَلُوا ثم أفْرَجُوا لَهُ فُرْجَةً عَنْ صَحْنِ المسجِدِ، فإذا هو يَتَبهنسُ في مِشيتِهِ، مُتَلَثِّماً بِعمامةِ خِزٍّ حمراءَ، مُتنكباً قَوْساً عربيةً يؤمُّ المنبرَ فرقاهُ وجَلَسَ .وأهلُ الكوفةِ إذْ ذاك لَهُمْ مَنَعَةٌ وفي المسجِدِ عُميرُ بنُ ضابِي 0، فقالَ لِمحمّدِ بن عطاءٍ :هَلْ لَكَ أنْ أحصَبُهُ فقالَ :لا حتى نسمَعَ كلامَهُ، فقالَ :لَعَنَ الله بَني أمية حيثُ يستعملونَ علينَا هذا لو كَانَ هذا كُلُّه كلاماً، لم يكُن شيئاً.

فقالَ الحجاجُ :يا أهلَ العراقِ أنَا لا أعْرِفُ قَدرَ اجتماعِكُمْ أفقدْ اجتمعتُمْ، فقالَ رَجُلٌ :قد اجتَمَعْنا أعَزَ اللهُ الأميرَ فَسَكَتَ هنيهةً لا يتكلَّمُ، فَقَالوا يمنعُهُ العيُّ والحَصْرُ ثُمَّ قامَ فَحدَّرَ اللثامَ وقالَ:

مَتى أضَعُ العمامَةَ تَعْرِفُوني ... أنا ابْن جَلا وطلاعُ الثَّنايا

كَنصلِ السَّيفِ وضاح الجبينِ ... صليبُ العود من سَلَفِي نـزارِ

ونجذني مداورَةَ الشَّؤونِ 0 ... أخو خمسينَ مجتمعٌ أشدي

يا أهلَ العراقِ إنِّي أرَى رؤوساً، قدْ أينعتْ وحانَ قطافُها، وإنِّي لصاحِبُها وكأني أنظرُ إلى الدماءِ، بين العمائِمِ واللِّحَى.

ليسَ أوانٌ يكثُرُ الخِلاطُ ... ليس أوانُ عشكِ فادَّرجي

أرْوَع خَراجٍ مـن الدَوِّيِّ ... قد لَفَّها اللَّيْلُ بعصْلبيِّ

مُهاجرٍ ليس بأعرابيٍّ

قد لَفَّهَا الليلُ بسواق حُطَمْ .....

ولا بجزارٍ على ظَهْرِ وَضَمْ () لَيْسَ بِراعِي إبلٍ ولا غَنَمْ

إني واللهِ يا أهلَ العراق، ما يُغْمَزُ جانبي من اللّين، ولا يقعقعُ لي بالشّنان ()
ولقد فررتُ عن تجربةٍ، وأجريتُ مع الغايةِ، وأنَّ أميرَ المؤمنينَ نكثَ كِنانَتَهُ بينَ يديهِ، فَعَجَمَ عيدانَها، فوجدَني أمرَّها عُوداً، وأصلبَها مَكْسِراً فوجهني إليكُم .

فوالله لاعصبَنَّكُم عَصْبَ السَّلَمَةِ، ولألحوَّنكُم لَحْوَ العودِ، وَلأضربنَّكُمُ ضَرْبَ غرائبِ الإبلِ، وَلآخذنَّ الوليَّ بالولي، حتى تستقيمَ لي قناتُكم، حَتَّى يَلقَى أحدُكم أخاهُ فيقولُ انجُ سعدُ فَقَدْ قُتِلَ سُعَيْدُ ألا وأيايَ وَهذه السقفاءَ والزرافاتِ، فإني لا أجِدُ أحداً من الجالسينَ في زرافةٍ، إلا ضربتُ عُنُقَهُ .فاستوسِقُوا واعتدِلوا، ولا تميلُوا وأطيعُوا .واعلمُوا أنَّه ليس مِنِّي الاكثارُ والإهذارُ ولا معي ذلكَ الفرارُ والتعرارُ، وإنَّما هو انتضائِي هذا السيفَ، ثُمّ لا أغمدُهُ الشتاءَ ولا الصيفَ حَتّى يَظْهَرَ أمرُ اللهِ، ويذلَّ لأميرِ المؤمنينَ صعبُكُم، ويستقيمَ له أودُكُم وصعرُكم، وإن أميرَ المؤمنينَ أمَرني بأعطياتِكُم، وأشخاصِكُم إلى مجاهدةِ عَدوّكُم، وقد أمرتُكم بذلكَ، وأجلتُكم ثلاثاً، وأعطيتُ الله عهداً لأنْ تَخَلَّفَ أحدٌ مِنْكُم، بعدَ قبضِه عطائِهِ يوماً واحداً لأضربَّن عنقَهُ، ولأنهبنَّ مالَهُ .يا غلامُ اقرأ كتابَ أميرِ المؤمنينَ، فقرأهُ ثُمّ دَخَلَ دارَ الإمارةِ.

وهذه الحكايةُ قَدْ اشتملتْ على ألفاظٍ كثيرةٍ، من الغريبِ، وأنا أُشيرُ إلى بيانِها على سبيلِ الاختصارِ .قولُهُ صَدْمَةً، أي ضربةً واحدةً ودفعةً واحدةً، وكميشَ الازارِ، مُشمَرَ الازارِ ويقالُ في المَثَلِ لِمنْ جَدَّ في الشيءِ وَشَمّرَ فِيهِ :هو كميشُ الازارِ، شديدُ العذارِ، والخصيلةُ، لَحمُ الفخذينِ وَلَحْمُ السَّاقينِ وأراد بذلكَ الاسراعَ والجدَّ في الأمرِ .والثميلةُ، البقيةُ مِن الطَّعامِ والشرابِ في بطنِ الإنسانِ، أرادَ أنْ لا يستكثرَ مِنَ الطعامِ ويشتغلَ بصنوفِهِ، ولكن اقتصرَ على ما لا بُدَّ مِنْهُ فعلَ الجادِّ المُشَمِّرِ وغرارَ النَّومِ، قليلَهُ ويقالُ لِمنْ عَمِلَ في يومِهِ وَجَدَ فيهِ، وَلَمْ يشتغلْ بِلهوٍ ولا لَعِبٍ :هو طويل اليومِ، فَإنْ اشتغلَ بالشَّرابِ واللهو قِيلَ :هُوَ قصيرُ اليومِ .واشرأبَّ الناسُ تطاولوا وأشرفوا .تبهنَسَ :تمايلَ في مَشيَتِهِ وتخايلَ وَيُقالُ لِمنْ كانَ ظاهِراً مشهوراً غيرَ خافٍ ولا خامِلٍ هُوَ ابنُ جَلا .والثَّنايا :ما ارتفعَ مِنَ الأرضِ وَغَلُظَ ويقالُ لِمنْ لَم يزلْ يفعلُ أفعالاً شريفةً هُو طلاّع الثنايا .ويقالُ للقوِّي في أمرِهِ :هو صليبُ العودِ، والأشدّ، جَمْعُ شِدّةٍ وهو القوةُ، يقالُ لِمنْ جَرَّبَ الأمورَ وأحكَمَها :هو

منجِدٌ والناجدُ :أقصى الأضراس، والشؤونُ جمعُ شأنٍ يقالُ أينعتِ الثمرةُ إذا أدركتْ وبلغت وقطْفُ الثمرةِ أخذُهَا فَشَبَّه الرؤوسَ بذلك، ليسَ أوان عشك فادّرجي يُضْرَبُ مَثَلا لِلْمطمئنِّ وَقَدْ أظلَّهُ أمرٌ عظيمٌ يحتاجُ إلى مباشرتِهِ والقيامِ بأمرِهِ .والخلاطُ الفسادُ وهو شبيهٌ بالمثلِ الأول .ويقالُ :العصلبيُّ الشديدُ مِنَ الرجالِ فَجَعَلَهُم بمنـزلةِ ناقةٍ أو إبل لِرَجُلٍ قَوِّي شديدٍ يسري عليها ويتبعُها ولا يَرْكَنُ إلى دَعَةٍ ولا سكونٍ، فجعلَ ذلكَ كذلك وَلَفَّ :جمع وأروعُ :جميع، والدَّاوي :جمع داويةٍ وهي الفلاةُ يريدُ أنّهُ صاحبُ أسفارٍ وَرَحْلٍ، والحُطَمُ :العنيفُ من السَّوق وهو شبيهٌ بالمثلِ الأول : والوضِمْ :كل ما وقيتْ بِهِ اللحمُ من خَوانٍ أو حصيرٍ أو غيره، يقالُ يُقعقِعُ بالشِّنان : أيْ يُحَرِّكُ الشنانَ وهو ما خَلُقَ من الأسقيةِ وأصلُهُ أنْ يُحرك الشَّنَ، حَتى يُسْمَعَ لَهُ صَوْتٌ، لِيَفّرَ بِهِ الوحوشَ ويجلِبَ بِهِ على الطّيرَ وشَبَهَهَا، يقولُ :لستُ مِمّنْ يروعُ بالأباطيلِ وَيقرعُ بالتخيلاتِ، وقولُهُ فررتُ عن تجربةٍ أصلُهُ أنْ يفرَّ الدابَة أي يكشِفُ جَحْفَلَتها، لينظرَ إلى أسنانِها فيعرفَ بِها سِنَّها والكنانةُ التي يكونُ فيها السِّهامُ، وَنَكَثَها أي كَبَّها وصبَّ ما فيها، والعجْمُ الاختبارُ يُريدُ أنَّه اختبرَهَا، لِيعلَمَ صلابَتها من خَوَرِهَا وقويّها من ضعيفِها، وعصْبُ السَّلَمةِ يقالُ إنَّ الرجلَ إذا حَطَبَها شَدَّها بنسعَةٍ لئلا يصيبُه شوكُها، يَضرَبُ مَثَلا لِمَنْ عصبْتُه بِشَرٍ وأمرٍ شديدٍ، يُقالُ : لحوتُ العودَ وَلَحيتُهُ إذا قَشْرتُهُ، يُقالُ في المَثَلِ :ضرَبَهُ ضَرْبَ غرائِبِ الإبلِ والأصلُ فيه أن الإبلَ إذا وَردتْ فدخَلَ فيها غريبُهُ ليستْ مِن الإبلِ عن الماءِ وضربتْ حتى تَخْرجَ عَنها، ويقالُ في المثلِ لمنْ يُعنى برحمه أو حميمه :أنجُ سعدٌ فَقَد قُتلَ سُعَيدٌ وَأصلُه أنَّ سعداً وَسُعَيْداً ابني ضَبَّهُ خرجا يطلبان أباهما فَرَجَعَ سَعْدٌ ولم يرجعْ سعيدٌ، والزرافاتُ :الجماعاتُ، وأمّا السقفاءُ فلم يذكرْ أحدٌ لها تفسيراً . وقالَ بعضُهم :إنّها تصحيفٌ وإنما هو الشُفعاءُ وَهُمْ الذينَ يَشفعونَ عندَ السلطانِ في المذنب فنهاهُم عنْ ذلك .()

وقالَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لكثيرِ بنِ هراثة الكلابيِّ :هذا الحجاجُ قادماً منَ العراق، وَقَدْ شمخَ بأنفِهِ ونفخَ الشيطانُ في منخرِهِ، فإذا دخلَ عليّ فتعرضْ لَهُ بما يكرهُ، قالَ :أفعلُ يا أميرَ المؤمنينَ .فلمّا دخلَ الحجاجُ وأخذ مجلسَهُ وأفاضوا في الحديثِ، قال لَهُ عبدُ الملكِ :ما تقولُ في ثقيفٍ يا حجاجُ فَقَد زَعمَ أُناسٌ أنهم من إيادٍ وقالَ آخرونَ مِنْ قيس، :وأنتَ أعرفُ بقومِكَ فقال :أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنينَ الحق أبلجُ وطريقُ الرّشدِ أبهجُ وَلَنْ يجدَ مَنْ ركبَ الحقَّ وقصدَ الصدِّقَ نحنُ مِنْ قيس ثابتُهُ أصولُنا، نابتةٌ غصوتُنا باسقةٌ فرُوعنا فَعَلى ذلكَ قومُنا .فقالَ كثيرُ :لَقَدْ كانَ لَكَ

مُنذُ دَهْرٍ طويلٍ، وهو على أهلِهِ عارٌ وبيلٌ، وخطبٌ جليلٌ، دخولُ رجل في قوم ليس مِنْهُم وتركُهُ قومَه رغبةً عَنْهُم .قالَ الحجاجُ :أمّا واللهِ لولا مكانُ أميرِ المؤمنينَ لاستوعرتُ موطنَكَ، ولاستعظمتُ مركَبكَ، ولأوردتُكَ مورداً يعبأ بالاصدارِ عَنْهُ ذوو القوةِ .فقالَ كُثيرُ :أنتَ أضعفُ كوعاً وأملى روعاً، ولن تنالَ ذلك بشيءٍ يا حجاجُ على ما ضيعْتَ مِنَ الأمانةِ وأظهرتَ من الخيانةِ مَعَ سوءِ سيرةٍ وقبحِ - سياسةٍ، فإنَّكَ خربتَ وما عمّرتَ، وأفسدْتَ وما أصلحتَ، وجرْتَ وما عدلتَ وتركتَ الحقَّ إذ حكمتَ .فقالَ الحجاجُ :أمّا إنّكَ يا كثيرُ لتمدُّ يداً قصيرةً، وأناملَ حقيرةً .لا يستعادُ بِكَ في المظالِمِ ولا يستعانُ بكَ في المغارمِ ولا تؤهلُ لدفعِ المظالِمِ . فلمَّا خَشِيَ عبدُ الملكِ أنْ يعْظُمَ بينَهُما الخطبُ عزَّمَ عليهما أنْ يسكتا، فخرجَ كُلُّ واحدٍ مِنْهما مملياً غيظاً وَحِقْداً ولم يلبثِ الحجاجُ أنْ خرجَ إلى العراقِ وَقَدِمَ وفدٌ مِن العراقِ على عبدِ الملكِ فلما أرادوا الانصرافَ .قالَ لكثيرِ بنِ هراثة :انطلق مَعَ هؤلاءِ القومِ، إلى الحجاجِ حتى تقومَ خطيباً، وتذكرَ السَّمعَ والطاعةَ لولاة الأمرِ، وكيفَ ينـزلُ بأهل الخلافِ والشّقاقِ مِنَ النقمةِ في العاجِلِ والآجِلِ .فقالَ لَهُ كثيرُ : إنكَ قد علمتَ يا أميرَ المؤمنينَ ما بيني وبينَه وأنتَ لي ملجأٌ إنْ قهرتُ، وعزَّا إنْ أذللتُ فإنْ أصابتني جائحةٌ أو حلَّتْ بي مصيبةٌ مِنَ الحجاجِ فأنتَ المطالبُ بِثأري، وأنتَ بَعْدَ اللهِ ثِقَتي، وقد بعثَني أميرُ المؤمنينَ إلى بلدٍ أتخوفُ أهلَهُ وأميراً أحذرُ فعلَهُ، وقدْ شمخَ بأنفِهِ نحوَ السماءِ واجترأ على سفكِ الدماءِ، وليسَ بحضرتي حفدة () يعينونني عليه ولا أنصارٌ ينصرونني .فقالَ لَهُ عبدُ الملكِ :أنفذْ لأمري، فلعمْري الحجاجُ أحكُم رأياً أنْ يأخذَكَ بأحنةٍ ()ويعرفَكَ بسيئةٍ، ولعمري لأنْ فعلَ لأحولنَّ زعامتَه، ولأنبذَنَّ منـزلتَهُ وليفارقنَّ كرامَتَهُ وبالحرَى أنْ يكونَ قد أحكمتْهُ تجاربُهُ، وقصدَتْ بِهِ مذاهبُهُ وعزبَ عنهُ جهلُهُ وثابَ إليه حِلمُه فخرَج إليه كثيرُ في أصحابِهِ حتى قَدِمَ عَلَيهِ فلما دخل إليه قالَ لَهُ :مرحباً بكثيرِ بنِ هراثة من قومِ سادةٍ كِرامٍ قادةٍ بها ليلٍ ()زاده .قالَ لَهُ هراثة :قَدْ كانتْ بيني وبينَ الأميرِ أشياءُ امتلأتُ منها رُعباً، وَضِقْت بهَا ذَرْعاً، والأميرُ صحيحُ الأديمِ في الحَسَبِ الصميمِ والشرفِ القديمِ، لا يشتكي مِنهُ الضعفُ، ولا يخافُ منهُ العنفُ .فقال الحجاجُ :ما احتجنَا إلى ثنائِكَ، ولا رغَبنا في دُعائِك ولا تلامُ على فِعْلِكَ ولا يعاقَبُ مِثْلُكَ وأجازَهُ وفضلَّهُ على أصحابِهِ فَلَمّا قَدِمَ على عَبْدِ الملكِ قالَ :كيفَ رأيتَ رأيي في الحجاج يا كثيرُ ألم تجدْهُ مُصيباً، لا يأخذْ في أمرِهِ بالعجلةِ حتَّى يرى من عدوِّه الغرةَ .قالَ بلى يا أميرَ المؤمنينَ ما أحسنَ لفظَهُ، وأدومَ لحظَهُ وأسكَنَ فورَهُ وأبعدَ غورَهُ .واللهِ لو لَمْ يسهلْ من أمرِهِ ما

توعرَ لطحنَني طَحْنَ المروةِ الململمةِ ()، متساقطَ حبِّ الجمجم .()

وكانَ الشعبيُّ مِمّنْ خَرَجَ ومع ابنِ الأشعثِ ()، فَلَمّا قَدِمَ على الحجّاجِ بعد قتلِ ابنِ الأشعثِ، قالَ :وأنتَ أيضاً مِمنْ خرجَ علينَا يا شعبيُّ قالَ :أحزنَ المنـزلُ، وأجدبَ الجنابُ، واكتحلنا السَّهرَ، واستحلسنا الخوفَ، ووقعنَا في حربِهِ لمْ نكنْ فيها بررةٌ أتقياءُ، ولا فجرةً أقوياءَ .قالَ صَدَقَ واللهِ ما بروَّا بخروجِهم علينا، ولا قوَّوا إذْ برزوا إلينَا، أطلقا عنه.

ودخلَ عليهِ ابن أبي ليلى ()وقالَ :أصلحَ اللهُ الأميرَ، مشهور النصيحةِ صحيحَ الأديمِ، شاكرَ اللسانِ خرجَ أبي مع ابنِ الأشعَثِ فهدَمَ مَنـزلي وَحلَّقَ على اسمي () وَحُرِمتُ عَطائي، فقالَ :أو ما سمعتَ الشاعرَ حيثُ يقولُ:

جانيكَ مَنْ يَجْني عَلَيْكَ وَقَدْ تُعْدِي الصِّحَاحَ مبَارِكُ الجُرْبِ

ولَرُبَّ مأخوذٍ بذَنْبِ قريبه ونَجا المُقارفُ صاحِبُ الذَّنْبِ

قالَ :لا ولكنِّي سمعتُ الله يقولُ :غَيرَ هذا في إخوةِ يوسفَ ﴿**قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ** .()﴾

فقالَ :يا غُلام علي بيزيدِ بن أبي مُسَلِم ()فأتاهُ فقالَ :ابنِ لَه دارَهُ واردد اسمَه واعطِه عطاءه.

وقالَ عبدُ الملكِ بنَ مروانَ لأسماءَ بن خارجةَ :()بَلَغني عَنْكَ خِصالٌ فحدثني بِهَا قالَ :هِي مِنْ غيري أحسنُ مِنْهَا مِني فقالَ :عزمتُ عليكَ ألا حدثتني فقالَ :يا أميرَ المؤمنينَ ما مددتُ رجلي بينَ يدي جليس لي قطُّ ولا صنعتُ طعاماً فدعوتُ عليه قوماً إلا كانوا أمَنَ عليّ مِنْهُمُ ولا نَصَبُ لي رَجُلَ وَجْهَهُ يسألُني حاجةً فاستكثرتُ شيئاً أعطيتُه إياه.

وَلما وُلِيَّ الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ ()بنُ مروانَ الخلافةَ عَدَلَ في الرعيةِ، وأحسنَ السيرةَ، وأعطَى المحرومينَ، وقالَ :لا تسألُوا الناسَ شيئاً .وأعطى كُلَّ مُقعَدٍ خادِماً وَكلَّ ضريرٍ قائداً .وكانَ يَمرُّ بالبقَّالِ فيقفُ عليهِ فيأخذُ حزمةَ البقلِ، فيقولُ :بكمْ هذِه، فيقولُ :بفلسٍ فيقولُ :زدْ عليها.

ورويَ عن الزهريّ ()أنَّهُ قالَ :دخلتُ على عبدِ الملكِ مسجدَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلَّم بالمدينةِ، عامَ حَجَّ، فتفرَّقَ النَّاسُ منَ المسجدِ، وبقيَ سعيدُ بنُ المسيبِ ()قاعداً في مجلِسِه، فلم يتحركْ عَنْهُ فجعلتُ أطوفُ بالوليدِ، في نواحِي بعيداً عن مجلِسِ سعيدٍ واشغِلُهُ بالحديثِ، مخافةَ أنْ يَرى مكانَهُ، فحانتْ مِنْهُ التفاتةٌ

فرآهُ .فقالَ لي :يا محمدُّ مَنْ هذا الشيخُ، قلتُ :سعيدَ بنَ المسيبِ، وَقَدْ كَفَّ بصرُهُ، ولا عِلْمَ لهُ بمكانِ أميرِ المؤمنينَ، ولَوْ عَلِمَ لكانَ قَدْ أدَّى الواجبَ عليهِ، من الحقِّ فقالَ : بلْ نحنُ أحقُّ بالمصيرِ إليهِ، والزيارةِ لَهُ .فجاءهُ الوليدُ فَسَلَّمَ عليهِ وجلسَ عِنْدَهُ، وَسَأَلَهُ عَنْ حالِهِ .فواللهِ ما قَامَ لَهُ سعيدُ، ولا تزحزحَ عَنْ مكانِهِ فلما انصرفَ الوليدُ قالَ لي :يا محمدُّ هذا مِنْ بقّيةِ الناسِ.

وَرَوَى الشافعيُّ ()رَحِمهُ اللهُ، عَنْ عمِّهِ محمَّدٍ بن عليٍّ بْنِ شافِعٍ قال :دخلَ سليمانُ ()بنُ يسارٍ، عَلَى الوليدِ بن عبدِ الملكِ، فقالَ لَهُ :يا سليمانُ مَنْ الذي تولَّى كِبَرَهُ ()، فقالَ :عبدُ اللهِ بنُ أبي بنُ سلول ()، فقالَ :كذبتَ لا أمّ لَكَ هو عليُّ بنُ أبي طالبٍ، قالَ :أنتَ أعلَمُ وما تقول؟ قالَ :فَمّا حديثُ حدّثنا بِهِ أهلُ الشامِ أين اللهَ عزَّ وجلَّ إذا استرعَى عبداً رعيةً، كَتَبَ لَهُ الحسناتِ ولم يكتبْ عليهِ السيئاتِ، قالَ :لا أدري، ثُمَّ دَخَلَ مُحَمَّدُ بنُ شِهاب الزُّهري فقالَ له الوليدُ :يا محمدُّ مَن الذي تَولَّى كِبَرَهُ، فقالَ :عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ بنُ سَلولٍ، فقال :كَذبتَ لا أُمَّ لَكَ، هو علي بنُ أبي طالبٍ كرمَ الله وَجهَهُ فقالَ :واللهِ لو كانَ الكذبُ مكتوباً بَينَ الدِّفتينِ بأنَّ اللهَ تعالى قَدْ أباحَة لي أو نادَ منادٍ مِنَ السَّماءِ، أنَّ الله قَدْ أباحَ الكذبَ ما رآني أتحلَّى بِهِ.

حدثني عددٌ مِنَ الرجالِ، مِنْهُم سعيدُ بنُ المسيّبِ، وعلقمةُ بْنُ وَقاص ()وعروةُ بنُ الزبيرِ ()وَأبو سَلَمَة بنُ عبدِ الرحمن ()وعبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنُ عتبة بنُ مسعودٍ ()عن عائشة رَضيَ اللهُ عَنْهَا أنَّ الذي تولَّى كِبَرُه عبدُ اللهِ بنُ أبي بنُ سَلِول، قال: صدقتَ .إنَّما أردتُ أنْ أعلَمَ، هَلْ أحدٌ ينكر باطِلاً ثمَّ قالَ :يا محمدُ، ما حديثٌ حَدَّثنا بِهِ أهلُ الشَّامِ، قالَ :وما الحديث، قالَ :حدَّثونَا أن اللهَ إذا استَرعى عبداً رَعيَّةً كتبَ لَهُ الحسناتِ ولَمْ يكتبْ عليهِ السّيئاتِ، قالَ :كذبتَ واللهِ يا أميرَ المؤمنينَ .قالَ :وكيفَ ذلكَ، قالَ :آتيكَ بحديث من كتابِ اللهِ الَّذي لا يأتيهِ الباطِلُ مِنْ بينَ يديهِ وَلاَ مِنْ خلفِهِ، قالَ اللهُ عَز وجل ﴿ :**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ.**()﴾

فهذا وعِيدُ اللهِ لنبيٍّ هُوَ خليفةٌ، فيكفَ وعيدُهُ لخليفةٍ غَيرَ نَبيٍّ، قالَ :صدقتَ، ثُمَّ نـزلَ عَنْ سريرِهِ ووضعَ خَدَّهُ في التُّرابِ، وقالَ :يغرونا عن دينِنَا، ثُمَّ أغرَى جلساءَهُ بابنِ شهابٍ فقالَ :عَنْ مثلِ هذا يُؤخَذُ الدينُ.

ولمَّا وُلّيَ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ ()أطلَقَ المحبسينَ، وأحْسنَ إلى الناسِ وسموهُ مفتاحَ الخيرِ .وفي أيامِهِ فُتِحَتْ القسطنطينيةُ، وَلَوْ لَمْ يكنْ لَهُ حسنة إلا استخلافَ

عُمرَ بن عبدِ العزيزِ بعدَهُ لكانَ كافياً.

وَرويَ أن أعرابيّاً وَقَفَ بينَ يَديّ سليمانَ، فقالَ :إنّي مُكلّمُكَ يا أميرَ المؤمنين بكلامٍ فاحتملْهُ، وإنْ كرهتُهُ فَإنَّ وراءَهُ ما تُحِبُّ إنْ قبلتَهُ .قالَ :هاتِ، قال :إنّي سأطلقُ لِساني، بِمَا خرستْ عنهُ الألسنُ مِنْ عِظَتِكَ، تأديةً بحقِّ اللهِ تعالى وحق إمامتِكَ، إنّهُ قَدْ اكتنفكَ رجالٌ، أساءُوا الاختيارَ لأنفسِهم، فابتاعُوا دنياهم بدينِهم، وَرِضَاكَ بِسخطِ اللهِ، خافوكَ في الله، ولَمْ يخافُوا اللهَ فيكَ، فهم حَرْبٌ للآخرةِ، سِلْمٌ الدَّنيا، فَلا تأمنْهُم على ما ائتمنكَ اللهُ عليهِ، فإنَّهُمْ لم يألُوا الأمانة تضييعاً، والأمةَ خسْفاً، وأنتَ مسؤولٌ عَمَّا اجترَحوا، وليُسوا مسؤولين عما اجترحتَ، فَلا تُصْلِحْ دُنياهم بفسادِ آخرتِكَ فإنَّ أعظمَ الناسِ غُبناً، مَنْ باعَ آخرتَهُ بِدُنيا غيرِهِ .فقالَ :أمَّا أنتَ يا أعرابي فقد سللت لسانَكَ وَهُوَ أقطعُ مِنْ سيفِكَ، قال :أجَلْ يا أميرَ المؤمنينَ لكَ لا عليكَ.

وَرُوِيَ أنَّ سعيدَ بنَ خالدٍ ()، دَخَل على سليمانَ بن عبدِ الملكِ وكانَ سَعيدُ جواداً، فإذا لَمْ يجدْ شيئاً كَتَبَ لِمَنْ يسألُه الصِّكاكَ على نفسِهِ حَتَّى يخرجَ عطاؤُه فَلَمَّا نَظَرَ إليهِ سليمانُ تَمَثَّلَ بِهذا البيتِ:

يَا مَنْ يُعينُ على الفتى المِعوانُ إني سمعت مَعَ الصَّباح منادياً

ثم قالَ :حاجتك، قالَ :دَيْنِي، قالَ :فَكَمْ هُوَ؟ قالَ :ثلاثونَ ألفِ دينارٍ، قالَ :لكَ دَيْنُكَ وَمِثْلُهُ.

وَرَوَى رجاءُ بنُ حيوةَ ()أن سُليمانَ بَنَ عَبدِ الملِك، لَمَّا كَتَبَ العهْدَ لِعمرَ بن عبدِ العزيزِ ()وَمَنْ بَعْدَهُ يزيدَ بن عبدِ الملكِ ()وختَمَهُ وَدَفَعَهُ إليهِ، قالَ :اخرجْ إلى النَّاس، فمرهُمْ بالمبايعَةِ على ما فيهِ مختوماً، فَلَمَّا دَعاهُم رجاءُ إلى ذلكَ، وأخبَرَهُم بقول سليمانَ امتَنَعُوا، وقالوا :لا نبايعُ حتَّى نعلمَ مَنْ فِيهِ، فَرَجَعَ إلى سليمانَ فأخبَرَهُ، فقالَ سليمانُ :انطلقْ بأصحابِ الحرسِ ونادِ الصَّلاةَ جامعةً، فإذا اجتمعَ النَّاسُ، فمرْهُمْ بالبيعةِ على ما في الكتابِ فمَنْ أبَى فاضْرِبْ عُنقَه، ففعلتُ ذلكَ فبايعوا على ما فيهِ .

قالَ رجاءُ :فلما خرجوا خرجتُ إلى منـزلي، فبينَما أنا في الطَّريقِ إذْ سمعتُ جَلبة موكبٍ فالتفتّ فإذا هشامُ بن عَبدِ الملكِ، فقالَ :يا رَجاءُ قد علمتَ موقَعَك مِنَّا وأرَى أمير المؤمنينَ قَدْ صَنَعَ شيئاً، ما أدري ما هُوَ، وأنا أتخوَّفُ أن يكونَ قَدْ أزالَها عَنِّي، فإنْ يكن أزالَها عَني فاخبرْني ما دامَ في الأمرِ نَفَسٌ، حتَّى أنظرَ في هذا الأمرِ، قبلَ أنْ يموتَ سليمانُ .فقلتُ :سبحانَ اللهِ، يَستكتِمُني أميرُ المؤمنينَ أمراً أطلعَكَ عليهِ، لا يكونُ ذلكَ أبداً، فداراني فأبيتُ فانصرفتُ، فبينَما أنا أسيرُ سمعتُ جلبه خلفي،

فالتفت فإذا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، فقالَ :يا رجاءُ إنَّه قد وَقَع في نفسِي، أمرٌ كبير مِنْ هذا الرَّجُلِ، أتخوَّفُ أن يكونَ قَدْ جَعَلَها إليَّ ولستُ أقومُ بهذا الشَّأنِ، فأعلمني ما دامَ في الأمرِ نَفَسٌ، لعلِّي أتخلَّصُ ما دامَ حَيّاً .فقلتُ :سبحانَ اللهِ العظيمِ، يستكتِمُني أميرُ المؤمنينَ أمراً أطلَعَكَ عَليهِ، فداراني فأبيتُ، قالَ رجاءُ :فلمَّا ماتَ سليمانُ أجلستُهُ وهيأتُهُ، وخرجتُ إلى النَّاسِ فقالوا :كيفَ أميرُ المؤمنينَ، فقلتُ :قَد أصبحَ ساكِتاً، وَقَدْ أحَبَّ أنْ تُسلِّموا عليهِ وتبايعُوا على ما في الكتابِ بينَ يديهِ، فَدخلوا عليهِ، وأنَا قائمٌ عندَهُ، فلما دنَوا قلتُ :أميرُ المؤمنينَ يأمُركم بالوقوفِ، ثُمَّ تقدَّمت إليهم بالكتاب، فقلتُ :أميرُ المؤمنينَ يأمُركم أنْ تبايعُوا على ما في هذا الكتابِ بمرأىً مِنْهُ ومسمعٍ فبايعُوا أجمعينَ.

فلمَّا فَرغوا عِنْ مبايَعتِهم، قالَ لَهُم :أجركُم اللهُ في أميرِ المؤمنينَ .قالُوا :فَمَنْ ففتحوا الكتابَ فإذا فيه العهدُ لِعمرَ بن عبدِ العزيزِ، فلما قرأوا عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ تغيرتْ وجوهُهم فلما قرأوا منْ بعدِهِ يزيدَ بنَ عبدِ الملكِ تراجعوا، فقالوا :أينَ عمرُ بن عبدِ العزيز فطلبُوه فلمْ يجدوهُ في القومِ، فَنَظرُوا فإذا هُوَ في مُؤخّرِ المسجدِ، فأتوهُ فسلَّموا عليه بالخلافةِ، فَعَقَرَ فلمْ يستطعِ النُّهوضَ حتى أخذُوا بضبعيهِ فَساروا إلى المنبَرِ فلمْ يقدرْ أنْ يَرقَى حتى أصعدوهُ، فجلسَ طويلاً لا يتكلَّمْ .فلما رآهُم رجاءُ جلوساً قالَ :ألا تقومونَ فتبايعونَ لأميرِ المؤمنينَ فنهضَ القومُ إليه فبايعوهُ رَجُلاً رجلاً قالَ :فَما مَدَّ يَدَهُ إليهم .فَلمّا صَعَد هِشامُ مَدَّ يَدَهُ إليهِ .وقالَ هشامُ :إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ، فقالَ عُمَرُ :نَعَمْ إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ حين صارَ يلي هذا الأمرَ أنا وأنتَ ثُمّ قامَ فَخَطَبَ فحمَدَ اللهَ وأثنَى عليهَ وقال" :أيُّها النَّاسُ إنِّي لستُ بقاض ولكنَّي مُنَفذٌ، ولستُ بمبتدع ولكني متبعٌ وإنَّ حولكُم كثيراً مِنَ الأمصار والمدنِ، فإنْ هُم أطاعُوا كما أطعتُم فأنا وليُّكم وإنْ هُمْ امتنعُوا فلستُ عليكُم بوالي"، ثُمَّ نـزل يَمشي فأتاهُ صاحبُ المراكبِ، قالَ :ما هذا قالَ :مراكبُ الخليفةِ، قال لا :حاجة لي بهذا فَأتوني بدابّتي فأتوا بدابتِهِ، فركِبَهَا ثُمَّ خرجَ وخَرَجُوا مَعَهُ، فقالوا :نسيِّرُها هُنا قال :إلى أينَ؟ فقالوا :إلى البيتِ الذي يُهيّأُ للخليفة، فقال :لا حاجة لي فيهِ، انطلقُوا بي إلى منـزلي، فأتى منـزلَهُ فنـزلَ عَنْ دابتِهِ، ثُمَّ دَعا بدواةٍ وقِرطاس وجَعَل يكتُبُ بِيدِهِ إلى العُمَّالِ والأمصارِ ويملي على نَفْسِهِ .وقيلَ :أنه كان رُبَّما اشتريْتُ لَهُ الحِلة بِألفيْ دِرْهَمٍ قبل الخلافةِ فيقولُ :أمَا وجدتُم ألينَ مِنْ هَذه فلمّا وُليَ الخلافَة كانَ يشتري لَهُ الحلّةُ بأربعةِ دَرَاهِمَ فيقولُ :أما وجدتُم أغلظَ منها، فقيل لَهُ :في ذلك فقالَ :إنَّ لي نفساً توّاقةً لا تصلُ إلى منـزلةٍ إلا تاقت إلى ما هُوَ أعلى مِنْهَا، فَلمّا نالتِ الخلافَة تاقتْ إلى ما

هُوَ أعلى مِنْهَا فلم تجدْ في الدُّنيا ما هو أرفعُ مِنَ الخلافة فتاقتْ إلى الآخرة وإلى ما أعدَّ الله فيها.

وقيلَ :إنَّ ثيابَهُ قُوّمَتْ عَلَيْهِ يومَ الجمعةِ، وهُوَ يخطبُ باثني عشرَ دِرْهَم وكانت قميصاً وسراويلَ وعِمامةً ورداءً .ملأ الأرض عَدْلاً ورَفَعَ السَّبَّ عن أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب كَرمَ الله وجهَهُ على المنابرِ وَأمَرَ الخطباءَ أن يقولوا في آخِرِ الخطبةِ، في الموضعِ الذي كانوا يذكرونَ اللَّعْنَ فيهِ ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ .0 ولما حضرتْهُ الوفاةُ دَعَا بنيه وكانوا أحدَ عشر رجلاً، ولمْ يُخَلِّفْ غيرَ بِضعِ عَشَرَ دينار، فأمرَ أنْ يُكَفّنَ ويُشتَرى لَهُ موضعُ يُدْفَنُ فيه بخمسةِ دنانير وَيُقصدُ المالُ على وارثيهِ فأصابَ كلُّ ابن مِنْهم نِصفَ دينارٍ وربع دينار وقالَ :يا بنيَّ ليسَ لي مالٌ فأوصي فيهِ ولكنَّي قَدْ تركتُكُمْ وما لأحدٍ عِنْدَكُمْ تَبِعَةٌ ولا يقعُ على أحَدٍ مِنكم عينُ أحَدٍ إلا ويرى لَكُم عليهِ حقاً .فقالَ له مُسلِمةُ بنُ عبدِ الملكِ :0أوْ خيرٌ مِنْ ذَلِكَ يا أميرَ المؤمنينَ قال :ومَا هُوَ قال هذهِ ثلاثُ مائةِ ألفِ دينار، فرقها فيهم وإن شئتَ فتصدَّقْ بِها، وأوص فيها بما شئتَ، فقالَ أوْ خيرٌ من ذلكَ يا مسلمةُ تردُّها إلى مَنْ أخذتها مِنْهُ، فإنَّها ليستْ لَكَ بحقٍّ .ثم قالَ :إن وَلدي أحدُ رجلين، فإمَّا صالحٌ فاللهُ يتولى الصالحين، وإمَّا فاسقٌ فلا أحِبُّ أن أتركَ لهُ ما يستعينُ بِهِ على معصيةِ اللهِ فقال مسلمةُ :يرحمُكَ اللهُ يا أميرَ المؤمنينَ حيّاً وميِّتاً، فقدْ ألنتَ لنا قلوباً قاسيةً وذكّرْتَها وكانت ناسيةً وأبقيتَ لنا في الصالحاتِ ذكراً، فيقالُ :إنه ما رُؤِيَ أحدٌ مِنْ أولادِ عُمَرَ بن عبد العزيزِ إلا وهو غنيٌّ ولَقَدْ شُوهِدَ أحدُهُم وقد جَهَّزَ مِنْ خالِص مالِهِ، مائة فارس على مائةِ فَرسٍ في سبيلِ اللهِ تعالى .ولمّا حضرتْ هِشامُ بنُ عبدِ الملكِ 0 الوفاةُ، خَلَّفَ أحَدَ عشر ابناً، كما خَلَّف عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزَ، وأوصى فأصابَ كُلُّ ابنٍ ألفَ ألفِ دينارٍ .فيقالُ :إنَّه ما رُؤِيَ أحَدٌ مِنْهُم إلاَّ وهُوَ فَقيرٌ ولَقَدْ شُوهِدَ أحدُهم وهو يوقدُ في الأتونِ .ووجدتُ في كتابِ تفاوتِ التواريخ أنَّ هِشامَ ابن عبد الملكِ، كانَ يأكلُ من بيتِ المالِ كلَّ سَنَةٍ مائتي دِرْهَم وأنَّهُ كانَ ديوانُهُ من بيتِ المالِ، كديوانِ بعضِ الجُنْدِ .وحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أنَّهُ قالَ :أرسلني هشامُ إلى خرسانَ وكانَ عليهِ إذْ ذاك، قِباءُ أخضرُ، فلمّا رَجعتُ مِنْ خرسانَ رأيتُهُ عليه، قال تنظرُ إلى هذا القباءِ، واللهِ كانَ عليّ قبلَ الخلافةِ ومالي غيرُهُ .وَفقدَ بعضُ أولادِهِ في الجمعةِ فسألَهُ عن تأخّرِهِ فقالَ :نفقتْ دابتي، يَعني ماتتْ، فقالَ: أعجزْتَ عَنِ المَشْيِ، ثُمّ تسقُطُ عنكَ الجُمعةُ فمنعَهُ الركوبَ سنةً .ورَوِيَ أنَّ عُروهْ بنَ أذينَةَ 0أتَى مَعَ جَماعةٍ من

الشُّعراء إلى هشامِ بن عبدِ الملكِ فانتسبَهم فانتسبُوا فلما انتسبَ له عِروةُ قالَ ألست القائلُ:

لقد علمت وما الإسرافُ من خلُقي أن الذي هُوَ رزقي سَوْفَ يأتيني
أسعى إليه فيُعْييني تطلُّبه ولو أقمتُ أتاني لا يُعيّني

فقالَ :نعمْ أنا قائلُها، قالَ :أفلا قعدتَ حتى يأتيكَ رزقُكَ، وغفل عَنْهُ هِشامُ فخرَجَ مِنْ وقتِهِ وَركِبَ راحلَتَهُ ومَضى منصرفاً .فتفقَّدهُ هشامُ فَعرف خبرَهُ فاتبعَهُ بجائزتِهِ وقالَ لِلرسول: قلْ لَهُ أردتَ أنْ تكذِّبَنا وتُصدّقَ نفسَكَ، فمضى الرسول فَلَحِقَهُ، وقَدْ نـزلَ على ماءٍ يَتَغَدَّى عليهِ فأبلَغَهُ رسالَتهُ ودَفَعَ إليهِ الجائزةَ، فقالَ :قُلْ لَـهُ قد صَـدَقَنِي ربي وكذّبَكَ.

وَوَفدَ على هشام وفدُ أهلِ الحجازِ فتكلّموا رَجُلاً رجُلاً حتى قامَ محمّدُ بنُ أبي الجهمِ ()بن حذيفة العَدَويّ وكانَ أعظم القومِ قَدْراً وأكبرَهُمْ سناً، فقالَ :أصلحَ الله الأميرَ إنَّ خُطباءَ قريش، قَدْ قالتْ فيكَ فأقلّتْ وأكثَرَتْ وأطنبتْ، ووالله ما بلغَ قائلُهُم قَدْرَكَ، ولا أحصَى مُطْنِبُهم فضلَكَ، فإنْ أذِنْتَ في القوْلِ قلتُ قالَ :قُلْ وأوجِزْ قالَ : تولاكَ الله بالحُسنى وزيَّنَكَ بالتّقوى وجَمَعَ لَكَ خَيْرَ الآخرَةِ والأولى .إنَّ لي حوائجَ فأذكُرُها قالَ :هاتِها :قالَ كبُرَ سني ودَقَّ عَظْمي ومالَ الدَّهرُ مِني فإنْ رَأى أميرُ المؤمنينَ أنْ يُجْبَرَ كَسْرِي ويُنْفَى فَقْري فَعَلَ قال: وما الذي يَنفي فقرَكَ، ويجبرَ كسركَ، قالَ :ألفُ دينارٍ وألف دينارٍ وألفُ دينارٍ فأطرقَ هِشامُ قليلا، ثُمّ قالَ :هيهاتَ هيهات يا ابن أبي الجهْمِ بيتُ المالِ لا يحتَمِلُ ما سألتَ، ثُمّ قالَ :هيه وما هِيه أما والله إن أميرَ المؤمنينَ لواجِدٌ، ولكن اللهَ آثركَ لمجلسِكَ، فإنْ تُعطِنَا فحقّنا أدّيْتَ، وإنْ تمنَعَنا فنسألَ الذي بِيدِهِ ما حَوْيتَ يا أميرَ المؤمنينَ إنَّ اللهَ جعلَ العطاءَ محبة والمنعَ مبغَضَةً والله لَئِنْ تُعْطِني فأحبك أحبُّ إليّ مِنْ أنْ تحرمَني فأبغضُكَ قالَ :فألفُ دينارٍ لماذا قالَ أقضِي بها دَيْناً عليَّ حَمَّ قضاؤه وآذاني حَمْلُهُ وأضر بي أهلُهُ، قالَ :فلا بأسَ بتنفيسِ كُربةٍ وتأيدةِ أمانةٍ، وألفُ دينارٍ لماذا قالَ :أزوّجُ بِها مَنْ بَلَغَ مِنْ أولادي، قالَ نَعَمْ المسلكُ سلكتَ، غضضتَ بصراً، وأعففتَ فرَجاً، ورجوتَ نسْلاً . قالَ :فألفُ دينارٍ لماذا قالَ أشتَري بِها أرضاً يعيشُ بها وَلَدي، وأستعينُ بفضلِهَا على نوائِبِ دَهري، وتكونُ ذُخراً لِمن بَعْدي .قالَ :فَإنَّا قَدْ أمَرنا لَكَ بِما سألت فقالَ :الحمدُ لله على ذلكَ فأتبعَهُ هِشامُ بصرَهُ وقالَ :إذا كان القرشيُّ، فليكُن مِثلَ هذا، ما رأيتُ رَجُلا أوجزَ في مقالٍ مِنْهُ ثمّ قالَ :أما والله إنَّا لنعرفُ الحقُّ إذا نـزلَ ونَكرهُ الإسرافَ والبخلَ، فلا نُعْطي تبذيراً، ولا نمنع تقتيراً، وما نَحْنَ إلا خُزانُ اللهِ في بلادِهِ،

وأمناؤُهُ على عِبادِهِ، فإن أذِنَ أعطينا، وإنْ مَنَعَ أبينا، فلو كانَ كُلَّ قائِلٍ يُصَدَّقُ وكلُّ سائِلٍ يستَحِقُّ ما حَرَمَنَا سَائِلاً ولا جبهنا قائلاً .فنسألَ مَنْ بيدِهِ ما استخفضنَاه أنْ يجريه على أيْدينا فإنَّهُ يفتحُ الرِّزقَ لِمَنْ يشاء ويقدِرُ إنَّهُ بعبادِهِ خبيراً بصيراً .فقالوا : يا أميرَ المؤمنينَ لَقَدْ تكلّمتَ فأبلغتَ، وما بَلَغَ في كلامِهِ ما قصصتَ فقالَ :إنَّه مبتدئٌ وليسَ المقتدِي كالمبتدي .وخَطَبَ خالدُ بنُ عبدِ اللهِ القسريِّ ()وَقَدْ أُرْجِفَ بموتِ هِشام بن عبدِ الملكِ فقالَ: ما هذهِ الجماعةُ التي قد أَلِفها الطيْشُ واستخفَّها الجهلُ وأقبلتْ دبرَ الوجوهِ قد أشْخَصَ لها الرجيمُ نصباً فأوقصتْ إليهِ وأناخَ قعودَ الضلالةِ فاحتملتْ عليهِ أوْ كُلّما خَطَرَتْ للشياطين بينَ أظهركُمْ خطوةً أو كَادَ كم ينكر، أو بَعَثَ فيكُمْ مُنكراً، أقبلتُم قمصاً ()، وسعيتُم حرصاً .فتُعْسَاً ونُكْساً قلتُم ماتَ هِشامُ، أفبدعٌ الموت أو مستنكَرٌ أو مبرّأٌ مِنْهُ أحَدٌ قَدْ ماتَ الذي خلقَهُ اللهُ ونفخَ فيهِ مِن رُوحِه وأسجَدَ له ملائكَتَهُ أخرُجوا يا فراشَ النَّارِ وبَقِيَّة الأشرار.

وخَطبَ مَرَّةً فارتجَّ عليهِ ()فقالَ :أيُّها الناسُ إن القولَ يجيئُ أحياناً، ويعزُبُ أحياناً، فيتيسرُ عندَ مجيئِهِ سبَبُهُ، ويعزُّ عِنْدَ ذَهابِهِ طَلَبُهُ، وربَّما طلبَ فأبَى وَكُوبِرَ فعَصى، فالتأنِّي لمجيئهِ أيْسَر مِنَ التَّعاطي لأبيَّهِ وقَدْ يختَلِجُ مِن الجريءِ جَنانُهُ، ويرتجُّ على البليغِ لسانُهُ فَلاَ يغيُرُهُ المنطقُ إذا امتنَعَ كما لا يبطُرُهُ القولُ إذا اتَّسَعَ.

ودخلت امرأة مِنْ بَنِي كِلاب، على خالدِ القِسْرِيِّ، وهُوَ في مَجْلِسِهِ فَسَلَّمْتَ عليهِ وأنشدَتْهُ شِعْراً .فقالَ لها خالدُ :ما حاجتكَ، قالتْ :عندِي للأميرِ نصيحةٌ .قالَ : وَمَا هِيَ قالت :أكَبَّ على دَهْرُ بجرانهِ ()، وعضّنا بنابِهِ، فما تركَ لنا سَبْداً، ولا لُبَداً ()ولا ماهياً()، ولا صافياً()، فما بِنا خفضٌ ولا نَبضٌ فكنتَ أنتَ المنتجعُ ()وإليكَ المفزَعُ .فنصيحتي أصلحَ اللهُ الأميرَ، أنْ تأمرَ لي بخادِمٍ، وما يُصْلِحني وإياهُ فواللهِ لقد عُودتُ الرّخاءَ، وما قاسيتُ الشَّقاءَ .قالَ خالدٌ :هذه نصيحةٌ لكِ دونَنَا قالتْ أيُّها الأميرُ ليستْ لي دونَكَ، لَكَ أجرُها وذِخْرُها، وحمدُها وشكرُها، ولي منفعتُها معَ أنَّ الأجوادَ لوْ لَمْ يَجِدوا، مَنْ يقْبلُ العطاءَ ما ذُكروا بالسَّخاءِ قال صدقت فَهَلْ لَكِ مِنْ زوجٍ، قالتْ :واللهِ مالي زوجٌ، ولا وجدتُ كُفئاً ولا أتزوّجُ دَنِيّاً، وإنْ كانَ مُتْرَفاً غنيّاً، ولئنْ كنتُ فقدتُ نسباً، ما فقدتُ حسباً، وما كنتُ أشتري عاراً يبقى، بمالٍ يفنى . أعوذُ بجلالِ اللهِ مِنْ ذَلِكَ، ومالِيَ أبقَ اللهُ الأميرَ بزوجٍ مِنْ أربٍ .فأمرَ لها بِخادمٍ، وما يصلُحُها، وأمَر صاحبَ نفقاتِهِ أن يُجري لهما ما وَسِعَهُما.

ورُوِيَ عَنِ الوليدِ بن يزيدَ ()مَعَ ما كانَ فيهِ مِنَ الخلاعَةِ واللعب، والتهاون بالدّين أنه لما وُلّى أجرَى على الزّمنَى والعميان، وكساهُمْ وأعطى كلَّ واحدٍ مِنهُم

خادماً، وزادَ النَّاسَ، على ما كانَ يُعطيهم هشامُ، وَلَمْ يسألْ سائِلاً قطُّ، إلا قالَ :نَعَمْ وأعطاهُ .وكانَ أديباً شاعراً، فَمِنْ أحسنِ قَولهِ :ما)حدَّثني (اسحاقُ الموصليُّ ()قالَ : دخلتُ يوماً على الرَشيدِ، وَهُوَ مستلْقٍ وَهُوَ يقولُ :أحسنَ واللهِ أظرفُ قريشٍ، وأفتاها)وأسْخاها(، وأشعرُها وأغزلُها .فقلتُ :مَنْ هُوَ يا أميرَ المؤمنينَ وفي أيِّ شيءٍ، فقالَ :أمَّا بَعْدُ ما سمعتَ مني في وَصفِهِ فلا أُسمِّيهِ ولكنْ أذكرُ الشعرَ فإنْ كنتَ تعرفُهُ فاكتمْ عنِّي ما سمعتَ مِني وهو الذي يقولُ:

نامت وإن أسهرت عَيْنيَّ عَيْناها ... لا أسألُ اللهَ تغييراً لِما صنعتْ

والليلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألقاها ... فالليلُ أطولُ شيءٍ حين أفقدُها

أتعرفُه قلتُ :لا بصوتٍ ضعيفٍ، قال :بحياتي، فقلتُ :بَلى وحياتِكَ هُوَ الوليدُ بنُ يزيدَ، فضحكَ وقالَ :ما قلتُ في وصفِهِ إلا دونَ ما يستحِقَّ وَلكنَّ المُلكَ عقيمٌ.

وكتبَ إلى هشامِ بنِ عبدِ الملكِ برسالةٍ وفي آخرها شِعْرٌ:

ولو كنتَ ذا حزم لهدمتَ ما تبني ... رأيتُكَ تبني دائماً في قطيعَتي

فويلٌ لَهُم إنْ مِتُّ منْ شَرِّ ما تَجْني ... تثير عليَّ الباقينَ مني ضغينة

كأنّي بهمْ واللَّيْتَ أكثر قولهمْ ... ألا ليتنا كنا إذا ليت لا تُغْني ()

وقالَ أيضاً وَقَدْ رَجَعَ إليهِ جوابُ هشامٍ بما يكرهُهُ:

حياضَكَ يوماً صادراً بالنَّوافِلِ ... أليسَ عجيباً أن أرى كلَّ واردٍ

بتخلِّيه عَنْ وردِ تلكَ المناهلِ () ... وأرجع مجذودَ الرَّجاءِ مُصَرّداً

وقال أيضاً فيه:

إلى المَقاريف ما لَمْ يَخْبُرِ الدَّخَلا ... أنَا النَّذيرُ لمُسْدِي نِعْمَة أبَداً

وإنْ أهَنْتَهُمْ أَلْفَيْتَهُمْ ذُلُلا ... إنْ أنْتَ أكْرَمْتَهُمْ أَلْفَيْتَهُمْ بُطُراَ

سَتَعْلَمُونَ إذا كانَتْ لَنا دُوَلا ... أتَشْمُخونَ ومِنّا رأسُ نِعْمَتِكُمْ

سِوَى الكلْبِ فاضرِبْهُ لهم مَثَلا ... انْظُرْ فإنْ أنت لم تقدر على مَثَل لهم

حَتَّى إذا ما قوي من بعدما هزلا ... بَيْنما يُسَمِنُهُ للصَّيْد صاحبُهُ

ولَوْ يطيق له أكْلاً لَقَدْ أكلا () ... عدا عليه فلمْ تَضْرُرْهُ عَدْوَتُهُ

وذلكَ أن يزيدَ بنَ عبدِ الملكِ، كَان قَدْ أخذَ البيعة لأخيهِ هشام، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ لابنهِ الوليدِ .وَلَمّا قَتل يزيدُ بنُ الوليدِ بنُ عبدِ الملكِ ()، الوليدَ بنَ يزيدٍ وَوُلي الخِلافة خَطَبَ فَحَمَدَ اللهَ وأثنَى عليهِ :أيُّها الناسُ واللهِ ما خرجتُ بَطِراً ولا أشِراً، وَلا ريائاً ولا

حِرْصاً على الدُّنيا، ولا رغبةً في الملكِ .وما بي إطراءٌ لنفسي إني لظلومٌ لها إلا ما يرحمُني اللهُ عزَّ رجلَّ .ولكني خرجتُ غَضَباً للهِ عزَّ وجلَّ ولدينِهِ، داعياً إلى اللهِ وإلى سنَّةِ نبيهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ، لَمَّا هُدِّمتْ معالمُ الدِّينِ، وأُطْفِئَ نورُ التَّقوى، وَظَهَرَ الجبارُ العنيدُ، مُستخفاً بكلِّ حرمةٍ وراكباً لِكلِّ بدعةٍ، الكافرُ بيومِ الحسابِ وإنَّهُ لابنُ عمِّي في النَّسَبِ وَكُفئي في الحَسَبِ، فلمَّا رأيتُ ذلكَ، استخرتُ اللهَ تعالى في أمرِهِ، وسألتُهُ أنْ لا يكلني على نفسي، ودعوتُ إلى ذلكَ مَنْ أجابني مِنْ أهلِ ولايتي حتَّى أراحَ اللهُ مِنْهُ العبادَ، وطهَّرَ مِنْهُ البلادَ، بحولِهِ وقوّتِهِ، لا بحولي وقوَّتي .أيُّها الناسُ إنَّ لكم عليَّ أنْ لا أضعَ لبنةً على لبنةٍ ولا حجَراً على حجرٍ ولا أكنـز مالاً ولا أُعطيه زوْجاً ولا ولداً ولا أنقُلُهُ مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ أخرى حتى أسُدَّ فقرَ تِلكَ البلدِ ولا أجبرُكم في ثُغورِكُم، حَتَّى أفتتنَ أهليكُم، ولا أُغلِقُ بابي دونَكم، فيأكلَ قويَّكُم ضعيفَكم، وَلا أحمِلُ على أهلِ جِزْيتِكُم، ما أجلْيهم به عَنْ بلادِهِم، وأقطَعُ بِهِ نسلَهُم، ولكنْ أُدرِ العطاءَ في كلِّ سنةٍ، والرزق في شَهْرٍ حتى تستوي بكم الحالُ، فيكونَ أفضلُكم كأدناكُم .فإنْ أنا وفيتُ لكُم، فعليكُم السَّمْعُ والطاعةُ، وَحُسْنُ المؤازَرةِ والمكاتفةِ، وإنْ لَمْ أفِ لكُم، فلكُم أنْ تخلعوني إلا أنْ تستتيبوني فإنْ تبتُ، قبلتُم توبتي، وإنْ عرفتُم أحداً بالصلاحِ، يُعطيكُم مِنْ نفسِهِ مثلَ الذي أعطيتُكُم، فأردتُم أنْ تبايعُوه، فأنا أولُّ من يبايعُهُ، ويدخلُ في طاعتِهِ أيْها الناسُ إنهُ لا طاعة لِمخلوقٍ في معصية الخالقِ أقولُ هذا واستغفرُ اللهَ لي وَلَكُم، ولجميعِ المسلمينَ انَّهُ غفورٌ رحيم((

وكتبَ إلى مروانَ بن مُحَمّدٍ ()وقدْ بلغَهُ تلكؤُهُ في بيعتِهِ .أمَّا بَعْدُ :فإنِّي أراكَ تُقَدِّمُ رجلاً، وَتؤخِّرَ أُخرى، فاعتمدْ على أيِّهما شِئْتَ، والسلامُ.

ولما تفرّقَ الأمرُ على مروانَ بن مُحَمّدٍ وأيقنَ بزوالِ مُلْكِهِ، وَغَلَبَةِ بني هاشم عليهِ، قالَ لِعبدِ الحميدِ بن يحي كاتبِهِ :إني قدْ احتجتُ، أنْ تكونَ مَعَ عدَوي عليَّ، وَتظْهرَ لَهُم الغدرَ بي فإنَّ إعجابَهُم بأدبِكَ، وحاجتِهِم إليكَ تدعوهُم إلى حُسْنِ الظَّنِ بكَ .فإنْ استطعتَ أنْ تنفعَني في حياتي، وإلا لَمْ تعجزْ عَنْ حِفظِ حُرْمتي بَعَدَ وَفاتي . فقالَ عبدُ الحميدِ :إن الذي أمرتَني بِهِ أنفعُ الأمرينِ لَكَ وأقبحُهما بي .وما عِنْدي إلا الوفاءُ، حتى يفتَح اللهُ لكَ أو أُقتلَ مَعَكَ، ثُمَّ قالَ:

فَمن لي بعذرٍ يوسعُ النَّاسَ ظاهرُهُ () أسرُّ وفاءً ثُمَّ أظهرُ غـدْرةً

وقالَ مروان إذا انقضتِ المدةُ لم تنفع العدَّةُ

وكتبَ إلى عبدِ اللهِ بن عليّ ()، يوصيهِ في حرَمِهِ، فكتبَ إليهِ عبدُ اللهِ يا مابق

الحقَّ لنا في دَمِكَ، وَعَلينا في حرَمكَ.

وَلَمَّا استُخلِفَ أبو العباس السّفاح()، وَهُوَ أولُ ملوكِ بني العباس .

رويَ أن أولَ خُطْبةٍ، خَطَبَها السفاحُ، في بلدةٍ تُسمَّى العباسيَّةِ، فَلمَّا صارَ إلى موضعِ الشهادةِ قامَ رَجلٌ من الطالبيينَ في عُنقِهِ مُصْحَفٌ، فقالَ :أذكِّرُكَ الذي ذكرتَهُ، إلا أنصفتني مِنْ خَصْمي، وحكمتَ بيني وبينَه، بما في هذا المُصْحَفِ، فقالَ : ومنْ خصمُكَ، قال :أبو بَكرٍ الذي منَعَ فاطمةَ فدكاً .قالَ :وأقامَ على ظُلمِكُم، قالَ : نَعمْ، قالَ :وهلْ كانَ بعدَهُ أحدٌ، قالَ :نعمْ، قالَ :مَنْ، قالَ :عُمرَ، قالَ :وأقامَ على ظُلمِكُم، قالَ :نعم، قالَ :وهلْ كان بعدَهُ أحدٌ، قالَ :مَنْ، قال :عثمانُ، قالَ :وأقامَ على ظلمِكُم، قالَ :نعمْ، قالَ :وَهَلْ كانَ بعدَه أحدٌ، قالَ :نَعَمْ قالَ :مَنْ، قال :علي قال وأقام على ظلمِكُم، فأَسكتُ الرّجُلُ، وجَعَلَ يتلفتُ إلى ورائه يطلبُ تَخلُصاً .وأقبلَ السَّفاحُ على خُطبتِهِ وَصَعَدَ المنبرَ بوجهٍ كأنَّهُ مصحفَ، فلم يستطعْ الكلامَ مِنَ الحياءِ، فنهضَ عَمُّه داوود بُنُ عليٍّ ()حَتى صَعَدَ المنبَر، فقالَ المنصورُ :فقلتُ في نَفسي، هذا شيخُنا وكبيرُنا، يدْعو إلى نفسِهِ، فلا يختلفُ عليه اثنان .فانتضبتُ سيفي وغطيّتُه بثوبي، وقلتُ :إنْ فَعَلَ ناجزتُه فَلما رَقى استقبلَ النّاسَ بوجهِهِ أبي العبّاس.

فقال :أيُّها الناسُ إن أميرَ المؤمنينَ يكرهُ أنْ يتقدَّم قولُه فعلَه، وأثرُ الفعالِ عليكُم أجدى من تشقيقِ الكلامِ، وحسبُكم بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ متلوٌ فيكم وابنَ عَمِّ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ خليفةٌ عليكم .فواللهِ قسماً باراً ولا أريدُ بِهِ إلا اللهَ ما قامَ هذا المُقامَ، أحدٌ بَعْدَ عليّ بن أبي طالِب، عليه الصلاةُ والسلامُ عليه وعلى آلِهِ، أحق مِن أميرِ المؤمنين هذا فليطمأن ظانُّكم، وليهمسْ هامِسُكم قالَ المنصُورَ :فَشممتُ () سيفي.

وخطبَ داوودُ بن علي فقال:

من يلق آساد الرجال يكلم () شِبْشِبَةٌ أعْرِفُهَا مِنْ أخْزَم

مهلاً مهلاً يا روايا ()الأرجاف، وبقايا النفاق، وأنسال الأحزاب عن الخوض فيما كفيتم، والتخطي إلى ما حذرتم، قبل أن تتلف نفوس، وتحز رؤوس .ألم تجدوا ما وعدكم ربكم حقاً، من إيراث المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها .لا والله بل ضب مضمر ()وحسك ()وكمد، رغما للمعاطس وبعداً للقوم الظالمين .

وصعد المنبر مرة فارتج عليه الكلام فقال أما بعد :فقد يجد المعسر ويعسر الموسر، ويثقل الحديد، ويقطع الكليل .وأن الكلام بعد الأفحام كالاشراق بعد الاظلام وقد يعزب البيان ويعقم الصواب وإنَّما اللسان بضعة من الإنسان يفتر بفتوره إذا

أكتل وينبسط بانبساط إذا ارتجل .وإنا لا ننطق أشراً، ولا نسكت حصراً، بل ننطق مرشدين، ونسكت معتبرين .فإنا أمراء القول، فمنا وشجت ()أعراقه، وإلينا تعطفت أغصانه وعلينا تهدلت ثمرته فنجنى منه ما أحلو لي وعذب، ونترك منه ما أملولح وخبث .ومن بعد مقامنا مقام، ومن بعد أيامنا أيام، يعرف فيها فضل الكلام .إن شاء الله وهو أحمد مستعان.

وخطب سليمان بن علي ()بن عبد الله بن العباس فقال :إياكم أن يتكلم الرجل في ما لا يعنيه ويرعى ما لا يسترعيه .فينـزل به منا فاقرة ليست لها باقية، وإياكم إياكم .واحذروا مصارع الحائنين فإني وإياكم لا قال الأول:

فلما كفرتم شكر ما كنت أصنع بدأتكم بالخير حتى بطرتم

فـإن عدتم فالسيف عندي مقنع سنعطيكم صابا ومـرا وعلقما

وما بعد السوط، إلا السيف، فأبقوا على أنفسكم أو ذروا.

وخطب المنصور ()فحمد الله وأثنى عليه، فلما انتهى إلى قوله أشهد أن لا إله إلا الله .وثب رجل من أقصى المسجد قال أذكرك الله ما تذكر .فقال :سمعاً لمن فهم عن الله عز وجل وذكر به، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عصياً، وأن تأخذني العزة بالاثم .وقد ضللت إذاً، وما أنا من المهتدين .وأنت والله أيها القائل ما أردت بها الله ولكنك حاولت أن يقال قام، فقال :وعوقب فصبر، وأهون بقائلها لقد هممت فاهتبلتها ().ويلك إذ عفوت، وإياكم معاشر الناس وأختها .فإن الموعظة علينا نـزلت، ومن عندنا أنبئت، فردوا الأمر إلى أهله يصدروه كما أوردوه .ثم رجع إلى خطبته فأتمها.

وصعـد المنبر مـرة فحمد الله وأثنى عليه، ثم سكت طويلا .فقال رجل :ما لأمير المؤمنين لا يتكلم، فإنه والله مـمن يهـون عليه صعـب الكلام، فأكمـل خطبته ثم قال:

ولو شتمتُ بني سَعْدٍ لقد سكنوا مالي أَكَفْكِفُ عن سَعْدٍ وَيشْتِمُني

لبئست الخُلَّتان الجَهْلُ والجُبُنُ () جهلا علينا وجبنا عن عدوكم

ثم حسر رأسه وقال:

لأكْشِفَـهُ إلا لاحْـدَى العَظائم وألقيت عن رَأسِي القِناعَ ولم أكُنْ

ثم قال :والله لقد عجزوا، عن أمر قمنا به، فما شكروا، ولقد مهدنا ما استوعروا وأعطينا الحق وغمطوا .()والله لا أكرم أحداً، بمهانة نفسي، والسعيد من وعظ بغيره، لأن سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء.

وقام عمرو بن عبيد () بين يدي المنصور فقال :إن الله عز وجل أعطاك الدنيا بأسرها فاشتري نفسك ببعضها .واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة فيه فوجم أبو جعفر في قوله فقال الربيع () له يا عمرو غممت أمير المؤمنين فقال عمرو :أن هذا قد صحبك عشرين سنة لم ير عليه أن ينصحك، يوماً واحداً .وما عمل وراء بابك، بشيء من كتاب الله عز وجل ولا سنَّة نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله .فقال أبو جعفر :فما أصنع قد قلت لك خاتمي بيدك، فتعال أنت وأصحابك فاكفوني هذا الأمر . فقال عمرو :أدعنا بعد ذلك تسمح نفوسنا بعونك، ببابك ألف مظلمة، أردد منها شيئاً نعلم أنك صادق .

وقيل بينما المنصور يطوف بالبيت ليلا، إذ سمع قائلا يقول :اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي، والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله، من الطمع . فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد، وأرسل إلى الرجل يدعوه، فصلى ركعتين واستلم الركن، وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة .فقال له المنصور :ما الذي سمعتك تذكر، من ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله، من الطمع فوالله لقد حشوت مسامعي بما أرمضني .فقال :يا أمير المؤمنين إن أمنتني أنبأتك بالأمور على جليتها، ومن أصولها، وإلا احتجزت على نفسي . فقال :أنت آمن على نفسك، فقال :إن الذي دخله الطمع، حتى حال بينه وبين إصلاح ما ظهر من البغى والفساد أنت .فقال :ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي .قال وهل دخل أحد من الطمع مثل ما دخلك، إن الله تعالى استرعاك المسلمين وأموالهم، فجعلت بينك وبينهم حجاباً، من الجص والآجر وأبواباً من الحديد، وحجبة معهم السلاح والكراع، وأمرت أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان، نفر سميتهم ولم تأمرهم بإيصال الملهوف والمظلوم، ولا الجائع ولا العاري، ولا الضعيف ولا الفقير وما أحد إلا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا عنك جباء الأموال وأمرتهم بجمعها ولا يقسموها، قالوا :هذا قد خان الله عز وجل، فمالنا لا نخونه وقد سجن لنا نفسه فأتمروا بينهم أن لا يصل إليك من أخبار الناس إلا ما أرادوا .ولا يخرج لك عامل، فيخالف أمرهم إلا أقصوه ونفوه، حتى تسقط منـزلته ويصغر عندك قدره فلما انتشر ذلك عنك وعنهم، أعظمهم الناس وهابوهم، فكان أول من صانعهم، عمالك بالهدايا والأموال، ليتقووا به على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك، ذوو القدرة والثروة من رعيتك، لينالوا به ظلم من دونهم .

فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل .وإن جاء متظلم حيل بينه، وبين الدخول عليك، فإذا رفع قصته إليك عند ظهورك، وجدك وقد نهيت عن ذلك، وأوقفت للناس رجلا ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك الرجل، فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك، فإن للمتظلم منه حرمة عندهم، فأجابهم خوفاً منهم فلا يزال المظلوم، يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث، وهو يدافعه ويماطله، ولا يقبل عليه .فإذا أجهد وأحوج وظهرت، صرخ بين يديك فيضرب ضرباً عنيفاً شديداً مبرحاً، ليكون نكالاً لغيره وأنت تنظر، فلا تنكر فما بقاء الإسلام على هذا .ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتها مرة، وقد أصيب ملكها بسمعه فبكى يوماً بكاء شديداً فحثه جلساؤه على الصبر .فقال :أما إني لست أبكي للبلية النازلة، ولكنى أبكي للمظلوم بالباب يصرخ، فلا أسمع صوته .ثم قال أما إذا ذهب سمعي :فإن بصري لم يذهب فأذنوا في الناس، أن لا يلبس ثوباً أحمر إلا مظلوم .ثم كان يركب الفيل طرفي النهار، ينظر هل يرى مظلوماً، فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله عز وجل غلبت رأفته على المشركين وأنت تؤمن بالله واليوم الآخر ثم من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه واسم غلب شح نفسك عليك .فإن كنت إنما تجمع المال لولدك، فقد أراك الله عز وجل، الطفل يسقط من بطن أمه وما له على الأرض مال، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله جل ثناؤه يلطف بذلك للطفل، حتى تعظم رغبة الناس إليه ولست بالذي يعطي، بل الله يعطي من يشاء بغير حساب . وإن قلت أنا أجمع المال لتشديد السلطان، فقد أراك الله عز وجل عبراً في بني أمية ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وأعدوا من الرجال والسلاح والكراع، حين أراد الله بهم ما أراد .وإن قلت أنا أجمع المال لطلب غاية، هي أجسم من الغاية التي أنا فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منـزلة لا تنال الا بالطاعة يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك بأكثر من القتل والصلب .قال المنصور :لا قال : فكيف يصنع أمير المؤمنين يوم القيامة عند لقاء الملك الذي خولك ملك الدنيا، ولا يعاقب من عصاه من عبيده، وعمل بخلاف ما أمره به في كتابه بالقتل ولكن يعاقبه بالخلود في العذاب الأليم وقد رأى ما عقد عليه قلبك، وتحملته جوارحك، ونظر إليه بصرك واجترحته يداك ومشت إليه قدماك، ممن يعني ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يديك، ودعاك إلى الحساب على ما خولك .فبكى المنصور وقال :ليتني لم أخلق، ويحك فكيف احتال لنفسي .فقال :يا أمير المؤمنين إن للناس

أعلام يفزعون إليهم، في دينهم ويرضون نفوسهم فاجعلهم بطانتك يرشدوك، وشاورهم في أمرك يسددوك .قال :قد بعثت إليهم فهربوا مني، قال خافوا أن تحملهم على طريقتك، ولكن افتح بابك وسهل حجابك وانصر المظلوم واقمع الظالم، وخذ الفيء والصدقات مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل على أهله وأنا الضامن عليهم، أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة .وجاء المؤذنون فسلموا عليه فصلى وعاد إلى مجلسه، فطلب الرجل فلم يوجد .وقال المنصور لبعض عماله وقد بلغه أنه خانه :يا عدو الله وعدو أمير المؤمنين، أكلت مال الله .فقال :نحن عباد الله، وأنت خليفة الله والمال مال الله، فمال من تأكل إذاً .فأعجبه جوابه فقال :خلوا عنه ولا تولوه شيئاً.

ووجد على بعض الكتاب فأمر بتجريده وضربه فقال:

فهبنا للكرام الكاتبين ونحن الكاتبون وقد أسأنا

وروى أن بعض أهل العبث كان قد خرج بفلسطين، فكتب إلى العامل بها، دمه بدمك مرتهن، إنْ لم توجه به إلى، فظفر به فأشخصه إليه، فأدخله الربيع عليه فقال : "أنت المتوثب علينا عمال أمير المؤمنين "لا يوزن من لحمك أكثر مما يبقى على عظمك فقال بصوت ضعيف:

وَمِنَ العَنَاءِ رِياضَهُ الهَرَم أَتَرُوضُ عِرْسَكَ بَعْدَمَا هَرِمَتْ

فلم يتبين المنصور ما قال، لضعف صوته .فقال :يا ربيع ما يقول قال يقول:

فهل عذابُك عنّي اليَوْمَ مصروف الْعَبْدُ عَبْدُكُمُ والمالُ مالُكُمُ

فعفى عنه وخلى سبيله.

وكان يقول عقوبة الحليم التعريض، وعقوبة السفيه التصريح.

وروي عن الربيع أنه قال :جمع المنصور مالكاً وأبا حنيفة ()وابن أبي ذؤيب () رضي الله عنهم فقال :كيف ترون في هذا الأمر، الذي أعطاني الله تعالى .فقال ابن أبي ذؤيب :ملك الدنيا يؤتيه الله من يشاء وملك الآخرة يؤتيه، من وفقه له، وأن الخلافة تكون بإجماع أهل التقوى عليها، وأنت وأعوانك خارجون من التقوى، عالين على الخلق فإن سألت الله السلامة، كان في ذلك نجاتك، وإلا أنت المطلوب . فقال لأبي حنيفة :ما تقول، قال :المسترشد لدينه يكون بعيد الغضب، وأنت إذا نصحت نفسك علمت أنك لم ترد الله باجتماعنا فنقول بما تهواه، خوفاً من سيفك وحبسك ولقد وليت الخلافة، وما اجتمع عليك نفسان من أهل التقوى .فقال لمالك :ما تقول؟ فقال :لو لم يرك الله أهلا لذلك، ما قدر لك أمر الأمة، أعانك الله على ما

ولاك .ثم أمر بانصرافهم، قال الربيع :ثم أعطاني ثلاث بدر()، وقال :اتبع القوم فإن أخذ ابن أبي ذؤيب وأبو حنيفة منها شيئاً، فأتني برؤوسهما وإن أخذها مالك كلها فادفعها إليه .فأتيت ابن أبي ذؤيب وعرضت عليه، فقال :ما أرضى له هذا المال، فكيف أرضاه لنفسي، وقال أبو حنيفة :لو ضربت رقبتي ما مسست منها درهماً واحداً، فأتيت بها مالكاً فأخذها كلها .قال الربيع :فأعلمته ما جرى، فقال :بهذه الصيانة حقنوا دماءهم.

وروي عن الربيع قال :ما رأيت رجلا أربط جأشاً، من رجل رفع عليه إلى المنصور أن عنده ودائع، وأموالاً لبني أمية، فأمرني بإحضاره فأحضرته فدخلت به عليه .فقال له المنصور :قد رفع إلينا خبر الودائع، والأموال التي لبني أمية عندك، فأخرج إلينا منها .فقال :يا أمير المؤمنين أوَارِثٌ أنت لبني أمية، فقال :لا، فقال :فوصي لهم في أموالهم ورباياحهم، قال :لا، قال :فما مسألتك عما في يدي من ذلك .قال :فأطرق المنصور ساعة، ثم رفع رأسه فقال :إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل للمسلمين في حقهم وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فأجعله في بيت مالهم، فقال :يا أمير المؤمنين تحتاج إلى إقامة البينة العادلة، على أن ما في يدي لبني أمية، مما خانوه وظلموا، دون غيره، فقد كان لبني أمية أموال غير أموال المسلمين .قال :فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال :صدق يا ربيع، ما يجب على الشيخ شيء، ثم قال :هل لك من حاجة، فقال :نعم، حاجتي يا أمير المؤمنين أن تنفذ كتابي على البريد إلى أهلي، ليسكنوا إلى سلامتي، فإنهم قد راعهم إشخاصي . وقد بقيت لي حاجة أخرى يا أمير المؤمنين، قال :قل، قال :تجمع بيني وبين من سعى بي إليك، فوالله ما لبني أمية في يدي مال، ولا وديعة، ولكني لما مثلت بين يديك، وسألتني عما سألتني عنه، قابلت بين هذا القول وما قبله، فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة .فقال :يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به، فجمعت بينهما، فقال :هذا غلام لي، سرق علي ثلاثة آلاف دينار من مالي وأبق .()فشد المنصور على الغلام، فأقر بأنه غلامه، وأنه أخذ المال الذي ذكره وأبق منه، وسعى به خوفاً وكذباً حتى لا يقع في يده .فقال المنصور للشيخ :نسألك أن تصفح عنه، فقال :قد صفحت عنه وأعتقته ووهبت الثلاثة آلاف التي أخذها وثلاثة آلاف دينار، فقال المنصور :ما على ما فعله الشيخ من مزيد، فقال :يكون هذا بحق شفاعتك يا أمير المؤمنين وانصرف .فكان المنصور يتعجب منه كل ما ذكره، ويقول :ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع.

وقيل :كان المنصور في صدر نهاره، يأمر وينهى، ويدبر الملك والنظر في النفقات، ومعاش الرعية، فإذا صلى العصر، جلس لأهل بيته، فإذا صلى العشاء نظر فيما ورد عليه، من كتب الثغور والآفاق، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه فنام، فإذا بقي الثلث الأخير من الليل، قام فأسبغ وضوءه وصف قدميه في محرابه، حتى يطلع الفجر ثم يخرج ويصلي.

حديث زينب ابنة سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس 0، قالت :كنت عند الخيزران 0، وعادتها إذا كنت عندها أن تقعد في عتبة الرواق المقابل للإيوان، وأجلس بإزائها، وفي الصدر مجلس المهدي 0، يقعد فيه وهو يقصدنا في كل يوم، فيجلس ساعة ثم ينهض .فبينما نحن كذلك إذ دخلت جارية من جواريها، اللواتي يحجبنها .فقالت :أعز الله السيدة، امرأة لها جمال وخلقة حسنة، وليس من وراء ما هي عليه، من سوء الحال غاية، تستأذن عليك .وقد سألتها عن اسمها، فامتنعت أن تخبرني، فالتفتت إلى الخيزران فقالت :ما ترين، فقلت :أدخليها، فإنه لا بد من فائدة أو ثواب .فدخلت امرأة كأجمل النساء وأكملهن، لا تتواري فوقفت إلى جانب عضادتي الباب، ثم سلمت متضائلة، ثم قالت :أنا مزنة بنت 0مروان بن عبد الملك، فقالت زينب :وكنت متكئة، فاستويت جالسة، فقلت :مزنة، فلا حياك الله ولا قربك، والحمد لله الذي أزال نعمتك وهتك سترك وأذلّك، أتذكرين يا عدوة الله، حين أتاك عجائز أهل بيتي يسألنك أن تكلمي صاحبك، في الإذن في دفن إبراهيم بن محمد 0، فوثبت عليهن وأسمعتهن، وأمرت بإخراجهن على الحالة، التي أخرجن عليها، فلا أنسى حسن ثغرها، وعلو صوتها بالقهقهة .وقالت :أي بنت عم، أي شيء أعجبك من حسن صنع الله في العقوق، حتى أردت أن تنافسيني فيه والله إني فعلت بنسائك الذي فعلت، فأسلمني الله عز وجل إليك، ذليلة جائعة عريانة، فكان هذا مقدار شكرك لله على ما أولاك فيَّ .ثم قالت :السلام عليكم وولت، فصاحت بها الخيزران :ليس هذا لك، عليَّ استأذنت وإليَّ قصدت فما ذنبي .فرجعت وقالت : لعمري فقد صدقتي يا أخيَّة .

وكان مما ردَّني إليك، ما أنا عليه من الضرر والجهد .قالت زينب فنهضت إليها الخيزران لتعانقها، فقالت :ليس فيَّ لذلك موضع، مع الحال التي أنا عليها . فقالت الخيزران لها :فالحمام إذاً، وأمرت جماعة من جواريها بالدخول معها إلى الحمام، فدخلت وطلبت ماشطة ترمي ما على وجهها من الشعر .فلم تزل حتى خرجت من الحمام، فوافتها الخلع والطيب، فأخذت من الثياب ما أرادت، ثم تطيَّبت

وخرجت إلينا، فعانقتها الخيزران وأجلستها في الموضع الذي يجلس فيه أمير المؤمنين المهدي إذا دخل، فقالت لها الخيزران :هل لك في الطعام فأنا لم نطعم بعد، فقالت :والله ما فيكن أحد أحوج إليه منِّي، فعجلوه، فأتِيَ بالمائدة فجعلت تأكل غير محتشمة وتلقّمنا وتضع بين أيدينا، إلى أن اكتفت، ثم غسلنا أيدينا .فقالت لها الخيزران :من وراءك ممن تعنين به، فقالت :ما خارج الدار أحد من خلق الله، بيني وبينه سبب، فقالت الخيزران :إن كان هذا هكذا، فقومي حتى تختاري لنفسك مقصورة من مقاصيرنا، ونحول إليه جميع ما تحتاجين إليه، ثم لا نفترق حتى يفرق الموت بيننا .فقالت :فطفنا بها في المقاصير، فاختارت أوسعها وأنـزهها، ولم نبرح حتى حوِّل إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش والكساء والجواري والرقيق، ثم تركناها وخرجنا عنها .فقالت الخيزران :إن هذه المرأة كانت فيما قد كانت فيه، وقد مسها ضرّ، وليس يغسل ما في قلبها، إلا المال، فاحملوا إليها خمس مائة ألف درهم، فحُمِلت إليها .ووافانا المهدي فسألنا عن الخبر فحدثته حديثها، وما لقيته به، فوالله ما انتظر أن أعرِّفه جوابها حتى وثب مغضباً في وجهي، وقال :يا زينب، هل هذا مقدار شكر الله على نعمه، وقد مكّنك من مثل هذه المرأة، على هذه الحال التي هي عليها فوالله لولا محلك من قلبي، لحلفت أن لا أكلمك أبداً .قالت :فقلت :قد اعتذرت إليها، ورضيت ثم قصصنا عليه قصتها كلها، وما فعلت الخيزران لها، فقال لخادم معه :إحمل إليها مئة بدرة، وادخل إليها وأبلغها السلام عني .وقل لها، والله إني ما سررت منذ دهري سروري بمكانك، وأنا أخوك وممَّن يوجب حقك، لا تدعي حاجة إلا سألتيها .ولولا أني أكره أن أحشمك ()لصرت إليك مسلماً عليك، وقاضياً حقك .فمضى الخادم إليها بالمال والرسالة، فأقبلت إلينا معه، فسلمت على المهدي، وشكرت له فعله، وأثنت على الخيزران عنده .وقالت :ما على أمير المؤمنين حشمة ()، أنا في عِداد حرمه، وقعدت ساعة، ثم قامت إلى منـزلها فخلفتها عند الخيزران كأنها لم تزل في ذلك القصر.

وقيل :إن المهدي لما حج، أنفق في حجِّه ثلاثين ألف ألف درهم، وخمسمائة ألف دينار .وفرق من الثياب مائة ألف وخمسين ألف ثوب، وهو الذي وسَّع المسجد الحرام، وبناه على ما هو عليه اليوم.

وقيل :نذر ()المهدي، دم رجل من أهل الكوفة، كان يسعى في فساد دولته، فجعل لمن دلَّ عليه، أو جابه مئة ألف درهم .فأقام الرجل متوارياً ثم إنه ظهر يوماً ببغداد، فبينما هو يمشي في بعض نواحيها، بصر به رجل من أهل الكوفة، فرفعه

فأخذ بمجامع ثيابه، وقال :هذا بغية أمير المؤمنين، فبينما الرجل على تلك الحال، إذ سمع وقع الحوافر من ورائه فالتفت فإذا معن بن زائدة، فقال :يا أبا الوليد ()، أجرني أجارك الله، فوقف، فقال للرجل الذي هو متعلق به :ما شأنك؟ قال :بغية أمير المؤمنين، نذر دمه وبذل لمن دل عليه مئة ألف درهم .فقال :يا غلام، انـزلْ عن دابتك واحمل الرجل عليها، فصاح المتعلق بالرجل :يا للناس أيحال بيني وبين طلبة أمير المؤمنين، فقال له معين :اذهبْ فاخبره أنه عندي، فانطلق الرجل إلى باب المهدي، فأخبر الحاجب فدخل إلى المهدي، فأخبره فأمر بإحضار معن، فأتته الرسل، فدعا أهل بيته ومواليه، وقال :لا يخلصن إلى هذا الرجل، وفيكم عين تطرف .ثم سار إلى المهدي، فدخل فسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام .وقال :يا معن أتجير علينا، قال :نعم يا أمير المؤمنين، قال :ونعم أيضاً !فاشتد غضبه .فقال :يا أمير المؤمنين، قتلت في طاعتكم في اليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفاً، إلى أيام كثيرة قد تقدم بلائي وحسن غنائي، فما رأيتموني أهلاً أن يوهب لي رجل واحد، فأطرق المهدي طويلاً، ثم رفع رأسه وقد سرى عنه .وقال :قد أجرنا جارك، فقال معن :إن رأى أمير المؤمنين أن يصله فيكون قد أحياه وأغناه .قال :قد أمرنا له بخمسين ألف درهم، قال معن :إن صِلات الخلفاء لا تكون إلا على قدر جنايات الرعية، وإن ذنب الرجل عظيم فأجزل له العطية .فقال :قد أمرنا له بمائة ألف درهم، قال :تعجَّلها يا أمير المؤمنين، فإن خير البر عاجله، فأمر بتعجيلها له . وانصرف معن بالمال إلى الرجل وقال له :خذ صلتك واِلحقْ بأهلك وإياك ومخالفة خلفاء الله تعالى .

ذكر المنصور لمعن بن زائدة بعد كلام له :قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء، لولا مكانك عنده ورأيه فيك لصعب عليك الأمر قال :وما ذاك يا أمير المؤمنين، فوالله ما تعرضت به منك، قال :إعطاؤك مروان بن أبي حفص ()ألف دينار في قوله فيك:

شَرَفاً عَلَى شَرَفٍ بَنُو شَيْبَان مَعْنُ بنُ زائِدةَ التي زيدتْ به
يَـوْمَاهُ يَـومُ نـدا ويوْمُ طِعَان أنْ عُـدَّ أيّـامُ الرجـال فإنها

فقال :ما أعطيته لهذا ولكن لقوله:

بالسيفِ دون خليفة الرحمان ما زلْتَ يومَ الهاشِميَّةِ مُعْلِماً
مِن وقْـعِ كـلِّ مُهَنَدٍ وسِنان فحميت حوزته وكنت وقاءه

فاستحيا المنصور فقال ما أعطيته إلا لهذا .قال :نعم يا أمير المؤمنين فوالله

لولا مخافة الشنعة، عندك لمكنته من مفاتيح بيوت أموالي وانحلته إياها .قال المنصور :لله درك من أعرابي ما أهون عليك ما يعز على الرجال وأهل الحزم قيل أقام أعرابي على باب معن بن زائدة فلما طال مقامه كتب إليه رقعة فيها :

وفي الأرض أسباب وفيها مذاهب فما في يديك الخير يا معنُ كله

إذا افتتحت عند الإياب الحقائب سيأتي بنات العم ما أنت صانع

ووكل من يوصلها إليه وسار فلما وصلت الرقعة إليه وقرأها أمر برده وقال : والله لتفتشن عن خير كثير وأمر فملئت حقيبته دراهم.

وحضر ببابه شاعر فأقام مدة لا يتهيأ له الدخول عليه، فقال يوماً لبعض خدمه :إذا دخل الأمير البستان فعرفني فلما دخله أعلمه .فكتب بيتاً على خشبة وألقاها في الماء، الذي يدخل البستان .فلما نظر معن في الخشبة أخذها فقرأها فإذا فيها مكتوب:

فمالي إلى معن سواك رسول أيا جود معن ناج معنا بحاجتي

فقال من صاحب هذه، فدعا بالرجل فقال له :كيف قلت أنشد البيت، فأمر له بمائة ألف درهم، فأخذها ووضع الخشبة تحت بساطه .فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت بساطه، وقرأها فدعا بالرجل، فأمر له بمائة ألف أخرى، وكذلك في اليوم الثالث فلما أخذها الرجل، تفكر في عظم ما أخذ وخاف أن يسترجعها منه فخرج فلما كان في اليوم الرابع قرأ ما فيها ودعا بالرجل فلم يوجد .قال معن :حق عليّ أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار.

قيلَ :خرجَ على هارونَ الرشيدِ ()بعضُ الخوارجِ، فأنهضَ إليهِ جيشاً فَظَفِرَ بِه، فلمّا دخلَ عليهِ، قالَ لَهُ :ما تريدُ أنْ أصنعَ بِكَ قالَ :الذي تريدُ أن يصنعَ اللهُ بكَ، إذا وقفتَ بينَ يديه .فأطرقَ مليا ثُمَّ رَفَعَ رأسَهُ وأمرَ بإطلاقِهِ فَلَمَّا خرجَ قالَ بعضُ مَنْ حَضَرَ :يا أميرَ المؤمنينَ يقتلَ أهلَكَ وُيفنِي أموالَكَ وتطلقُهُ لِكلمةٍ واحدةٍ، تأمل هَذا، فإنَّه يُجَرّئُ، عليكَ أهلَ الشَّر .فأمرَ بِردِّهَ فَلمّا مَثَل بينَ يديهِ، عَلِمَ أنه قَدْ سعَى بِهِ عِنْدَهُ، فقالَ :يا أميرَ المؤمنينَ لا تطعْهُ فَلوْ أطاعَ الله فيكَ، ما استخلَفَكَ لحظةً واحدةً فأمرَ بإطلاقِهِ وقالَ :لا تعاودْوني في بَابِه .()

وَعَنْ جُريمٍ بن أبي يَحيى المُزَنيِّ قالَ :دَعاني، يوماً للأكْلِ مَعَهُ فَلَمَّا توسَّطَ الأكلَ، رفع رأسَهُ إلى رَجُل، يكلِّمُهُ بالفارسيّةِ قُلْتُ :يا أمير المؤمنينَ إنْ كنت تريد أنْ تُسِرَّ إليهِ، فإنِي أفهمُ الفارسيَّة، فَأمرْني أتنحَّى إلى أنْ تُقدم إليهِ بِما تُريدُ فَاعجبَ

الرشيدَ كرمُ أخلاقِهِ وَصدَّقَهُ وَخاطَبَ الرَّجلَ سِرًّا بما أرادَ وأمرَ لجريمِ بصِلةٍ سَنِّيةٍ.

وَقيلَ استزار إبراهيمْ بنُ المهدي، أخاه هارون الرشيدَ بالرّقةِ، فَلَمَّا حَضَرَ الطعامُ وكانَ الرشيدُ لا يأكلُ حاراً قَبْلَ باردٍ .فَوضعَتْ البواردُ بينَ يديهِ على المائدةِ، فَرَأى فيما قرب مِنهُ جاماً ()فِيهِ قريشُ السَّمكِ، فاستصغرَ القِطَعَ فقالَ لإبراهيم لِمَ يُصَغِّرْ طباخُك السَّمكَ .فقالَ :إنَّهُ لَمْ يُصَغِّرْ القِطَعَ، وإنَّما هذه ألسنةُ السَّمكِ، فقالَ : شَبيهٌ أنْ يكونَ في هذا الجامِ مائةُ لِسانٍ فقالَ لَه مراقبُ خادِمِ إبراهيمَ يتولى قهرمتَه، فيه يا أمير المؤمنينَ أكثرُ مِنْ مائةِ لسانٍ فاستحلفه على مبلغِ ثَمنِ السَّمكِ، الذي مِنها هذهِ الألسنةُ .فأخبَرُ أنَّهُ ألفُ دِرهم فَرَفَعَ هارونُ يدَهُ مِنَ الطعامِ وَحَلَفَ أنْ لا يطْعَمَ دونَ أنْ يُحْضِرَ مراقبُ ألفَ دينارٍ، فأحضرَها فأمَرهُ أنْ يتصدَّقَ بِها .وقالَ لإبراهيمَ : أرجو أنْ يكون هذا كَفارةً لِسَرفِكَ في انفاقِكَ، على جامِ سَمَكٍ ألفَ دِرْهم، ثُمَّ أخذَ الجامَ بيدِهِ، وَدَفَعَهُ إلى بعضِ خَدَمِهِ .وقالَ :اُخرجْ :مِنْ دارِ أخي، ثم انظرْ أوَّلَ سائِلٍ تراهُ، فادفعْهُ إليه .قالَ إبراهيمُ :وكانَ شراءُ الجامِ على مائتين وسبعينَ ديناراً فغمزتُ بعضَ خَدَمِي أنْ يَخْرُجَ مَعَ الجامِ فيبتاعَهُ مِمّنْ يُدْفَعُ إليهِ، وكأنَّ الرّشيدَ فَهِمَ ذلكَ مِني فهتَفَ بالخادِمِ، وقالَ :إذا دَفعت الجامَ الى السائِلِ، فقلْ لهُ يقولُ لكَ أميرَ المؤمنين :احذرْ أن تبيعَ الجامَ بأقل من مئتي دينار فإنّه يُساوي أكثرَ مِنْها .فَفَعَلَ الخادِمُ ما أمَرهُ، قالَ :فواللهِ ما أمكَنَ خادِمُ إبراهيمَ أن يشتريَهُ، ويردَّهُ إلى الدّارِ إلا بمائتي دينارٍ، كما أوصى أميرُ المؤمنينَ .

وَلَمّا حُمِلَ الشَّافِعِي رَحمهُ اللهُ مِنَ اليمن إلى الرشيد، حينَ وُشِيَ بِهِ إليهِ فجرَى لَهُ مَعَهُ كلامٌ كثيرٌ إلى أنْ قالَ لَهُ الرشيدُ، هَلْ مِنْ موعِظَةٍ تَعِظُ بها أميرَ المؤمنينَ . قالَ :نَعَمْ على تركِ الحشمَةِ وَرَفعِ الهيبَةِ، وقبولِ النُّصحِ والقاءِ رداءِ الكِبْرِ عن منكبِكَ .قالَ الرشيدُ :لَكَ ذلك، فَجَثى الشافعي على ركبتيهِ .وقالَ :يا ذا الرَّجلِ، إنَّه مَنْ أطالَ عِنَانِ الأمرِ في العِزّ، طوى عدارَ الحذرِ بالمهلةِ، وَمَنْ لَمْ يعوّلْ على طريقِ النجاةِ، كانَ بجانِبِ قِلّةِ الاكتِراثِ بالمراجَعَةِ إلى اللهِ مُقيماً .وَمَنْ أرث الظَّنَ، كَانَ مِنْ أمَنةِ المحذورِ، في مِثلِ نسجِ العنكبوتِ، لا تأمنُ على نفسِهَا، وَتَحْجِزُها عن سَعْيِها، فَلَوْ جَرَّعَها مخالفَتها وبادرَ خوفَ المراجعةِ، بالتزوُّدِ إلى دارِ المقامةِ، إنْ لَوْ فعلتَ ذلكَ يا رَجُلُ ما اهتدتْ إليكَ يَدُ النَّدامةِ وَلأبدَرْتكَ غداً في القيامةِ، لكنَّكَ أتيتَ مِنْ حيثُ لا يُؤدِّي إلى فَهمِكَ، مَنْ أذنَ لمجِّ الكلامِ بسمعِكَ فَمِن ثَمَّ أعقَبكَ التَّواني، والاغترارُ بنفسِكَ وَلَوْ كانَ لَكَ أميرٌ مِنْ عقلِكَ ينقد لكَ ما سقَطَ من عيوبِكَ، لشغلَكَ ذلكَ عن النَّظرِ في عيوبِ غَيرِكَ وَلَكنْ ضَرَبَ الهَوى عليكَ رِواقَ الحيْرَةِ فتركَكَ إذا

خرجْت يدْ موعِظتِكَ، لم تكدْ تراها وَمَنْ لَمْ يجعلِ اللهُ لهُ نوراً، فَما لَهُ مِنْ نورٍ .فَبَكى الرشيدُ حتى بَلَّ مِنديلاً كانَ في يدِهِ، ثُمَّ قالَ لَهُ خاصةٌ مَنْ يقومُ على رَأسِهِ :اسكتْ فقدْ أبكيتَ أميرَ المؤمنينَ فالتفتَ إليهمُ الشَّافعيُّ، رَحِمَهُ اللهُ، وقالَ :يا عبيدَ الدَّنيا، الذينَ باعوا أنفسَهُم لمحبوبِ الدُّنيا، أمَا رأيتُم ما استُدرجَ بِهِ مَنْ كانَ قَبْلَكُم مِنَ الأمم بالأمانِي ألَمْ تَروا كيفَ فَضَحَ اللهُ مستورَهُم، وأمطرتْ بواكيرُ الهمومِ عليهم، بَعدَ سُرورِهِمَ فأصبحُوا بَعْدَ خِفضِ عيشِهم، ولينِ رفاهيتِهم، في نسيم روضةِ البطَّالينَ حصائِدَ النَّقَمِ ومدارجَ المثولاتِ .فقالَ لَهُ الرشيدُ :لَقَدْ سللتَ علينا لسانك وهو أمضى من سيفك فقال له الشافعى :إن قبلتَهُ فهو لَكَ، وإلا عليكَ .قالَ :فَهَلْ مِنْ حاجةٍ خاصة بعد العامةِ، قالَ :بعدَ مكنونِ النصيحةِ، وتجريدِ الموعظَةِ تأمرني أن أسود وجه موعظتي بالمسألةِ قالَ :ثُمَّ ماذا قال :النظر في أمورِ الرعيةِ والقِسمَةِ بينَهُم بالسويةِ، قالَ :وَمَنْ يُطيقُ ذلكَ، قالَ :مَنْ تُسمى باسمِكَ، وَتُسبَ إلى موضعِكَ .قال :ثم ماذا قالَ :الحب أحببْ الله،، وجيران قبر رسولِ اللهِ صلى الله عليهِ وعلى آلهِ، أما واللهِ لَو أردتَ عِمارَةَ قَبْرِ رَسولِ اللهِ صلىَ الله عليه وعلى آلهِ وسلم للزمك في ذلك مؤنةٌ . قالَ :فأمَرَ الرشيدُ بمال للمهاجرينَ والأنصار والعلويةِ، وأمرَ للشافعي، رحمه الله، بخمسينَ ألفِ دينارٍ، وحمله على فَرَس.

وكانَ الرشيدُ يُصَلي في كُلِ يَوم مِئَة ركعةٍ، إلى أنْ تُوفيَ ويتصدقُ في كُل يَوم بمائةِ ألف درهم، فإذا حَج حَج مَعَهُ مائة مِنَ الفقهاءِ كل فقيهٍ منهُم بزادِهِ وَراحِلَتِهِ . وُجِدَ ذلكَ في كِتابِ تفاوت التواريخ واللهُ أعلمُ.

قالَ الأصمعي :()قصدتُ في بعض الأيامِ، رجلا كنت أغشاهُ لكرمه، فوجدتُ على بابِهِ بوّاباً، فمَنعنِي مِنَ الدخولِ عَلَيه .فقالَ البوّابُ :واللهِ ما أوقفَنِي على بابِهِ، لأمنعَ مِثلَكَ الدخولَ عليهِ، لرقة حاله وقصور يده، فكتبت رقعة أقول فيها:

فما فضلُ الكريم على اللَّئيم إذا كانَ الكريمُ لَهُ حِجابٌ

ثم قلتُ أوْصِلْ رقعتي هذِهِ إليهِ ففعلَ .فعادتْ الرقعة، وقد كتب على ظهرِها:

تَسَتَّرَ بالحجابِ عَنِ الغريم إذا كان الكريمُ قليلَ مالِ

ومع الرقعةِ صُرة فيها خمسمائةِ دينارٍ وَعذْرٌ .فقلتُ :واللهِ لا تحِفن أميرَ المؤمنينَ بِهذا الحديثِ، فجئتُ إلى الرشيدِ فَلَمّا رآني قالَ :مِنْ أين يا عبد الملك قلت : من عند رجل، أكرمَ الأحياءَ حاشا أمير المؤمنين، قال :ومن هو قلتُ :رَجُلٌ قَراني علِمَهُ مالَهُ، ثم دفعت إليهِ الرقعة والصرة .قالَ هذا ختم بيتِ مالِي فلا بد لِي من الرجل، الذي دفعها إليكَ .قلتُ :يا أميرَ المؤمنينَ واللهِ إني لأستحي أنْ أروعَهُ

برسلك، فقالَ لِبعض خاصته امض معَ الأصمعيِّ، فإذا أراكَ الرجلَ فقل له :أجبْ أميرَ المؤمنينَ مِنْ غيرِ ازعاج .قالَ فلما حضر الرجلُ بين يدي الرشيدِ، قالَ له :أما أنتْ بالأمس، وقفتَ بموكبنا وشكوت رقة حالك وأن الزمان أناخَ عليكَ بكلكله، فدفعنا إليك هذه الصرةَ لتصلح بها حالَكَ فقصدَكَ الأصمعي ببيت واحد فدفعتها إليهِ، قال :والله ما كذبتُ فيما شكوتُ يا أميرَ المؤمنينَ مِن رقةِ الحالِ وصعوبةِ الزمانِ وَلكني استحيت مِنْ اللهِ تعالى أنْ أعيدَ قاصِدي، إلا كما أعادَني أميرُ المؤمنينَ .فقال: لله درُّك فما ولدت العربُ أكرمَ مِنْكَ، ثُمّ أمَر له بألفِ دينارٍ، فقلت :ألحقني به يا أمير المؤمنين فتبسم وأمر أن تكمل لي ألف دينار، وعاد الرجل من جملة ندمائه.

وقيل لما حج الرشيد، ورجع قافلاً دعا صالحًا، حين تنكر للبرامكة، فقال : أخرج إلى منصور بن زياد ()، فقل له :قد صحت عليك عشرة آلاف ألف درهم، فاحملها إلي من يومك، فإن هو دفعها إليك كاملة قبل مغيب الشمس من يومك هذا، وإلا فاحمل إلي رأسه، وإياك ومراجعتي في شيء مِنْ أمره .قال صالح :فخرجت إلى منصور فعرفته الخبر، فقال :إنا لله وإنا إليه راجعون ذهبت والله نفسي ثم حلف أنه لا يعرف موضع ثلاثمائة ألف درهم، فكيف عشرة آلاف ألف درهم، فقال له صالح خذ في عملك .()قلت له :امض إلى منـزلي حتى أوصي وأتقدم في أمري فما هو إلا أن دخل حتى ارتفع الصراخ من منازله، وحجر نسائه، فأوصى وخرج وما فيه لحم ولا دم .فقال :امض بنا إلى أبي علي، يعني يحيى بن خالد، فلعل الله أن يأتينا بفرج من جهته، فمضيت معه فدخل على يحيى بن خالد، فقال له يحيى :ما وراءك فقص عليه القصة فقلق يحيى لأمره وأطرق مفكرا ودعا جارية وقال لها : كم عندك من المال قالت :خمسة آلاف ألف درهم قال :هاتيها فأحضرتها ثم وجه إلى ولدها الفضل ()إنك كنت أعلمتني، فداك أبوك أن عندك ألفي ألف درهم وددت أنك تشتري بها ضيعة، وقد وجدت لك ضيعة يبقى ذكرها وشكرها وتحمد ثمرتها فوجه إلي بالمال، وقال للرسول امض إلى جعفر فقل له :ابعث لي، فداك أبوك، بألف ألف درهم، لحق لزمني فوجها إليه فقال :هذه ثمانية آلاف ألف درهم، ثم أطرق طويلا، لأنه لم يكن بقي معه من المال شيء ثم رفع رأسه إلى خادم له، فقال :امض إلى دنانير ()فقل لها :وجهي إليَّ بالعقد الذي كان أمير المؤمنين، وهبه لك فجابه فإذا هو عقد كعظم الذراع، فقال لصالح :اشتريت هذا بمائة ألف وعشرين ألف دينار، فوهبه أمير المؤمنين، لدنانير وقد حسبناه بألفي ألف درهم وهذا تمام المال، فانصرف وخل صاحبنا، لا سبيل لك عليه .قال صالح :فأخذت ذلك ورددت

منصورا معي، فلما صرنا بالباب أنشد متمثلا:

ولكن خفتما صرد النبال فما بقيا علي تركتماني

قال صالح فقلت ما على وجه الأرض، رجل أنبل من رجل خرجنا من عنده ولا سمعت بمثله، فيما مضى ولا يكون فيمن بقي، ولا على وجه الأرض، رجل أخبث سريرة، ولا أردأ طبعا، من هذا النبطي، إذا لم يشكر من أحياه .قال :ثم صرت إلى الرشيد، فقصصت عليه قصة المال، وطويت عنه ما قال منصور، لأني خفت إن سمعه أمر بضرب عنقه .قال الرشيد :أما إني قد علمت، من نجا لم ينج إلا بأهل هذا البيت .وقال :اقبض المال، واردد العقد على دنانير لأني لم أكن لأهب هبة، فترجع إلي .قال صالح :فلم أطب نفساً، بترك تعريف يحيى ما قال منصور، فقلت له بعد أن أطنب في شكره، ووصف ما كان منه لقد أنعمت على غير شاكر، قابل أكرم فعل بالأم قول .وكيف ذلك فأخبرته بما قال، فجعل والله يطلب له المعاذير .وقال :يا أبا علي إن المخوف القلب ربما سبق إلى لسانه ما ليس في ضميره، وقد كان الرجل في حال عظيمة .فقلت والله ما أدري أي أمريك أعجب، أمن أوله أم من آخره، لكني أعلم أن الدهر لا يخلف مثلك أبدا.

قال يحيى بن خالد :من أحسنت إليه، فأنا مرتهن به، ومن لم أحسن إليه فأنا مخير فيه .وقال :في ذكر النعمة من المنعم تكدير، ونسيان المنعم عليه كفر .وقال : يدل على كرم الرجل، سوء أدب غلمانه .وقيل له :لم لا تقول الشعر فقال :شيطانه أخبث من أن أسلطه على عقلي .وقال :إذا أدبر الأمر كان العطب في الحيلة.

وقيل :ركب محمد بن إبراهيم دين فركب إلى الفضل بن يحيى، ومعه حُق فيه جواهر، فقال له :قصرت بنا غلاتنا وأغفل أمرنا خليفتنا وتزايدت مؤنتنا فلزمنا دين احتجنا إلى أدائه وهو ألف ألف درهم وكرهت بذل وجهي للتجار، وأذالة عرضي منهم .ومعي رهن وثيق بذلك، فإن رأيت أن نأمر بعض غلمانك بقبضه، وحمل المال إلينا فعلت، فدعا الفضل بالحق، فرأى ما فيه وختمه بختم محمد بن إبراهيم، ثم قال له :نجح الحاجة، أن

تقيم اليوم عندي في منـزلي، فقال له :إن المقام على مشقة فقال :له ما يشق عليك من ذلك إن رأيت أن تلبس بعض ثيابنا، دعوت به وإلا أمرت بإحضار ثياب من دارك .فأقام ونهض الفضل فدعا بوكيله، وأمره بحمل المال وتسليم الحق الذي فيه الجوهر إلى وكيل محمد بن إبراهيم وأخذ خطه بذلك .ففعل الوكيل ذلك، وأقام محمد عنده إلى الليل، وليس عنده خبر بشيء من الأمر ثم انصرف إلى منـزله فأحضر

الوكيل المال والحق فغدا على الفضل ليشكر له فوجده قد سبقه بالركوب إلى دار الرشيد فوقف منتظرا له، فقيل له :قد خرج من الباب الآخر، فاتبعه فوجده سبقه إلى دار ابنه فوقف ينتظره فقيل له :قد خرج من الباب الآخر، قاصدًا إلى منـزله، فانصرف عنه فلما عاد إلى منـزله وجه الفضل إليه بألف ألف أخرى فغدا عليه فشكره وأطال، فأعلمه الفضل أنه بات بليلة طالت غما بما شكاه إلى أن لقي الرشيد، فأعلمه بحاله وأمره بالتقدير له، فلم يزل يماكسه إلى أن تقرر الأمر معه على ألف ألف درهم، فقال :إنه لم يصلك بمثلها قط ولا زادك على عشرين ألف دينار فشكرته، وسألته أن يصك بها صكا بخطه ويجعلني الرسول ففعل فشكره محمد . وقال صدق أمير المؤمنين أنه لم يصلني بأكثر من عشرين ألف دينار، وهذا إنما تهيأ بك وعلى يديك، وما أقدر على القيام بحقك ولا على شكر أجازي به معروفك غير أن عليَّ وَعَليَّ أيمانا مؤكدة إن وقفت بباب أحد سواك ولا سألت غيرك حاجة أبدا، ولو سففت التراب .فكان لا يركب إلى غير الفضل، إلى أن كان من أمرهم ما حدث، فكان لا يركب إلى غير دار الرشيد ويعود إلى منـزله فعوتب بعد تقضي أمرهم، في ترك الركوب إلى الفضل بن الربيع، فقال :والله لو عمرت ألف عام ومصصت الثماد، ما وقفت بباب أحد، بعد الفضل بن يحيى، ولا سألته حاجة أبدا حتى ألقى الله تعالى، فلم يزل ذلك حاله حتى مات.

وقيل :دخل مسلم بن الوليد ()على الفضل بن يحيى، وقد كان ورد عليه خبر سره، فجلس للشعراء فمدحوه وأثابهم، ونظر في حوائج الناس فقضاها، وتفرق الناس عنه، وخلا في منـزله، ولم يحضر مسلم ذلك، وإنما بلغه حين انقضى المجلس، فدخل عليه فاستأذنه في الإنشاد فأذن له فأنشده قوله:

عَلَيْهَا فَتًى كالنَّصْلِ يُوْنِسُهُ النَّصلُ ... أَتَتْكَ المطايَا تهتدي بمَطِيَّةٍ

فحظُّ الثناءِ الجزلِ نائلُهُ الجزلَ ... وردتُ رواق الفضل آملُ فضلهُ

إذا كَانَ مَرْعَاهَا الأمانيُّ والمطلُ ... فَتًى تَرْتَعِي الآمالُ مُزْنَةَ جُودَهَ

الردى وعيونُ القوْلِ مَنْطِقُهُ الفصل ... تُساقِطُ يُمْنَاهُ الندى وَشِمالُهُ

على مَنْهَجِ ألفى أباهُ بهِ قبْلَ ... ألَحَّ عَلَى الأيَّامِ يَقْري خُطُوبَها

فَلَيْسَ لَهُ مِثْلُ وَلا لَهُما مِثْلُ ... أنَافَ على العَلياءِ يَحْيَى وخالد

وأصلاً فطابت حيث وجهها الأصل ... فروع أصابت مغرساً متمكناً

وَتُسْتَنزلُ النّعْمى ويُسْتَرْعَفُ النَّصْلُ ... بَكفِّ أبي العباس يُسْتَمْطرُ الغِنَى

فطرب الفضلُ طربا شديدا، وأمر بأن تعد الأبيات، فعدت فكان مبلغها ثمانين

بيتا .فأمر له بثمانين ألف درهم وقال :لو لا أنه أكثر ما وصل به شاعر لزدتك ولكنه شيء لا يمكن تجاوزه يعني أن الرشيد رسمه لمروان بن أبي حفصة.()

وروى أن مروان بن أبي حفصة دخل على الرشيد فأنشده مدحا فيه، فقال :من أنت قال :شاعرك مروان بن أبي حفصة فقال :ألست القائل:

مقاما لا نُريدُ به زوالا أقمنا بالمدينة بعد مَعْن

وقدْ ذَهَبَ النَّوالُ فلاَ نَوالاَ وَقُلْنا أيْنَ نذهب بعد معنٍ

إلَـى أنْ زَارَ تربَتَـه عِيـالاَ وَكَانَ النَّـاسُ كُلُّهُمُ لِمَعْنٍ

فقد ذهب النوال كما زعمتم .فلم جئت تطلب نوالنا .لا شيء لك عندنا جروا برجله، فجروا برجله حتى أخرج فمكث سنة ثم دخل عليه في جملة من الشعراء فأنشده قوله:

بَيْضَاءُ تَخْلِطُ بالحَياءِ دَلالَها طرَقَتْكَ زائرةً فَحَيَّي خَيَالَهَا

بـأكُفِّكُمْ أو تَسْتُرُونَ هِلاَلَها هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومُها

حتى بلغ قوله:

جبريلُ بَلَّغَها النَّبيَّ فقالَهَا أوْ تَجْحَدُونَ مَقالَةً مِنْ رَبِّكُمْ

ٍ بتُراثِهِمْ سفأرَدْتُمُ إبطالَـها شَهِدَتْ منَ الأنْفالَ آخِرُ آية

فزحف الرشيد حتى صار على البساط .وقال :كم هي قالوا هي مائة بيت فأمر له بمائة ألف درهم.

وقيل :دخل يزيد بن مزيد ()على الرشيد فقال له :من الذي يقول فيك:

ولا يُمَسِّحُ عينيه من الكحل لا يَعْبَقُ الطِّيبُ خديه ومفرقه

فهن يَتْبَعْنَـهُ في كل مُرْتَحَل قد عود الطير عادات وثقن بها

فقلت له :لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين، فقال له :أيقال فيك مثل هذا الشعر، ولا تعرف قائله؟ فخرج من عنده خجلا، فلما صار إلى منـزله دعا حاجبه، وقال : من بالباب من الشعراء؟ قال :مسلم بن الوليد .قال :فكيف حجبته عني، فلم تعلمني به، قال :أخبرته أنك مضيق، وأنه ليس في يدك مال تعطيه، وسألته الإمساك والمقام أياما، إلى أن يتسع عليك الحال، فقال :أدخله إليَّ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

كَأَنَّهُ أجَلٌ يَسْعَى إلى أمَلَ مُوفٍ على مُهَجٍ في يوم ذِي رَهَجٍ

لا يَأمنُ الدَّهْرَ أنْ يُدْعَى على عَجَل تَراهُ في الأمْنِ في دِرْعٍ مُضاعَفَةٍ

وَلا يُمَسِّحُ عَيْنَيْهِ مِنَ الكُحُل لا يَعْبَقُ الطِّيبُ خَدَّيْهِ وَمَفْرِقَهُ
فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ في كُلِّ مُرْتَحَل قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بها
وَأَنْتَ وَابْنُكَ رُكْنَا ذَلِكَ الجَبَلُ لله مِنْ هاشِمٍ في أَرْضِهِ جَبَلٌ

فقال له :قد أمرت لك بخمسين ألف درهم فاقبضها وأعذر، فخرج الحاجب فقال :قد أمرني أن أرهن ضيعة من ضياعه بمائة ألف درهم، خمسون ألفا منها لك، وخمسون ألفا لنفقته، فأعطاه إياها .فكتب صاحب الخبر بذلك إلى الرشيد فأمر له بمائتي ألف درهم وقال :اقبض الخمسين ألف درهم، التي أخذها الشاعر وزده مثلها، وخذ مائة ألف لنفقتك، فافتك ضيعته وأعطى مسلما خمسين ألفا أخرى.

وروى عن مسلم بن الوليد أنه قال :جاءني رسول يزيد بن مزيد فجئته فوجدته خارجا من الحمام، وهو على كرسي وعلى رأسه وصيفة بيدها غلاف مرآة، والمرآة بيده وهو يسرح لحيته فقال لي :أنشدني فأنشدته حتى بلغت قولي:

ولا يمسحُ عينيه مِنَ الكُحْلِ لا يعبقُ الطيبُ خَدَيه ومفرقه

فوضع المرآة من يده وقال للجارية :انصرفي فقد حرم علينا مسلم الطيب والكحل .فلما فرغت من القصيدة، قال لي :يا مسلم أتدري ما الذي حداني على أني وجهت، إليك قلت :لا والله ما أدري، فقال :كنت عند أمير المؤمنين فقال لي :يا يزيد من الذي يقول فيك :

يَمْضِي فيقتطعُ الأجْسَادَ وَإلهامَا سَلَ الخليفةُ سَيْفاً مِنْ بَنِى مَطَرٍ
قَدْ أَوْسَعَ النَّاسَ إنْعَاماً وإرْغاما كالدَّهْرِ لا يَنْثَنِي عمّا يَهُمُّ بِهِ

فقلت والله ما أدري، فقال الرشيد :يا سبحان الله إنك مقيم على أعرابيتك أيقال فيك مثل هذا الشعر، ولا تدري من قائله .فسألت عن قائله فأخبرت أنك هو، فقم حتى أدخلك على أمير المؤمنين، ثم قام فدخل على الرشيد، فما علمت حتى خرج الآذن علي، فدخلت على الرشيد فأنشدته ما لي فيه من الشعر، فأمر لي بمائتي ألف درهم، فلما انصرفت أمر لي يزيد بمائة ألف وتسعين ألف درهم أخرى وقال :لا يجوز أن أعطيك مثل ما أعطاك أمير المؤمنين، وأقطعني إقطاعات تبلغ غلتها مائتي ألف درهم.

وروي عن إسحاق بن إبراهيم، قال :كنت عند المأمون ()بدمشق، وقد كان المال عنده قليلا، حتى ضاق وشكا ذلك إلى أخيه أبي إسحاق ()، فقال :يا أمير المؤمنين قد أمرت بمال يحمل إليك، وهو موافيك بعد جمعة، فلما ورد المال من

النواحي التي كان يتولاها، وكان ثلاثون ألف ألف، قال المأمون ليحيى بن أكثم :() اخرج بنا ننظر إلى هذا المال، قال يحيى :فخرجنا حتى أصحرنا ووقفنا ننتظره . وقد كان هئ بأحسن هيئة، وحليت أبا عره، وألبست الأحلاس الموشاة والجلال المصبوغة، وقلدت العهن .()فنظر المأمون إلى شيء استحسنه وعظم ليحيى في عينه، واستشرف الناس ينظرون إليه، ويتعجبون منه ويستظرفونه فقال المأمون ليحيى يا أبا محمد :ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين نراهم إلى منازلهم خائبين، وننصرف نحن بهذا المال، دونهم، إنا إذا للئام، ثم دعا إلى محمد بن يزداد وقال : وقع لفلان بكذا، ولفلان بكذا، فوالله ما زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف، ثم أمر أن يصرف الباقي في عطاء الجند.

وقيل :كان بالبصرة شاعر من بني تميم، فأراد جعفر بن سليمان أن يتقدم إلى المأمون، مادحا له ومعرضا بشكر الوالي .فأعطاة بختيا ()ونفقة، قال فركبت بختي ومضيت أروم العسكر، قاصدًا إليه، فإذا بكهل على بغل هملاج()، قد تلقاني مواجهة، وأنا أردد نشيد أرجوزتي فقال :السلام عليك يا هذا بصوت جهوري ولسان فصيح، فرددت السلام، فقال لي :قف إن شئت فوقفت فتضوعت منه رائحة المسك والعنبر، فقال لي :ممن أنت فقلت :رجل من مضر، قال :ثم مِنْ مِنْ قلت من بني تميم، ثم من بنى سعد، ثم قال فما أقدمك هذه البلد قلت قصدت هذا الملك الذي ما سمعت بمثله قبله أطول باعا، ولا أندى راحة منه، قال :فما الذي قصدته به قلت : شعر طيب، يلذ على الأفواة، وتقتفيه الرواة ويحلو في آذان السامعين .قال :فأنشدنيه قال :فغضبت وقلت :له يا ركيك العقلى أخبرك أني قصدت الخليفة بمدح حبرته فيه، تقول أنشدنيه، قال :وما الذي تأمل منه قلت ألف دينار إن كان على ما ذكر عنه، قال لي :فأنا أعطيك ألف دينار، إن رأيت الشعر جيدا، والكلام غضا، وأضع عنك العناء والترداد ومتى تصل إلى الخليفة وبينك وبينه عشرة آلاف رامح وسيف فقلت له :بالله عليك أنت تفعل، قال :نعم قلت :ومعك الساعة ما تعطيني قال :لك الله على أن أعطيك الساعة ألف دينار فأنشدته أرجوزةً فيها:

وَصَاحِبَ الْمَرْتَبَةِ الْمُنِيفَةْ	مَأْمُونُ يَا ذَا الْمِنَنِ الشَّرِيفَةْ
هَلْ لَكَ فِي أُرْجُوزَةٍ ظَرِيفَةْ	وَقَائِدَ الْكَتِيبَةِ الْكَثِيفَةْ
لاَ والَّذِي أَنْتَ لَهُ خَلِيفَةْ	أَطْرَفَ مِنْ فِقْهِ أَبِي جَنِيفَةْ
أَمِيرُنَا مُؤْنَتُهُ خَفِيفَةْ	ما ظُلِمَتْ فِي أَرْضِنَا ضَعِيفَةْ
واللصُّ والتاجِرُ فـي قَطِيفَةْ	والذئبُ والنعجةُ في سَقِيفَةْ

قال :فوالله ما أتممت إنشادها، حتى أقبل عشرة آلاف فارس، قد سدوا الأفق وهم يقولون السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، قال :فأخذني والله الأفكل .يعني الرعدة ونظر إلي بتلك الحال، فقال لا بأس عليك ثُمَّ التفتُ إلى خادم نظيف الوجه والملبس كان قريبا منه فقال :أعطه ما معك فأخرج الخادم كيسا وجدت فيه ثلاثة آلاف دينار، فقال لي :هاك أيها الرجل ثم قال :سلام عليك ومضى فكان آخر العهد به، فسألت عنه بعد ذلك فقيل "لي المأمون أمير المؤمنين لم يرد أن يعرفك بنفسه"، لكرم طباعه وخلائقه .وقيل إن المأمون كان في مجلسٍ له بدمشق فغناه علوية :()

أتاكَ بهِ الواشونَ حَقًّا كَما قالوا برئتُ مِن الإسلام إنْ كانَ ذا الذي

تواصوا بالنميمةِ واحتالوا ولكنهم لما رَأوكَ سريعةِ لهجري

فقال :يا علوية لمن هذا الشعر قال :لقاضي دمشق .فقال لأخيه :يا أبا اسحاق أحضره، فلم يكن بأسرع من أن حضر شيخ قصير مخضوب، فقال له المأمون :من تكون قال أنا فلان بن فلان، قال :أنت الذي تقول الشعر قال :نعم يا أمير المؤمنين، ونساؤه طوالق وكل شيء يملك في سبيل الله، إن كان قال شعرا منذ ثلاثين سنة إلا في زهد ومعاتبة صديق .فقال لأخيه :أعزله، ما كنت لأولى رقاب المسلمين، من يبدأ في هزله بالبراءة من الإسلام .ثم قال لعلوية :لا تقل برئت من الإسلام ولكن قل حرمت مناي منك .وقال عمارة بن عقيل ()أنشدت المأمون قصيدة، فكنت أبتدئ بصدر البيت، وهو يبادرني إلى عجزه .فقلت :والله يا أمير المؤمنين، ما سمعها مني أحد قبلك، فقال :هكذا ينبغي أن يكون ثم أقبل عليَّ وقال :أما بلغك أن عمر بن أبي ربيعة ()، أنشد عبد الله بن عباس قصيدته التي يقول فيها:

..... تَشُطُّ غَدًا دَارُ جيرانِنا

فقال ابن عباس:

وللدَّارُ بَعْدَ غَـدٍ أبْعَدُ .....

حتَّى أكمل القصيد، كلما أنشد صدر البيت أكمله ابن عباس، ثم قال :أنا ابن ذلك .وقال ابن المبرد :()قال لي عمارة قال لي عبد الله بن أبي السَمَطِ يا عمارة أما علمت أن المأمون لا يبصر الشعر، فقلت له :ومن أفرس منه فيه، أنا أنشدته البيت، فيسبقنا إلى عجزه، من غير أن يكون سمعه .قال :إني أنشدته بيتا أجدت فيه، فلم يحركه قلت وما هو قال:

بالدّين والنَّاسُ بالدُّنيا قد اشتغلوا أضْحَى إمَامُ الْهَدَى المأمُون مُشْتَغِلا

فقلتُ :ما صنعت شيئا، ما زدت على أن جعلته عجوزا في محرابها مسبحتُها في يدها، فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولا عنها، هلا قُلْتَ كما قال جرير ()في عمر بن عبد العزيز :()

ولا عَرَضُ الدُّنْيا عن الدّين شاغِلُهُ فلا هُوَ في الدُّنْيَا مُضيعٌ نَصِيبَهُ

وجاءت امرأة إلى المأمون فقالت:

ويا إماماً به قد أشْرَقَ البَلَدُ عَدَا عليها فلم يَتْرُكْ لها لُبَدُ ظلما وفرق منها الأهلُ والولدُ

يا خيرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى به الرَّشَدُ تشكُو إليك عَمِيدَ الخلق أرملةٌ وابتز منها ضِياعاً مَنْعَتِها

فأجابها وقال:

عَني وأقْرَح مِنّيّ القلبُ والكبدُ واحْضِري الخَصْمَ في اليوم الذي أعِدُ انصفك منه وإلا المجلس الأحَدُ

في دون ما قُلْتِ زَالَ الصَّبرُ والْجَلَدُ هذا أوان صلاة العصر فانْصرفي والمجلسُ السبتُ أن يقضي الجلوسُ لنا

فلما كَانَ يومُ الأحدِ جَلَسَ فجاءته، فقالت :السَّلامُ عَليكَ يا أميرَ المؤمنينَ، فردَّ وقالَ :أينَ خَصْمُكِ، قالت :واقفٌ على رَأسِكَ، وأومأت إلى العبَّاس ()ابنه فقال لأحمد بن أبي خالد :خذ بيده وأجلسه معها، ففعل فجعل كلامها يعلو كلامه، فقال لها أحمد بن أبي خالد :يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وتكلمين الأمير فاخفضي من صوتك .فقال المأمون :دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها، والباطل أخرسه، ثم قضى على ابنه.

ومن شعر المأمون:

وَأغْفَلْتَنِي حتَّى أسَأتُ بكَ الظَّنَّا فيا لَيْتَ شِعْرِي عن دُنُوك ما أغْنَا لقد سرقت عيناك من عينها حُسْنا ()

بَعَثْتكَ مُرْتَاداً فَفُزْتَ بنَظْرةٍ فَنَاجَيْتَ مَنْ أهْوَى وَكُنْتُ مُبَاعَداً أرَى أثراً منها بعَيْنَيْكَ لم يكـن

وله أيضاً :()

عَيْنُ رَسُولي وَفُزْتُ بالْخَبَرِ رَدَّدت عَمْداً في طرْفِهِ نَظَري قدْ أثَّرَتْ فِيهِ أحْسَنَ الأثَرِ فانظرْ بهَا واحتفظ على بَصَري

إنْ تَشْقَ عَيْني بهَا فقدْ سَعُدَتْ وَكُلَّما جَاءَني الرَّسُولُ بها يَظْهَرُ في وَجْهِهِ مَحَاسِنُها خُذْ مُقْلَتي يا غُلام عارية

واعتل الفضل بن سهل فتأخر في بيته، فوردت عليه رقعة من المأمون بخطه

يسأله عن حاله وفي آخرها:

وبالخير رَبُّنا مَسَّاكَا كَيفَ أصبحتَ بالسلامةِ يا فضلُ
وعافاكَ عاجلاً وشافكَا لا أراني الإله فقدَك يا فضلُ
وَقلبي لو يستطيعُ أتاكَا قد أردتُ المجيء إذْ غلبَ الشوق
لستُ أستطيعُ أنْ أراكَ كَذاكا فتذكرتُ عندَ ذاك بأني
كيفَ أنتَ الغداةَ مِن شكواكا فأينَ يا وقتُ فيك حَـذاري

باب
في خطبهِ ومناقِبه

قيلَ خَطَبَ يومَ جمعةٍ فقال :الحمد لله الذي استخلص الحمد لنفسه، واستوجبه على خلقه، أحمده واستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون :أوصيكم عباد الله بتقوى الله، والعمل لما عنده، والانجاز لوعده والخوف من وعيده، فإنه لم يسلم إلا من اتقاه، وخافه ورجاه وعمل له وأرضاه، فاتقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم، وترحلوا سراعا فقد جد بكم الرحيل، واستعدوا للموت فقد أضلكم ما تحذرون، وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثا، ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم والجنة أو النار إلا الموت أن ينـزل به، وأن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة، لجديرة بقصر المدة، وأن غائبًا يحدوه الجديدان لحري بسرعة الأوبة وإن قادمًا يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة، فاتقى عبد ربه، ونصح نفسه، وقدم توبته وغلب شهرته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خاذله، والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها، ويمنيه التوبة ليسوفها، حتى تهجم عليه منيته، أغفل ما يكون عنها، فيالها حسرة على ذي غفلة أو يكون عمره عليه حجة، أو تؤديه أيامه إلى شقوة .نسأل الله أن يجعلنا وإياكم، ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعته غفلة، ولا تحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء، وبيده الخير وهو فعال لما يريد.

وخطب يوم أضحى فقال بعد التكبيرات الأولى والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم والوصية بتقوى الله عز وجل:

إن يومكم هذا، يوم أبان الله عز وجل فضله، وأوجب تشريفه، وعظم حرمته ووفق له من خلقه صفوته وابتلى فيه خليله وفدى فيه من الذبح نبيه وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر، ومقدم الأيام المعدودات من النفر، يوم حرام من أيام عظام، في شهر حرام، يوم الحج الأكبر، ويوم دعا الله عز وجل إلى مشهده، ونـزل القرآن بتعظيمه .قال عز وجل ﴿ :**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** () ﴾فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم، وعظموا شعائر الله واجعلوها من أطيب أموالكم، وبصحة التقوى من قلوبكم، فإنه يقول عز وجل :

﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾الآية ثم قال بعد التحميد والتكبير وذكر الجنة والنار الله الله فوالله إنه الجد لا اللعب، وإنه الحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والميزان، والحساب والقصاص والصراط، ثم الثواب والعقاب .من نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى يومئذ فقد خاب، الخير كله في الجنة والشر كله في النار.

وخطب يوم الفطر فقال بعد التكبير :ألا وأن يومكم هذا يوم عيد وسنة، وابتهال ورغبة، يوم ختم الله فيه صيام شهر رمضان، وافتتح به حج بيته الحرام فجعله خاتما للشهر، وأول شهور الحج، وجعله معقب المفروض من صيامكم، ومتنفل قيامكم، أحل فيه الطعام لكم، وحرم فيه الصيام عليكم .فاطلبوا إلى الله عز وجل حوائجكم، واستغفروه لتفريطكم، فإنه يقال :لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار .فاتقوا الله عباد الله، وبادروا الأمر الذي فيه عدل بينكم ولم يحتضر الشك فيه أحد منكم، وهو الموت المكتوب عليكم، وإنه لا يقال بعده عثرة ولا تقبل عنده توبة .واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه، ولا شيء بعده إلا فوقه على غصصه وعلزه وكربه، ولا يعين على القبر وظلمته، ووحشته وضيقه وهول مطلعه، ومساءلة ملائكته إلا العمل الصالح، الذي أمر الله عز وجل به فمن زلت عند الموت قدمه، فقد ظهرت ندامته وفاتت استقالته ودعا من الرجعة بما لا يجاب إليه، وبذل من الفدية ما لا يقبل منه .فالله الله عباد الله وكونوا قوما سألوا الرجعة، فأعطوها إذ منعها الذين طلبوها فإنه ليس يتمنى المتمنون قبلكم إلا هذا المهل المبسوط لكم، واحذروا ما حذركم الله عز وجل، واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم، فلينظر عبد ما يضع في ميزانه مما يثقل به وما يمل في صحيفته الحافظة له وعليه فقد حكى الله عز وجل لكم ما قال المفرطون عندها إذ طال إعراضكم عنها وهو قوله عز وعلا ﴿ :وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾الآية .وقال تعالى ﴿ :وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾الآية.

ولست أنهاكم من الدنيا، بأعظم مما نهتكم به الدنيا عن نفسها، فإنه كل مالها ينهى عنها، وكل ما فيها يدعو إلى غيرها، وأعظم مما رأته عيونكم من عجائبها ذم كتاب الله عز وجل لها، ونهي الله جل ثناؤه عنها، فإنه يقول تبارك وتعالى ﴿ :فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ ﴾، وقال ﴿ :إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ الآية، فانتفعوا بمعرفتكم، وبإخبار الله عز وجل عنها .واعلموا أن قوما من ..

عباد الله أدركتهم عصمة الله، فحذروا مصرعها وجانبوا خدائعها وآثروا طاعة الله تبارك وتعالى فيها، فأدركوا الجنة بما تركوا منها.

وروي عن واقد ()بن محمد الواقدي عن أبيه أنه رفع رقعة إلى المأمون يذكر فيها دينه، وقلة صبره عليه، فوقع المأمون على ظهر الرقعة، إنك رجل اجتمع فيك خصلتان، سخاء، وحياء، أما السخاء فهو الذي أطلق ما في يدك وأما الحياء فهو الذي يمنعك تبليغنا ما أنت فيه، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم، فإن كنت قد أصبت فازدد في بسط يدك، وإن لم تصب فجنايتك على نفسك وأنت حدثتني وكنت على قضاء الرشيد عن محمد بن إسحاق ()عن الزهري عن أنس ()أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للزبير بن العوام " :()يا زبير أعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش يبعث الله إلى كل عبد بقدر نفقته فمن كثر كثر الله عليه ومن قلل قلل الله عليه ()وأنت أعلم .قال الواقدي :فوالله لمذاكرة المأمون إياي الحديث، أحب إلي من الجائزة.

قال يحيى بن أكثم القاضي :تغدينا في يوم عيد، عند المأمون فظننته أنه وضع على المائدة، أكثر من ثلاثمائة لون، فكلما وضع لون، نظر إليه فيقول هذا نافع لكذا، وضار من كذا، فمن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا، ومن غلب عليه السوداء فلا يأكل من هذا، ومن أحب الزيادة في لحمه، فليأكل من هذا .فوالله ما زال يقول كذلك، في كل لون حتى رفعت المائدة .فقلت :يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب، كنت جالينوس ()في معرفته، وإن تكلمنا في النجوم، كنت هرمسا ()في حسابه، أو في الفقه كنت عليا بن أبي طالب صلوات الله عليه في علمه .فقال :يا أبا محمد أين فضل الإنسان على غيره من الحيوان إنما هو بعقله، ولولا تفاضل العقول لتساوى الناس.

قال يحيى بن أكثم :كان المأمون يجلس للناس، في يوم الثلاثاء للمناظرة فإذا حضر الفقهاء ومن يناظر من أهل المقالات، أدخلوا حجرة مفروشة وقيل انـزعوا أخفافكم، وأحضرت الموائد، وقيل أصيبوا من الطعام، وجددوا الوضوء ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها .فإذا فرغوا أتوا بالمجامر ()وتطيبوا، ثم خرجوا إليه فاستدناهم حتى يقربوا منه، فيناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين، فلا يزال كذلك إلى أن تزول الشمس ثم يقوم إلى الصلاة فبينما هو يوما جالس، إذ دخل عليه علي بن ()صالح حاجبه، فقال :إن في الباب رجلاً، عليه ثياب غلاظ مشمرة، يطلب الدخول للمناظرة .قال :ائذن له فدخل ونعله في يده، فوقف

على طرف البساط، وقال :السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .فقال المأمون :وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، قال :أتأذن في الدنو منك، قال :نعم، فدنا منه، فقال له : اجلس فجلس، فقال :أتأذن في كلامك قال :تكلم، قال :أخبرني عن هذا المجلس، الذي أنت فيه جالس، أجلسته بإجماع المسلمين واختيار لك ورضى بك، أم بالمغالبة لهم، والقوة عليهم بسلطانك .قال المأمون :لم أجلسه بواحد منهما ولكن كان يتولى أمرهم سلطان قبلي احتمله إما على رضى منهم، وإما على كره، فعقد)لي ولاية الأمر بعده (باتفاق من حضر من المسلمين، فأعطوا ذلك إما طائعين، وإما كارهين، فلما صار الأمر إلي، علمت أني محتاج إلى إجماع كافة المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها على الرضى بي، ثم نظرت فرأيت أني متى تخليت عن هذا الأمر اضطرب المسلمون، وغلب على الناس الهرج والفتنة، ووقع التنازع فتعطلت أحكام الله ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم، وانقطعت السبل ولم يحج بيت الله ولم يجاهد في سبيله إذ لم يكن سلطان يجمعهم ويسوسهم، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين، إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضى به، وأسلم الأمر إليه وأكون أنا كرجل من المسلمين.

وأنت أيها الرجل، رسولي إلى جميع المسلمين بهذا .فقام وقال :السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .قال :فأمر المأمون علي بن صالح أن يوجه من يتبعه حتى يعلم أين يقصد، ففعل ثم رجع، فقال :مضى إلى مسجد فيه جماعة على هيئته وزيه، فقالوا :لقيت الرجل، قال :نعم، وقص عليهم القصة، فقالوا :ما نرى بهذا بأسا وافترقوا .فأقبل المأمون على يحيى بن أكثم وقال :يا أبا محمد قد كفينا مؤنة هؤلاء بأيسر خطب .قال ابن أكثم :ما رأيت ولا سمعت بأكرم من المأمون، وأخذ في الحديث عنه، قال :بت عنده ليلة فانتبه بالليل فظنني نائما، فجعلت أراعيه وقد عطش فلم يدع بالغلام، لئلا ينبهني، فقام متسللا حافيا، يقارب الخطو، حتى أتى البرادة فتناول كوزا منها فشرب، ثم رجع يخفي وطئه كأنه لِصٌّ حتى اضطجع في مضجعه، وأخذه سعال فرأيته يجعل كمه في فيه، لئلا أسمع سعاله فأنتبه، وطلع الفجر وأراد القيام وقد تناومت إلى أن كادت الصلاة تفوت، فتحركت، فقال :الله أكبر، يا غلام هات نعل أبي محمد، فقلت :يا أمير المؤمنين إن بعيني جميع ما كان الليلة من صنعك ولذلك جعلكم الله لنا موالي وجعلنا لكم عبيدا .قال :ولقد سايرته يوما إلى البستان، فحاذيته من جهة الشمس لأستره منها، فلما عاد في طريقه دار في الموضع الذي كنت فيه، وقال :من حق المسايرة، أن آخذ بنصيب من الشمس،

كما أخذت أنت منها، فقلت :والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك هول المطلع لفعلت، فقال :لا بد، فسترني من الشمس حتى عدنا.

قال :وكان ابن أبي خالد يعرض الكتب بين يديه يوما فجاءته عطسة شديدة، فأدخل وجهه في كمه وكتمها، فكادت تأتي على نفسه وفطن المأمون له، فقال :يا أحمد بئس ما صنعت بنفسك، إنا لا نحمد أحدا على هذه الخطة، فقال :يا أمير المؤمنين ما سمعت لأحد من الملوك بمثلها، فقال المأمون :بلى، أراد الأبرش ()أن يعمم سليمان بن عبد الملك ()، فقال :إنا لا نتخذ الإخوان خولا .قال يحيى بن أكثم : وتوضأت يوما عنده، فلما أتيت بالوضوء إذا بالإبريق له أنبوب طويل، نحو من أربع أذرع، فجعلت أتعجب منه وأدير فيه الفكر وأحد النظر، فقال لي المأمون عند ذلك :يا أبا محمد كأنك تعجب من طوله، قلت :نعم يا أمير المؤمنين، فقال :إن هذا الغلام قد اعتاد أن يوضئني، وله صحبة قديمة، وهو يأكل البصل كثيرا، فنهيته عنه غير مرة، فلم ينته، فأمرت بعمل هذا لئلا أقطعه من شهوته وأتباعد عن رائحته .

وروي أن دعبلا ()هجاه فقال:

أوَ مَا رَأى بالأمْسِ رَأسَ مُحَمَّدٍ وَيَسُومُنِي المأمُونُ خطَّةَ عَارفٍ

يُوفِي الجِبَالُ على رؤُوس القِرْدَدِ يُوفِى كلى رؤوس الخلائق مثلما

قتلوا أخاك وشرفوك بمقعد إني من القوم الذين هم هم

واسْتَنقَذُوكَ من الحضيض الأوهَد () شادُوا بذكرك بَعدَ طول خُمولِه

فبلغه ذلك فقال :قبحه الله ما أبهته، متى كنت خاملا ومن حجر بالخلافة درجت وبدرها غذيت .وظفر به بعد ذلك فعفا عنه.

ولما حبس يحيى بن أبي خالد كتبت إليه أم ولد له :إن جميع أمهات أولادك، قد نالوا فضل أيامك سواي، فوقع لها :قد أعددت لك الفضل بن سهل، فلما ورد الفضل بن سهل، وبلغ ما بلغ، دفعت الجارية توقيع يحيى ين خالد إليه، فلما رآه بكى، وأمر لها بعشرة آلاف دينار وقال :إذا فني منك فطالعينا .قال أحمد بن أبي خالد :ما رأيت مثل الفضل بن سهل، أصبر على الجلوس، ولا أقوى على كتاب، ولا أنـزه نفسا، ولا أشد ارتفاعا عن الدنيا، ولا أطلب لجميل الذكـر، وحسن الأحدوثة منه، ما جمع مالا قط ولا ادخره، وكـان يلبس من ثياب المأمون، ويركب من دوابـه وما وجد له يوم قتل شيء.

وكان الفضل بن سهل في الحمام، فهجم عليه جماعة من غلمان المأمون ()، فقتلوه فيه فارتفعت الضجة وركب المأمون إلى الحمام حتى وقف على باب الحمام،

فأخرج الفضل فنـزل المأمون فوقع عليه، وقبل وجهه وهو يبكي ومشى المأمون من الحمام إلى الدار، ثم وقف عليه حتى غسل وكفنه بيده وحنطة وركب حتى صلى عليه، وغلبته العبرة حتى ارتفع صوته، فلما انصرف طلب قاتليه فقتلهم، ثم التفت إلى علي بن موسى الرضى ()عليه السلام، فقال :لقد أصبحت والله بعد فقد ذي الرياستين ()، بمنـزلة رجل في فلاة، إن دهمه الليل خاف من السباع، وإن وافاه نهار :خاف العدو وهو ما بين ذلك معدم من الزاد .وجعل يبكي وأخذ بيد علي بن موسى الرضى، ودخل على أم الفضل ()يعزيها فقال :أتجزعين يا أمة وقد خلف لك ذو الرياستين ابنا، فقالت :كيف لا أجزع على من جعلك ابني.

رجعنا إلى الكتاب قال دخل أبو إسحاق المعتصم ()على المأمون فقال له :إن عبد الله بن طاهر ()يميل إلى ولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فدفع المأمون ذلك وأنكره، ثم عاد إليه بمثل ذلك، فدس المأمون إليه رجلا وقال له :امض إلى عمالة عبد الله بن طاهر، إلى مصر على هيئة الناسك، فادع أهلها إلى القاسم ()بن إبراهيم بن طباطبا العلوي واذكر مناقبه وعلمه، ثم إئت عبد الله بن طاهر، فادعه ورغبه وابحث لي عن دفين نيته، بحثا شافيا وجئني بما تسمع منه، فأتى الرجل مصر فدعا جماعة من الرؤساء، وقعد لعبد الله بن طاهر فلما انصرف من مركبه، قام إليه فأخرج رقعة من كمه فدفعها إليه، وأدخله عليه فقال :هات ما عندك قال : بأمان منك قال :نعم، فأظهر له ما أراد ودعاه إلى القاسم بن إبراهيم عليه السلام، وأخبره بفضائله وعلمه وزهادته، فقال عبد الله بن طاهر أتنصفني قال :نعم، قال : هل يجب شكر الله على العباد، قال :نعم، قال :فهل يجب شكر بعضهم بعض على الإحسان؟ قال :نعم، قال :فتجيء إليَّ وأنا في هذه الحال التي تراها، ينفذ خاتمي من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ما ألتفت يميني ولا شمالي، ولا قدامي ولا خلفي، إلا رأيت منة منه ونعمة على ختم بها رقبتي، فتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة، وتقول لي أغدر بمن ولاك هذا كله، واسعى في إزالة ملكه، فسكت الرجل فقال له عبد الله بن طاهر :قد بلغني خبرك، وبالله ما أخاف عليك إلا نفسك، فارحل عن هذه البلد فإن الخليفة إن بلغه أمرك .كنت الجاني على نفسك، فرحل من وقته حتى وافى المأمون، فأخبره بما سمع من عبد الله بن طاهر، فاستبشر به وقال :ذلك غرس يدي ونشو أدبي، فلم يظهر لأحد من ذلك شيء ولا علم به عبد الله إلا بعد موت المأمون.

وقيل اجتاز عبد الله بن طاهر بالرقة بمنـزل العتابي ()فقال أليس هذا منـزل كلثوم، قيل :بلى، فثنى رجله ودخل عليه، فألفاه جالسا في بيت كتبه فحادثه وذاكره

ثم انصرف، وتحدث الناس في ذلك، فقالوا :إن الأمير لم يقصده، وإنما اجتاز به فأخطر بتلك الزيارة فكتب إليه:

بَعْدَ الخمول نَباهةَ الذكْر	**يا مَنْ أفادَتْنِي زيارَتَهُ**
وبحارُ برِّكَ لَيْسَ بالخطر	**قالوا الزيارةُ خَطْرَةٌ عرضت**
تستَنْفِذ المجهودَ مِنْ شُكري	**فادفعْ مقالَتَهُم بثانيةٍ**
إنَّ الثلاثَ تتمـةُ الـوتْـرِ	**لا تجعلَنَّ الـوتْرَ واحـدةً**

فبعثه الأبيات إلى أن زار ثلاثا.

وحدث صالح بن علي وكان من وجوه الكتاب، قال :طالت بي العطلة، وبلغ بي ذلك أعظم الحاجة، فبكرت يوما إلى أحمد بن أبي خالد، الوزير، لأعلمه بجليل أحوالي وأسأله لم شعثي، فخرج من بابه وبين يديه قاصدًا باب المأمون، فلما نظر إلي أنكر بكوري وعبس في وجهي وقال :في الدنيا أحد بكر هذا البكور ليشغلنا، قال :فقلت ليس العجب منك أصلحك الله فيما لقيتني به، إنما العجب مني إذا أسهرت ليلتي وأسهرت جميع أهلي، يرقبون الصبح حتى أصير إليك، في صلاح أحوالي بعد وقوع الاختيار عليك فيما آمله عندك، ولكن علي وعلي أن وقفت لك بباب أو سألتك حاجة، إلى أن تصير إلي معتذرا مما لقيتني به، وانصرفت مغموما مفكرا فيه نادما على ما فرط مني من اليمين، آيسا من الفرج لاستبعاد مجيء الوزير إلي واعتذاره مني، راجعا على نفسي باللوم، فإني لكذلك إذ دخل علي بعض الغلمان، فقال :إن الوزير أحمد بن أبي خالد آخذا في شارعنا ودخل آخر فقال :إنه دخل دربنا، ودخل ثالث فقال :إنه قرب من دارنا ثم دخل رابع فقال :إنه دخل دارنا، فخرجت مستقبلا له فلما استقر به المجلس قال لي :كان أمير المؤمنين قد أمرني بالبكور إليه، في بعض مهماته فدخلت إليه وقد غلبني الهم والغم بما فرط مني إليك، حتى أنكر حالي فقصصت عليه القصة، فقال :قد أسأت إلى الرجل ولا عليك أن تعتذر إليه قلت :فامضي إليه فارغ اليد، قال :فتريد ماذا قلت تقضي دينه، قال :وكم ذلك قلت مائة ألف درهم فأمرني بالتوقيع لك بها، قلت :فإذا قضى دينه فيرجع إلي ماذا قال فوقع له بمائة ألف درهم أخرى، يصلح بها حاله .قلت :فولاية يشرف بها قال :له مصر أو غيرها مما يشبهها، قلت :فمعونة يستعين بها على سفره، فأمر بأن يوقع لك بمائة ألف درهم وهذه التوقيعات لك بكل ذلك فنثرها وانصرف.

وقال محمد بن عباد المهلبي :()دخل أبي على المأمون فوصله بمائة ألف درهم، فلما قام من عنده تصدق بها، فأخبر المأمون بذلك فلما عاد إليه عاتبه في

ذلك، فقال :يا أمير المؤمنين منع الجود سوء ظن بالمعبود، فوصله بمائتي ألف درهم.

وأنهى إلى المعتصم أن الحسن بن سهل قد أضاف إلى ضياعه التي أقطعها، ضياعا كثيرا خراجية، فتكرم المعتصم أن يأمر بمناظرته دون سائر أصحاب الإقطاعات، فأمر بكشف الإقطاعات كلها، فدخل الحسن بن سهل لما بلغ إليه ذلك عن المعتصم، فقال :يا أمير المؤمنين ما كانت لي ضياع ولا لأبي من قبلي، ولكن هي نعمتكم التي أنعمتم بها علي وقد رددت جميعها، إلى أيدي عمال أمير المؤمنين، وما كان لي فيها ملكا فأمير المؤمنين منه في حل، ولا أكون سببا لهلاك الناس وضررهم فاستحيا المعتصم وغض طرفه، وقال :لا أكشف إقطاعاتك ولا إقطاعات غيرك ولم يزل على بر وإكرام .وقال أحمد بن أبي داوود القاضي :ما رأيت أجمع لفضيلة ولا أوصل لرحم، ولا أرق قلبا على ذي حاجة، وأصدق وأوفى بقول واكظم لغيظ وأعفى عن مسيء، وأشد تفقدا للصاحب والخادم، وأشجع قلبا وأحسن سياسة من المعتصم، فأما صلته للرحم، فكان إبراهيم بن المهدي أعدى خلق الله له وأشدهم استخفافا له في أيام المأمون وكان المأمون زوج المعتصم لبابة بنت إبراهيم فمنحه وقال لا أرضاه لها فلما صارت إليه الخلافة بره وآثره وكان أحضى الناس عنده.

وقال المعتصم :يا أبا عبد الله لقد كنت ألقى من جماعة في أيام المأمون، كل ما أكره ويذكرونني له بأسوء الذكر، ويقولون في أقبح القول فظننت أني متى قدرت عليهم، لم أبق على أحد منهم، وكان أشدهم قصدا لمكروهي وعيي إبراهيم بن المهدي، وكأن يذكرني بالقبح إذا غبت وينتقصني إذا حضرت، ويحكي كلامي في مجلس المأمون، ويهجوني بأقبح الهجاء حتى هممت مرة بعد أخرى، أن أفتك به في مجلس المأمون، فأقطعه إربا إربا، فلما قدرت وصار إلى السلطان، ذهبت الحفيظة من قلبي عليه وعلى أمثاله، ممن تقدمت إساءته فرأيت العفو عنهم أحسن من المكافأة وأنفع في الآخرة.

وقال إبراهيم بن المهدي لما ولي المعتصم :والله لقد ظننت أنه يأمر بضرب عنقي إذا وقعت عينه علي ولو أمكنني الهرب منه لهربت فما دخلت عليه يوما إلا جدد لي بشرا وإكراما ولا خرجت إلا بصلة وخلع وحملان.

وقال ابن أبي داوود وكان محمد بن قاسم العلوي خرج عليه بخراسان، فحمله عبد الله بن طاهر في الحديد إلى حضرة المعتصم، فاطلع عليه يوما من

مشرفه، فرآه وعليه جبة صوف وفي رجله الحديد، وقد تغير لونه فرق له ودمعت عيناه، ثم قال لي :يا أبا عبد الله هذا ابن عمي وأدنى الناس رحما، وما يحتمل قلبي أن أراه على هذه الحال، ثم دعا بعض الذي كان قائما على رأسه، فقال :اذهب فقل له ما الذي دعاك إلى الخروج علي، ولم ينلك مني سوء قط، فمضى الرسول فأبلغه، فقال :رأيت جورا شديدا، لم يسعني فيما بيني وبين الله إلا إنكاره فقال المعتصم : ارجع إليه فقال له هل هذا جور أحدثته أنا، أم كان شيئا فعله سلفي قبلي، قال :بل كان فعله سلفك قبلك وسلكت سبيلهم، فقال :ارجع وقل له أيما أفضل أنت أم من تقدم من سلفك، فقال محمد :بل من تقدم من سلفي، فقال :قل له يا هذا كيف وسع سلفك مع فضلهم وسابقتهم، أن لا يخرجوا على سلفي، ولم يسعك أنت إلا الخروج علي، فأبلغه ذلك فسكت ولم يجبه .فرجع الرسول فعرفه ذلك .قال :لي يا أبا عبد الله ما أصنع بهذا، أخاف والله إن أطلقته معاودة مثل الذي كان منه، فيسفك دماء المسلمين بيننا وبينه، قال قلت :الحبس الذي يؤمن مكروهه، قال فأمر بفك قيوده في الوقت، وأنـزلت عنه ثقل الحديد، ونقله إلى دار ووسع عليه في مطعمه ومشربه وملبسه.

قال :وكنت يوما عنده وقد امتلأ غيظا فدعى بعمر بن فرج ()وهو يتناوله بالشتم، فلما جاءه قال :يا ابن اللخناء، متى أمرتك بجعل أصحاب أخبار علي الطالبيين وتتبع أمرهم، قال :يا أمير المؤمنين بلغني أن رجلا منهم كاتبه أهل خراسان وأرمينيا، فأردت أن أعرف وأتيقن حقيقة ذلك وأنهيه إلى أمير المؤمنين، فقال :وما الذي عليك منهم، فوالله لأغفرن ذنوبهم، ولأصلن أرحامهم، ولأعفون عن مسيئهم ولأعطفن على كبيرهم وصغيرهم، فإن أرادوني بسوء فالله بيني وبينهم.

قال :ودخلت إليه فقلت إن أهلك، وذوي رحمك من آل أبي طالب في ضر شديد بالمدينة، وقد نالتهم مجاعة شديدة وسنة مجدبة، وتأخرت أرزاقهم، فدعا ابن الزيات ()وقال :يا محمد احمل إليهم الساعة ولا تتوقف مائتي ألف درهم، ووالله لإن أخرت إلى غدٍ، لأنهكتك عقوبة فحمل إليهم ذلك من وقته.

قال :وكنت عنده يوما فدخل عليه بعض من يحضر مجلسه فقال إني كنت بالأمس عند عبد الله بين أيوب ()، قال فما كانت حالتكم فقال :أطعمنا ثلاثة ألوان ليس فيها لحم، فقال ويلك :ذلك حسن المروءة وكثير الطعام قال انفذْ إلى القصَّاب رقعة يعطه وظيفته من اللحم وإلا لم يأكل هو ولا أولاده لحما فأطرق مفكرا وقال بلغت به الحال إلى هذا قلت نعم فدعا بإيتاخ ()فقال احمل إلى عبد الله بن أيوب

مائتي ألف درهم وقل للرسول لا يأخذ منه شيئا فإذا رجع من عنده فاعط رسولك ألفي درهم.

قال :ورأيته وقد حاصر عمورية، وأنه لواقف والحجارة تأتي من كل موضع حتى يناله بعضها وهو لا يزول، فقلت :الله الله يا أمير المؤمنين نشدتك الله لما تنحيت، فقال :والله ما من موضع يأتيني فيه الموت أحب إليَّ من هذا الموضع، فقلت :إن أرواح المسلمين بروحك معلقة، فإن حدث حادث فإنهم مضيعة جازر فما التفت إلى قولي وثبت مكانه.

وقال :وخرجنا في تلك الغزاة، فكنت على جمل في محمل، وكان يجيء على فرسه حتى يصير تحت محملي ويحدثني، فأقول :انـزل واركب دابة وأكون بين يديك يا أمير المؤمنين، فيقول :لا والله لا فعلت، المحمل أبر بك وأرفق.

وصرنا إلى مخاضة فقال للجمال :قف ثم إنه تقدم حتى عرف مقدار الماء وجعل يقول للجمال :خذ كذا خذ كذا بلطف ورفق حتى عبرت.

وقال يوما ونحن بعمورية :ما تقول في البسر يا أبا عبد الله، فقلت :نحن ببلاد الروم والبسر بالعواق، فقال :قد جاءنا عذقان .فقال :يا ايتاخ هات أحد العذقين، فجابه فمد المعتصم يده وحسر عن ذراعه، وقال :بحياتي عليك كل ين يدي فقلت : جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، بل تضعه فآكل منه كما أريد، قال :لا والله إلا من يدي، قال أحمد :فوالله إن زال حاسرا مادا يده وأنا أجتني، حتى رمى به وما به بسرة واحدة.

قال :ووقف يوما على الدور بعمورية، رجل فصيح بالعربية فجعل يشتم النبي صلى الله عليه وسلم فاشتد ذلك على المعتصم وعلى المسلمين، وحاولوا قتله ورامو بكل مرام، من النشاب والعرادات ()وغيرها ولم يلحقه شيء حتى رمى رجل من الناشبة، فأصاب نحوه فوقع اللعين من السُّورِ إلى خارج، وكبر المسلمون وسر المعتصم بذلك سرورا عظيما، وقال :أخبروني عمن رمى هذا السهم المبارك، فأوتى بالرجل فأدخل عليه، فقال له :سألتك بالله لتبعني ثواب هذا السهم بمائة ألف درهم، فقال الرجل :يا أمير المؤمنين ليس الثواب مما يباع، قال :فما زال يرغبه حتى بلغ معه خمسمائة ألف درهم، فقال ما أبيعه بالدنيا بأسرها وما فيها، ولكني أشهد الله أني قد جعلت نصف ثوابه لك يا أمير المؤمنين، فقال :قد رضيت بهذا أحسن الله جزاءك، وأمر للرجل بمائة ألف درهم، فقبضها من ساعته .وقيل لما وقع الحريق في الجانب الغربي ببغداد وجه المعتصم ابنه هارون ()فقام بأمرها حتى

أطفيت، وأمر بكتب أسماء من احترق له شيئا، ومبلغ ما ذهب لهم ثم أعطى كلا منهم على قدر حاله فبلغ إعطاؤهم عشرين ألف دينار وخمسماية ألف ألف درهم.

وقال ابن أبي داوود الماضي :ما رأيت رجلا عرض على الموت فلم يكترث به ولا عدل به عما أراد، إلا تميم بن جميل الخارجي ()وكان قد خرج على المعتصم، فرأيته وقد جيء به أسيرا، فأدخل عليه في يوم مركب، وقد جلس المعتصم للناس مجلسا عاما فدعا بالسيف والنطع ()فلما مثل بين يديه، نظر إليه المعتصم فأعجبه حسنه وقده، ومشيته إلى الموت غير مكترث به فأطال الفكر فيه ثم استنطقه لينظر أين عقله ولسانه من جماله، فقال :يا تميم إن كان لك عذر فأت به، فقال :أما إذا أذن أمير المؤمنين في الكلام فأني أقول :الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الإسلام، ولم بك شعث الأمة، وأخمد بك شهاب الباطل، وأنار بك سبيل الحق، إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع الأفئدة، وأيم الله لقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجة وساء الظن ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأنت إلى العفو أقرب، وهو بك أشبه وأليق ثم أنشد:

يلاحظُني مِنْ حيثُ ما أتلفتُ ... أرىَ الموتَ بينَ السَّيف والنَّطع كامناً
وأيُّ امرئ عما قضَى اللهُ يُفلتُ ... وأكثرُ ظنّي أنكَ اليومَ قاتِلي
وسيفُ المنايا بينَ عَيْنيه مُصْلَتُ ... فمَنْ ذا الذي يأتي بعُذْرٍ وحُجَّةٍ
يسل علّي السيفُ فيه وأسكتُ ... يعز على الأوس بن ثعلبة موقفي
لأعلمُ أن الموتَ شيءٌ مؤقَّتُ ... وما حزني مِنْ أن أموتَ وإنني
وأكبادُهم من حَسْرةٍ تتفتَّتُ ... ولكنّ خَلْفِي صِبْيةً قد تركتهم
وقد لطموا تلك الخدود وصوّتوا ... كأني أراهم حين أنْعَى إليهمُ
أذُودُ الرَّدَى عنهم وإن متّ موَّتوا ... فإن عشتُ عاشُوا خافضين بغْبطةٍ
وآخرَ فرحانُ يُسَرُّ وَيشْمَتُ ... وكم قائـل لا يُبعدِ اللهُ دارهُ

قال :فبكى المعتصم ثم قال :إن من البيان لسحرا ()كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال :يا تميم كاد والله يسبق السيف العذل، وقد وهبتك لله تعالى وللصبية، وعفوت عن زلتك .وعقد له ولاية على عمله وخلع عليه وأعطاه خمسين ألف دينار.

قيل :وكان الأفشن ()مغضبا على أبي دلف العجلي ()، وحاسدا له على فضله فحمل نفسه يوما على قتله، فاستدعاه باستحثاث وإزعاج .وكان صديقا للقاضي

أحمد بن أبي داوود فبعث إليه أن أدركني، فمن أمري كيت وكيت فركب مسرعا واستحضر من حضره من الشهود، فلما ورد باب الأفشين قال له الغلمان :نستأذن لك، فقال :الأمر أعجل من ذلك، ونـزل ودخل على الأفشين وهو جالس في مجلسه، وقد أقيم أبو دلف بين يديه في الصحن، فلما رأى الأفشين القاضي قد دخل بلا إذن بهت فقال" :إن أمير المؤمنين أمرني إليك أيها الأمير "أن لا تحدث في أمر القاسم حدثا، إلا بإذنه ثم التفت إلى الشهود، فقال :اشهدوا أني قد بلغت رسالة أمير المؤمنين، ثم خرج فأتى باب المعتصم مسرعا، فاستأذن عليه فأذن له، فلما دخل عليه قال :يا أمير المؤمنين قد كذبت عليك واحدة، ثم أرجو بها الجنة، ولك الفخر، قال :وما هي، قال :كان من الأمر كيت وكيت، فضحك المعتصم وقال :أحسنت أحسن الله إليك، ثم لم يلبث أن جاء الأفشين مستأذنا فأذن له، فلما استقر مجلسه قال : يا أمير المؤمنين جاءني رسالة منك مع قاضي القضاة في معنى أبي دلف، فما تأمرني في شأنه، قال :نعم أنا أرسلت إليك فيه فاحذر أن تتعرض له إلا بالخير، فأفلت من يده بذلك.

وروي أن بعض العمال رفع على خالد بن يزيد بن مزيد ()، أنه اقتطع أموالا واحتجز بعضها فغضب المعتصم وحلف ليأخذن أموال خالد وليعاقبنه، فلجأ خالد إلى القاضي أحمد بن أبي داوود فاحتال أحمد حتى جمع بينه وبين خصمه الذي رفع عليه، فلم تقم على خالد حجة، فعرف ابن أبي داوود المعتصم بذلك، وشفع إليه في خالد، فلم يشفع فأحضر خالد وأحضرت آلات العقوبة، وقد كان قبل ذلك قبض على أمواله وضياعه وصرفه عن العمل، فحضر ابن أبي داوود المجلس فجلس دون مجلسه الذي كان يجلس فيه، فقال له :المعتصم ارتفع إلى مكانك، فقال :يا أمير المؤمنين ما استحق إلا دون هذا المجلس، قال :وكيف قال الناس يزعمون أنه ليس محلي محل من يشفع في رجل قذف ليس بما ليس فيه، ولم يصح عليه فلم يشفع . قال :فارتفع إلى موضعك قال :مشفعا أو غير مشفع، قال :بل مشفعا قد وهبت لك خالدا ورضيت عنه، فقال :إن الناس لا يعلمون بهذا، قال قد وهبت عليه جميع ما قبض عليه من ضياعه وأمواله، قال :فمن له بفك قيوده والخلع عليه ففعل ذلك، قال :قد استحق هو وأصحابه رزق سنة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجعلها صلة له لتحمل معه ففعل ذلك .ثم خرج خالد وعليه الخلع والمال بين يديه، والناس ينتظرون الإيقاع به، فلما رأوه على تلك الحال سروا بذلك، وصاح به رجل نحمد الله على خلاصك يا سيد العرب، فقال :مه سيد العرب والله بعد أمير المؤمنين أحمد بن أبي

داوود الذي طوقني هذه المكرمة.

قال أبو عبد الله النديم :لقد رأيت الملوك في مقاصيرها ومجامعها، وما رأيت أغزر أدبا من الواثق ، خرج إلينا ذات يوم وهو يقول لعمري لقد عرض عرضه من عرضه لقول الخزاعي:

طوى الكشحُ عَني اليومَ وهو مكينُ خليليَّ ماذا أرْتجي مِنْ غدِ امرىءٍ

يَسُدُّ بـهِ فقْرَ امـرئٍ لضنـينُ وإنَّ امـرءًا قـدْ ضَنَّ يوماً بمنطق

فانبرى أحمد بن أبي داوود كأنما أنشط من عقال يسأله في رجل من أهل اليمامة فأسهب في الشفاعة وأطنب وذهب في القول كل مذهب .

فقال له الواثق :يا أبا عبد الله لقد أكثرت في غير كثير وأطنبت فقال :يا أمير المؤمنين إنه صديقي وأنشد:

مِنَ الهيِّن الموجودِ أنْ يتكلَّما وأهونُ ما يُعطي الصَّديقُ صَديقهُ

قال الواثق :ما قدر هذا اليمامي أن يكون صديقك، وإنما أحسبه أن يكون من بعض خولك، فقال :يا أمير المؤمنين إنه قد اشتهر بالاستشفاع بي عندك وجعلني بمرأى ومسمع من الرد والإسعاف، فإن لم أقم له هذا المقام، كنت كما قال أمير المؤمنين:

يَسدُّ بهِ فقرَ امرئٍ لضنينُ وإنْ امرىءٌ قدْ ضَنَّ يوماً بمنطقِ

فقال الواثق لمحمد بن عبد الملك الزيات، بالله يا محمد ألا عجلت لأبي عبد الله حاجته، ليسلم من هجنة المطل، كما سلم من هجنة الرد.

وقال أحمد بن إسرائيل فرق الواثق في الصدقة ووجوه البر على المساكين والفقراء واليتامى الذين أقيمت لهم الكفايات للتعليم، خمسة ألف ألف دينار وفرق على التجار الذين ذهبت أموالهم في الحريق في زمانه سنة إحدى وثلاثين ومائتين خمسمائة ألف ألف دينار، وكان عمر بن فرج يقول .أمر الواثق بحمل الأرزاق لآل أبي طالب إلى المدينة وكان يصل إليهم في سنة مائتا ألف دينار فكان مبلغ ما حمل إليهم ألف ألف دينار .ونظر عمر بن فرج فيما تصدق به الواثق في علته التي توفي فيها، فكان ثلاثة ألف ألف دينار، فأنهى ذلك إليه فاستقله .وكان الواثق قد أمر أن تبنى حضائر فيها بيوت، يجمع فيها المساكين فيجرى لهم الطعام والكسوة، ويمنعوا من السؤال في الطرق والأسواق والأبواب ببغداد وبسر من رأى، وأمر بكتاتيب للصبيان الأيتام والمساكين فيتعلمون القرآن .وقال ابن أبي داوود :لقد فرق الواثق من الأموال، ما خفت أن يخلي بيوت الأموال، فلا يوجد فيها شيء إن جرى أمر أو

حدث حادث، ولقد كنت أعجب من تفرقة المعتصم الأموال، فلما رأيت الواثق وما فعل أنساني فعل المعتصم .قال وكنت لا أذكره بشيء من الخير وأبواب البر، وما فيه ثواب وقربة إلى الله تعالى إلا سره ذلك، وشكرني عليه وجزاني خيرا، وحضني على أن أذكره به.

وكان يجلس للمظالم فيكون غايته انصاف الناس، والإحسان إليهم ودفع الظلم عنهم ورد حقوقهم إليهم، فإذا فعل من ذلك شيئا حمد الله على ما وفقه وأجرى على يديه من الإنصاف .وكان ابن الزيات ربما تكلم عند تظلم المتظلمين بما يريد أن يدافعهم به الواثق النصيحة والإشفاق فينتهره ويؤنبه ويحذره الظلم.

ونال الناس بالعراق غلاء شديد سنة إحدى وثلاثين ومائتين حتى بلغ الكر () الدقيق مائة دينار، فجهد الناس فأمر الواثق بتفرقة الأموال ببغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة فكان ذلك ستمائة ألف دينار .وبلغ إليه أن العمال يأخذون من السفن، التي ترد من الهند والصين العشر، فقال هؤلاء تجار مسلمون، يغدون بأموالهم وأنفسهم، ويركبون البحر فيطول مكثهم فيه، فأمر بإسقاط العشر عنهم .قيل وكان يصلي في داره الصلوات كلها جماعة، يوؤذن المؤذن فيقوم فيركع ثم يتقدم فيصلي، ويصلي خلفه من حضر من أصحابه وقواده وغلمانه، وكان يركب إلى الجامع فيخطب ويصلى وكان كثيرا ما يخطب بخطبة المأمون المشهورة التي تقدم ذكرها في هذا الكتاب .ولما اعتل علته التي مات بها، اجتمع القواد إلى ابن أبي داوود فقالوا :كلمه، يعقد العهد لابنه محمد، فذكر له ذلك فأعرض عنه بوجهه فكلمه ثانية، فقال :يا أبا عبد الله أما كفاني أني تقلدت الأمر في حياتي حتى أتقلد تبعته وأثمه بعد وفاتي، إن عمل من أعهد إليه صالحا، كان له ثوابه، وإن عمل سيئا كان علي وزره، إذ صيرت أمور المسلمين إليه، ومن أين أجد رجلا أرضى دينه وأمانته وفضله، وجمع القواد فقال لهم :عليكم بتقوى الله وأحسنوا الاختيار لأنفسكم بعدي والله خليفتي عليكم وعلى جميع المسلمين .

ولما أزمع المتوكل ()على الرحيل إلى دمشق أمر ابنه محمد ()المنتصر المهلبي يزيد

فقال بيتين على لسانه، ودفعهما إلى من يحسنهما وغنى بهما المتوكل وهما:

وَلَوْ قدْ حدَى الحادي بطلبٍ يحذرُ إلى اللهِ أشكو عَبْرةً نتخيرُ

مقيماً وفي الشام الخليفةُ جعفرُ فواحسرتَنا أنْ كنتُ في سُرَّ مَنْ رأى

فأعجب بهما المتوكل وارتاح وبكى ثم قال :من يقول هذا فقيل قاله محمد المنتصر فقال هو على لسانه :لكن من قائله قالوا :يزيد المهلبي فقال ادعوه فوالله لأضحكنه كما أبكاني فلما دخل عليه أمر له بخمسين ألف درهم.

وروي أن محمد بن عبد الله بن طاهر ()كان مولودا بحد السرطان ()، فلما كان ذات ليلة جمع أهل بيته، فقال لهم :إني مولود بحد السرطان وإن طالع السنة السرطان وإن القمر ينكسف الليلة بالسرطان وهي ليلة الأحد فان نجوت في هذه الليلة فسأبقى سنتين وإن كانت الأخرى فإني ميت لا محالة قالوا :بل يطيل الله عمرك، قال :فلما كان الليل دعا غلاما له كان قد علمه النجوم ()، فأصعده إلى قبة له فأعطاه بنادق وأسطرلابا ()، وقال له خذ الطالع فكلما مضى من انكساف القمر دقيقة فاقذف إلي ببندقة حتى أعلم بذلك .وجلس محمد مع أصحابه وجعل الغلام كل ما مضى من انكساف القمر دقيقة قذف إليه ببندقة، فلما انكسف من القمر ثلثه قال لأصحابه :ما تقولون في رجل معكم قاعد يقضي ويمضي وقد ذهب منذ جالسكم ثلث عمره قالوا :بل يطيل الله عمرك .فلما مضى من الليل ثلثاه، عمد إلى جواريه فأعتق منهن من أراد عتقها، ووقف من ضياعه ما أوقف .وقال لهم :ما تقولون في رجل معكم يقضي ويمضي، وقد ذهب جل عمره، فقال القوم :بل يطيل الله عمرك وبقاك أيها الأمير فلما مضى من الثلث الثالث دقيقتان، قال لهم :إذا استغرق القمر فامضوا إلى أخي عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ()، ثم قام فاغتسل ولبس أكفانه وتحنط ودخل إلى بيت له، ورد عليه الأبواب واضطجع فلما استغرق القمر في الكسوف فاضت نفسه فدخلوا عليه فإذا هو ميت، فانطلقوا إلى عبيد الله أخيه ليعلموه، فإذا عبيد الله على طيار له على باب القصر قد سبقهم، فقال لهم :مات أخي، قالوا :نعم .قال :ما زلت آخذ الطالع حتى استغرق القمر في الكسوف فعلمت أنه قد قبض ثم دخل فأكب عليه طويلا.

ثم خرج وهو يقول:

زالَ عنها السّرادِقُ الممدودُ ... هُدَّ ركنُ الخلافةِ الموطودُ

جَدَّ أطنابَها فمالَ العمودُ ... حطَّ فسطاطها المحيطُ عليها

والناد شبَّ منها الوقود ... أحد كان خدّه مثل حدِّ السيف

حدَّها إليهِ الأجودُ ... أحدٌّ كان خدُّهُ مِن نُحوسٍ جُمِعَتْ

فانجلى البدرُ والأميرُ عميدُ ... كُسِفَ البدر والأميرُ جميعاً

ونورُ الأمير مالا يعودُ ... عادَ البدرَ نورُهُ لتجليه

فالدُّنيا عليها كآبةٌ وجمودُ أظلمتْ بَعدَهُ الخلافةُ
قدْ قضى وَمنها عتيدُ الأمورُ قدْ كانَ دَبَّرَ منها مبرمٌ
والغربُ فمنها تهائِمٌ ونجودُ 0 قدْ بكاهُ العراقُ والشرقُ

فلما حُمِلَ على سريرِه أنشأ يقولُ:

ألا لله ما حَمَلَ السريرُ تُداولُهُ الأكفُّ على سريرِ
إذا رَجعتْ وأطولُها قصيرُ أكفٌّ لو تُمدُّ إليه حيّاً
تبكيهِ الأرامِلُ والفقيرُ تباشرتِ القبورُ بهِ وأضحى

حكي أن محمد بن زيد العلوي 0الداعي بطبرستان كان إذا افتتح الخراج نظر في بيت المال، من خراج السنة التي قبلها، وفرقه في قبائل قريش على دعوتهم، وفي الأنصار وفي الفقهاء، وأهل القرآن وسائر طبقات الناس، إلى أن يفرق جميع ما بقي .فجلس في سنة من السنين ففرق مثل ذلك على عادته، فلما بدأ ببني عبد مناف وقد فرغ من بني هاشم، دعا بسائر بني عبد مناف، فقام إليه رجل فقال له : من أي بني عبد مناف أنت؟ فقال :من بني أمية، قال :من أيهم فسكت فقال لعلك من ولد معاوية قال :نعم فقال :من أيهم فسكت فقال :لعللك من ولد يزيد .قال :نعم .قال : بئس الاختيار اخترت لنفسك من قصدك بلدا ولايته إلى آل أبي طالب وعندك ثأرهم في سيدهم، وقد كانت لك مندوحة عنهم بالشام والعراق عند من يتولى جدك ويحب برك، فإن كنت جئت عن جهل منك بهذا فما يكون بعد جهلك شيء وإن كنت جئت مستهزئا بهم فقد خاطرت .فنظر إليه العلويون نظرا شديدا وهموا به، فصاح بهم محمد، فقال :كفوا عافاكم الله كأنكم تظنون في قتل هذا، دركا وثأرا بالحسين بن عليٍّ عليهما السلام وأي جرم لهذا إن الله تعالى حرم أن تطالب نفس بغير ما اكتسبت .والله لا يعرض له أحد إلا أقدته به، واسمعوا حديثا أحد ثكموه به يكون لكم قدوة فيما تستأنفون، حدثني أبي عن أبيه قال :عرض علي المنصور سنة حج جوهرا فاخرا فعرفة وقال :كان هذا لهشام بن عبد الملك وهذا بعينه قد بلغني خبره عند ابنه محمد 0، وما بقي منهم أحد غيره، ثم قال للربيع :إذا كان غدا، وصليت بالناس في المسجد الحرام وحصل الناس به، فأغلق الأبواب كلها، ووكل بها ثقاتك من الشيعة واقفلها وافتح للناس بابا واحدا وقف عليه، ولا يخرج أحد إلا من قد عرفته، فلما كان من الغد فعل الربيع ذلك .وتبين محمد بن هشام القصة، فعلم أنه المطلوب وأنه مأخوذ، فتخير وأقبل محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام على أثر ذلك، فرآه متحيرا وهو لا يعرفه فأنكر أمره، فقال

له :يا هذا أراك متحيرا متلددا فمن أنت ولك أمان الله تعالى العام التام، وأنت في ذمتي حتى أخلصك بعون الله عز وجل .قال :أنا محمد بن هشام بن عبد الملك فمن أنت قال :أنا محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي قال :فعند الله احتسبت نفسي، قال :لا بأس عليك يا ابن عم فانك لست قاتل زيد، ولا في قتلك إدراك ثأره، وأنا الآن بخلاصك أولى مني بإسلامك، ولكن تعذرني فيما أتناولك به من مكروه وقبح مخاطبة، يكون فيه خلاصك بمشيئة الله وعونه .فقال :يا سيدي أنت وذاك، فطرح رداءه على رأسه ووجهه ولثَّبَهُ ()به، وأقبل يسحبه فلما وقعت عين الربيع عليه، لطمه لطمات وجاء به إلى الربيع، وقال يا أبا الفضل أن هذا الخبيث جمال من أهل الكوفة، أكراني جماله ذاهبا وعائدا، وقد هرب مني في هذا الوقت، وأكرى بعض القواد الخرسانية ولي عليه بذلك شهود فضم إلى حرسيين يصيران به معي إلى القاضي ويمنعان الخرساني من اعتراضه إن اعترضنا .فضم إليه حرسيين وقال :امضيا به معه فلما بعد عن المسجد، قال له :يا خبيث تؤدي إليَّ حقي، قال : نعم يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .فقال للحرسيين :انصرفا في حفظ الله، فلما بعدا أطلقه، فقبل محمد بن هشام يده ورأسه وقال :بأبي أنت وأمي، الله أعلم حيث يجعل رسالاته، ثم أخرج جوهرا له قيمة وقدر عظيم، ودفعه إليه وقال شرفني يا سيدي بقبوله مني، فقال :اذهب بمتاعك يا ابن عم، فإنا أهل بيت لا نقبل على المعروف مكافأة، وقد تركت لك دم زيد وهو أعظم قدرا من ذلك، فانصرف راشدا ووار نفسك عن هذا الرجل إلى أن يخرج، فإنه مجد في طلبك . فمضى وتوارى ثم أن محمد الداعي أمر للأموي بمثل ما أمر به لسائر بني عبد مناف وضم إليه جماعة من مواليه وأمرهم أن يخرجوه إلى الري ويأتوه بكتابه بسلامته فقام الأموي وقبل رأسه ومضى ومعه القوم حتى وصل مأمنه وجاؤه بكتابه بسلامته .تقطيع بالأصل وصلاته على سيدنا محمد وعلى آله ورضي الله عن أصحابه.

القسمُ الثاني من الكتابِ :في الحكاياتِ عنِ الخلفــاءِ والوزراءِ والعمالِ والأمراءِ الدالِة على مناقبهم وارتفاعِ مراتِبهم ولنبدأ بذكرِ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ، رَضي اللهُ عنهُ، لقرب

عهـدِهِ ثُمّ من بعدِهِ على ترتيبِ وجودِهِم
وتعـاقُبِ أزمنتِهِم إلى حيث ينتهي بنا الكلامُ
وباللّه التوفيقُ..

رُويَ أنَّ معاوية ()كانَ يجلسُ ويأذنُ كُلَّ يوم خمسَ مراتٍ كانَ إذا صلّى الفجرَ جلسَ فيقرأ القصصَ)ويقضي حاجَة مَنْ حَضَرَ ثُمّ يأخُذ المصحَفَ فيقرأ أجزاءً مِنَ القرآن الكريمِ(، ثُمَّ .يَدْخُلُ بيتَه فيأمُر وَيَنْهَى وَيُصلّي أرْبَعَ ركعاتٍ، ثُمَّ يقعُدُ في مَجْلِسِه وَيدْخُلُ إليهِ خاصةُ الخاصةِ ويدْعُو بالغداء الأصغَرِ مِنْ فضلاتِ العشاءِ، ثمَّ يأمُر بكرسيِّهِ حيثُ المقصورةُ مِنَ المسجِدِ، فيأتيه ابنُ السبيلِ والأعرابيُّ، وَمَنْ تُستدعَى من الاماءِ والعجائِزِ والصبيانِ فيقضي حوائجَهُم، ولا يضجَرُ، ثُمَّ يدخُلُ منـزلَهُ فيأتِيه أشرافُ النَّاسِ والعلماءِ فيقضِي لَهُم الحوائِج، ثُمَّ يدعُو بغدائِهِ الأكبَرِ، فيطيلُ الأكلَ وَيُصْغِي لِكل أصحابِ الحوائج، ثُم يدخُلُ منـزلَهُ إلى الظُّهرِ فلا يراهُ أحدٌ، ثُمَّ يخرُج يُصلي الظُّهرَ ويدخلُ إليهِ الخواصُ، فإنْ كانَ أيامُ الشِّتاء دَعا بالحلواتِ اليابسةِ وإنْ كانَ صيفاً دعا بالفواكِهِ، فيأخذ من الأكل إلى العصْرِ، ثم يَجْلِسُ على سريرِهِ ويأذنُ للنَّاسِ إلى الغروبِ، ثم يأذنُ لخاصتهِ إلى ثُلُثِ الليلِ يسامرونَهُ، وينامُ الثلثَ الأوسطَ، ويصلي الثلثَ الأخيرَ، فلم يزَلْ على ذلكَ حَتى قَبَضَهُ اللهُ تَعالى .قِيلَ سَمِرَ معاويةُ ذاتَ ليلةٍ، فَذكَرَ كلامَ الزرقاءِ بنتِ عديٍّ، امرأةٍ مِنْ أهْلِ الكوفةِ ممنْ نَصرَ عليًّا -عليه السلامُ -يومَ صِفينَ ()فقالَ لأصحابِهِ :أيّكُم يحفَظُ كلامَ الزرقاءِ، فقالُوا :كُلُّنا يا أميرَ المؤمنينَ نحفظُهُ فقالَ فما تُشيرونَ عليَّ فيها، فقالوا :نشيرُ بقتلِها، فقالَ :بئْسَ الرأيُ رأيتُمْ أيحْسنُ بمثْلي أنْ يتحدَّثَ الناسُ على، أني قَتَلْتُ امرأةً بعدَما ملكتُ فظفرتُ ثُمّ دَعا بكاتِبِه، فَكَتبَ إلى واليهِ بالكوفةِ أنْ أوفدْ إلى الزرقاءِ بنتِ عَدِيّ مَعَ نفرٍ من عشيرتِهَا وعدةٍ مِنْ فرسانِ قومِها وَمَهّدْ لَها وِطاءً لَيناً فَلَمَّا وَرَدَ عَلَيْهِ الكتابُ رَكِبَ إليهَا فأقرأهَا الكتابَ، فقالت :أمَّا أنَا فغيرُ زائغةٍ عَنْ الطاعةِ، فإنْ كانَ أميرُ المؤمنينَ جَعَلَ الاختيارَ إليَّ لَمْ أرم منْ بَلَدي، وإنْ كانَ حَتَّمَ الأمرَ فالسمعُ والطاعةُ لَهُ، فَحَمَلَها على أحْسَنِ مَطيةٍ في هَودَجٍ وَجَعَلَ غشاءَهِ خزاً مُبَطّناً، وأحسَنَ صحبتَها فَلَمَّا قَدِمَت على معاوية، قالَ لها :مَرْحباً وأهلاً خيرَ مقدمٍ قَدِمَهُ وافدٌ كَيْفَ حالُكِ يا خالةُ، وَكَيْفَ رأيتِ مَسيرَك فقالتْ خيرَ مسيرٍ كَأنّي ربيبةُ بيتٍ أو طفل في مهد، فهلْ تعلمينَ لِمَ بعثتُ إليكِ، فقالتْ :لا يعلَمُ الغيْبَ إلا اللهُ فقالَ :ألستِ راكبةَ الجملِ الأحمرِ يومَ صفينَ، وأنت بينَ الصُّفينِ تُوقدينَ نارَ الحربِ، وتحضينَ على القتال، قالتْ :بلى قالَ :فما حملَكِ على ذلكَ، فقالتْ :يا أميرَ

المؤمنينَ إنهُ قدْ ماتَ الرأسُ وَبترَ الذنبُ، والدَّهْرُ ذو غِيَرٍ ()، ومنْ تفكرَ أبصرَ، والأمرُ يحدثُ بعدة الأمرُ .قالَ :صدقتِ فَهلْ تحفظينَ كلامَكِ، قالتْ :لا واللهِ، قالَ :للهِ أبوكِ لقدْ سمعتُكِ تقولينَ :أيها النّاسُ إنكُم في فِتنَةٍ عمياءَ صماءَ غشيتُكم جلابيبُ الظُّلمِ، وجارتْ بِكُم عنْ قَصْدِ المحجَّةِ فيا لَها من فَتنَةٍ لا يُسمعُ لقائِلِها، ولا تنقادُ لسائِقها، أيُّها الناسُ إن المصباحَ لا يضيئُ في الشَّمْسِ وإنَّ الكواكِبَ لا تنيرُ مَعَ القَمرِ وانَّ البغلَ لا يَسبِقُ الفرسَ، ولا يقطَعُ الحديدَ إلا الحديدُ، ألا مَنْ استرشَدَ أرشدْنَاهُ وَمَنْ سألنَا أخبرناهُ أنَّ الحق كانَ يطلبُ ضالتَهُ فوجدَها فصبْراً يا معاشرَ المسلمينَ من المهاجرينَ والأنصارِ على الغصصِ فكأنّه قَدْ التأمَ شعبُ الشَّتاتِ وَظَهَرَتْ كلمةُ العدْلِ وَغَلَب الحقُ باطِلَهُ، فلا يُعَجّلَنَّ أحدُكُم يقولُ :كيفَ ذلكَ لِيقضَي اللهُ أمراً كانَ مفعولا، إن خِضابَ النّساءِ الحناءُ، وخضابَ الرّجالِ الدماءُ، والصَّبرُ خَيْر في الأمورِ عواقب، أيها ()إلى الحربِ قُدَماً غيرَ ناكصينَ فهذا يومٌ لَهُ ما بعدَهُ، قالَ :يا زرقاءُ لقدْ شاركتِ عليَّا -عليهِ السلامُ -في كلِ دَمٍ سَفَكَهُ، قالتْ :أحسنَ اللهُ بِشارتَكَ يا أميرَ المؤمنين وأدامَ سلامَتَكَ مِثْلُك بشَّرَ بخيرٍ وَسرَّ جَليسَه قالَ لَها وقدْ سرَّكِ ذلكَ، قالتْ :نَعَمْ واللهِ سرَّني قولُكَ وأنَّى لِي بتصديقِهِ قالَ معاويةُ :واللهِ لوفاؤُكُم لَهُ بَعْدَ موتِهِ، أعجَبُ إليَّ من حُبِّكُمْ لَهُ في حياتِهِ، اذْكِري حاجَتَكِ فقالت :يا أميرَ المؤمنينَ إنّي آليتُ على نَفْسِي أنْ لا أسألَ أحداً أعنتُ عليه شيئاً أبداً، ومثْلُكَ مَنْ أعطى مِن غَيرِ مسألةٍ، وجادَ مِنْ غيرِ طُلبةٍ قالَ :صدقتِ ثُمّ اقطَعَها ضيعةً استغلّتْ مِنْها أولَّ سَنة عَشَرَةَ آلافِ درهم.

وَذُكِرَ أنَّ سَوْدَة بنتَ عمارةَ ()بن أسَدٍ استأذَنتْ عَليهِ فَلَمَّا أذِنَ لها قالَ :هيهِ يا بنتَ الأسَدِ ألسْتِ القائلةُ يومَ صِفّينَ:

يومَ الطّعانِ ومُلتقى الأقرانِ	**شَمِّرْ كفعْلِ أبيك يا بن عِمارةٍ**
واقصِدْ لهندٍ وابنِها بهَوَانِ	**وانصرُ عليّاً والحسيْنَ ورَهطه**
عَلَمُ الهدى ومنارة الإيمانِ	**إن الإمام أخو النبيِّ محمدٍ**
قدُماً بأبيضَ صارمٍ وسِنانِ	**فقُدِ الجيوشَ وسِرْ أمامَ لوائِه**

فقالت بَلَى يا أميرَ المؤمنينَ فَما مِثلي مَنْ رَغِبَ عَنِ الحقِّ ولا اعتذَرَ بالكذِبِ قالَ :فَما حملكِ على ذلكَ، قالتْ :حُبُّ عليٍّ واتباعُ الحق، فقالَ :واللهِ ما أرى عَليكُمْ مِنْ أثَرٍ علي شيئاً، فقالتْ :نشدتُكَ اللهَ يا أمير المؤمنينَ مَن إعادَةِ ما مضَى وتذكارِ ما خَلا، فقالَ :هيهاتَ ما مِثْلُ مقامِ أخيكِ يُنْسَى، وما لقيتُ مِنْ أحَدٍ ما لقيتُ مِنْ أخيكِ وقومِكِ، قالت: صدقت يا أميرَ المؤمنينَ لَمْ يكُنْ أخِي واللهِ دَهِش ()المقالِ، ولا خفيِّ

المكان، وكانَ والله كما قالتِ الخنساءُ :()

ـه عَلَمٌ في رأسِه نارُ () وإنّ صخراً لتأتَمُ الهُداةُ بهِ كأنَّـ

وأنا أسألُ أمير المؤمنين إعفائِي مما استعفيتُه مِنْه،، فقالَ :قد فعلتُ فما حاجتُكِ فقالتْ :يا أمير المؤمنينَ إنكَ أصبحتَ لِلناس سيَّداً، وَلأمرهِم والياً، واللهُ سائلُك عَنْ أمورِنا، وما افترضَ اللهُ عليكَ من حَقّنَا، وما يزالُ يقَدّمُ علينَا مَنْ يهجُمُ بِعزكَ ويبطِشُ بِسُلْطانِكَ، فيحصدَنا حَصْدَ السُّنْبلِ ويَدوسَنا دَوْسَ البقَرِ، ويسوَمنا الخِسْفَ، هَذا ابن أراطة ()قَدِمَ عَلَينَا فقَتَلَ رجالاً وأخَذَ أموالا، ولولا الطاعةُ لكانَ فينا عِزٌّ ومنعةٌ، فإما عزلته فشكرنَاك، وإلا عرفنَاكَ فقالَ معاويةُ :أبقومِك تُهدِّديني لَقدْ هممتُ أحملك على قتبٍ أشرس ()فاردَّك إليهِ فينفذَ فيكِ حُكْمَهُ، فاطرقتَ وَبَكَتْ .وأنشأتْ تقولُ:

قبرٌ فأصبحَ فيه العَدْلُ مدْفونا صلّى الإلهُ على قبر تَظمَّنَهُ

فصار بالحق والإيمان مقْرُوناً قد حالفَ الحقّ لا يَبغِي به بدلاً

قالَ :ومنْ ذلكَ قالتْ :أميرَ المؤمنينَ عليُّ بنُ أبي طالب عَليهِ السلامُ قالَ وما علمكِ بذلكَ، فقالت أتيتُهُ في رَجُل ولاهُ عَلينا .لمْ يكُنْ بينَنَا وبينَهُ إلا ما بينَ الغَثِّ والسمينِ، فوجدتُهُ قائماً يُصَلّي فلمَّا نَظَرَ إليَّ انفتلَ مِنْ صلاتِهِ فقالَ برأفةٍ ورحمةٍ أللكِ حاجةٌ، فأخبرتُهُ فَبَكى وقالَ :اللهمَّ أشهدْ عليَّ وعليهِم إني لَمْ أمْرهُم بِظُلْمِ أحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ وَلا بِتَرْكِ شَيءٍ مِنْ حَقّكَ، ثُمّ أخْرَجَ مِنْ جيبِه قطعةَ جِلْدٍ، وكَتَب فيها ﴿ :**بسم الله الرحمن الرحيم قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّـاسَ أَشْيَاءَهُمْ** ()﴾

﴿**وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ *بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** ﴾

.()إذا قرأتَ كتابِي هَذا فاحتفظْ بما في يدِكَ، حَتّى يقدِمَ عليكَ من يقبضُه مِنْكَ والسلامُ .فأخذْتُهُ مِنْهُ واللهِ ما حَزَمَهُ بحزامِهِ، ولا خَتَمه بطينٍ فعَزَلَهُ بِهِ .فقالَ معاويةُ : اكتبوا لَها بِرَدَّ مالِها، والعدلِ عليْهَا، فقالتْ :إليَّ خاصةً أمْ لِقومي عامةً فقالَ :ما أنتِ وقَومك فقالتْ :هِي واللهِ الفَحْشَاءُ إذن اللؤمُ، إنْ كانَ عَدْلا شامِلاً، وإلا فَأنا كسائرِ قومِي .قالَ :هيهاتَ يا أهلَ العراقِ لمظكم ()علي بنُ أبي طالب الجرأةَ على السُلطانِ، اكتُبوا لها بحاجَتِهَا ولسائِر قومِهَا .وَرُوِيَ أَنَّهُ أُتِيَ معاويةُ برجلٍ مِنْ أصحابِ أمير المؤمنين عليّ بْنِ أبي طالب عَليهِ السلامُ كانَ قد أبْلى معه بلاءً حسناً فقالَ معاويةُ :الحمدُ للهِ الذي أمكَن مِنْكَ فقالَ :لا تَقُلْ ذلكَ ولكنْ قُلْ :إنا لله وإنا إليهِ راجعونُ، فإنها مُصيبَةٌ، قالَ :وأيُّ نعمةٍ هي أكبَرُ مَنْ أنْ الله قَدْ أظفَرني برَجُل، قَتَلَ

بساعَةٍ واحدةٍ جماعةٌ مِنْ أصحابي، اضربا عنقَه فقالَ :اللهمَّ اشهدْ أنَّ معاويةَ لمْ يقتلْني فيكَ وَلا أنَّك رضيتَ قتْلي ولكنْ يقتلْني على سبيلِ الغلْبةِ علَى حُطامِ هذه الدُّنيَا، فإنْ فَعَلَ فافعلْ بهِ ما هو أهلُهُ وإنْ لَمْ يفعلْ فافعلْ بِهِ ما أنتَ أهلُهُ، قالَ معاويةُ : قاتلكَ اللهُ لقدْ سببتَ فابلغتَ بالسُّبّ ودعوتَ فابلغتَ في الدُّعاءِ خليا عَنْهُ.

وَرويَ عَنْ معاوية أنة قالَ :اجْعَلوا لِلشعرِ أكثرَ هَمكُم وأحد دَأبِكم فإن فيه مآثرَ أسلافكُم، ومواضِعَ إرشادِكم، فَلَقدْ رأيتُني يومَ الهرير 0وقد عزمتُ على الهربِ، فما يَردُّني إلا قولُ عَمْرو بن الاطنابةِ 0حيثُ يقولُ:

وأخْذي الحمدَ بالثَّمن الربيح	**أبتْ هِمَّتي وأبى حيائِي**
مكَانِك تُحْمدي أو تستريحي	**وَقَوْلي كُلما جشأتْ وجاشَت**
وَضربي هامَة البطل المُشِيح	**وإقدامي على المكروهِ نَفْسِي**
مسافَة بَينَ جُثماني وَروحي 0	**لأنـي عـالمٌ أنْ سوفَ تَثنـا**

وقال معاوية:

يُدافِعُ عَنْهُ الفرارُ الأجلْ	**كأنَّ الجبانَ يَرى أنَّهُ**
ويسلمُ منهـا الشجاعُ البطلْ0	**فقد تدركُ الحادثاتُ الجبانَ**

وقالَ معاويةُ لعبدِ الرحمن بن الحكمَ 0يا ابن أخي إنَّكَ لَقدْ لَهجْتَ تقولُ الشَّعْرَ، فإياكَ والتشبيبَ، فَتُعِرَّ شريفَاً، وإياكَ والهجَاء، فتهجِي كريماً أو تثر بَهُ لئيماً، وإياكَ والمدحَ، فإنَّه كسبُ الخسيس، ولكنْ أفخرْ بِمآثِرِ قومِكَ وقل في الأمثال، ما تزيِّنُ نَفْسَكَ وَتَؤدَّبُ بِهِ غيرَكَ، فإنْ لَمْ تجدْ بُدَّاً مِنْ المديح، فكنْ كالمبرار حينَ مَدَحَ، فإنه شَفَعَ بِنفسِهِ حينَ بدأ بغيرِهِ فقالَ:

إن الكريمَ للكريم مُجِلُّ 0	**أنـزلتُ نَفسي في بني تُعَل**

وقيلَ :حَجَّ معاويةُ فلمّا دَخَلَ المدينة، قالَ الحسينُ 0بنُ علي لأخيهِ الحسن بن علي صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ :لا تَلْقَهُ ولا تُسَلِّمْ عَليهِ فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ الحسنُ :إنْ علينَا دَيْناً ولا بدَّ مِنْ إتيانِه، فَرَكِبَ في أثرِهِ فَلَحِقَهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وأخبَرهُ بِدَيْنِه، فمروا عليهِ بُبختيٌ 0عليهِ ثلاثونَ ألفِ دينارٍ، قَدْ أعيى وتخلَّفَ عن الإبلِ وقومُ يسوقونَهُ فقالَ معاويةُ ما هذا؟ فَذكرَ لَهُ فقال :اصرفُوا ما عَلَيْهِ لأبي مُحَمَّدٍ.

قالَ زيادٌ :ما غَلَبني معاويةُ في شيءٍ منْ أمورِ السِّياسَةِ قطُّ، إلا في شي واحدٍ، وذلكَ أنّي استعملتُ رجلاً، على دَستْ ميسان 0فكسر عليهِ الخراجُ فلحقَ بمعاوية، فكتبتُ إليهِ أسألُهُ تسليمَهُ إليَّ فكتبَ في جوابه :أمَّا بَعْدُ فليسَ ينبغِي لِمثلي ومثلكَ، أنْ نسوسَ الناسَ جميعاً بسياسةٍ واحدةٍ لكنْ تكونُ أنتَ للغلظَةِ والفظاظةِ، وأكونُ أنا

للرأفةِ والرَّحمةِ، فإذا هَرَبَ هاربٌ وَجَدَ لهُ باباً يلِجُ فيه والسلامُ.

وقيلَ لمعاوية آنتَ أدْهى أمْ زيادٌ؟ فقالَ :إن زياداً ليس يدعُ الأمورَ تتفرَّقُ عليهِ، بلْ يجمعُها قبلَ ذلكَ، وإنها لتتفرقُ عَليَّ ثُمَّ أجمعُها.

قالَ قومٌ لزيادٍ :بِمَ ضبطتَ العِراقَ، ؟قالَ :بالسَّيفِ، قال :أنا ضبطت العراقَ والشَّامَ والحجازَ بالحِلْمِ.

وَلَمَّا هَمَّ معاويةُ بالبيعةِ لابنِهِ يزيدَ، كتبَ إلى زيادٍ يستشيرُهُ فيه فدعا زيادُ .عبدَ بنَ كَعْبِ النميري ()، فأوفَدَه على معاويةُ فقالَ :إن لِكُلِّ مستشيرٍ ثِقَةٌ، ولكُل سِر مستودَعاً، وإنَّ الناسَ قَدْ ابتُدِعَتْ لَهُمْ خِصلتان، إضاعةُ السرِّ وإفسادُ النَّصيحةِ، وليست يُستودَعُ إلا عِندَ رَجلين :رجلٌ يَرجُو ثوابَ الآخِرَة، ورجل لَهُ حَسَبٌ وعقلٌ، يصون حَسَبَهُ وعقلَهُ، وإن أميرَ المؤمنينَ يستشيرني، وعلاقةُ الإسلامِ وضمانهُ شديدٌ، لأنَّ يزيدَ صاحِبُ لَعِبٍ وتهاونٍ، مَعَ ما أولعَ فيهِ من الصَّيدِ .فألقَ أميرَ المؤمنينَ مؤديّاً عَنِّي، فَأخبرْهُ وَقُلْ لَهُ رويدَكَ في الأمرِ يستقيمُ، فإن دَرْكاً في تأخيرٍ خير مِنْ تعجيل أخافُ عاقبَتَهُ ولا تدري إلى ما يصيرُ الأمرُ فلمَّا بَلَّغَة الرسالة، أخذَ معاويةُ برأي زيادٍ وأخَّرَ بيعتَهُ .()وكتبَ إلى سعيدِ بنِ العاصِ ()يستشيرُه، فرجَعَ جوابُه إليهِ أنهُ قد بَقيتْ مشيَخة مِنْ أصحاب رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلَّمَ فرويداً بهذا الأمرِ، لعلَّهُم ينقرضونَ .فقال معاويةُ :صَدَقَ سعيدٌ فأخَّرَ البيعة ولم يزلْ يُداري الناس، بعدَ ذلكَ سبعَ سِنينَ، إلى أنْ تَمَّ لَهُ الأمرُ.

وقيلَ :إنَّهُ استشارَ الأحنفَ بنَ قيس، فقالَ :أدخلُ على يزيدَ فأدخَلَهُ عليهِ، فَلَمَّا خرجَ قال لَهُ معاويةُ :كيفَ رأيتَ يزيدَ، فقالَ :رأيتُ شباباً وجلداً ونشاطاً، ثُمّ قالَ : نخافُكم إنْ صدَقنا ونخافُ اللهَ إنْ كَذبنَا، وأنْتَ أعلمُ يا أمير المؤمنينَ بليلِهِ ونهارِهِ، ومدخلِهِ ومخرجِهِ، وسرّهِ وجهارِه، وإيرادِهِ وإصدارِهِ، فإنْ كنتَ تعلَمُ أن فيهِ للهِ رِضىً، ولهذه الأمةِ صلاحاً، فلا تشاورْ الناسَ، وإنْ كنتَ تعلَمُ مِنهُ غيرَ ذلكَ، فلا تزوْدهُ الدّنيا وأنت عائِدٌ إلى الآخرة وإنما علينَا السَّمعُ والطاعة فقالَ معاوية :جزاكَ اللهُ عن الطاعةِ خيراً.

ولما أخذَ معاويةُ في البيعَةِ ليزيدَ، قالَ لَهُ :يا بُني، لَقَدْ ذَللت لكَ الشدَّةَ، ومنحتُكَ اللينَ، وتحملت دونَكَ الغِلظَة، وقد وليتُكَ أمراً عظيماً مِنْ أمرِ الأمةِ، وليسَ حيٌّ مِنْ أحياءِ العربِ إلا وَلَهُ عِندي ترةٌ ()قدْ كنتُ أشغِلُهُ عنَها بحسنِ الوفادَةِ، وجزيلِ الرّفدِ، حَتّى تركتُ قلوبَهُم كالطينَةِ المؤتثةِ فلا تخالفن فعْلِي فِيهِم فعليكَ بإدرارِ عَطْيتِكَ، ومباشرَةِ أمورِكَ، ولا تشغَلْ نفسَكَ بمفاكهة الإماءِ ومداعبتِهن، فإن ذلكَ من فِعْلِ

ضعفَةِ الرِّجالِ .وانْظُرْ هؤلاءِ الأربعةِ مِنْ قريشٍ، أما الحسين بنُ عليّ فإني قد أوصيتكَ فيهِ بحفْظِ قرابتِهِ ورعايةِ حَقِّ رَحِمِهِ فإن القلوبَ إليهِ جانحةٌ فاجعلْ لَهُ عِندَ ظَفَرِكَ نصيباً من رحمكَ، واطوي كشحاً عَن ابنِ عُمَرَ، وابنِ أبي بَكرٍ، فإنّهما كمثلِ الهقلِ ()لا يحملُ ثقلاً ولا يجمعُ نهوضاً وأما ابنُ الزبيرِ فكالثعلَبِ رواغٌ بالحيلةِ وكالليثِ صال بالجراءةِ .()

وفي روايةٍ أُخرَى أنَّه قالَ :أمّا عبدُ اللهِ بنُ عُمرَ ()فقدْ شغلتْه العبادَةُ

وأمّا عبدُالرحمنِ بنُ أبي بكرٍ ()فليسَ لَه هِمةٌ إلا في النِّساءِ واللهو.

فَلمَّا بُويعَ يزيدُ ()حَجّ بالنَّاسِ وَقَسَّم بمكةَ والمدينةِ أموالا كثيرةً وقالَ لَهُ عبدُاللهِ بنُ الزبيرِ :إذا خرجْتَ فاخرجْ مَعَكَ الحسينَ بنَ عليّ، واطلبْ من مروان دارَه فإنَكَ لا تأتي بفائدةٍ مِثْلها، فقالَ ما اتَّهُم رأيكَ، أما الحسينُ فإني أوفدُ إليهِ فإنْ خَرج مَعَهُم وأقامَ بالشامِ، عرفنا حَقَّهُ، ورعينا قرابتهُ وإن رجعَ إلى أهلِهِ، لم ندعْ صِلَتَه، فقدْ أقام دهره بالمدينةِ، لم يأتِنا مِنْه ما نكرهُ.

وكَتبَ معاوية إلى سعيدِ بنِ العاصِ، وهو أميرُ بالمدينةِ، بالقبضِ على مالِ مروانَ بنِ الحكمِ ()، فَلَمْ يفعلْ فراجَعَهُ فيهِ، ثُمّ كَتب كتاباً ثانياً فدافَعَه واحتفظَ بالكتابين، فَلمّا عُزِلَ سعيدُ وَوليَ مروانُ بن الحَكَمِ المدينةَ وَكَتَبَ إليهِ بالقبْضِ على أموالِ سَعيدٍ فأرسل مروانُ بالكتابِ مع ابنِهِ عبدِ الملكِ إلى سعيدٍ وقالَ :لو لَمْ يكنْ الكتابُ لتجافيتُ عَنْ ذلكَ، فَدعَا سعيدٌ بالكتابين، فَأعطاهُما عَبْدَ الملكِ فَجَاءَ بهما إلى مروانَ، فَلَما قرأهُما قالَ :هو أفضلُ مِنّا فكفَ عن قبضِ أموالِ سعيدٍ.

وقالَ سعيدٌ لولدِهِ :مَنْ أتاكُم في مجالِسِكم، فقد وَجَبَ حَقُّهُ عليكُم ومن أتاكُم في منازِلِكم، فقد وَجَبَتْ حُرمتُهُ عليكُمْ، ومن أتاكُم في حاجةٍ فَلاَ تدخروهُ شيئاً، فمنّتُهُ عليكم أعظمُ إذ رأكم موضعاً لحاجتِهِ.

وَلَمّا حَضَرتْ سعيدَ بنَ العاصِ الوفاة، قالَ لبنيهِ أيّكُم يكفلُ بديني فقالَ ابنُهُ عمروٍ الأشدقُ ()، :وَكَمْ دينُكَ، قالَ :ثمانون ألفاً، قالَ :وفيمَ استدنتها قالَ :سَدَدْتُ بها خلةٌ من كريمٍ واشتريت بها عِرضي مِنْ لئيمٍ، فإذنْ أنَا بها زَعيمٌ، قالَ :هَذِهِ خصلة واحدةٌ يا بُنيَّ وخصلتان قالَ :ما هُما قالَ :بنَاتي لا تزوجوهُن إلا من الأكفاءِ، ولو تعلّقَ حبلٌ مِن الشَّعْرِ، قالَ عَلَيَّ :يا أبتي قالَ :وإخواني إنْ فَقدُوا وَجْهي لم يفقدوا مَعروفي قالَ :عليَّ :يا أبتي قالَ :واللهِ يا بُنيَّ، ما زلتُ أعرفُ الكرمَ في وجهكَ، وحماليق عينيكَ، وأنتَ في المهدِ، واللهِ يا بُنيَّ ما شتمتُ أحداً، منذُ كنت رَجُلاً، ولا زاحمتُ بركبتي رجلاً ولا كلفت من يرتجيني أنْ يسألني .وقالَ زيادُ :استوصوا

بثلاثةٍ منكُم خيراً الشريفِ، والعالمِ، والشيخِ واللهِ لا يأتيني شريفٌ بوضيع، استخف بِهِ إلا ضربتُهُ، ولا يأتيني شَيْخٌ بشابٍ استخف بِهِ إلا أوجعْتُهُ، ولا يأتيني عالِمٌ بجاهِلٍ استخفَّ بِهِ إلا نكلتُ بِهِ .ولهذا قالَ :ارحموا ثلاثةٌ :غنيَّ قوم افتقرَ، وعزيزَ قوم ذلَّ، وعالماً بينَ جُهّالٍ.

واختصمَ إلى زيادٍ رَجلان، فقالَ أحدهما :أصلحَ اللهُ الأميرَ إنَّ هذا يدُّلُ بخاصتِهِ، يَزْعَمُ أنها لَهُ مِنكَ، قالَ :صَدَقَ وسأخبرُكَ بما ينفعُهُ عندي مِنْ مودتِه، إنْ كانَ الحق لَهُ عليكَ أخذتُكَ بِهِ أخذاً عنيفاً، وإنْ كانَ الحق لكَ عليهِ أقضي عليهِ، ثم أقضِي عَنْهُ.

وكانَ زيادٌ إذا ولَّىَ رَجُلا، قالَ لَهُ :خُذْ عَهْدَكَ وَسِرْ إلى عَمَلِكَ، واعلمْ أنكَ مصروفُ رأس سنتك، وأنتَ تصيرُ إلى إحدَى ثلاثِ خصال، فاخترْ لِنفسِكَ، إنْ وجدناكْ أميناً ضعيفاً استبدلْنَا بِكَ لِضَعفِكَ وَسلَمتكَ من معرَّتِنا أمانتُكَ وإنْ وجدنَاكَ خائناً قوياً استهنَا بِقوتكَ وأحسنَا على خيانتِكَ أدبَكَ وأوجعنا ظَهرَكَ وإنْ وجدناكَ قويَّاً أميناً زِدنَا في عَمَلِكَ وَرَفعنَا لكَ ذِكْرك وأوطئنَا كعبكَ وَكثّرنا مالكَ.

وكانَ لزيادٍ سياسةٌ عظيمة، حتى إنَّهُ كانَ لا يُغْلِق أبوابَ الحوانيتِ في الليل . وَمَا ذُكِرَ مِن حُسْنِ تدبيرِهِ أنهُ أُتيَ بإمرأةٍ كانتْ قَدْ خَرَجتْ مَعَ الخوارج في الحرْبِ، فَقَتَلَها ثُمّ عرَّاها .فَلَمْ يخرجْ النساءُ عليه بَعْدَ ذلكَ وكُنَّ إذا دعينَ إلى الخروج قُلْنَّ لولا التعريةُ لَسَارعنَا إلى الخروج .وكان يقتُلُ المظاهرِ بالخروج، ويستصلِحُ المسر مِنْهُم، حتَّى يستكفي شرهُم، وخروجَهم عَلَيهِ وكان يبعثُ إلى الجماعةِ مِنهُم، فيقولُ ما أحسَبُ الذي يمنُعُكم مِن إتيانِي إلا الرُّجلةُ ()فيقولونَ أجَلْ، فيحملُهُم فيقولُ أغشوني الآنَ، واسمرُوا عِنْدِي.

وَكَانَ عُمَرُ بنُ عبدِالرحمنِ رَحِمَهُ الله يقولُ :قاتلَ اللهُ زياداً جمعَ لَهُم كما تجمعُ الذرةُ، وحاطَهُمْ كما تحوطُ الأمُّ البَرَة، وأصلحَ العراقَ بأهلِ العراقِ، وتَرَكَ أهْلَ الشامِ في شامِهم.

ولمّا ولَّيَ يزيدُ بنُ معاويَة سَلْمَ بن زيادٍ ()قالَ :إن أبي استكفَى أباكَ كبيراً، وقَدْ استكفيتُكَ صغيراً، فلا تتكلنَّ عليَّ عُذْر مني فَقَدْ اتكلتُ على كفايةٍ منكَ، وإيَّاكَ مِنِّي قبلَ أنْ أقولَ إيايَ مِنكَ، فإنَّ الظَّنَّ إذا أخلفَ مِنْكَ أخلفَ لكَ، وأنتَ في أدنى حَظِّكَ، فاطلبْ أقصاهُ وَقَدْ أتعبَكَ أبوك، فلا تريحنَّ نفسَكَ، واطلبْ في يومِكَ أحاديثَ غَدِك، وَكُنْ لِنفسِكَ تَكنْ لكَ.

وَدَخَلَ عبدُاللهِ بنُ جعفرٍ ()على يزيدَ بن معاوية فأكرَمَهُ، وقالَ بِكَمْ كان يصلُكَ

معاويةُ، فقالَ كان يصلُني بألفِ ألفِ درهم وترَّحمَ عليهِ .قالَ يزيدُ :وَقَدْ زدناكَ ألفَ ألفٍ أخرى، لتَرَحُّمِكَ عَلَيْهِ

أخَذَ مُصْعَبُ بنُ الزبيرِ ()رَجُلاً مِنْ أصحاب المختارِ ()، فأمرَ بضربِ عُنقِهِ فقالَ :أصلحَ اللهُ الأميرَ، ما أقبحَ مِنْ أنْ أقومَ يومَ القيامةِ إلى صورتِكِ هذه الحسنةِ، ووجهِكَ هذا الحسنِ، الذي يُستضاء بِهِ فأتعلَّقُ بأطرافِكَ فأقولُ :أي رَبِّ سَلْ مُصْعَباً فيمَ قتلَني، فقالَ :أطلقُوهُ، قالَ :أيُّها الأميرُ اجعلْ ما وهبتَ لي مِن عُمْرِي في خفض، قال :قد أمرتُ لك بمائةِ ألفِ درهم، فإني أُشهدُ الله تعالى وأشهدُ الأميرَ، أنَّ لابنِ قَيْسِ الرقياتِ ()نصفَها، قالَ :ولِمَ قَالَ لِقولِهِ:

تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ إنما مُصْعَبٌ شِهابٌ مِنَ اللهِ

جبروتُ مِنْهُ ولا كِبْرِياءُ مُلْكُهُ مُلْكُ رَحمةٍ ليسَ فيهِ

أفلَحَ مَن كَانَ هَمُّهُ الاتّقاءُ () يتقي اللهَ في الأمورِ وَقَدْ

فَضَحِكَ مصعبُ، وقالَ :أرَى فيكَ مَوْضِعً للصنيعةِ، فأحْسَنَ جائزَتَهُ.

ولَمّا بَلَغَ عَبدَالله بنُ الزبير، قتلُ أخيهِ مُصعَبٍ خطبَ الناسَ فقالَ :الحمد لله الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء إنه لم يذل من كانَ الحقُّ مَعَهُ، وإنْ كَانَ فرداً، ولم يُعز مَنْ كان مِن أولياءِ الشيطانِ وإنْ كانَ مَعَهُ الثَّقلانِ .أتانا خبرٌ من العراق، أحزنَنَا، وأفرحَنا، قتلُ مُصْعَبٍ يرحمه اللهِ، فأما الذي أحزَنَنا، فإن لفراقَ الحميمَ لوعةٌ، يجدُها حميمُهُ عندَ المصيبةِ، ثمَّ يَرْعوي ذَوي الرأي، إلى جميلِ الصَّبْرِ وكريمِ العزاء، وأمَّا الذي أفرحَنا فَعَلِمْنَا أنَّ قَتْلَهُ شهادةٌ، وأن ذلكَ لَنا ولَهُ فيه الخيرةُ . ألا وإنَّ أهلَ العراقِ أهلُ الشِّقاقِ والنِّفاقِ؛ باعوهُ بأقلِّ ثَمَنٍ كانوا يأخذونَهُ مِنْهُ، إنَّا واللهِ ما نموتُ حبجاً، وما نموتُ إلا قصعاً بالرماحِ، وتحتَ ظلالِ السيوفِ وليسَ كما يموتُ بنو مروانَ، حبجاً، واللهِ إنْ قُتِلَ منهم رجلاً في جاهليةٍ ولا إسلام ألا وإن الدُّنيا عاريةٌ مِن الملكِ الأعلى، فإنْ تُقْبِلْ عليَّ لا آخذُها أخذَ البَطِرِ الأشرِ ()، وإنْ تدبرْ عنِّي لا أبكي عليها بكاءَ الحَزِنِ المهترِ.

قلتُ الحبجُ، إنْ ينتفخ بطنُ الدابة، مِنْ كثرةِ الأكل فتموتَ .والقصْعُ أنْ يطْعَنَ ويضربَ، فيموت مكانَهُ في الحالِ .والمهترِ الذي يسقطُ في كلامِهِ من الكِبَرِ .وقالَ المهلّبُ :بنُ أبي صفرةَ لبنيه :يا بنيَّ إن ثيابَكم على غيركم أحسنُ مِنْهَا عليكُم، وإنَّ دوابَكم تحْتَ غيركم، أحسنُ منها تحتَكم.

وقالَ أيضاً لبنيهِ :لا تتكلوا على ما سبقَ من فِعْلِي، وافعَلوا ما يُنسَبُ إليكُم .

وأنشد:

وأحيا فِعالهُ المولودُ () إنما المجدُ ما بنا والدُ الصِّدْق

وقالَ لابنِهِ يزيدَ :()اخفضْ جناحَكَ، واشتدَّ في سلطانِكَ فإنِّي رأيتُ الناسَ للسلطانِ، أهيبَ مِنْهم للقرآنِ.

ومرَّ في الكوفةِ بحيٍّ من همدانَ، في نادٍ لَهُم فقالَ رجلٌ مِنْهُم واللهِ ما يساوي إلا خمسمائةِ درهم، وكانَ المهلبُ أعوراً، فنظر إلى الرجلِ حتى أثبتَه، فلما خَرَجَ بالعشى، حَمَلَ في كَفّهِ خمسمائةِ دِرْهمٍ، ثُمَّ ضَرَبَ دابتَه حتى وقفَ في نادي همدانَ، فبصرَ بالشَّاب فقالَ :افتحْ حِجْرَكَ، وقالَ دونَكَ يا ابن أخي قيمة عمّكَ .فَوالله لَو قَوَّمتَهُ بأكثرَ مِنْ هذا لجاءتك فقالَ الفتى :واسوأتاهُ قالَ المهلبُ :لا ضيرَ، فقالَ شيخٌ من همدان :ما أخطأ من سَوّدَكَ.

وَقَدِمَ زيادُ بنُ الأعجمِ، على المُهلّبِ بن أبي صُفْرَة الأزديّ بخرسانَ فنزلَ على ابنه حبيبٍ ()فَجَلَسَا على شرابٍ، وفي الدَّارِ شجرةٌ عليهَا حمامةٌ فَجَعَلَتْ تغَرِّدُ فقالَ زيادُ:

وذِمَّة والدي أن لا تُضاري تَغَنَّيْ أنتِ في ذِمَمِي وعَهْدِي
ذكرتُ أحبّتي وذكرتُ داري إذا غنيت أو طربت يوماً
بقتلِهم لأنّكَ في جِواري فإمَّا يَقتلوك طلبتُ ثأري

فَأَخَذَ حبيبُ سَهْماً، فَرَماهَا فأثبتَها، بهِ فماتَتْ .فقالَ زيادُ :قَتَلْتَ جاري، بيني وبينَك المهلّبُ، ثُمَّ أتى المهلّبَ، فأخبَرَهُ فقالَ :يا حبيبُ ادفعْ إلى أبي أُمامة ألفَ دينارٍ، فقالَ حبيبُ :أعزَّ اللهُ الأميرَ إنَّما كُنْتُ ألْعَبُ، فقالَ :مَعَ هذا اللَّعِبِ جارُ أبي أُمامة جاري، فَدَفَعَ حبيبُ إليهِ ألْفَ دينارٍ، فَأَنْشَأَ زيادُ يقولُ:

قضاهَا فأمْضَاهَا الأميرُ المهلّبُ فَلِلهِ عَينا مَنْ رأى مِنْ قضيَّة
مِنَ الطّيرِ حَضانٌ على البيْضِ قضَى ألفَ دينارٍ لجارٍ أجرْتُه
يَنْعَبُ رماهُ حبيبٌ بنَ المهلّبِ رمية
فأنفذَهُ بالسَّهْمِ والشمسُ تغربُ فألزَمَهُ عقلَ القتيلِ بأسْرِهِ
فقالَ حبيبُ إنَّما كنتُ ألْعَبُ فقالَ زيادُ لا يروعُ جارَهُ
وجارُهُ جاري بل من الجار أقربُ

فَلَمَّا سَمِعَها المهلّبُ أجازَهُ بجائزةٍ حَسَنَةٍ وصرفه مكرَّماً .فَبَلَغَ ذلك الحجاجَ فقالَ :ما أخطأتَ العربِ إذْ جَعَلَتْ المهلّبَ شَيْخَها.

وَقَفَ أعرابي على عَبدِ الملِكِ بْنِ مروانَ ()، فَسَلَّمَ ثُمَّ قالَ :يَرْحَمُكَ اللهُ أنَّهُ مَرَّتْ بِنا سنونَ ثلاثٌ أمّا إحداها فأخذَتِ المواشيَ وأمَّا الثانِيَةُ فَنَفَضتِ اللَّحمَ، وأمَّا الثالِثَةُ

فخَلُصت إلى العظم، وعِنْدَكَ مالٌ فإن يكنْ للهِ فأعطِهِ عِبادَ اللهِ وأنْ يكُنْ لَكَ فَتَصَدّق علينا، إن اللهَ يَجْزِي المتَصَدِّقينَ فَأعْطاهُ عشرَةَ آلافِ درهمٍ وقالَ :لَوْ كانَ النَّاسُ يُحْسِنُونَ يَسْأَلونَ ما حَرَمنا أحداً .قصة إبراهيمَ بنِ محمدٍ بنِ طلحة مع الحجاج الواردَةَ في صَفْحَةِ ١٤٦-١٤٤في هذا الموضعِ ولَمّا كنتُ أُحَقّقُ الأصلَ فَقَدْ اكتَفَيْتُ بذِكرِهَا هُناكَ وَكَما وَرَدَتْ في الأصْلِ مراعاةً لِحرمةِ الأصل.(

ولمَّا وَلَّى عبدُ الملِكِ 0، الحجَّاجَ 0كَتَبَ إليهِ إني قَدْ استعملتُكَ على العراقين، صَدْمَةً فَأخْرجَ إليْهِمَا كميشَ الأزارِ، شديدَ العذارِ، مُنْطويَ الخصيلةِ، قليلَ الثميلةِ، غرارَ النومِ، طويلَ اليوم.

فَلَمَّا دَخَلَ الحجاجُ الكوفَةَ، أتاهُم آتٍ فقالَ :إنَّ الحجاجُ قَدْ قَدِمَ أميراً على العراق فاشْرَأبَّ الناسُ نَحْوَهُ، وتطاوَلُوا ثم أفْرَجُوا لَهُ فُرْجَةً عَنْ صَحْنِ المسجِدِ، فإذا هو يَتَبهنسُ في مِشيتِهِ، مُتَلَثِّماً بِعمامةِ خِزٍّ حمراءَ، مُتنكباً قَوْساً عربيةً يؤمُّ المنبرَ فرقاهُ وجَلَسَ .وأهلُ الكوفةِ إذْ ذاك لَهُمْ مَنَعَةٌ وفي المسجِدِ عُميرُ بنُ ضابِي 0، فقالَ لِمحمّدِ بن عطاءٍ :هَلْ لَكَ أنْ أحصَبُهُ فقالَ :لا حتى نسمَعَ كلامَهُ، فقالَ :لَعَنَ الله بَني أمية حيثُ يستعملونَ علينَا هذا لو كَانَ هذا كُلُّه كلاماً، لم يكُن شيئاً.

فقالَ الحجاجُ :يا أهلَ العراق أنَا لا أعْرِفُ قَدرَ اجتماعِكُمْ أفقدْ اجتمعتُمْ، فقالَ رَجُلٌ :قد اجتَمَعْنا أعَزَ اللهُ الأميرَ فَسَكَتَ هنيهةً لا يتكلَّمُ، فَقَالوا يمنعُهُ العيُّ والحَصْرُ ثُمَّ قامَ فَحدَّرَ اللثامَ وقالَ:

مَتى أضَعُ العمامَةَ تَعْرِفُوني أنا ابْن جَلا وطلاعُ الثَنايا
كَنصلِ السَّيفِ وضاح الجبين صليبُ العود من سَلَفِي نـزارِ
ونجذني مداورَةَ الشَّؤون 0 أخو خمسينَ مجتمعٌ أشدي

يا أهلَ العراق إنِّي أرَى رؤوساً، قدْ أينعتْ وحانَ قطافُها، وإنِّي لصاحِبُها وكأني أنظرُ إلى الدماء، بين العمائِمِ واللِّحَى.

ليسَ أوانٌ يكثُرُ الخِلاطُ ليس أوانُ عشكِ فادَّرجي
أرْوَع خَراجٍ مـن الدَوّيِّ قد لَفَّها اللَّيْلُ بعصْلَبيٍّ
مُهاجِرٍ ليس بأعرابيٍّ
قد لَفَّهَا الليلُ بسواق حُطَمْ .....
ولا بجزارٍ على ظَهْرِ وَضَمْ 0 لَيْسَ بِراعِي إبلٍ ولا غَنَمْ

إني واللهِ يا أهلَ العراق، ما يُغْمَزُ جانبي من اللِّين، ولا يقعقعُ لي بالشّنان 0

ولقد فررتُ عن تجربةٍ، وأجريتُ مع الغايةِ، وأنَّ أميرَ المؤمنينَ نكثَ كِنانَتَهُ بينَ يديهِ، فَعَجَمَ عيدانَها، فوجدَني أمرَّها عُوداً، وأصلبَها مَكْسِراً فوجهني إليكُم .

فوالله لاعصبَّنكُم عَصْبَ السَّلَمَةِ، ولألحوَّنكُم لَحْوَ العودِ، وَأضربنَّكمُ ضَرْبَ غرائبِ الإبلِ، وَلآخذنَّ الوليَّ بالولي، حتى تستقيمَ لي قناتُكم، حَتَّى يَلقَى أحدُكم أخاهُ فيقولُ انجُ سعدُ فَقَدْ قُتِلَ سُعَيْدُ ألا وأيايَ وَهذه السقفاءَ والزرافاتِ، فإني لا أجِدُ أحداً من الجالسينَ في زرافةٍ، إلا ضربتُ عُنُقَهُ .فاستوسِقُوا واعتدِلوا، ولا تميلُوا وأطيعُوا .واعلمُوا أنَّه ليس مِنِّي الاكثارُ والإهذارُ ولا معي ذلكَ الفرارُ والتعرارُ، وإنَّما هو انتضائِي هذا السيفَ، ثُمّ لا أغمدُهُ الشتاءَ ولا الصيفَ حَتَّى يَظْهَرَ أمرُ اللهِ، ويذلَّ لأميرِ المؤمنينَ صعبُكُم، ويستقيمَ له أودُكُم وصعرُكم، وإن أميرَ المؤمنينَ أمَرني بأعطياتِكُم، وأشخاصِكُم إلى مجاهدةِ عَدوّكُم، وقد أمرتُكم بذلكَ، وأجلتُكم ثلاثاً، وأعطيتُ الله عهداً لأنْ تَخَلَّفَ أحدٌ مِنْكُم، بعدَ قبضِه عطائِهِ يوماً واحداً لأضربَّن عنقَهُ، ولأنهبنَّ مالَهُ .يا غلامُ اقرأ كتابَ أميرِ المؤمنينَ، فقرأهُ ثُمّ دَخَلَ دارَ الإمارةِ.

وهذه الحكايةُ قَدْ اشتملتْ على ألفاظٍ كثيرةٍ، من الغريبِ، وأنا أُشيرُ إلى بيانِها على سبيلِ الاختصارِ .قولُهُ صَدْمَةً، أي ضربةً واحدةً ودفعةً واحدةً، وكميشَ الازارِ، مُشمَرَ الازارِ ويقالُ في المَثَلِ لِمنْ جَدَّ في الشيءِ وَشَمّرَ فِيهِ :هو كميشُ الازارِ، شديدُ العذارِ، والخصيلةُ، لَحمُ الفخذينِ وَلَحْمُ السَّاقينِ وأراد بذلكَ الاسراعَ والجدَّ في الأمرِ .والثميلةُ، البقيةُ مِن الطَّعامِ والشرابِ في بطنِ الإنسانِ، أرادَ أنْ لا يستكثرَ مِنَ الطعامِ ويشتغلَ بصنوفِهِ، ولكن اقتصرَ على ما لا بُدَّ مِنْهُ فعلَ الجادِّ المُشَمِّرِ وغرارَ النَّومِ، قليلَهُ ويقالُ لِمنْ عَمِلَ في يومِهِ وَجَدَ فيهِ، وَلَمْ يشتغلْ بِلهوٍ ولا لَعِبٍ :هو طويل اليومِ، فَإنْ اشتغلَ بالشَّرابِ واللهو قِيلَ :هُوَ قصيرُ اليومِ .واشرأبَّ الناسُ تطاولوا وأشرفوا .تبهنَسَ :تمايلَ في مَشيَتِهِ وتخايلَ وَيُقالُ لِمنْ كانَ ظاهِراً مشهوراً غيرَ خافٍ ولا خامِلٍ هُوَ ابنُ جَلا .والثَّنايا :ما ارتفعَ مِنَ الأرضِ وَغَلُظَ ويقالُ لِمنْ لَم يزلْ يفعلُ أفعالاً شريفةً هُو طلاّع الثنايا .ويقالُ للقوِّي في أمرِهِ :هو صليبُ العودِ، والأشدّ، جَمْعُ شِدّةٍ وهو القوةُ، يقالُ لِمنْ جَرَّبَ الأمورَ وأحكَمَها :هو منجِدٌ والناجِدُ :أقصى الأضراسِ، والشؤونُ جمعُ شأنٍ يقالُ أينعتِ الثمرةُ إذا أدركتْ وبلغت وقطْفُ الثمرةِ أخذُهَا فَشَبَّه الرؤوسَ بذلك، ليسَ أوان عشك فادّرجي يُضْرَبُ مَثَلا لِلْمطمئنِّ وَقَدْ أظلَّهُ أمرٌ عظيمٌ يحتاجُ إلى مباشرتِهِ والقيامِ بأمرِهِ .والخلاطُ الفسادُ وهو شبيهٌ بالمثلِ الأولِ .ويقالُ :العصلبيُّ الشديدُ مِنَ الرجالِ فَجَعَلَهُم بمنـزلةِ

ناقةٍ أو إبل لِرَجُلٍ قَوِّي شديدٍ يسري عليها ويتبعُها ولا يَرْكَنُ إلى دَعَةٍ ولا سكونٍ، فجعلَ ذلكَ كذلك وَلَفَّ :جمع وأروعُ :جميع، والدَّاوي :جمع داويةٍ وهي الفلاةُ يريدُ أنّهُ صاحبُ أسفارٍ ورَحْلٍ، والحُطَمُ :العنيفُ من السَّوق وهو شبيهٌ بالمثل الأول : والوضِمْ :كل ما وقيتْ بِهِ اللحمُ من خَوانٍ أو حصيرٍ أو غيرِه، يقالُ يُقعقِعُ بالشِّنان : أيْ يُحَرِّكُ الشنانَ وهو ما خَلُقَ من الأسقيةِ وأصلُهُ أنْ يُحرك الشِّنَ، حَتى يُسْمَعَ لَهُ صَوْتٌ، لِيَفِرَّ بِهِ الوحوشَ ويجلِبَ بِهِ على الطّيرَ وشَبَهَهَا، يقولُ :لستُ مِمّنْ يروعُ بالأباطيلِ وَيقرعُ بالتخيلاتِ، وقولُهُ فررتُ عن تجربةٍ أصلُهُ أنْ يفرَّ الدابَة أي يكشِفُ جَحْفَلَتها، لينظرَ إلى أسنانِها فيعرفَ بِها سِنَّها والكنانةُ التي يكونُ فيها السِّهامُ، وَنَكَثَها أي كَبَّها وصبَّ ما فيها، والعجْمُ الاختبارُ يُريدُ أنَّه اختبرَهَا، لِيعلَمَ صلابَتها من خَوَرِهَا وقويّها من ضعيفِها، وعصْبُ السَّلَمةِ يقالُ إنَّ الرجلَ إذا حَطَبَها شَدَّها بنسعَةٍ لئلا يصيبُه شوكُها، يَضرَبُ مَثَلا لِمَنْ عصبْتُه بِشّرٍ وأمرٍ شديدٍ، يُقالُ : لحوتُ العودَ ولَحيتُهُ إذا قَشْرتُهُ، يُقالُ في المَثَلِ :ضرَبَهُ ضَرْبَ غرائِبِ الإبلِ والأصلُ فيه أن الإبلَ إذا وَردتْ فدخَلَ فيها غريبُهُ ليستْ مِن الإبلِ عن الماءِ وضربتْ حتى تَخْرجَ عَنها، ويقالُ في المثلِ لمنْ يُعنى برحمه أو حميمه :أنجُ سعدٌ فَقَد قُتلَ سُعَيدٌ وَأصلُه أنَّ سعداً وَسُعَيْداً ابني ضَبّهُ خرجا يطلبان أباهما فَرَجَعَ سَعْدٌ ولم يرجعْ سعيدٌ، والزرافاتُ :الجماعاتُ، وأمّا السقفاءُ فلم يذكرْ أحدٌ لَها تفسيراً . وقالَ بعضُهم :إنّها تصحيفٌ وإنما هو الشُفعاءُ وَهُمْ الذينَ يَشفعونَ عندَ السلطانِ في المذنب فنهاهُم عنْ ذلك .()

وقالَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لكثيرِ بنِ هراثة الكلابيِّ :هذا الحجاجُ قادماً منَ العراقِ، وَقَدْ شمخَ بأنفِهِ ونفخَ الشيطانُ في منخرِهِ، فإذا دخلَ عليّ فتعرضْ لَهُ بما يكرهُ، قالَ :أفعلُ يا أميرَ المؤمنينَ .فلمّا دخلَ الحجاجُ وأخذ مجلسَهُ وأفاضوا في الحديثِ، قال لَهُ عبدُ الملكِ :ما تقولُ في ثقيفٍ يا حجاجُ فَقَد زَعمَ أُناسٌ أنهم من إيادٍ وقالَ آخرونَ مِنْ قيس، :وأنتَ أعرفُ بقومِكَ فقال :أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنينَ الحق أبلجُ وطريقُ الرّشدِ أبهجُ وَلَنْ يجدَ مَنْ ركبَ الحقَّ وقصدَ الصدِّقَ نحنُ مِنْ قيس ثابتُهُ أصولُنا، نابتةٌ غصوننُا باسقةٌ فرُوعنا فَعَلى ذلكَ قومُنا .فقالَ كثيرُ :لَقَدْ كانَ لَكَ مُندُ دَهْرٍ طويلٍ، وهو على أهلِهِ عارٌ وبيلٌ، وخطبٌ جليلٌ، دخولُ رجل في قوم ليس مِنْهُم وتركُهُ قومَه رغبةً عَنْهُم .قالَ الحجاجُ :أمّا واللهِ لولا مكانُ أميرِ المؤمنينَ لاستوعرتُ موطنَكَ، ولاستعظمتُ مركَبكَ، ولأوردتُكَ مورداً يعبأ بالاصدارِ عَنْهُ ذوو القوةِ .فقالَ كُثيرُ :أنتَ أضعفُ كوعاً وأملى روعاً، ولن تنالَ ذلك بشيءٍ يا

حجاجُ على ما ضيعْتَ مِنَ الأمانةِ وأظهرتَ من الخيانةِ مَعَ سوءِ سيرةِ وقبحِ - سياسةٍ، فإنَّكَ خربتَ وما عمّرتَ، وأفسدْتَ وما أصلحتَ، وجرْتَ وما عدلتَ وتركتَ الحقَّ إذ حكمتَ .فقالَ الحجاجُ :أمّا إنّكَ يا كثيرُ لتمدُّ يداً قصيرةً، وأنامِلَ حقيرةً .لا يستعادُ بِكَ في المظالِمِ ولا يستعانُ بكَ في المغارمِ ولا تؤهلُ لدفعِ المظالِمِ . فلمَّا خَشِيَ عبدُ الملكِ أنْ يعْظُمَ بينَهُما الخطبُ عزَّمَ عليهما أنْ يسكتا، فخرجَ كُلُّ واحدٍ مِنْهما مملياً غيظاً وَحِقْداً ولم يلبثِ الحجاجُ أنْ خرجَ إلى العراقِ وَقَدِمَ وفدٌ مِن العراقِ على عبدِ الملكِ فلما أرادوا الانصرافَ .قالَ لكثيرِ بنِ هراثة :انطلق مَعَ هؤلاءِ القومِ، إلى الحجاجِ حتى تقومَ خطيباً، وتذكرَ السَّمعَ والطاعةَ لولاة الأمرِ، وكيفَ ينـزلُ بأهلِ الخلافِ والشّقاقِ مِنَ النقمةِ في العاجلِ والآجلِ .فقالَ لَهُ كثيرُ : إنكَ قد علمتَ يا أميرَ المؤمنينَ ما بيني وبينَه وأنتَ لي ملجأٌ إنْ قهرتُ، وعزَّا إنْ أذللتُ فإنْ أصابتني جائحةٌ أو حلَّتْ بي مصيبةٌ مِنَ الحجاجِ فأنتَ المطالبُ بِثأري، وأنتَ بَعْدَ اللهِ ثِقَتي، وقد بعثَني أميرُ المؤمنينَ إلى بلدٍ أتخوفُ أهلَهُ وأميراً أحذرُ فعلَهُ، وقدْ شمخَ بأنفِهِ نحوَ السماءِ واجترأ على سفكِ الدماءِ، وليسَ بحضرتي حفدة () يعينونني عليه ولا أنصارٌ ينصرونني .فقالَ لَهُ عبدُ الملكِ :أنفذْ لأمري، فلعمْري الحجاجُ أحكُم رأياً أنْ يأخذَكَ بأحنةٍ ()ويعرفَكَ بسيئةٍ، ولعمري لأنْ فعلَ لأحولنَّ زعامتَه، ولأنبذنَّ منـزلتَهُ وليفارقنَّ كرامَتَهُ وبالحرَى أنْ يكونَ قد أحكمتْهُ تجاربُهُ، وقصدَتْ بِهِ مذاهبُهُ وعزبَ عنهُ جهلُهُ وثابَ إليه حِلمُه فخرَج إليه كثيرُ في أصحابِهِ حتى قَدِمَ عَلَيهِ فلما دخل إليه قالَ لَهُ :مرحباً بكثيرِ بنِ هراثة من قومِ سادةٍ كِرامٍ قادةٍ بها ليلٍ ()زاده .قالَ لَهُ هراثة :قَدْ كانتْ بيني وبينَ الأميرِ أشياءُ امتلأتُ منها رُعباً، وَضِقْت بهَا ذَرْعاً، والأميرُ صحيحُ الأديمِ في الحَسَبِ الصميمِ والشرفِ القديمِ، لا يشتكي مِنهُ الضعفُ، ولا يخافُ منهُ العنفُ .فقال الحجاجُ :ما احتجنَا إلى ثنائِكَ، ولا رغَبنا في دُعائِك ولا تلامُ على فِعْلِكَ ولا يعاقَبُ مِثْلُكَ وأجازَهُ وفضلَّهُ على أصحابِهِ فَلَمّا قَدِمَ على عَبْدِ الملكِ قالَ :كيفَ رأيتَ رأيي في الحجاج يا كثيرُ ألم تجدْهُ مُصيباً، لا يأخذْ في أمرِهِ بالعجلةِ حتَّى يرى من عدوِّه الغرةَ .قالَ بلى يا أميرَ المؤمنينَ ما أحسنَ لفظَهُ، وأدومَ لحظَهُ وأسكَنَ فورَهُ وأبعدَ غورَهُ .واللهِ لو لَمْ يسهلْ من أمرِهِ ما توعرَ لطحنَني طَحْنَ المروةِ الململمةِ ()، متساقطَ حبِّ الجمجم .()

وكانَ الشعبيُّ مِمّنْ خَرَجَ ومع ابنِ الأشعثِ ()، فَلَمّا قَدِمَ على الحجّاج بعد قتلِ ابنِ الأشعثِ، قالَ :وأنتَ أيضاً مِمنْ خرجَ علينَا يا شعبيُّ قالَ :أحزنَ المنـزلُ، وأجدبَ الجنابُ، واكتحلنا السَّهرَ، واستحلسنا الخوفَ، ووقعنَا في حربِهِ لَمْ نكنْ فيها

بررةٌ أتقياءُ، ولا فجرةً أقوياءَ .قالَ صَدَقَ واللهِ ما بروَّا بخروجِهم علينا، ولا قوَّوا إذْ برزوا إلينَا، أطلقا عنه.

ودخلَ عليهِ ابن أبي ليلى ()وقالَ :أصلحَ اللهُ الأميرَ، مشهور النصيحةِ صحيحَ الأديمِ، شاكرَ اللسانِ خرجَ أبي مع ابنِ الأشعَثِ فهدَمَ مَنـزلي وَحلَّقَ على اسمي () وَحُرِمتُ عَطائي، فقالَ :أو ما سمعتَ الشاعرَ حيثُ يقولُ:

جانيكَ مَنْ يَجْني عَلَيْكَ وَقَدْ تُعْدِي الصِّحَاحَ مبَارِكُ الجُرْبِ

ولَرُبَّ مأخوذٍ بذَنْبِ قريبه ونَجا المُقارفُ صاحِبُ الذَّنْبِ

قالَ :لا ولكنِّي سمعتُ الله يقولُ :غَيرَ هذا في إخوةِ يوسفَ ﴿**قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ** .() ﴾

فقالَ :يا غُلام علي بيزيدِ بن أبي مُسلِم ()فأتاهُ فقالَ :ابن لَه دارَهُ واردد اسمَه واعطِه عطاءه.

وقالَ عبدُ الملكِ بنَ مروانَ لأسماءَ بن خارجةَ :()بَلَغني عَنْكَ خِصالٌ فحدثني بِهَا قالَ :هِي مِنْ غيري أحسنُ مِنْهَا مِني فقالَ :عزمتُ عليكَ ألا حدثتني فقالَ :يا أميرَ المؤمنينَ ما مددتُ رجلي بينَ يدي جليس لي قطُّ ولا صنعتُ طعاماً فدعوتُ عليه قوماً إلا كانوا أمَنَ عليّ مِنْهُمُ ولا نَصَبُ لي رَجُلَ وَجْهَهُ يسألني حاجةً فاستكثرتُ شيئاً أعطيتُه إياه.

وَلما وُلِيَّ الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ ()بنُ مروانَ الخلافةَ عَدَلَ في الرعيةِ، وأحسنَ السيرةَ، وأعطَى المحرومينَ، وقالَ :لا تسألُوا الناسَ شيئاً .وأعطى كُلَّ مُقعَدٍ خادِماً وَكلَّ ضريرٍ قائداً .وكانَ يَمرُّ بالبقَّالِ فيقفُ عليهِ فيأخذُ حزمةَ البقلِ، فيقولُ :بكمْ هذِه، فيقولُ :بفلسٍ فيقولُ :زدْ عليها.

ورويَ عن الزهريّ ()أنَّهُ قالَ :دخلتُ على عبدِ الملكِ مسجدَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلَّم بالمدينةِ، عامَ حَجَّ، فتفرَّقَ النَّاسُ منَ المسجدِ، وبقيَ سعيدُ بنُ المسيبِ ()قاعداً في مجلِسِه، فلم يتحركْ عَنْهُ فجعلتُ أطوفُ بالوليدِ، في نواحِي بعيداً عن مجلِسِ سعيدٍ واشغِلُهُ بالحديثِ، مخافةَ أنْ يَرى مكانَهُ، فحانتْ مِنْهُ التفاتةٌ فرآهُ .فقالَ لي :يا محمدُّ مَنْ هذا الشيخُ، قلتُ :سعيدَ بنَ المسيبِ، وَقَدْ كَفَّ بصرُهُ، ولا عِلْمَ لهُ بمكانِ أميرِ المؤمنينَ، وَلَوْ عَلِمَ لكانَ قَدْ أدَّى الواجبَ عليهِ، من الحقِّ فقالَ : بلْ نحنُ أحقُّ بالمصيرِ إليهِ، والزيارةِ لَهُ .فجاءهُ الوليدُ فَسَلَّمَ عليهِ وجلسَ عِنْدَهُ، وَسَأَلَهُ عَنْ حالِهِ .فواللهِ ما قَامَ لَهُ سعيدُ، ولا تزحزحَ عَنْ مكانِهِ فلما انصرفَ الوليدُ

قالَ لي :يا محمدُّ هذا مِنْ بقّيةِ الناس.

وَرَوَى الشافعيُّ ()رَحِمهُ اللهُ، عَنْ عمِّهِ محمَّدٍ بن عليٍّ بْنِ شافِعٍ قال :دخلَ سليمانُ ()بنُ يسارٍ، عَلَى الوليدِ بن عبدِ الملكِ، فقالَ لَهُ :يا سليمانُ مَنْ الذي تولَّى كِبَرَهُ ()، فقالَ :عبدُ اللهِ بنُ أبي بنُ سلول ()، فقالَ :كذبتَ لا أمّ لَكَ هو عليُّ بنُ أبي طالبٍ، قالَ :أنتَ أعلَمُ وما تقول؟ قالَ :فَمّا حديثُ حدّثنا بِهِ أهلُ الشامِ أين اللهَ عزَّ وجلَّ إذّا استرعَى عبداً رعيةً، كَتَبَ لَهُ الحسناتِ ولم يكتبْ عليهِ السيئاتِ، قالَ :لا أدري، ثُمَّ دَخَلَ مُحَمَّدُ بنُ شِهاب الزُّهري فقالَ له الوليدُ :يا محمدُّ مَن الذي تَولَّى كِبَرَهُ، فقالَ :عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ بنُ سَلولٍ، فقال :كَذبتَ لا أُمَّ لَكَ، هو علي بنُ أبي طالبٍ كرمَ الله وَجهَهُ فقالَ :واللهِ لو كانَ الكذبُ مكتوباً بَينَ الدِّفتين بأنَّ اللهَ تعالى قَدْ أباحَة لي أو نادَ منادٍ مِنَ السَّماءِ، أنَّ الله قَدْ أباحَ الكذبَ ما رآني أتحلَّى بِهِ.

حدثني عددٌ مِنَ الرجالِ، مِنْهُم سعيدُ بنُ المسيّبِ، وعلقمةُ بْنُ وَقاص ()وعروةُ بنُ الزبيرِ ()وَأبو سَلَمَة بنُ عبدِ الرحمن ()وعبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنُ عتبة بنُ مسعودٍ ()عن عائشة رَضيَ اللهُ عَنْهَا أنَّ الذي تولَّى كِبَرُه عبدُ اللهِ بنُ أبي بنُ سَلِول، قال: صدقتَ .إنَّما أردتُ أنْ أعلَمَ، هَلْ أحدٌ ينكر باطِلاً ثمَّ قالَ :يا محمدُ، ما حديثٌ حَدَّثنا بِهِ أهلُ الشَّامِ، قالَ :وما الحديث، قالَ :حدَّثونَا أن اللهَ إذا استَرعى عبداً رَعيَّةً كتبَ لَهُ الحسناتِ ولَمْ يكتبْ عليهِ السّيئاتِ، قالَ :كذبتَ واللهِ يا أميرَ المؤمنينَ .قالَ :وكيفَ ذلكَ، قالَ :آتيكَ بحديث من كتابِ اللهِ الَّذي لا يأتيهِ الباطِلُ مِنْ بينَ يديهِ وَلاَ مِنْ خلفِهِ، قالَ اللهُ عَز وجل ﴿ :**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ.**()﴾

فهذا وعِيدُ اللهِ لنبيٍّ هُوَ خليفةٌ، فيكفَ وعيدُهُ لخليفةٍ غَيرَ نَبيٍّ، قالَ :صدقتَ، ثُمَّ نـزلَ عَنْ سريرِهِ ووضعَ خَدَّهُ في التُّرابِ، وقالَ :يغرونا عن دينِنَا، ثُمَّ أغرَى جلساءَهُ بابنِ شهابٍ فقالَ :عَنْ مثلِ هذا يُؤخَذُ الدينُ.

ولمَّا وُلّيَ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ ()أطلَقَ المحبسينَ، وأحْسنَ إلى الناس وسموهُ مفتاحَ الخيرِ .وفي أيامِهِ فُتِحَتْ القسطنطينيةُ، وَلَوْ لَمْ يكنْ لهُ حسنة إلا استخلافَ عُمرَ بن عبدِ العزيزِ بعدَهُ لكانَ كافياً.

وَرويَ أن أعرابيّاً وَقَفَ بينَ يَديّ سليمانَ، فقالَ :إنّي مُكلّمُكَ يا أميرَ المؤمنين بكلامٍ فاحتملْهُ، وإنْ كرهتُهُ فَإنَّ وراءَهُ ما تُحِبُّ إنْ قبلتَهُ .قالَ :هاتِ، قال :إنّي سأطلقُ لِساني، بِمَا خرستْ عنهُ الألسنُ مِنْ عِظَتِكَ، تأديةً بحقِّ اللهِ تعالى وحق

إمامتِكَ، إنَّهُ قَدْ اكتنفكَ رِجالٌ، أساءُوا الاختيارَ لأنفسِهم، فابتاعُوا دنياهم بدينِهم، ورِضَاكَ بِسخطِ اللهِ، خافوكَ في اللهِ، ولَمْ يخافُوا اللهَ فيكَ، فهم حَرْبٌ للآخرةِ، سِلْمٌ الدَّنيا، فَلا تأمنْهُم على ما ائتمنكَ اللهُ عليهِ، فإنَّهُمْ لم يألُوا الأمانة تضييعاً، والأمة خسْفاً، وأنتَ مسؤولٌ عَمَّا اجترَحوا، وليُسوا مسؤولين عما اجترحتَ، فَلا تُصْلِحْ دُنياهم بفسادِ آخرتِكَ فإنَّ أعظمَ الناسِ غُبناً، مَنْ باعَ آخرتَهُ بِدُنيا غيرِهِ .فقالَ :أمَّا أنتَ يا أعرابي فقد سللت لسانَكَ وَهُوَ أقطعُ مِنْ سيفِكَ، قال :أجَلْ يا أميرَ المؤمنينَ لكَ لا عليكَ.

وَرُوِيَ أنَّ سعيدَ بنَ خالدٍ ()، دَخَل على سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ وكانَ سَعيدُ جواداً، فإذا لَمْ يجدْ شيئاً كَتَبَ لِمَنْ يسألُه الصِّكاكَ على نفسِهِ حَتَّى يخرجَ عطاؤُه فَلَمَّا نَظَرَ إليهِ سليمانُ تَمَثَّلَ بِهذا البيتِ:

يَا مَنْ يُعينُ على الفتى المِعوانُ إني سمعت مَعَ الصَّباح منادياً

ثم قالَ :حاجتك، قالَ :دَيْنِي، قالَ :فَكَمْ هُوَ؟ قالَ :ثلاثونَ ألفِ دينارٍ، قالَ :لكَ دَيْنُكَ وَمِثْلُهُ.

وَرَوَى رجاءُ بنُ حيوةَ ()أن سُليمانَ بَنَ عَبدِ الملِك، لَمَّا كَتَبَ العهْدَ لِعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ()وَمَنْ بَعْدَهُ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ ()وختَمَهُ وَدَفَعَهُ إليهِ، قالَ :اخرجْ إلى النَّاسِ، فمرهُمْ بالمبايعَةِ على ما فيهِ مختوماً، فَلَمَّا دَعاهُم رجاءُ إلى ذلكَ، وأخبَرَهُم بقول سليمانَ امتَنَعُوا، وقالوا :لا نبايعُ حتَّى نعلمَ مَنْ فِيهِ، فَرَجَعَ إلى سليمانَ فأخبَرَهُ، فقالَ سليمانُ :انطلقْ بأصحابِ الحرسِ ونادِ الصَّلاةَ جامعةً، فإذا اجتمعَ النَّاسُ، فمرْهُمْ بالبيعةِ على ما في الكتابِ فمَنْ أبَى فاضْرِبْ عُنقَه، ففعلتُ ذلكَ فبايعوا على ما فيهِ .

قالَ رجاءُ :فلما خرجوا خرجتُ إلى منـزلي، فبينَما أنا في الطَّريقِ إذْ سمعتُ جَلَبةَ موكبٍ فالتفتّ فإذا هشامُ بن عَبدِ الملكِ، فقالَ :يا رَجاءُ قد علمتَ موقَعَك مِنَّا وأرَى أمير المؤمنينَ قَدْ صَنَعَ شيئاً، ما أدري ما هُوَ، وأنا أتخوَّفُ أن يكونَ قَدْ أزالَها عَنِّي، فإنْ يكن أزالَها عَني فاخبرْني ما دامَ في الأمرِ نَفَسٌ، حتَّى أنظرَ في هذا الأمرِ، قبلَ أنْ يموتَ سليمانُ .فقلتُ :سبحانَ اللهِ، يَسْتكتِمُني أميرُ المؤمنينَ أمراً أطلَعَكَ عليهِ، لا يكونُ ذلكَ أبداً، فداراني فأبيتُ فانصرفتُ، فبينَما أنا أسيرُ سمعتُ جلبه خلفي، فالتفت فإذا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، فقالَ :يا رجاءُ إنَّه قد وَقَع في نفسِي، أمرٌ كبير مِنْ هذا الرَّجُلِ، أتخوَّفُ أن يكونَ قَدْ جَعَلَها إليَّ ولستُ أقومُ بِهذا الشَّأنِ، فأعلمني ما دامَ في الأمرِ نَفَسٌ، لَعلِّي أتخلَّصُ ما دامَ حَيّاً .فقلتُ :سبحانَ اللهِ العظيمِ، يستكتِمُني أميرُ المؤمنينَ أمراً أطلَعَكَ عَليهِ، فداراني فأبيتُ، قالَ رجاءُ :فلمَّا ماتَ سليمانُ أجلستُهُ

وهيأتُهُ، وخرجتُ إلى النَّاسِ فقالوا :كيفَ أميرُ المؤمنينَ، فقلتُ :قَد أصبحَ ساكِتاً، وَقَدْ أحَبَّ أنْ تُسلِّموا عليهِ وتبايعُوا على ما في الكتابِ بينَ يديهِ، فَدخلوا عليهِ، وأنَا قائمٌ عندَهُ، فلما دنَوا قلتُ :أميرُ المؤمنينَ يأمُركم بالوقوفِ، ثُمَّ تقدَّمت إليهم بالكتاب، فقلتُ :أميرُ المؤمنينَ يأمُركم أنْ تبايعُوا على ما في هذا الكتابِ بمرأىً مِنْهُ ومسمعٍ فبايعُوا أجمعينَ.

فلمَّا فَرغوا عِنْ مبايَعتِهم، قالَ لَهُم :أجركُم اللهُ في أميرِ المؤمنينَ .قالُوا :فَمَنْ ففتحوا الكتابَ فإذا فيه العهدُ لِعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فلما قرأوا عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ تغيرتْ وجوهُهم فلما قرأوا منْ بعدِهِ يزيدَ بنَ عبدِ الملكِ تراجعوا، فقالوا :أينَ عمرُ بن عبدِ العزيزِ فطلبُوه فلمْ يجدوهُ في القومِ، فَنَظرُوا فإذا هُوَ في مُؤخّرِ المسجدِ، فأتوهُ فسلَّموا عليه بالخلافةِ، فَعَقَرَ فلمْ يستطعِ النُّهوضَ حتى أخذُوا بضبعيهِ فَساروا إلى المنبَرِ فلمْ يقدرْ أنْ يَرقَى حتى أصعدوهُ، فجلسَ طويلاً لا يتكلّمْ .فلما رآهُم رجاءُ جلوساً قالَ :ألا تقومونَ فتبايعونَ لأميرِ المؤمنينَ فنهضَ القومُ إليه فبايعوهُ رَجُلاً رجلاً قالَ :فَما مَدَّ يَدَهُ إليهم .فَلمّا صَعَد هِشامُ مَدَّ يَدَهُ إليهِ .وقالَ هشامُ :إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ، فقالَ عُمَرُ :نَعَمْ إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ حين صارَ يلي هذا الأمرَ أنا وأنتَ ثُمّ قامَ فَخَطَبَ فحمَدَ اللهَ وأثنَى عليهَ وقال" :أيُّها النَّاسُ إنّي لستُ بقاض ولكنَّي مُنَفذٌ، ولستُ بمبتدع ولكني متبعٌ وإنَّ حولكُم كثيراً مِنَ الأمصار والمدن، فإنْ هُم أطاعُوا كما أطعتُم فأنا وليُّكم وإنْ هُمْ امتنعُوا فلستُ عليكُم بوالي"، ثُمَّ نـزل يَمشي فأتاهُ صاحبُ المراكبِ، قالَ :ما هذا قالَ :مراكبُ الخليفةِ، قال لا :حاجة لي بهذا فَأتوني بدابّتي فأتوا بدابتِهِ، فركِبَهَا ثُمَّ خرجَ وخَرَجُوا مَعَهُ، فقالوا :نسيِّرُها هُنا قال :إلى أينَ؟ فقالوا :إلى البيتِ الذي يُهيّأُ للخليفة، فقال :لا حاجة لي فيهِ، انطلقُوا بي إلى منـزلي، فأتى منـزلَهُ فنـزلَ عَنْ دابتِهِ، ثُمَّ دَعا بدواةٍ وقِرطاس وجَعَل يكتُبُ بِيدِهِ إلى العُمَّالِ والأمصارِ ويملي على نَفْسِهِ .وقيلَ :أنه كان رُبَّما اشتريْتُ لَهُ الحِلة بِألفيْ دِرْهَمٍ قبل الخلافةِ فيقولُ :أمَا وجدتُم ألينَ مِنْ هَذه فلمّا وُليَ الخلافَة كانَ يشتري لَهُ الحلّةُ بأربعةِ دَرَاهِمَ فيقولُ :أما وجدتُم أغلظَ منها، فقيل لَهُ :في ذلك فقالَ :إنَّ لي نفساً توّاقةً لا تصلُ إلى منـزلةٍ إلا تاقت إلى ما هُوَ أعلى مِنْهَا، فَلمّا نالتِ الخلافَة تاقتْ إلى ما هُوَ أعلى مِنْهَا فلم تجدْ في الدُّنيا ما هو أرفعُ مِنَ الخلافة فتاقتْ إلى الآخرة وإلى ما أعدَّ الله فيها.

وقيلَ :إنَّ ثيابَهُ قُوّمَتْ عَلَيْهِ يومَ الجمعةِ، وهُوَ يخطبُ باثني عشرَ دِرْهَم وكانَت قميصاً وسراويلَ وعِمامةً ورداءً .ملأ الأرض عَدْلاً ورَفَعَ السَّبَّ عن أميرِ المؤمنين

عليِّ بن أبي طالب كَرمَ الله وجهَهُ على المنابرِ وَأمَرَ الخطباءَ أن يقولوا في آخرِ الخطبةِ، في الموضعِ الذي كانوا يذكرونَ اللَّعْنَ فيهِ ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾. ولما حضرتْهُ الوفاةُ دَعَا بنيه وكانوا أحدَ عشر رجلاً، ولمْ يُخَلِّفْ غيرَ بضعِ عَشَرَ دينار، فأمرَ أنْ يُكَفّنَ ويُشتَرى لهُ موضعُ يُدْفَنُ فيه بخمسةِ دنانير وَيُقصدُ المالُ على وارثيهِ فأصابَ كلُّ ابن مِنْهم نِصفَ دينارٍ وربع دينار وقالَ :يا بنيَّ ليسَ لي مالٌ فأوصي فيهِ ولكنَّي قَدْ تركتُكُمْ وما لأحدٍ عِنْدَكُمْ تَبِعَةٌ ولا يقعُ على أحَدٍ مِنكم عينُ أحَدٍ إلا ويرى لَكُم عليهِ حقاً .فقالَ له مُسلِمةُ بنُ عبدِ الملكِ :أوْ خيرٌ مِنْ ذلِكَ يا أميرَ المؤمنينَ قال :ومَا هُوَ قال هذهِ ثلاثُ مائةِ ألفِ دينار، فرقها فيهم وإن شئتَ فتصدَّقْ بها، وأوص فيها بما شئتَ، فقالَ أوْ خيرٌ من ذلكَ يا مسلمةُ تردُّها إلى مَنْ أخذتها مِنْهُ، فإنَّها ليستْ لَكَ بحقٍّ .ثم قالَ :إن وَلدي أحدُ رجلين، فإمَّا صالحٌ فاللهُ يتولى الصالحين، وإمَّا فاسقٌ فلا أحِبُّ أن أتركَ لهُ ما يستعينُ بِهِ على معصيةِ اللهِ فقال مسلمةُ :يرحمُكَ اللهُ يا أميرَ المؤمنينَ حيّاً وميِّتاً، فقدْ ألنتَ لنا قلوباً قاسيةً وذكّرْتَها وكانت ناسيةً وأبقيتَ لنا في الصالحاتِ ذكراً، فيقالُ :إنه ما رُؤِيَ أحدٌ مِنْ أولادِ عُمَرَ بن عبد العزيزِ إلا وهو غنيٌّ ولَقَدْ شُوهِدَ أحدُهُم وقد جَهَّزَ مِنْ خالِص مالِهِ، مائة فارس على مائةِ فَرسٍ في سبيلِ اللهِ تعالى .ولمّا حضرتْ هِشامُ بنُ عبدِ الملكِ الوفاةُ، خَلَّفَ أحَدَ عشر ابناً، كما خَلَّف عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزَ، وأوصى فأصابَ كُلُّ ابنٍ ألفَ ألفِ دينارٍ .فيقالُ :إنَّه ما رُؤِيَ أحَدٌ مِنْهُم إلاَّ وهُوَ فَقيرٌ ولَقَدْ شُوهِدَ أحدُهم وهو يوقدُ في الأتونِ .ووجدتُ في كتابِ تفاوتِ التواريخِ أنَّ هِشامَ ابن عبد الملكِ، كانَ يأكلُ من بيتِ المالِ كلَّ سَنَةٍ مائتي دِرْهَم وأنَّهُ كانَ ديوانُهُ من بيتِ المالِ، كديوانِ بعضِ الجُنْدِ .وحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أنَّهُ قالَ :أرسلني هشامُ إلى خرسانَ وكانَ عليهِ إذْ ذاك، قِباءُ أخضرُ، فلمّا رَجعتُ مِنْ خرسانَ رأيتُهُ عليه، قال تنظرُ إلى هذا القباءِ، واللهِ كانَ عليّ قبلَ الخلافةِ ومالي غيرُهُ .وَفقدَ بعضُ أولادِهِ في الجمعةِ فسألَهُ عن تأخّرِهِ فقالَ :نفقتْ دابتي، يَعني ماتتْ، فقالَ: أعجزْتَ عَنِ المَشْيِ، ثُمّ تسقُطُ عنكَ الجُمعةُ فمنعَهُ الركوبَ سنةً .وروَيَ أنَّ عُروهْ بنَ أذينَةَ أتَى مَعَ جَماعةٍ من الشُّعراء إلى هشامِ بن عبدِ الملكِ فانتسبَهم فانتسبُوا فلما انتسبَ له عِروةُ قالَ ألست القائلُ:

لقد علمت وما الإسرافُ من خلُقي ... أن الذي هُوَ رزقي سَوْفَ يأتيني
أسعى إليه فيُعْييني تطلُّبه ... ولو أقمتُ أتاني لا يُعيّني

فقالَ :نعمْ أنا قائلُها، قالَ :أفلا قعدتَ حتى يأتيكَ رزقُكَ، وغفل عَنْهُ هِشامُ فخرَجَ مِنْ وقتِهِ وَركِبَ راحلَتَهُ ومَضى منصرِفاً .فتفقَّدهُ هشامُ فَعرف خبرَهُ فاتبعَهُ بجائزتِهِ وقالَ لِلرسول: قلْ لَهُ أردتَ أنْ تكذِّبَنا وتُصدّقَ نفسَكَ، فمضى الرسول فَلَحِقَهُ، وقَدْ نـزلَ على ماءٍ يَتَغَدَّى عليهِ فأبلَغَهُ رسالَتهُ ودَفَعَ إليهِ الجائزةَ، فقالَ :قُلْ لَـهُ قد صَـدَقَنِي ربي وكذّبَكَ.

وَوَفدَ على هشام وفدُ أهلِ الحجاز فتكلّموا رَجُلاً رجُلاً حتى قامَ محمّدُ بنُ أبي الجهمِ ()بن حذيفة العَدَويّ وكانَ أعظم القومِ قَدْراً وأكبرَهُمْ سناً، فقالَ :أصلحَ الله الأميرَ إنَّ خُطباءَ قريش، قَدْ قالتْ فيكَ فأقلّتْ وأكثَرَتْ وأطنبتْ، ووالله ما بلغَ قائلُهُم قَدْرَكَ، ولا أحصَى مُطْنِبُهم فضلَكَ، فإنْ أذِنْتَ في القولِ قلتُ قالَ :قُلْ وأوجِزْ قالَ : تولاكَ الله بالحُسنى وزيَّنَكَ بالتّقوى وجَمَعَ لَكَ خَيْرَ الآخرَةِ والأولى .إنَّ لي حوائجَ فأذكُرُها قالَ :هاتِها :قالَ كبُرَ سني ودَقَّ عَظْمي ومالَ الدَّهرُ مِني فإنْ رَأى أميرُ المؤمنينَ أنْ يُجْبَرَ كَسْرِي ويُنْفَى فَقْري فَعَلَ قالَ: وما الذي يَنفي فقرَكَ، ويجبرَ كسركَ، قالَ :ألفُ دينارٍ وألف دينارٍ وألفُ دينارٍ فأطرقَ هِشامُ قليلا، ثُمّ قالَ :هيهاتَ هيهات يا ابن أبي الجهْمِ بيتُ المالِ لا يحتَمِلُ ما سألتَ، ثُمّ قالَ :هيه وما هِيه أما والله إن أميرَ المؤمنينَ لواجِدٌ، ولكن اللهَ آثركَ لمجلسِكَ، فإنْ تُعطِنَا فحقّنا أدّيْتَ، وإنْ تمنَعَنا فنسألَ الذي بِيدِهِ ما حَوْيتَ يا أميرَ المؤمنينَ إنَّ اللهَ جعلَ العطاءَ محبةً والمنعَ مبغَضَةً والله لَئِنْ تُعْطِني فأحبك أحبُّ إليّ مِنْ أنْ تحرمَني فأبغضُكَ قالَ :فألفُ دينارٍ لماذا قالَ أقضِي بها دَيْناً عليَّ حَمَّ قضاؤه وآذاني حَمْلُهُ وأضر بي أهلُهُ، قالَ :فلا بأسَ بتنفيسِ كُربةٍ وتأيدةِ أمانةٍ، وألفُ دينارٍ لماذا قالَ :أزوّجُ بِها مَنْ بَلَغَ مِنْ أولادي، قالَ نَعَمْ المسلكُ سلكتَ، غضضتَ بصراً، وأعففتَ فرَجاً، ورجوتَ نسْلاً . قالَ :فألفُ دينارٍ لماذا قالَ أشتَري بِها أرضاً يعيشُ بها وَلَدي، وأستعينُ بفضلِهَا على نوائِبِ دَهري، وتكونُ دُخراً لِمن بَعْدي .قالَ :فَإنَّا قَدْ أمَرنا لَكَ بِما سألت فقالَ :الحمدُ لله على ذلكَ فأتبعَهُ هِشامُ بصرَهُ وقالَ :إذا كان القرشيُّ، فليكُن مِثلَ هذا، ما رأيتُ رَجُلا أوجزَ في مقالٍ مِنْهُ ثمّ قالَ :أما والله إنَّا لَنعرفُ الحقُّ إذا نـزلَ ونَكرهُ الإسرافَ والبخلَ، فلا نُعْطي تبذيراً، ولا نمنع تقتيراً، وما نَحْنَ إلا خُزانُ اللهِ في بلادِهِ، وأمناؤُهُ على عِبادِهِ، فإن أذِنَ أعطينا، وإنْ مَنَعَ أبينا، فلو كانَ كُلَّ قائِلٍ يُصَدَّقُ وكلُّ سائِلٍ يستَحِقُّ ما حَرَمَنَا سَائِلاً ولا جبهنا قائلاً .فنسألَ مَنْ بِيدِهِ ما استخفضنَاه أنْ يجريه على أيْدينا فإنَّهُ يفتحُ الرِّزقَ لِمَنْ يشاء ويقدِرُ إنَّهُ بعبادِهِ خبيراً بصيراً .فقالوا : يا أميرَ المؤمنينَ لَقَدْ تكلّمتَ فأبلغتَ، وما بَلَغَ في كلامِهِ ما قصصتَ فقالَ :إنَّه مبتدئٌ

وليسَ المقتدِي كالمبتدي .وخَطَبَ خالدُ بنُ عبدِ اللهِ القسريِّ ()وَقَدْ أُرْجِفَ بموتِ هِشام بن عبدِ الملكِ فقال: ما هذهِ الجماعةُ التي قد أَلِفها الطيْشُ واستخفَّها الجهلُ وأقبلتْ دبرَ الوجوهِ قد أَشْخَصَ لها الرجيمُ نصباً فأوقصتْ إليهِ وأناخَ قعودَ الضلالةِ فاحتملتْ عليهِ أوْ كُلَّما خَطَرَتْ للشياطين بينَ أظهركُمْ خطوةً أو كَادَ كم ينكر، أو بَعَثَ فيكُمْ مُنكراً، أقبلتُم قمصاً ()، وسعيتُم حرصاً .فنُعْسَاً ونُكْساً قلتُم ماتَ هِشامُ، أفبدعٌ الموت أو مستنكَرٌ أو مبرّأٌ مِنْهُ أحَدٌ قَدْ ماتَ الذي خلقَهُ اللهُ ونفخَ فيهِ مِن رُوحِه وأسجَدَ له ملائكَتَهُ أخرُجوا يا فراشَ النَّارِ وبَقِيَّة الأشرار.

وخَطبَ مَرَّةً فارتجَّ عليهِ ()فقالَ :أيُّها الناسُ إن القولَ يجيئُ أحياناً، ويعزُبُ أحياناً، فيتيسرُ عندَ مجيئِهِ سبَبُهُ، ويعزُّ عِنْدَ ذهابِهِ طَلَبُهُ، وربَّما طلبَ فأبَى وَكُوبِرَ فعَصى، فالتأنِّي لمجيئهِ أيْسَر مِنَ التَّعاطي لأبيَّهِ وقَدْ يختَلِجُ مِن الجريءِ جَنانُهُ، ويرتجُّ على البليغِ لسانُهُ فَلاَ يغيُرُهُ المنطقُ إذا امتنَعَ كما لا يبطُرُهُ القولُ إذا اتَّسَعَ.

ودخلت امرأة مِنْ بَنِي كِلاب، على خالدِ القِسْرِيِّ، وهُوَ في مَجْلِسِهِ فَسَلَّمْتَ عليهِ وأنشدَتْهُ شِعْراً .فقالَ لها خالدُ :ما حاجتكَ، قالتْ :عندِي للأميرِ نصيحةٌ .قالَ : وَمَا هِيَ قالت :أكَبَّ على دَهْرُ بجرانهِ ()، وعضّنا بنابِهِ، فما تركَ لنا سَبْداً، ولا لُبَداً ()ولا ماهياً()، ولا صافياً()، فما بِنا خفضٌ ولا نَبضٌ فكنتَ أنتَ المنتجعُ ()وإليكَ المفزَعُ .فنصيحتي أصلحَ اللهُ الأميرَ، أنْ تأمرَ لي بخادِمٍ، وما يُصْلِحني وإياهُ فواللهِ لقد عُودتُ الرّخاءَ، وما قاسيتُ الشَّقاءَ .قالَ خالدٌ :هذه نصيحةٌ لكِ دونَنَا قالتْ أيُّها الأميرُ ليستْ لي دونَكَ، لَكَ أجرُها وذِخْرُها، وحمدُها وشكرُها، ولي منفعتُها معَ أنَّ الأجوادَ لوْ لَمْ يَجِدوا، مَنْ يقْبلُ العطاءَ ما ذُكروا بالسَّخاءِ قال صدقت فَهَلْ لَكِ مِنْ زوجٍ، قالتْ :واللهِ مالِيَ زوجٌ، ولا وجدتُ كُفئاً ولا أتزوّجُ دَنِيّاً، وإنْ كانَ مُتْرَفاً غنيّاً، ولئنْ كنتُ فقدتُ نسباً، ما فقدتُ حسباً، وما كنتُ أشتري عاراً يبقى، بمالٍ يفنى . أعوذُ بجلالِ اللهِ مِنْ ذَلِكَ، ومالِيَ أبقَ اللهُ الأميرَ بزوجٍ مِنْ أربٍ .فأمرَ لها بخادمٍ، وما يصلُحُها، وأمَر صاحبَ نفقاتِهِ أن يُجري لهما ما وَسِعَهُما.

وَرُوِيَ عَنِ الوليدِ بن يزيدَ ()مَعَ ما كانَ فيهِ مِنَ الخلاعَةِ واللعب، والتهاون بالدّين أنه لما وُلِّى أجرَى على الزِّمَنَى والعميان، وكساهُمْ وأعطى كلَّ واحدٍ مِنهُم خادماً، وزادَ النَّاسَ، على ما كانَ يُعطيهم هشامُ، وَلَمْ يسألْ سائِلاً قطُّ، إلا قالَ :نَعَمْ وأعطاهُ .وكانَ أديباً شاعراً، فَمِنْ أحسنِ قولهِ :ما)حدَّثني (اسحاقُ الموصليُّ ()قالَ : دخلتُ يوماً على الرَشيدِ، وَهُوَ مستلْقٍ وَهُوَ يقولُ :أحسنَ واللهِ أظرفُ قريشٍ، وأفتاها)وأسْخاها(، وأشعرُها وأغزلُها .فقلتُ :مَنْ هُوَ يا أميرَ المؤمنينَ وفي أيِّ شيءٍ،

فقالَ :أمَّا بَعْدُ ما سمعتَ مني في وَصفِهِ فلا أُسمِّيهِ ولكنْ أذكرُ الشعرَ فإنْ كنتَ تعرفُهُ فاكتمْ عنِّي ما سمعتَ مِني وهو الذي يقولُ:

نامت وإن أسهرت عَيْنيَّ عَيْناها — لا أسألُ اللهَ تغييراً لِما صنعتْ

والليلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألقاها — فالليلُ أطولُ شيءٍ حين أفقدُها

أتعرفُه قلتُ :لا بصوتٍ ضعيفٍ، قال :بحياتي، فقلتُ :بَلى وحياتِكَ هُوَ الوليدُ بنُ يزيدَ، فضحكَ وقالَ :ما قلتُ في وصفِهِ إلا دونَ ما يستحِقَّ وَلكنَّ المُلكَ عقيمٌ.

وكتبَ إلى هشامِ بنِ عبدِ الملكِ برسالةٍ وفي آخرها شِعْرٌ:

ولو كنتَ ذا حزم لهدمتَ ما تبني — رأيتُكَ تبني دائماً في قطيعَتي

فويلٌ لَهُم إنْ مِتُّ منْ شَرِّ ما تَجْني — تثير عليَّ الباقينَ مني ضغينةً

كأنّي بهِمْ واللَّيْتَ أكثر قولهمْ ألا ليتنا كنا إذا ليت لا تُغْني 0

وقالَ أيضاً وَقَدْ رَجَعَ إليهِ جوابُ هشامٍ بما يكرهُهُ:

حياضَكَ يوماً صادراً بالنَّوافِلِ — أليسَ عجيباً أن أرى كلَّ واردٍ

بتخلِّيه عَنْ وردِ تلكَ المناهلِ 0 — **وأرجع مجذوذَ الرَّجاءِ مُصَرّداً**

وقال أيضاً فيه:

إلى المَقاريف ما لَمْ يَخْبُرِ الدَّخَلا — أنَا النَّذيرُ لمُسْدِي نِعْمَةً أبَداً

وإنْ أهَنْتَهُمْ أَلْفَيْتَهُمْ ذُلُلا — إنْ أنْتَ أكْرَمْتَهُمْ أَلْفَيْتَهُمْ بُطُراَ

سَتَعْلَمُونَ إذا كانَتْ لَنا دُوَلا — أتَشْمُخونَ ومِنّا رأسُ نِعْمَتِكُمْ

سِوَى الكلْبِ فاضرِبْهُ لهم مَثَلا — انْظُرْ فإنْ أنت لم تقدر على مَثَل لهم

حَتَّى إذا ما قوي من بعدما هزلا — بَيْنما يُسَمِنُهُ للصَّيْد صاحبُهُ

ولَوْ يطيق له أكْلاً لقَدْ أكلا 0 — **عدا عليه فلمْ تَضْرُرْهُ عَدْوَتُهُ**

وذلكَ أن يزيدَ بنَ عبدِ الملكِ، كَان قَدْ أخذَ البيعةَ لأخيهِ هشام، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ لابنهِ الوليدِ .ولَمّا قَتل يزيدُ بنُ الوليدِ بنُ عبدِ الملكِ 0، الوليدَ بنَ يزيدٍ وَوُلي الخِلافة خَطَبَ فَحَمَدَ اللهَ وأثنَى عليهِ :أيُّها الناسُ واللهِ ما خرجتُ بَطِراً ولا أشِراً، وَلا ريائاً ولا حِرْصاً على الدُّنيا، ولا رغبةً في الملكِ .وما بي إطراءٌ لنفسي إني لظلومٌ لَها إلا ما يرحمُني اللهُ عزَّ رجلَّ .ولكني خرجتُ غَضَباً للهِ عزَّ وجلَّ ولدينِهِ، داعياً إلى اللهِ وإلى سنَّةِ نبيهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ، لَمَّا هُدِّمتْ معالمُ الدِّين، وأُطْفِئَ نورُ التَّقوى، وَظَهَرَ الجبارُ العنيدُ، مُستخفاً بِكلِّ حرمةٍ وراكباً لِكلِّ بِدعةٍ، الكافرُ بيوم

الحسابِ وإنَّهُ لابنُ عمِّي في النَّسَبِ وَكُفئي في الحَسَبِ، فلمَّا رأيتُ ذلكَ، استخرتُ اللهَ تعالى في أمرِهِ، وسألتُهُ أنْ لا يكلني على نفسي، ودعوتُ إلى ذلكَ مَنْ أجابني مِنْ أهلِ ولايتي حتَّى أراحَ الله مِنْهُ العبادَ، وطهَّرَ مِنْهُ البلادَ، بحولِهِ وقوّتِهِ، لا بحولي وقوّتي .أيُّها الناسُ إنَّ لكم عليَّ أنْ لا أضعَ لبنةً على لبنةٍ ولا حجَراً على حجرٍ ولا أكنـز مالاً ولا أعطيه زوْجاً ولا ولداً ولا أنقُلُهُ مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ أخرى حتى أسُدَّ فقرَ تِلك البلدِ ولا أجبرُكم في ثُغورِكُم، حَتَّى أفتتنَ أهليكُم، ولا أُغلِقُ بابي دونَكم، فيأكلَ قويَّكُم ضعيفَكم، وَلا أحمِلُ على أهل جزْيتِكُم، ما أجلْيهم به عَنْ بلادِهِم، وأقطَعُ بِهِ نسلَهُم، ولكنْ أُدر العطاءَ في كلِّ سنةٍ، والرزق في شَهْرٍ حتى تستوي بكم الحالُ، فيكونَ أفضلُكم كأدناكُم .فإنْ أنا وفيتُ لكُم، فعليكُم السَّمْعُ والطاعةُ، وَحُسْنُ المؤازَرةِ والمكاتفةِ، وإنْ لَمْ أفِ لَكُم، فلكُم أنْ تخلعوني إلا أنْ تستتيبوني فإنْ تبتُ، قبلتُم توبتي، وإنْ عرفتُم أحداً بالصلاحِ، يُعطيكُم مِنْ نفسِهِ مثلَ الذي أعطيتُكُم، فأردتُم أنْ تبايعُوه، فأنا أولُّ من يبايعُهُ، ويدخلُ في طاعتِهِ أيْها الناسُ إنهُ لا طاعة لِمخلوقٍ في معصية الخالقِ أقولُ هذا واستغفرُ الله لي وَلَكُم، ولجميعِ المسلمينَ انَّهُ غفورٌ رحيم((

وكتبَ إلى مروانَ بن مُحَمّدٍ 0وقدْ بلغَهُ تلكؤُهُ في بيعتِهِ .أمَّا بَعْدُ :فإنِّي أراكَ تُقَدِّمُ رِجلاً، وَتؤخِّرَ أُخرى، فاعتمدْ على أيِّهما شِئْتَ، والسلامُ.

ولما تفرّقَ الأمرُ على مروانَ بن مُحَمّدٍ وأيقنَ بزوالِ مُلْكِهِ، وَغَلَبَةِ بني هاشم عليهِ، قالَ لِعبدِ الحميدِ بن يحي كاتبِهِ :إني قدْ احتجتُ، أنْ تكونَ مَعَ عدَوي عليَّ، وَتظْهرَ لَهُم الغدرَ بي فإنَّ إعجابَهُم بأدبِكَ، وحاجتِهِم إليكَ تدعوهُم إلى حُسْنِ الظَّنِ بكَ .فإنْ استطعتَ أنْ تنفعَني في حياتي، وإلا لَمْ تعجزْ عَنْ حِفظِ حُرْمتي بَعَدَ وَفاتي . فقالَ عبدُ الحميدِ :إن الذي أمرتَني بِهِ أنفعُ الأمرينِ لَكَ وأقبحُهما بي .وما عِنْدي إلا الوفاءُ، حتى يفتَح اللهُ لكَ أو أُقتلَ مَعَكَ، ثُمَّ قالَ:

فمن لي بعذرٍ يوسعُ النَّاسَ ظاهرُهُ 0 أسرُّ وفاءً ثُمَّ أظهرُ غـدْرةً

وقالَ مروان إذا انقضتِ المدةُ لم تنفع العدَّةُ

وكتبَ إلى عبدِ اللهِ بن عليّ 0، يوصيهِ في حرَمِهِ، فكتبَ إليهِ عبدُ اللهِ يا مابق الحقَّ لنا في دَمِكَ، وَعَلينا في حرَمكَ.

وَلَمَّا استُخلِفَ أبو العباس السّفاح0، وَهُوَ أولُ ملوكِ بني العباس .

رويَ أن أولَ خُطْبةٍ، خَطَبَها السفاحُ، في بلدةٍ تُسمَّى العباسيَّةِ، فَلمَّا صارَ إلى موضعِ الشهادةِ قامَ رَجلٌ من الطالبيينَ في عُنقِهِ مُصْحَفٌ، فقالَ :أذكّرُكَ الذي

ذكرتَهُ، إلا أنصفتني مِنْ خَصْمي، وحكمتَ بيني وبينَه، بما في هذا المُصْحَفِ، فقالَ : ومنْ خصمُكَ، قال :أبو بَكرٍ الذي منَعَ فاطمةَ فدكاً .قالَ :وأقامَ على ظُلمِكُم، قالَ : نَعمْ، قالَ :وهلْ كانَ بعدَهُ أحدٌ، قالَ :نعمْ، قالَ :مَنْ، قالَ :عُمرَ، قالَ :وأقامَ على ظُلمِكُم، قالَ :نعم، قالَ :وهلْ كان بعدَهُ أحدٌ، قالَ :مَنْ، قال :عثمانُ، قالَ :وأقامَ على ظلمِكُم، قالَ :نعمْ، قالَ :وَهَلْ كانَ بعدَه أحدٌ، قالَ :نَعَمْ قالَ :مَنْ، قال :علي قال وأقام على ظلمِكُم، فأسكتُ الرّجُلُ، وجَعَلَ يتلفتُ إلى ورائه يطلبُ تَخلُصاً .وأقبلَ السَّفاحُ على خُطبتِهِ وَصَعَدَ المنبرَ بوجهٍ كأنَّهُ مصحفَ، فلم يستطعْ الكلامَ مِنَ الحياءِ، فنهضَ عَمُّه داوود ُبنُ عليٍّ 0حَتى صَعَدَ المنبَر، فقالَ المنصورُ :فقلتُ في نَفسي، هذا شيخُنا وكبيرُنا، يدْعو إلى نفسِهِ، فلا يختلفُ عليه اثنان .فانتضبتُ سيفي وغطيّتُه بثوبي، وقلتُ :إنْ فَعَلَ ناجزتُه فَلما رَقى استقبلَ النّاسَ بوجهِهِ أبي العبّاس.

فقال :أيُّها الناسُ إن أميرَ المؤمنينَ يكرهُ أنْ يتقدَّم قولُه فعلَه، وأثرُ الفعالِ عليكُم أجدى من تشقيقِ الكلامِ، وحسبُكم بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ متلوٌ فيكم وابنَ عَمِّ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ خليفةٌ عليكم .فواللهِ قسماً باراً ولا أريدُ بِهِ إلا اللهَ ما قامَ هذا المُقامَ، أحدٌ بَعْدَ عليّ بن أبي طالِب، عليه الصلاةُ والسلامُ عليه وعلى آلِهِ، أحق مِن أميرِ المؤمنين هذا فليطمأن ظانُكم، وليهمسْ هامِسُكم قالَ المنصُورَ :فَشممتُ 0 سيفي.

وخطبَ داوودُ بن علي فقال:

من يلق آساد الرجال يكلم 0 شِبْشِبَةٌ أعْرِفُهَا مِنْ أخْزَم

مهلاً مهلاً يا روايا 0الأرجاف، وبقايا النفاق، وأنسال الأحزاب عن الخوض فيما كفيتم، والتخطي إلى ما حذرتم، قبل أن تتلف نفوس، وتحز رؤوس .ألم تجدوا ما وعدكم ربكم حقاً، من إيراث المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها .لا والله بل ضب مضمر 0وحسك 0وكمد، رغما للمعاطس وبعداً للقوم الظالمين .

وصعد المنبر مرة فارتج عليه الكلام فقال أما بعد :فقد يجد المعسر ويعسر الموسر، ويثقل الحديد، ويقطع الكليل .وأن الكلام بعد الأفحام كالاشراق بعد الاظلام وقد يعزب البيان ويعقم الصواب وإنَّما اللسان بضعة من الإنسان يفتر بفتوره إذا أكتل وينبسط بانبساط إذا ارتجل .وإنا لا ننطق أشراً، ولا نسكت حصراً، بل ننطق مرشدين، ونسكت معتبرين .فإنا أمراء القول، فمنا وشجت 0أعراقه، وإلينا تعطفت أغصانه وعلينا تهدلت ثمرته فنجنى منه ما أحلو لي وعذب، ونترك منه ما أملولح وخبث .ومن بعد مقامنا مقام، ومن بعد أيامنا أيام، يعرف فيها فضل الكلام .إن شاء

الله وهو أحمد مستعان.

وخطب سليمان بن علي ﴿بن عبد الله بن العباس فقال :إياكم أن يتكلم الرجل في ما لا يعنيه ويرعى ما لا يسترعيه .فينـزل به منا فاقرة ليست لها باقية، وإياكم إياكم .واحذروا مصارع الحائنين فإني وإياكم لا قال الأول:

فلما كفرتم شكر ما كنت أصنع بدأتكم بالخير حتى بطرتم

فـإن عدتم فالسيف عندي مقنع سنعطيكم صابا ومـرا وعلقما

وما بعد السوط، إلا السيف، فأبقوا على أنفسكم أو ذروا.

وخطب المنصور ﴿فحمد الله وأثنى عليه، فلما انتهى إلى قوله أشهد أن لا إله إلا الله .وثب رجل من أقصى المسجد قال أذكرك الله ما تذكر .فقال :سمعاً لمن فهم عن الله عز وجل وذكر به، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عصياً، وأن تأخذني العزة بالاثم .وقد ضللت إذاً، وما أنا من المهتدين .وأنت والله أيها القائل ما أردت بها الله ولكنك حاولت أن يقال قام، فقال :وعوقب فصبر، وأهون بقائلها لقد هممت فاهتبلتها ﴿.ويلك إذ عفوت، وإياكم معاشر الناس وأختها .فإن الموعظة علينا نـزلت، ومن عندنا أنبئت، فردوا الأمر إلى أهله يصدروه كما أوردوه .ثم رجع إلى خطبته فأتمها.

وصعد المنبر مـرة فحمد الله وأثنى عليه، ثم سكت طويلا .فقال رجل :ما لأمير المؤمنين لا يتكلم، فإنه والله مـمن يهـون عليه صعـب الكلام، فأكمـل خطبته ثم قال:

ولو شتمتُ بني سَعْدٍ لقد سكنوا مالي أَكَفْكِفُ عن سَعْدٍ وَيشْتِمُني

لبئست الخُلَّتان الجَهْلُ والجُبُنُ ﴿ جهلا علينا وجبنا عن عدوكم

ثم حسر رأسه وقال:

لأكْشِفَـهُ إلا لاحْـدَى العَظائم وألقيت عن رَأسِي القِناعَ ولم أكُنْ

ثم قال :والله لقد عجزوا، عن أمر قمنا به، فما شكروا، ولقد مهدنا ما استوعروا وأعطينا الحق وغمطوا .﴿والله لا أكرم أحداً، بمهانة نفسي، والسعيد من وعظ بغيره، لأن سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء.

وقام عمرو بن عبيد ﴿بين يدي المنصور فقال :إن الله عز وجل أعطاك الدنيا بأسرها فاشتري نفسك ببعضها .واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة فيه فوجم أبو جعفر في قوله فقال الربيع ﴿له يا عمرو غممت أمير المؤمنين فقال عمرو :أن هذا قد صحبك عشرين سنة لم ير عليه أن ينصحك، يوماً واحداً .وما عمل وراء بابك،

بشيء من كتاب الله عز وجل ولا سنَّة نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله .فقال أبو جعفر :فما أصنع قد قلت لك خاتمي بيدك، فتعال أنت وأصحابك فاكفوني هذا الأمر . فقال عمرو :أدعنا بعد ذلك تسمح نفوسنا بعونك، ببابك ألف مظلمة، أردد منها شيئاً نعلم أنك صادق .

وقيل بينما المنصور يطوف بالبيت ليلا، إذ سمع قائلا يقول :اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي، والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله، من الطمع . فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد، وأرسل إلى الرجل يدعوه، فصلى ركعتين واستلم الركن، وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة .فقال له المنصور :ما الذي سمعتك تذكر، من ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله، من الطمع فوالله لقد حشوت مسامعي بما أرمضني .فقال :يا أمير المؤمنين إن أمنتني أنبأتك بالأمور على جليتها، ومن أصولها، وإلا احتجزت على نفسي . فقال :أنت آمن على نفسك، فقال :إن الذي دخله الطمع، حتى حال بينه وبين إصلاح ما ظهر من البغى والفساد أنت .فقال :ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي .قال وهل دخل أحد من الطمع مثل ما دخلك، إن الله تعالى استرعاك المسلمين وأموالهم، فجعلت بينك وبينهم حجاباً، من الجص والآجر وأبواباً من الحديد، وحجبة معهم السلاح والكراع، وأمرت أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان، نفر سميتهم ولم تأمرهم بإيصال الملهوف والمظلوم، ولا الجائع ولا العاري، ولا الضعيف ولا الفقير وما أحد إلا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا عنك جباء الأموال وأمرتهم بجمعها ولا يقسموها، قالوا :هذا قد خان الله عز وجل، فمالنا لا نخونه وقد سجن لنا نفسه فأتمروا بينهم أن لا يصل إليك من أخبار الناس إلا ما أرادوا .ولا يخرج لك عامل، فيخالف أمرهم إلا أقصوه ونفوه، حتى تسقط منزلته ويصغر عندك قدره فلما انتشر ذلك عنك وعنهم، أعظمهم الناس وهابوهم، فكان أول من صانعهم، عمالك بالهدايا والأموال، ليتقووا به على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك، ذوو القدرة والثروة من رعيتك، لينالوا به ظلم من دونهم . فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل .وإن جاء متظلم حيل بينه، وبين الدخول عليك، فإذا رفع قصته إليك عند ظهورك، وجدك وقد نهيت عن ذلك، وأوقفت للناس رجلا ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك الرجل، فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك،

فإن للمتظلم منه حرمة عندهم، فأجابهم خوفاً منهم فلا يزال المظلوم، يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث، وهو يدافعه ويماطله، ولا يقبل عليه .فإذا أجهد وأحوج وظهرت، صرخ بين يديك فيضرب ضرباً عنيفاً شديداً مبرحاً، ليكون نكالاً لغيره وأنت تنظر، فلا تنكر فما بقاء الإسلام على هذا .ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتها مرة، وقد أصيب ملكها بسمعه فبكى يوماً بكاء شديداً فحثه جلساؤه على الصبر .فقال :أما إني لست أبكي للبلية النازلة، ولكنى أبكي للمظلوم بالباب يصرخ، فلا أسمع صوته .ثم قال أما إذا ذهب سمعي :فإن بصري لم يذهب فأذنوا في الناس، أن لا يلبس ثوباً أحمر إلا مظلوم .ثم كان يركب الفيل طرفي النهار، ينظر هل يرى مظلوماً، فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله عز وجل غلبت رأفته على المشركين وأنت تؤمن بالله واليوم الآخر ثم من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه واسم غلب شح نفسك عليك .فإن كنت إنما تجمع المال لولدك، فقد أراك الله عز وجل، الطفل يسقط من بطن أمه وما له على الأرض مال، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله جل ثناؤه يلطف بذلك للطفل، حتى تعظم رغبة الناس إليه ولست بالذي يعطي، بل الله يعطي من يشاء بغير حساب . وإن قلت أنا أجمع المال لتشديد السلطان، فقد أراك الله عز وجل عبراً في بني أمية ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وأعدوا من الرجال والسلاح والكراع، حين أراد الله بهم ما أراد .وإن قلت أنا أجمع المال لطلب غاية، هي أجسم من الغاية التي أنا فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منـزلة لا تنال الا بالطاعة يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك بأكثر من القتل والصلب .قال المنصور :لا قال : فكيف يصنع أمير المؤمنين يوم القيامة عند لقاء الملك الذي خولك ملك الدنيا، ولا يعاقب من عصاه من عبيده، وعمل بخلاف ما أمره به في كتابه بالقتل ولكن يعاقبه بالخلود في العذاب الأليم وقد رأى ما عقد عليه قلبك، وتحملته جوارحك، ونظر إليه بصرك واجترحته يداك ومشت إليه قدماك، ممن يعني ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يديك، ودعاك إلى الحساب على ما خولك .فبكى المنصور وقال :ليتني لم أخلق، ويحك فكيف احتال لنفسي .فقال :يا أمير المؤمنين إن للناس أعلام يفزعون إليهم، في دينهم ويرضون نفوسهم فاجعلهم بطانتك يرشدوك، وشاورهم في أمرك يسددوك .قال :قد بعثت إليهم فهربوا مني، قال خافوا أن تحملهم على طريقتك، ولكن افتح بابك وسهل حجابك وانصر المظلوم واقمع الظالم، وخذ الفيء والصدقات مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل على أهله وأنا الضامن

عليهم، أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة .وجاء المؤذنون فسلموا عليه فصلى وعاد إلى مجلسه، فطلب الرجل فلم يوجد .وقال المنصور لبعض عماله وقد بلغه أنه خانه :يا عدو الله وعدو أمير المؤمنين، أكلت مال الله .فقال :نحن عباد الله، وأنت خليفة الله والمال مال الله، فمال من تأكل إذاً .فأعجبه جوابه فقال :خلوا عنه ولا تولوه شيئاً.

ووجد على بعض الكتاب فأمر بتجريده وضربه فقال:

فهبنا للكرام الكاتبين ونحن الكاتبون وقد أسأنا

وروى أن بعض أهل العبث كان قد خرج بفلسطين، فكتب إلى العامل بها، دمه بدمك مرتهن، إنْ لم توجه به إلى، فظفر به فأشخصه إليه، فأدخله الربيع عليه فقال : "أنت المتوثب علينا عمال أمير المؤمنين "لا يوزن من لحمك أكثر مما يبقى على عظمك فقال بصوت ضعيف:

وَمِنَ العَنَاءِ رِياضَهُ الهَرَم أَتَرُوضُ عِرْسَكَ بَعْدَمَا هَرِمَتْ

فلم يتبين المنصور ما قال، لضعف صوته .فقال :يا ربيع ما يقول قال يقول:

فهل عذابُك عنّي اليَوْمَ مصروف الْعَبْدُ عَبْدُكُمُ والمالُ مالُكُمُ

فعفى عنه وخلى سبيله.

وكان يقول عقوبة الحليم التعريض، وعقوبة السفيه التصريح.

وروي عن الربيع أنه قال :جمع المنصور مالكاً وأبا حنيفة ()وابن أبي ذؤيب () رضي الله عنهم فقال :كيف ترون في هذا الأمر، الذي أعطاني الله تعالى .فقال ابن أبي ذؤيب :ملك الدنيا يؤتيه الله من يشاء وملك الآخرة يؤتيه، من وفقه له، وأن الخلافة تكون بإجماع أهل التقوى عليها، وأنت وأعوانك خارجون من التقوى، عالين على الخلق فإن سألت الله السلامة، كان في ذلك نجاتك، وإلا أنت المطلوب . فقال لأبي حنيفة :ما تقول، قال :المسترشد لدينه يكون بعيد الغضب، وأنت إذا نصحت نفسك علمت أنك لم ترد الله باجتماعنا فنقول بما تهواه، خوفاً من سيفك وحبسك ولقد وليت الخلافة، وما اجتمع عليك نفسان من أهل التقوى .فقال لمالك :ما تقول؟ فقال :لو لم يرك الله أهلا لذلك، ما قدر لك أمر الأمة، أعانك الله على ما ولاك .ثم أمر بانصرافهم، قال الربيع :ثم أعطاني ثلاث بدر()، وقال :اتبع القوم فإن أخذ ابن أبي ذؤيب وأبو حنيفة منها شيئاً، فأتنى برؤوسهما وإن أخذها مالك كلها فادفعها إليه .فأتيت ابن أبي ذؤيب وعرضت عليه، فقال :ما أرضى له هذا المال، فكيف أرضاه لنفسي، وقال أبو حنيفة :لو ضربت رقبتي ما مسست منها درهماً

واحداً، فأتيت بها مالكاً فأخذها كلها .قال الربيع :فأعلمته ما جرى، فقال :بهذه الصيانة حقنوا دماءهم.

وروي عن الربيع قال :ما رأيت رجلا أربط جأشاً، من رجل رفع عليه إلى المنصور أن عنده ودائع، وأموالاً لبني أمية، فأمرني بإحضاره فأحضرته فدخلت به عليه .فقال له المنصور :قد رفع إلينا خبر الودائع، والأموال التي لبني أمية عندك، فأخرج إلينا منها .فقال :يا أمير المؤمنين أوَارِثٌ أنت لبني أمية، فقال :لا، فقال :فوصي لهم في أموالهم ورباياحهم، قال :لا، قال :فما مسألتك عما في يدي من ذلك .قال :فأطرق المنصور ساعة، ثم رفع رأسه فقال :إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل للمسلمين في حقهم وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فأجعله في بيت مالهم، فقال :يا أمير المؤمنين تحتاج إلى إقامة البينة العادلة، على أن ما في يدي لبني أمية، مما خانوه وظلموا، دون غيره، فقد كان لبني أمية أموال غير أموال المسلمين .قال :فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال :صدق يا ربيع، ما يجب على الشيخ شيء، ثم قال :هل لك من حاجة، فقال :نعم، حاجتي يا أمير المؤمنين أن تنفذ كتابي على البريد إلى أهلي، ليسكنوا إلى سلامتي، فإنهم قد راعهم إشخاصي . وقد بقيت لي حاجة أخرى يا أمير المؤمنين، قال :قل، قال :تجمع بيني وبين من سعى بي إليك، فوالله ما لبني أمية في يدي مال، ولا وديعة، ولكني لما مثلت بين يديك، وسألتني عما سألتني عنه، قابلت بين هذا القول وما قبله، فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة .فقال :يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به، فجمعت بينهما، فقال :هذا غلام لي، سرق علي ثلاثة آلاف دينار من مالي وأبق .()فشد المنصور على الغلام، فأقر بأنه غلامه، وأنه أخذ المال الذي ذكره وأبق منه، وسعى به خوفاً وكذباً حتى لا يقع في يده .فقال المنصور للشيخ :نسألك أن تصفح عنه، فقال :قد صفحت عنه وأعتقته ووهبت الثلاثة آلاف التي أخذها وثلاثة آلاف دينار، فقال المنصور :ما على ما فعله الشيخ من مزيد، فقال :يكون هذا بحق شفاعتك يا أمير المؤمنين وانصرف .فكان المنصور يتعجب منه كل ما ذكره، ويقول :ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع.

وقيل :كان المنصور في صدر نهاره، يأمر وينهى، ويدبر الملك والنظر في النفقات، ومعاش الرعية، فإذا صلى العصر، جلس لأهل بيته، فإذا صلى العشاء نظر فيما ورد عليه، من كتب الثغور والآفاق، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه فنام، فإذا بقي الثلث الأخير من الليل، قام فأسبغ وضوءه وصف قدميه في

محرابه، حتى يطلع الفجر ثم يخرج ويصلي.

حديث زينب ابنة سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ()، قالت :كنت عند الخيزران ()، وعادتها إذا كنت عندها أن تقعد في عتبة الرواق المقابل للإيوان، وأجلس بإزائها، وفي الصدر مجلس المهدي ()، يقعد فيه وهو يقصدنا في كل يوم، فيجلس ساعة ثم ينهض .فبينما نحن كذلك إذ دخلت جارية من جواريها، اللواتي يحجبنها .فقالت :أعز الله السيدة، امرأة لها جمال وخلقة حسنة، وليس من وراء ما هي عليه، من سوء الحال غاية، تستأذن عليك .وقد سألتها عن اسمها، فامتنعت أن تخبرني، فالتفتت إلى الخيزران فقالت :ما ترين، فقلت :أدخليها، فإنه لا بد من فائدة أو ثواب .فدخلت امرأة كأجمل النساء وأكملهن، لا تتواري فوقفت إلى جانب عضادتي الباب، ثم سلمت متضائلة، ثم قالت :أنا مزنة بنت ()مروان بن عبد الملك، فقالت زينب :وكنت متكئة، فاستويت جالسة، فقلت :مزنة، فلا حياك الله ولا قربك، والحمد لله الذي أزال نعمتك وهتك سترك وأذلّك، أتذكرين يا عدوة الله، حين أتاك عجائز أهل بيتي يسألنك أن تكلمي صاحبك، في الإذن في دفن إبراهيم بن محمد ()، فوثبت عليهن وأسمعتهن، وأمرت بإخراجهن على الحالة، التي أخرجن عليها، فلا أنسى حسن ثغرها، وعلو صوتها بالقهقهة .وقالت :أي بنت عم، أي شيء أعجبك من حسن صنع الله في العقوق، حتى أردت أن تنافسيني فيه والله إني فعلت بنسائك الذي فعلت، فأسلمني الله عز وجل إليك، ذليلة جائعة عريانة، فكان هذا مقدار شكرك لله على ما أولاك فيَّ .ثم قالت :السلام عليكم وولت، فصاحت بها الخيزران :ليس هذا لك، عليَّ استأذنت وإليَّ قصدت فما ذنبي .فرجعت وقالت : لعمري فقد صدقتي يا أخيَّة .

وكان مما ردَّني إليك، ما أنا عليه من الضرر والجهد .قالت زينب فنهضت إليها الخيزران لتعانقها، فقالت :ليس فيَّ لذلك موضع، مع الحال التي أنا عليها . فقالت الخيزران لها :فالحمام إذاً، وأمرت جماعة من جواريها بالدخول معها إلى الحمام، فدخلت وطلبت ماشطة ترمي ما على وجهها من الشعر .فلم تزل حتى خرجت من الحمام، فوافتها الخلع والطيب، فأخذت من الثياب ما أرادت، ثم تطيَّبت وخرجت إلينا، فعانقتها الخيزران وأجلستها في الموضع الذي يجلس فيه أمير المؤمنين المهدي إذا دخل، فقالت لها الخيزران :هل لك في الطعام فأنا لم نطعم بعد، فقالت :والله ما فيكن أحد أحوج إليه منّي، فعجلوه، فأتِيَ بالمائدة فجعلت تأكل غير محتشمة وتلقّمنا وتضع بين أيدينا، إلى أن اكتفت، ثم غسلنا أيدينا .فقالت لها

الخيزران :من وراءك ممن تعنين به، فقالت :ما خارج الدار أحد من خلق الله، بيني وبينه سبب، فقالت الخيزران :إن كان هذا هكذا، فقومي حتى تختاري لنفسك مقصورة من مقاصيرنا، ونحول إليه جميع ما تحتاجين إليه، ثم لا نفترق حتى يفرق الموت بيننا .فقالت :فطفنا بها في المقاصير، فاختارت أوسعها وأنـزهها، ولم نبرح حتى حوِّل إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش والكساء والجواري والرقيق، ثم تركناها وخرجنا عنها .فقالت الخيزران :إن هذه المرأة كانت فيما قد كانت فيه، وقد مسها ضرّ، وليس يغسل ما في قلبها، إلا المال، فاحملوا إليها خمس مائة ألف درهم، فحُمِلت إليها .ووافانا المهدي فسألنا عن الخبر فحدثته حديثها، وما لقيته به، فوالله ما انتظر أن أعرِّفه جوابها حتى وثب مغضباً في وجهي، وقال :يا زينب، هل هذا مقدار شكر الله على نعمه، وقد مكَّنك من مثل هذه المرأة، على هذه الحال التي هي عليها فوالله لولا محلك من قلبي، لحلفت أن لا أكلمك أبداً .قالت :فقلت :قد اعتذرت إليها، ورضيت ثم قصصنا عليه قصتها كلها، وما فعلت الخيزران لها، فقال لخادم معه :إحمل إليها مئة بدرة، وادخل إليها وأبلغها السلام عني .وقل لها، والله إني ما سررت منذ دهري سروري بمكانك، وأنا أخوك وممَّن يوجب حقك، لا تدعي حاجة إلا سألتيها .ولولا أني أكره أن أحشمك ()لصرت إليك مسلماً عليك، وقاضياً حقك .فمضى الخادم إليها بالمال والرسالة، فأقبلت إلينا معه، فسلمت على المهدي، وشكرت له فعله، وأثنت على الخيزران عنده .وقالت :ما على أمير المؤمنين حشمة ()، أنا في عِداد حرمه، وقعدت ساعة، ثم قامت إلى منـزلها فخلفتها عند الخيزران كأنها لم تزل في ذلك القصر.

وقيل :إن المهدي لما حج، أنفق في حجِّه ثلاثين ألف ألف درهم، وخمسمائة ألف دينار .وفرق من الثياب مائة ألف وخمسين ألف ثوب، وهو الذي وسَّع المسجد الحرام، وبناه على ما هو عليه اليوم.

وقيل :نذر ()المهدي، دم رجل من أهل الكوفة، كان يسعى في فساد دولته، فجعل لمن دلَّ عليه، أو جابه مئة ألف درهم .فأقام الرجل متوارياً ثم إنه ظهر يوماً ببغداد، فبينما هو يمشي في بعض نواحيها، بصر به رجل من أهل الكوفة، فرفعه فأخذ بمجامع ثيابه، وقال :هذا بغية أمير المؤمنين، فبينما الرجل على تلك الحال، إذ سمع وقع الحوافر من ورائه فالتفت فإذا معن بن زائدة، فقال :يا أبا الوليد ()، أجرني أجارك الله، فوقف، فقال للرجل الذي هو متعلق به :ما شأنك؟ قال :بغية أمير المؤمنين، نذر دمه وبذل لمن دل عليه مئة ألف درهم .فقال :يا غلام، انـزلْ عن

دابتك واحمل الرجل عليها، فصاح المتعلق بالرجل :يا للناس أيحال بيني وبين طلبة أمير المؤمنين، فقال له معين :اذهبْ فاخبره أنه عندي، فانطلق الرجل إلى باب المهدي، فأخبر الحاجب فدخل إلى المهدي، فأخبره فأمر بإحضار معن، فأتته الرسل، فدعا أهل بيته ومواليه، وقال :لا يخلصن إلى هذا الرجل، وفيكم عين تطرف .ثم سار إلى المهدي، فدخل فسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام .وقال :يا معن أتجير علينا، قال :نعم يا أمير المؤمنين، قال :ونعم أيضاً !فاشتد غضبه .فقال :يا أمير المؤمنين، قتلت في طاعتكم في اليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفاً، إلى أيام كثيرة قد تقدم بلائي وحسن غنائي، فما رأيتموني أهلاً أن يوهب لي رجل واحد، فأطرق المهدي طويلاً، ثم رفع رأسه وقد سرى عنه .وقال :قد أجرنا جارك، فقال معن :إن رأى أمير المؤمنين أن يصله فيكون قد أحياه وأغناه .قال :قد أمرنا له بخمسين ألف درهم، قال معن :إن صِلات الخلفاء لا تكون إلا على قدر جنايات الرعية، وإن ذنب الرجل عظيم فأجزل له العطية .فقال :قد أمرنا له بمائة ألف درهم، قال :تعجَّلها يا أمير المؤمنين، فإن خير البر عاجله، فأمر بتعجيلها له . وانصرف معن بالمال إلى الرجل وقال له :خذ صلتك واِلحقْ بأهلك وإياك ومخالفة خلفاء الله تعالى .

ذكر المنصور لمعن بن زائدة بعد كلام له :قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء، لولا مكانك عنده ورأيه فيك لصعب عليك الأمر قال :وما ذاك يا أمير المؤمنين، فوالله ما تعرضت به منك، قال :إعطاؤك مروان بن أبي حفص ()ألف دينار في قوله فيك:

شَرَفاً عَلَى شَرَفٍ بَنُو شَيْبَانِ مَعْنُ بنُ زائِدةَ التي زيدتْ به
يَوْمَاهُ يَومُ ندا ويومُ طِعَانِ أنْ عُدَّ أيّامُ الرجال فإنها

فقال :ما أعطيته لهذا ولكن لقوله:

بالسيفِ دون خليفة الرحمان ما زلْتَ يومَ الهاشِمِيَّةِ مُعْلِماً
مِن وقْع كلِّ مُهَنَدٍ وسِنان فحميت حوزته وكنت وقاءه

فاستحيا المنصور فقال ما أعطيته إلا لهذا .قال :نعم يا أمير المؤمنين فوالله لولا مخافة الشنعة، عندك لمكنته من مفاتيح بيوت أموالي وانحلته إياها .قال المنصور :لله درك من أعرابي ما أهون عليك ما يعز على الرجال وأهل الحزم قيل أقام أعرابي على باب معن بن زائدة فلما طال مقامه كتب إليه رقعة فيها :

وفي الأرض أسباب وفيها مذاهب فما في يديك الخير يا معنُ كله

إذا افتتحت عند الإياب الحقائب سيأتي بنات العم ما أنت صانع

ووكل من يوصلها إليه وسار فلما وصلت الرقعة إليه وقرأها أمر برده وقال : والله لتفتشن عن خير كثير وأمر فملئت حقيبته دراهم.

وحضر ببابه شاعر فأقام مدة لا يتهيأ له الدخول عليه، فقال يوماً لبعض خدمه :إذا دخل الأمير البستان فعرفني فلما دخله أعلمه .فكتب بيتاً على خشبة وألقاها في الماء، الذي يدخل البستان .فلما نظر معن في الخشبة أخذها فقرأها فإذا فيها مكتوب:

فمالي إلى معن سواك رسول أيا جود معن ناج معنا بحاجتي

فقال من صاحب هذه، فدعا بالرجل فقال له :كيف قلت أنشد البيت، فأمر له بمائة ألف درهم، فأخذها ووضع الخشبة تحت بساطه .فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت بساطه، وقرأها فدعا بالرجل، فأمر له بمائة ألف أخرى، وكذلك في اليوم الثالث فلما أخذها الرجل، تفكر في عظم ما أخذ وخاف أن يسترجعها منه فخرج فلما كان في اليوم الرابع قرأ ما فيها ودعا بالرجل فلم يوجد .قال معن :حق عليّ أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار.

قيلَ :خرجَ على هارونَ الرشيدِ ()بعضُ الخوارجِ، فأنهضَ إليهِ جيشاً فَظَفِرَ بِه، فلمّا دخلَ عليهِ، قالَ لَهُ :ما تريدُ أنْ أصنعَ بِكَ قالَ :الذي تريدُ أن يصنعَ اللهُ بكَ، إذا وقفتَ بينَ يديه .فأطرقَ مليا ثُمَّ رَفَعَ رأسَهُ وأمرَ بإطلاقِهِ فَلَمَّا خرجَ قالَ بعضُ مَنْ حَضَرَ :يا أميرَ المؤمنينَ يقتلَ أهلَكَ وُيفنِي أموالَكَ وتطلقُهُ لِكلمةٍ واحدةٍ، تأمل هَذا، فإنَّه يُجَرّئُ، عليكَ أهلَ الشَّر .فأمرَ بِردِّهَ فَلمّا مَثَل بينَ يديهِ، عَلِمَ أنه قَدْ سعَى بِهِ عِنْدَهُ، فقالَ :يا أميرَ المؤمنينَ لا تطعْهُ فَلوْ أطاعَ الله فيكَ، ما استخلَفَكَ لحظةً واحدةً فأمرَ بإطلاقِهِ وقالَ :لا تعاودْوني في بَابِه .()

وَعَنْ جُريمٍ بن أبي يَحيى المُزَنيِّ قالَ :دَعاني، يوماً للأكْلِ مَعَهُ فَلَمَّا توسَّطَ الأكلَ، رفع رأسَهُ إلى رَجُل، يكلِّمُهُ بالفارسيّةِ قُلْتُ :يا أمير المؤمنينَ إنْ كنت تريد أنْ تُسِرَّ إليهِ، فإنِي أفهمُ الفارسيَّة، فَأمرْني أتنحَّى إلى أنْ تُقّدم إليهِ بِما تُريدُ فَاعجبَ الرشيدَ كرمُ أخلاقِهِ وَصَدَّقَهُ وَخَاطَبَ الرَّجلَ سِرًّا بما أرادَ وأمرَ لجريمٍ بِصِلةٍ سَنِّيةٍ.

وَقيلَ استزار إبراهيمْ بنُ المهدي، أخاه هارون الرشيدَ بالرّقةِ، فَلَمَّا حَضَرَ الطعامُ وكانَ الرشيدُ لا يأكلُ حاراً قَبْلَ باردٍ .فَوضعَتْ البوارِدُ بينَ يديهِ على المائدةِ، فَرَأى فيما قرب مِنهُ جاماً ()فِيهِ قريشُ السَّمكِ، فاستصغرَ القِطَعَ فقالَ لإبراهيم لِمَ

يُصَغِّرْ طباخُك السَّمكَ .فقالَ :إنَّهُ لَمْ يُصَغِّرْ القِطَعَ، وإنَّما هذه ألسنةُ السَّمكِ، فقالَ : شَبيهٌ أنْ يكونَ في هذا الجامِ مائةُ لِسانٍ فقالَ لَه مراقبُ خادِمِ إبراهيمَ يتولى قهرمتَه، فيه يا أمير المؤمنينَ أكثرُ مِنْ مائةِ لسانٍ فاستحلَفه على مبلغِ ثَمنِ السَّمكِ، الذي مِنها هذهِ الألسنةُ .فأخبَرُ أنَّهُ ألفُ دِرهم فَرَفَعَ هارونُ يدَهُ مِنَ الطعامِ وَحَلَفَ أنْ لا يطْعَمَ دونَ أنْ يُحْضِرَ مراقبُ ألفَ دينارٍ، فأحضرَها فأمَرهُ أنْ يتصدَّقَ بِها .وقالَ لإبراهيمَ : أرجو أنْ يكون هذا كَفارةً لِسَرفِكَ في انفاقِكَ، على جامِ سَمَكٍ ألفَ دِرْهم، ثُمَّ أخذَ الجامَ بيدِهِ، وَدَفَعَهُ إلى بعضِ خَدَمِهِ .وقالَ :اُخرجْ :مِنْ دارِ أخي، ثم انظرْ أوَّلَ سائِلٍ تراهُ، فادفعْهُ إليه .قالَ إبراهيمُ :وكانَ شراءُ الجامِ على مائتين وسبعينَ ديناراً فغمزتُ بعضَ خَدَمِي أنْ يَخْرُجَ مَعَ الجامِ فيبتاعَهُ مِمّنْ يُدْفَعُ إليهِ، وكأنَّ الرّشيدَ فَهمَ ذلكَ مِني فهتَفَ بالخادِمِ، وقالَ :إذا دَفعت الجامَ الى السائِلِ، فقلْ لهُ يقولُ لكَ أميرَ المؤمنين :احذرْ أن تبيعَ الجامَ بِأقل من مئتي دينار فإنّه يُساوي أكثرَ مِنْها .فَفَعَلَ الخادِمُ ما أمَرهُ، قالَ :فواللهِ ما أمكَنَ خادِمُ إبراهيمَ أن يشتريَهُ، ويردَّهُ إلى الدّارِ إلا بمائتي دينارٍ، كما أوصى أميرُ المؤمنينَ .

وَلَمّا حُمِلَ الشَّافِعِي رَحمهُ اللهُ مِنَ اليمن إلى الرشيد، حينَ وُشِيَ بِهِ إليهِ فجرَى لَهُ مَعَهُ كلامٌ كثيرٌ إلى أنْ قالَ لَهُ الرشيدُ، هَلْ مِنْ موعِظَةٍ تَعِظُ بها أميرَ المؤمنينَ . قالَ :نَعَمْ على تركِ الحشمَةِ وَرَفعِ الهيبَةِ، وقبولِ النُّصحِ والقاءِ رداءِ الكِبْرِ عن منكبِكَ .قالَ الرشيدُ :لَكَ ذلك، فَجَثى الشافعي على ركبتيهِ .وقالَ :يا ذا الرَّجلِ، إنَّه مَنْ أطالَ عِنَانِ الأمرِ في العِزّ، طوى عدارَ الحذرِ بالمهلةِ، وَمَنْ لَمْ يعوّلْ على طريقِ النجاةِ، كانَ بجانِبِ قِلّةِ الاكتِراثِ بالمراجَعَةِ إلى اللهِ مُقيماً .وَمَنْ أرث الظَّنَ، كَانَ مِنْ أمَنةِ المحذورِ، في مِثلِ نسجِ العنكبوتِ، لا تأمنُ على نفسِهَا، وَتَحْجِزُها عن سَعْيِها، فَلَوْ جَرَّعَها مخالفَتها وبادرَ خوفَ المراجعةِ، بالتزوُّدِ إلى دارِ المقامةِ، إنْ لَوْ فعلتَ ذلكَ يا رَجُلُ ما اهتدتْ إليكَ يَدُ النَّدامةِ وَلأبدَرْتكَ غداً في القيامةِ، لكنَّكَ أتيتَ مِنْ حيثُ لا يُؤدِّي إلى فَهمِكَ، مَنْ أذنَ لمجِّ الكلامِ بسمعِكَ فَمِن ثَمَّ أعقَبكَ التَّواني، والاغترارُ بنفسِكَ وَلَوْ كانَ لَكَ أميرٌ مِنْ عقلِكَ ينقد لكَ ما سقَطَ من عيوبِكَ، لشغلَكَ ذلكَ عن النَّظرِ في عيوبِ غَيرِكَ وَلَكنْ ضَرَبَ الهَوى عليكَ رواقَ الحيْرَةِ فتركَكَ إذا خرجْتَ يدْ موعِظتِكَ، لم تكدْ تراها وَمَنْ لَمْ يجعلِ اللهُ لهُ نوراً، فَما لَهُ مِنْ نورٍ .فَبَكى الرشيدُ حتى بَلَّ مِنديلاً كانَ في يدِهِ، ثُمَّ قالَ لَهُ خاصةُ مَنْ يقومُ على رَأسِهِ :اسكتْ فقدْ أبكيتَ أميرَ المؤمنينَ فالتفتَ إليهمُ الشَّافعيُّ، رَحِمَهُ اللهُ، وقالَ :يا عبيدَ الدُّنيا، الذينَ باعوا أنفسَهُم لمحبوبِ الدُّنيا، أمَا رأيتُم ما استُدرِجَ بِهِ مَنْ كانَ قَبْلَكُم مِنَ الأمم

بالأمانِي ألمْ تَروا كيفَ فَضَحَ اللهُ مستورَهُم، وأمطرتْ بواكيرُ الهمومِ عليهم، بَعدَ سُرورِهِمَ فأصبحُوا بَعْدَ خِفضِ عيشِهم، ولينِ رفاهيتِهم، في نسيم روضةِ البطَّالينَ حصائِدَ النَّقَمِ ومدارجَ المثولاتِ .فقالَ لَهُ الرشيدُ :لَقَدْ سللتَ علينا لسانك وهو أمضى من سيفك فقال له الشافعى :إن قبلتَهُ فهو لَكَ، وإلا عليكَ .قالَ :فَهَلْ مِنْ حاجةٍ خاصة بعد العامةِ، قالَ :بعدَ مكنونِ النصيحةِ، وتجريدِ الموعظَةِ تأمرني أن أسود وجه موعظتي بالمسألةِ قالَ :ثُمَّ ماذا قال :النظر في أُمورِ الرعيةِ والقِسمَةِ بينَهُم بالسويةِ، قالَ :وَمَنْ يُطيقُ ذلكَ، قالَ :مَنْ تُسمى باسمِكَ، وَتُسبَ إلى موضعِكَ .قال :ثم ماذا قالَ :الحب أحببْ الله،، وجيران قبر رسولِ اللهِ صلى الله عليهِ وعلى آلهِ، أما واللهِ لَو أردتَ عِمارَةَ قَبْرِ رَسولِ اللهِ صلىَ الله عليه وعلى آلهِ وسلم للزمك في ذلك مؤنةٌ . قالَ :فأمَرَ الرشيدُ بمال للمهاجرينَ والأنصار والعلويةِ، وأمرَ للشافعي، رحمه الله، بخمسينَ ألفِ دينارٍ، وحمله على فَرَس.

وكانَ الرشيدُ يُصَلي في كُلِ يَوم مِئَة ركعةٍ، إلى أنْ تُوفيَ ويتصدقُ في كُل يَوم بمائةِ ألف درهم، فإذا حَج حَج مَعَهُ مائة مِنَ الفقهاءِ كل فقيهٍ منهُم بزادِهِ وَراحِلَتِهِ . وُجِدَ ذلكَ في كِتابِ تفاوت التواريخ واللهُ أعلمُ.

قالَ الأصمعي :()قصدتُ في بعض الأيامِ، رجلا كنت أغشاهُ لكرمه، فوجدتُ على بابِهِ بوّاباً، فمَنعنِي مِنَ الدخولِ عَلَيه .فقالَ البوّابُ :واللهِ ما أوقفَنِي على بابِهِ، لأمنعَ مِثلَكَ الدخولَ عليهِ، لرقة حاله وقصور يده، فكتبت رقعة أقول فيها:

فما فضلُ الكريمِ على اللَّئيم إذا كانَ الكريمُ لَهُ حِجابٌ

ثم قلتُ أوْصِلْ رقعتي هذِهِ إليهِ ففعلَ .فعادتْ الرقعة، وقد كتب على ظهرِها:

تَستَّرَ بالحجابِ عَنِ الغريم إذا كان الكريمُ قليلَ مالِ

ومع الرقعةِ صُرة فيها خمسمائةِ دينارٍ وَعذْرٌ .فقلتُ :واللهِ لا تحفن أميرَ المؤمنينَ بِهذا الحديثِ، فجئتُ إلى الرشيدِ فَلَمّا رآني قالَ :مِنْ أين يا عبد الملك قلت : من عند رجل، أكرمَ الأحياءَ حاشا أمير المؤمنين، قال :ومن هو قلتُ :رَجُلٌ قَراني علِمَهُ مالُهُ، ثم دفعت إليهِ الرقعة والصرة .قالَ هذا ختم بيتِ مالِي فلا بد لِي من الرجل، الذي دفعها إليكَ .قلتُ :يا أميرَ المؤمنينَ واللهِ إني لأستحي أنْ أروعَهُ برسلك، فقالَ لِبعض خاصته امض معَ الأصمعيِّ، فإذا أراكَ الرجلَ فقل له :أجبْ أميرَ المؤمنينَ مِنْ غيرِ ازعاج .قالَ فلما حضر الرجلُ بين يدي الرشيدِ، قالَ له :أما أنتْ بالأمس، وقفتَ بموكبنا وشكوت رقة حالك وأن الزمان أناخَ عليكَ بكلكله، فدفعنا إليك هذه الصرةَ لتصلح بها حالَكَ فقصدَكَ الأصمعي ببيت واحد فدفعتها إليهِ،

قال :والله ما كذبتُ فيما شكوتُ يا أميرَ المؤمنينَ مِن رقةِ الحالِ وصعوبةِ الزمانِ وَلكني استحيت مِنْ اللهِ تعالى أنْ أعيدَ قاصِدي، إلا كما أعادَني أميرُ المؤمنينَ .فقال: لله درُّك فما ولدت العربُ أكرمَ مِنْكَ، ثُمّ أمَر له بألفِ دينارٍ، فقلت :ألحقني به يا أمير المؤمنين فتبسم وأمر أن تكمل لي ألف دينار، وعاد الرجل من جملة ندمائه.

وقيل لما حج الرشيد، ورجع قافلاً دعا صالحًا، حين تنكر للبرامكة، فقال : أخرج إلى منصور بن زياد ()، فقل له :قد صحت عليك عشرة آلاف ألف درهم، فاحملها إلي من يومك، فإن هو دفعها إليك كاملة قبل مغيب الشمس من يومك هذا، وإلا فاحمل إلي رأسه، وإياك ومراجعتي في شيء مِنْ أمره .قال صالح :فخرجت إلى منصور فعرفته الخبر، فقال :إنا لله وإنا إليه راجعون ذهبت والله نفسي ثم حلف أنه لا يعرف موضع ثلاثمائة ألف درهم، فكيف عشرة آلاف ألف درهم، فقال له صالح خذ في عملك .()قلت له :امض إلى منـزلي حتى أوصي وأتقدم في أمري فما هو إلا أن دخل حتى ارتفع الصراخ من منازله، وحجر نسائه، فأوصى وخرج وما فيه لحم ولا دم .فقال :امض بنا إلى أبي علي، يعني يحيى بن خالد، فلعل الله أن يأتينا بفرج من جهته، فمضيت معه فدخل على يحيى بن خالد، فقال له يحيى :ما وراءك فقص عليه القصة فقلق يحيى لأمره وأطرق مفكرا ودعا جارية وقال لها : كم عندك من المال قالت :خمسة آلاف ألف درهم قال :هاتيها فأحضرتها ثم وجه إلى ولدها الفضل ()إنك كنت أعلمتني، فداك أبوك أن عندك ألفي ألف درهم وددت أنك تشتري بها ضيعة، وقد وجدت لك ضيعة يبقى ذكرها وشكرها وتحمد ثمرتها فوجه إلي بالمال، وقال للرسول امض إلى جعفر فقل له :ابعث لي، فداك أبوك، بألف ألف درهم، لحق لزمني فوجها إليه فقال :هذه ثمانية آلاف ألف درهم، ثم أطرق طويلا، لأنه لم يكن بقي معه من المال شيء ثم رفع رأسه إلى خادم له، فقال :امض إلى دنانير ()فقل لها :وجهي إليَّ بالعقد الذي كان أمير المؤمنين، وهبه لك فجابه فإذا هو عقد كعظم الذراع، فقال لصالح :اشتريت هذا بمائة ألف وعشرين ألف دينار، فوهبه أمير المؤمنين، لدنانير وقد حسبناه بألفي ألف درهم وهذا تمام المال، فانصرف وخل صاحبنا، لا سبيل لك عليه .قال صالح :فأخذت ذلك ورددت منصورا معي، فلما صرنا بالباب أنشد متمثلا:

ولكن خفتما صرد ()النبال فما بقيا علي تركتماني

قال صالح فقلت ما على وجه الأرض، رجل أنبل من رجل خرجنا من عنده ولا سمعت بمثله، فيما مضى ولا يكون فيمن بقي، ولا على وجه الأرض، رجل

أخبث سريرة، ولا أردأ طبعا، من هذا النبطي، إذا لم يشكر من أحياه .قال :ثم صرت إلى الرشيد، فقصصت عليه قصة المال، وطويت عنه ما قال منصور، لأني خفت إن سمعه أمر بضرب عنقه .قال الرشيد :أما إني قد علمت، من نجا لم ينج إلا بأهل هذا البيت .وقال :اقبض المال، واردد العقد على دنانير لأني لم أكن لأهب هبة، فترجع إلي .قال صالح :فلم أطب نفساً، بترك تعريف يحيى ما قال منصور، فقلت له بعد أن أطنب في شكره، ووصف ما كان منه لقد أنعمت على غير شاكر، قابل أكرم فعل بالأم قول .وكيف ذلك فأخبرته بما قال، فجعل والله يطلب له المعاذير .وقال :يا أبا علي إن المخوف القلب ربما سبق إلى لسانه ما ليس في ضميره، وقد كان الرجل في حال عظيمة .فقلت والله ما أدري أي أمريك أعجب، أمن أوله أم من آخره، لكني أعلم أن الدهر لا يخلف مثلك أبدا.

قال يحيى بن خالد :من أحسنت إليه، فأنا مرتهن به، ومن لم أحسن إليه فأنا مخير فيه .وقال :في ذكر النعمة من المنعم تكدير، ونسيان المنعم عليه كفر .وقال : يدل على كرم الرجل، سوء أدب غلمانه .وقيل له :لم لا تقول الشعر فقال :شيطانه أخبث من أن أسلطه على عقلي .وقال :إذا أدبر الأمر كان العطب في الحيلة.

وقيل :ركب محمد بن إبراهيم ()دين فركب إلى الفضل بن يحيى، ومعه حُق فيه جواهر، فقال له :قصرت بنا غلاتنا وأغفل أمرنا خليفتنا وتزايدت مؤنتنا فلزمنا دين احتجنا إلى أدائه وهو ألف ألف درهم وكرهت بذل وجهي للتجار، وأذالة () عرضي منهم .ومعي رهن وثيق بذلك، فإن رأيت أن نأمر بعض غلمانك بقبضه، وحمل المال إلينا فعلت، فدعا الفضل بالحق، فرأى ما فيه وختمه بختم محمد بن إبراهيم، ثم قال له :نجح الحاجة، أن

تقيم اليوم عندي في منـزلي، فقال له :إن المقام على مشقة فقال :له ما يشق عليك من ذلك إن رأيت أن تلبس بعض ثيابنا، دعوت به وإلا أمرت بإحضار ثياب من دارك .فأقام ونهض الفضل فدعا بوكيله، وأمره بحمل المال وتسليم الحق الذي فيه الجوهر إلى وكيل محمد بن إبراهيم وأخذ خطه بذلك .ففعل الوكيل ذلك، وأقام محمد عنده إلى الليل، وليس عنده خبر بشيء من الأمر ثم انصرف إلى منـزله فأحضر الوكيل المال والحق فغدا على الفضل ليشكر له فوجده قد سبقه بالركوب إلى دار الرشيد فوقف منتظرا له، فقيل له :قد خرج من الباب الآخر، فاتبعه فوجده سبقه إلى دار ابنه فوقف ينتظره فقيل له :قد خرج من الباب الآخر، قاصدًا إلى منـزله، فانصرف عنه فلما عاد إلى منـزله وجه الفضل إليه بألف ألف أخرى فغدا عليه

فشكره وأطال، فأعلمه الفضل أنه بات بليلة طالت غما بما شكاه إلى أن لقي الرشيد، فأعلمه بحاله وأمره بالتقدير له، فلم يزل يماكسه إلى أن تقرر الأمر معه على ألف ألف درهم، فقال :إنه لم يصلك بمثلها قط ولا زادك على عشرين ألف دينار فشكرته، وسألته أن يصك بها صكا بخطه ويجعلني الرسول ففعل فشكره محمد . وقال صدق أمير المؤمنين أنه لم يصلني بأكثر من عشرين ألف دينار، وهذا إنما تهيأ بك وعلى يديك، وما أقدر على القيام بحقك ولا على شكر أجازي به معروفك غير أن عليَّ وَعَليَّ أيمانا مؤكدة إن وقفت بباب أحد سواك ولا سألت غيرك حاجة أبدا، ولو سففت التراب .فكان لا يركب إلى غير الفضل، إلى أن كان من أمرهم ما حدث، فكان لا يركب إلى غير دار الرشيد ويعود إلى منـزله فعوتب بعد تقضي أمرهم، في ترك الركوب إلى الفضل بن الربيع، فقال :والله لو عمرت ألف عام ومصصت الثماد، ما وقفت بباب أحد، بعد الفضل بن يحيى، ولا سألته حاجة أبدا حتى ألقى الله تعالى، فلم يزل ذلك حاله حتى مات.

وقيل :دخل مسلم بن الوليد ()على الفضل بن يحيى، وقد كان ورد عليه خبر سره، فجلس للشعراء فمدحوه وأثابهم، ونظر في حوائج الناس فقضاها، وتفرق الناس عنه، وخلا في منـزله، ولم يحضر مسلم ذلك، وإنما بلغه حين انقضى المجلس، فدخل عليه فاستأذنه في الإنشاد فأذن له فأنشده قوله:

عَلَيْهَا فَتًى كالنَّصْلِ يُوْنِسُهُ النَّصلُ ... أَتَتْكَ المطايَا تهتدي بمَطِيَّةٍ

فحظُّ الثناءِ الجزلِ نائلُهُ الجزلَ ... وردتُ رواق الفضل آملُ فضلهُ

إذا كَانَ مَرْعَاهَا الأمانيُّ والمطلُ ... فَتًى تَرْتَعِي الآمالُ مُزْنَةَ جُودَهَ

الردى وعيونُ القوْلِ مَنْطِقُهُ الفصل ... تُساقِطُ يُمْنَاهُ الندى وَشِمالُهُ

على مَنْهَجِ ألفى أباهُ بهِ قَبْلَ ... أَلَحَّ عَلَى الأَيَّامِ يَقْري خُطُوبَها

فَلَيْسَ لَهُ مِثْلُ وَلا لَهُما مِثْلُ ... أَنَافَ على العَلْيَاءِ يَحْيَى وخالد

وأصلاً فطابت حيث وجهها الأصل ... فروع أصابت مغرساً متمكناً

وَتُسْتَنزلُ النّعْمى ويُسْتَرْعَفُ النَّصْلُ ... بَكفٍّ أبي العباس يُسْتَمْطرُ الغِنَى

فطرب الفضلُ طربا شديدا، وأمر بأن تعد الأبيات، فعدت فكان مبلغها ثمانين بيتا .فأمر له بثمانين ألف درهم وقال :لو لا أنه أكثر ما وصل به شاعر لزدتك ولكنه شيء لا يمكن تجاوزه يعني أن الرشيد رسمه لمروان بن أبي حفصة.()

وروى أن مروان بن أبي حفصة دخل على الرشيد فأنشده مدحا فيه، فقال :من أنت قال :شاعرك مروان بن أبي حفصة فقال :ألست القائل:

مقاما لا نُريدُ به زوالا أقمنا بالمدينة بعد مَعْن
وقدْ ذَهَبَ النَّوالُ فلاَ نَوالاَ وَقُلْنا أيْنَ نذهب بعد معنٍ
إلَـى أنْ زَارَ تـربَتَـه عِيـالاَ وَكَانَ النَّـاسُ كُلُّهُمُ لِمَعْنٍ

فقد ذهب النوال كما زعمتم .فلم جئت تطلب نوالنا .لا شيء لك عندنا جروا برجله، فجروا برجله حتى أخرج فمكث سنة ثم دخل عليه في جملة من الشعراء فأنشده قوله:

بَيْضَاءُ تَخْلِطُ بالحَياءِ دَلالَها طرَقَتْكَ زائرةً فَحَيَّي خَيَلَهَا
بـأكُفِّكُمْ أو تَسْتُرُونَ هِلاَلَها هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومُها

حتى بلغ قوله:

جبريلُ بَلَّغَها النَّبيَّ فقالَهَا أوْ تَجْحَدُونَ مَقالَةً مِنْ رَبِّكُمْ
ٍ بتُراثِهِمْ سفأرَدْتُمُ إبطالَـها شَهِدَتْ منَ الأنْفالَ آخِرُ آية

فزحف الرشيد حتى صار على البساط .وقال :كم هي قالوا هي مائة بيت فأمر له بمائة ألف درهم.

وقيل :دخل يزيد بن مزيد ()على الرشيد فقال له :من الذي يقول فيك:

ولا يُمَسِّحُ عينيه من الكحل لا يَعْبَقُ الطِّيبُ خديه ومفرقه
فهن يَتْبَعْنَـهُ في كل مُرْتَحَل قد عود الطير عادات وثقن بها

فقلت له :لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين، فقال له :أيقال فيك مثل هذا الشعر، ولا تعرف قائله؟ فخرج من عنده خجلا، فلما صار إلى منـزله دعا حاجبه، وقال : من بالباب من الشعراء؟ قال :مسلم بن الوليد .قال :فكيف حجبته عني، فلم تعلمني به، قال :أخبرته أنك مضيق، وأنه ليس في يدك مال تعطيه، وسألته الإمساك والمقام أياما، إلى أن يتسع عليك الحال، فقال :أدخله إليَّ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

كَأَنَّهُ أجَلُ يَسْعَى إلى أمَلَ مُوفٍ على مُهَجٍ في يوم ذِي رَهَجٍ
لا يَأمنُ الدَّهْرَ أنْ يُدْعَى على عَجَلٍ تَراهُ في الأمْنِ في دِرْعٍ مُضاعَفَةٍ
وَلا يُمَسِّحُ عَيْنَيْهِ مِنَ الكُحُلِ لا يَعْبَقُ الطِّيبُ خَدَّيْهِ وَمَفْرِقَهُ
فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ في كُلِّ مُرْتَحَلٍ قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بها
وَأنْتَ وَابْنُكَ رُكْنَا ذَلِكَ الجَبَلِ() للهِ مِنْ هاشِمٍ في أرْضِهِ جَبَلٌ

فقال له :قد أمرت لك بخمسين ألف درهم فاقبضها وأعذر، فخرج الحاجب

فقال :قد أمرني أن أرهن ضيعة من ضياعه بمائة ألف درهم، خمسون ألفا منها لك، وخمسون ألفا لنفقته، فأعطاه إياها .فكتب صاحب الخبر بذلك إلى الرشيد فأمر له بمائتي ألف درهم وقال :اقبض الخمسين ألف درهم، التي أخذها الشاعر وزده مثلها، وخذ مائة ألف لنفقتك، فافتك ضيعته وأعطى مسلما خمسين ألفا أخرى.

وروى عن مسلم بن الوليد أنه قال :جاءني رسول يزيد بن مزيد فجئته فوجدته خارجا من الحمام، وهو على كرسي وعلى رأسه وصيفة بيدها غلاف مرآة، والمرآة بيده وهو يسرح لحيته فقال لي :أنشدني فأنشدته حتى بلغت قولي:

ولا يمسحُ عينيه مِنَ الكُحْلِ لا يعبقُ الطيبُ خَدَيه ومفرقه

فوضع المرآة من يده وقال للجارية :انصرفي فقد حرم علينا مسلم الطيب والكحل .فلما فرغت من القصيدة، قال لي :يا مسلم أتدري ما الذي حداني على أني وجهت، إليك قلت :لا والله ما أدري، فقال :كنت عند أمير المؤمنين فقال لي :يا يزيد من الذي يقول فيك :

يَمْضِي فيقتطعُ الأجْسَادَ وَإلهامَا سَل الخليفةَ سَيْفاً مِنْ بنَى مَطَرٍ

قدْ أوْسَعَ النَّاسَ إنْعَاماً وإرْغاما () كالدَّهْرِ لا يَنْثَنِي عمّا يَهُمُّ بِـهِ

فقلت والله ما أدري، فقال الرشيد :يا سبحان الله إنك مقيم على أعرابيتك أيقال فيك مثل هذا الشعر، ولا تدري من قائله .فسألت عن قائله فأخبرت أنك هو، فقم حتى أدخلك على أمير المؤمنين، ثم قام فدخل على الرشيد، فما علمت حتى خرج الآذن علي، فدخلت على الرشيد فأنشدته ما لي فيه من الشعر، فأمر لي بمائتي ألف درهم، فلما انصرفت أمر لي يزيد بمائة ألف وتسعين ألف درهم أخرى وقال :لا يجوز أن أعطيك مثل ما أعطاك أمير المؤمنين، وأقطعني إقطاعات تبلغ غلتها مائتي ألف درهم.

وروي عن إسحاق بن إبراهيم، قال :كنت عند المأمون ()بدمشق، وقد كان المال عنده قليلا، حتى ضاق وشكا ذلك إلى أخيه أبي إسحاق ()، فقال :يا أمير المؤمنين قد أمرت بمال يحمل إليك، وهو موافيك بعد جمعة، فلما ورد المال من النواحي التي كان يتولاها، وكان ثلاثون ألف ألف، قال المأمون ليحيى بن أكثم :() اخرج بنا ننظر إلى هذا المال، قال يحيى :فخرجنا حتى أصحرنا ووقفنا ننتظره . وقد كان هئ بأحسن هيئة، وحليت أبا عره، وألبست الأحلاس الموشاة والجلال المصبوغة، وقلدت العهن .()فنظر المأمون إلى شيء استحسنه وعظم ليحيى في

عينه، واستشرف الناس ينظرون إليه، ويتعجبون منه ويستظرفونه فقال المأمون ليحيى يا أبا محمد :ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين نراهم إلى منازلهم خائبين، وننصرف نحن بهذا المال، دونهم، إنا إذا للئام، ثم دعا إلى محمد بن يزداد وقال : وقع لفلان بكذا، ولفلان بكذا، فوالله ما زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف، ثم أمر أن يصرف الباقي في عطاء الجند.

وقيل :كان بالبصرة شاعر من بني تميم، فأراد جعفر بن سليمان أن يتقدم إلى المأمون، مادحا له ومعرضا بشكر الوالي .فأعطاة بختيا ()ونفقة، قال فركبت بختي ومضيت أروم العسكر، قاصدًا إليه، فإذا بكهل على بغل هملاج()، قد تلقاني مواجهة، وأنا أردد نشيد أرجوزتي فقال :السلام عليك يا هذا بصوت جهوري ولسان فصيح، فرددت السلام، فقال لي :قف إن شئت فوقفت فتضوعت منه رائحة المسك والعنبر، فقال لي :ممن أنت فقلت :رجل من مضر، قال :ثم مِنْ مِنْ قلت من بني تميم، ثم من بنى سعد، ثم قال فما أقدمك هذه البلد قلت قصدت هذا الملك الذي ما سمعت بمثله قبله أطول باعا، ولا أندى راحة منه، قال :فما الذي قصدته به قلت : شعر طيب، يلذ على الأفواة، وتقتفيه الرواة ويحلو في آذان السامعين .قال :فأنشدنيه قال :فغضبت وقلت :له يا ركيك العقلى أخبرك أني قصدت الخليفة بمدح حبرته فيه، تقول أنشدنيه، قال :وما الذي تأمل منه قلت ألف دينار إن كان على ما ذكر عنه، قال لي :فأنا أعطيك ألف دينار، إن رأيت الشعر جيدا، والكلام غضا، وأضع عنك العناء والترداد ومتى تصل إلى الخليفة وبينك وبينه عشرة آلاف رامح وسيف فقلت له :بالله عليك أنت تفعل، قال :نعم قلت :ومعك الساعة ما تعطيني قال :لك الله على أن أعطيك الساعة ألف دينار فأنشدته أرجوزةً فيها:

وَصَاحِبَ الْمَرْتَبَةِ الْمُنِيفَةْ	**مَأْمُونُ يَا ذَا الْمِنَنِ الشَّرِيفَةْ**
هَلْ لَكَ فِي أُرْجُوزَةٍ ظَرِيفَةْ	**وَقَائِدَ الْكَتِيبَةِ الْكَثِيفَةْ**
لاَ والَّذِي أَنْتَ لَهُ خَلِيفَةْ	**أَطْرَفَ مِنْ فِقْهِ أَبِي جَنِيفَةْ**
أَمِيرُنَا مُؤْنَتُهُ خَفِيفَةْ	**ما ظُلِمَتْ فِي أَرْضِنَا ضَعِيفَةْ**
واللصُّ والتاجِرُ فِـي قَطِيفَةْ	**والذئبُ والنعجةُ فِي سَقِيفَةْ**

قال :فوالله ما أتممت إنشادها، حتى أقبل عشرة آلاف فارس، قد سدوا الأفق وهم يقولون السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، قال :فأخذني والله الأفكل .يعني الرعدة ونظر إلي بتلك الحال، فقال لا بأس عليك ثُمَّ التفتُ إلى خادم نظيف الوجه والملبس كان قريبا منه فقال :أعطه ما معك فأخرج الخادم كيسا

وجدت فيه ثلاثة آلاف دينار، فقال لي :هاك أيها الرجل ثم قال :سلام عليك ومضى فكان آخر العهد به، فسألت عنه بعد ذلك فقيل "لي المأمون أمير المؤمنين لم يرد أن يعرفك بنفسه"، لكرم طباعه وخلائقه .وقيل إن المأمون كان في مجلسٍ له بدمشق فغناه علوية :()

أتاكَ بهِ الواشونَ حَقًّا كَما قالوا برئتُ مِن الإسلامِ إنْ كانَ ذا الذي

تواصوا بالنميمةِ واحتالوا ولكنهم لما رَأوكَ سريعةِ لهجري

فقال :يا علوية لمن هذا الشعر قال :لقاضي دمشق .فقال لأخيه :يا أبا اسحاق أحضره، فلم يكن بأسرع من أن حضر شيخ قصير مخضوب، فقال له المأمون :من تكون قال أنا فلان بن فلان، قال :أنت الذي تقول الشعر قال :نعم يا أمير المؤمنين، ونساؤه طوالق وكل شيء يملك في سبيل الله، إن كان قال شعرا منذ ثلاثين سنة إلا في زهد ومعاتبة صديق .فقال لأخيه :أعزله، ما كنت لأولى رقاب المسلمين، من يبدأ في هزله بالبراءة من الإسلام .ثم قال لعلوية :لا تقل برئت من الإسلام ولكن قل حرمت مناي منك .وقال عمارة بن عقيل ()أنشدت المأمون قصيدة، فكنت أبتدئ بصدر البيت، وهو يبادرني إلى عجزه .فقلت :والله يا أمير المؤمنين، ما سمعها مني أحد قبلك، فقال :هكذا ينبغي أن يكون ثم أقبل عليَّ وقال :أما بلغك أن عمر بن أبي ربيعة ()، أنشد عبد الله بن عباس قصيدته التي يقول فيها:

..... تَشُطُّ غَدًا دَارُ جيرانِنا

فقال ابن عباس:

وللدَّارُ بَعْدَ غَـدِ أبْعَدُ .....

حتَّى أكمل القصيد، كلما أنشد صدر البيت أكمله ابن عباس، ثم قال :أنا ابن ذلك .وقال ابن المبرد :()قال لي عمارة قال لي عبد الله بن أبي السَمَطِ يا عمارة أما علمت أن المأمون لا يبصر الشعر، فقلت له :ومن أفرس منه فيه، أنا أنشدته البيت، فيسبقنا إلى عجزه، من غير أن يكون سمعه .قال :إني أنشدته بيتا أجدت فيه، فلم يحركه قلت وما هو قال:

بالدّين والنَّاسُ بالدُّنيا قد اشتغلوا أضْحَى إمَامُ الْهَدَى المأمُون مُشْتَغِلا

فقلتُ :ما صنعت شيئا، ما زدت على أن جعلته عجوزا في محرابها مسبحتُها في يدها، فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولا عنها، هلا قُلْتَ كما قال جرير ()في عمر بن عبد العزيز :()

ولا عَرَضُ الدُّنْيا عن الدّين فَلا هُوَ في الدُّنْيَا مُضيعٌ

شِاغِلُهُ نَصِيبَهُ

وجاءت امرأة إلى المأمون فقالت:

ويا إماماً به قد أشْرَقَ البَلَدُ يا خيرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى به الرَّشَدُ
عَدَا عليها فلم يَتْرُكْ لها لُبَدُ تشكُو إليك عَمِيدَ الخلق أرملةٌ
ظلما وفرق منها الأهلُ والولدُ وابتز منها ضِياعاً مَنْعَتِها

فأجابها وقال:

عَني وأقْرَح مِنّيّ القلبُ والكبدُ في دون ما قُلْتِ زَالَ الصَّبرُ والْجَلَدُ
واحْضِري الخَصْمَ في اليوم الذي هذا أوان صلاة العصر فانْصرفي
أعِدُ والمجلسُ السبتُ أن يقضي
انصفك منه وإلا المجلس الأحَدُ الجلوسُ لنا

فلما كَانَ يومُ الأحدِ جَلَسَ فجاءته، فقالت :السَّلامُ عَليكَ يا أميرَ المؤمنينَ، فردَّ وقالَ :أينَ خَصْمُكِ، قالت :واقفٌ على رَأسِكَ، وأومأت إلى العبَّاس ()ابنه فقال لأحمد بن أبي خالد :خذ بيده وأجلسه معها، ففعل فجعل كلامها يعلو كلامه، فقال لها أحمد بن أبي خالد :يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وتكلمين الأمير فاخفضي من صوتك .فقال المأمون :دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها، والباطل أخرسه، ثم قضى على ابنه.

ومن شعر المأمون:

وَأغْفَلْتَنِي حتَّى أسَأْتُ بِكَ الظَّنَّا بَعَثْتَكَ مُرْتَاداً فَفُزْتَ بِنَظْرةٍ
فيا لَيْتَ شِعْرِي عن دُنُوك ما أغْنَا فَنَاجَيْتَ مَنْ أهْوَى وَكُنْتُ مُبَاعَداً
لقد سرقت عيناك من عينها حُسْنا () أرَى أثراً منها بِعَيْنَيْكَ لم يكـن

وله أيضاً :()

عَيْنُ رَسُولي وَفُزْتُ بالْخَبَرِ إنْ تَشْقَ عَيْني بِهَا فقدْ سَعُدَتْ
رَدَّدت عَمْداً في طَرْفِهِ نَظَري وَكُلَّما جَاءَني الرَّسُولُ بها
قدْ أثَّرَتْ فِيهِ أحْسَنَ الأثَرِ يَظْهَرُ في وَجْهِهِ مَحَاسِنُها
فانظرْ بِهَا واحتفظ على بَصَري خُذْ مُقْلَتي يا غُلام عارية

واعتل الفضل بن سهل فتأخر في بيته، فوردت عليه رقعة من المأمون بخطه يسأله عن حاله وفي آخرها:

وبالخير رَبُّنا مَسَّاكَا كَيفَ أصبحتَ بالسلامةِ يا فضلُ
وعافاكَ عاجلاً وشافكَا لا أراني الإله فقدَك يا فضلُ
وَقلبي لو يستطيعُ أتاكَا قد أردتُ المجيء إذْ غلبَ الشوق

لستُ أستطيعُ أنْ أراكَ كَذاكا فتذكرتُ عندَ ذاك بأني
كيفَ أنتَ الغداةَ مِن شكواكا فأينَ يا وقتُ فيك حَـذاري

باب
في خطبهِ ومناقِبه

قيلَ خَطَبَ يومَ جمعةٍ فقال :الحمد لله الذي استخلص الحمد لنفسه، واستوجبه على خلقه، أحمده واستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون :أوصيكم عباد الله بتقوى الله، والعمل لما عنده، والانجاز لوعده والخوف من وعيده، فإنه لم يسلم إلا من اتقاه، وخافه ورجاه وعمل له وأرضاه، فاتقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم، وترحلوا سراعا فقد جد بكم الرحيل، واستعدوا للموت فقد أضلكم ما تحذرون، وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثا، ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم والجنة أو النار إلا الموت أن ينـزل به، وأن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة، لجديرة بقصر المدة، وأن غائبًا يحدوه الجديدان لحري بسرعة الأوبة وإن قادمًا يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة، فاتقى عبد ربه، ونصح نفسه، وقدم توبته وغلب شهرته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خاذله، والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها، ويمنيه التوبة ليسوفها، حتى تهجم عليه منيته، أغفل ما يكون عنها، فيالها حسرة على ذي غفلة أو يكون عمره عليه حجة، أو تؤديه أيامه إلى شقوة .نسأل الله أن يجعلنا وإياكم، ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعته غفلة، ولا تحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء، وبيده الخير وهو فعال لما يريد.

وخطب يوم أضحى فقال بعد التكبيرات الأولى والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم والوصية بتقوى الله عز وجل:

إن يومكم هذا، يوم أبان الله عز وجل فضله، وأوجب تشريفه، وعظم حرمته ووفق له من خلقه صفوته وابتلى فيه خليله وفدى فيه من الذبح نبيه وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر، ومقدم الأيام المعدودات من النفر، يوم حرام من أيام عظام، في شهر حرام، يوم الحج الأكبر، ويوم دعا الله عز وجل إلى مشهده، ونـزل القرآن بتعظيمه .قال عز وجل ﴿ :**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** () ﴾فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم، وعظموا شعائر الله واجعلوها من أطيب أموالكم، وبصحة التقوى من قلوبكم، فإنه يقول عز وجل :

﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾الآية ثم قال بعد التحميد والتكبير وذكر الجنة والنار الله الله فوالله إنه الجد لا اللعب، وإنه الحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والميزان، والحساب والقصاص والصراط، ثم الثواب والعقاب .من نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى يومئذ فقد خاب، الخير كله في الجنة والشر كله في النار.

وخطب يوم الفطر فقال بعد التكبير :ألا وأن يومكم هذا يوم عيد وسنة، وابتهال ورغبة، يوم ختم الله فيه صيام شهر رمضان، وافتتح به حج بيته الحرام فجعله خاتما للشهر، وأول شهور الحج، وجعله معقب المفروض من صيامكم، ومتنفل قيامكم، أحل فيه الطعام لكم، وحرم فيه الصيام عليكم .فاطلبوا إلى الله عز وجل حوائجكم، واستغفروه لتفريطكم، فإنه يقال :لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار .فاتقوا الله عباد الله، وبادروا الأمر الذي فيه عدل بينكم ولم يحتضر الشك فيه أحد منكم، وهو الموت المكتوب عليكم، وإنه لا يقال بعده عثرة ولا تقبل عنده توبة .واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه، ولا شيء بعده إلا فوقه على غصصه وعلزه وكربه، ولا يعين على القبر وظلمته، ووحشته وضيقه وهول مطلعه، ومساءلة ملائكته إلا العمل الصالح، الذي أمر الله عز وجل به فمن زلت عند الموت قدمه، فقد ظهرت ندامته وفاتت استقالته ودعا من الرجعة بما لا يجاب إليه، وبذل من الفدية ما لا يقبل منه .فالله الله عباد الله وكونوا قوما سألوا الرجعة، فأعطوها إذ منعها الذين طلبوها فإنه ليس يتمنى المتمنون قبلكم إلا هذا المهل المبسوط لكم، واحذروا ما حذركم الله عز وجل، واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم، فلينظر عبد ما يضع في ميزانه مما يثقل به وما يمل في صحيفته الحافظة له وعليه فقد حكى الله عز وجل لكم ما قال المفرطون عندها إذ طال إعراضكم عنها وهو قوله عز وعلا ﴿ :وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾الآية .وقال تعالى ﴿ :وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾الآية.

ولست أنهاكم من الدنيا، بأعظم مما نهتكم به الدنيا عن نفسها، فإنه كل مالها ينهى عنها، وكل ما فيها يدعو إلى غيرها، وأعظم مما رأته عيونكم من عجائبها ذم كتاب الله عز وجل لها، ونهي الله جل ثناؤه عنها، فإنه يقول تبارك وتعالى ﴿ :فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ ﴾، وقال ﴿ :إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ الآية، فانتفعوا بمعرفتكم، وبإخبار الله عز وجل عنها .واعلموا أن قوما من ..

عباد الله أدركتهم عصمة الله، فحذروا مصرعها وجانبوا خدائعها وآثروا طاعة الله تبارك وتعالى فيها، فأدركوا الجنة بما تركوا منها.

وروي عن واقد ()بن محمد الواقدي عن أبيه أنه رفع رقعة إلى المأمون يذكر فيها دينه، وقلة صبره عليه، فوقع المأمون على ظهر الرقعة، إنك رجل اجتمع فيك خصلتان، سخاء، وحياء، أما السخاء فهو الذي أطلق ما في يدك وأما الحياء فهو الذي يمنعك تبليغنا ما أنت فيه، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم، فإن كنت قد أصبت فازدد في بسط يدك، وإن لم تصب فجنايتك على نفسك وأنت حدثتني وكنت على قضاء الرشيد عن محمد بن إسحاق ()عن الزهري عن أنس ()أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للزبير بن العوام " :()يا زبير أعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش يبعث الله إلى كل عبد بقدر نفقته فمن كثر كثر الله عليه ومن قلل قلل الله عليه ()وأنت أعلم .قال الواقدي :فوالله لمذاكرة المأمون إياي الحديث، أحب إلي من الجائزة.

قال يحيى بن أكثم القاضي :تغدينا في يوم عيد، عند المأمون فظننته أنه وضع على المائدة، أكثر من ثلاثمائة لون، فكلما وضع لون، نظر إليه فيقول هذا نافع لكذا، وضار من كذا، فمن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا، ومن غلب عليه السوداء فلا يأكل من هذا، ومن أحب الزيادة في لحمه، فليأكل من هذا .فوالله ما زال يقول كذلك، في كل لون حتى رفعت المائدة .فقلت :يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب، كنت جالينوس ()في معرفته، وإن تكلمنا في النجوم، كنت هرمسا ()في حسابه، أو في الفقه كنت عليا بن أبي طالب صلوات الله عليه في علمه .فقال :يا أبا محمد أين فضل الإنسان على غيره من الحيوان إنما هو بعقله، ولولا تفاضل العقول لتساوى الناس.

قال يحيى بن أكثم :كان المأمون يجلس للناس، في يوم الثلاثاء للمناظرة فإذا حضر الفقهاء ومن يناظر من أهل المقالات، أدخلوا حجرة مفروشة وقيل انـزعوا أخفافكم، وأحضرت الموائد، وقيل أصيبوا من الطعام، وجددوا الوضوء ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها .فإذا فرغوا أتوا بالمجامر ()وتطيبوا، ثم خرجوا إليه فاستدناهم حتى يقربوا منه، فيناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين، فلا يزال كذلك إلى أن تزول الشمس ثم يقوم إلى الصلاة فبينما هو يوما جالس، إذ دخل عليه علي بن ()صالح حاجبه، فقال :إن في الباب رجلاً، عليه ثياب غلاظ مشمرة، يطلب الدخول للمناظرة .قال :ائذن له فدخل ونعله في يده، فوقف

على طرف البساط، وقال :السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .فقال المأمون :وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، قال :أتأذن في الدنو منك، قال :نعم، فدنا منه، فقال له : اجلس فجلس، فقال :أتأذن في كلامك قال :تكلم، قال :أخبرني عن هذا المجلس، الذي أنت فيه جالس، أجلسته بإجماع المسلمين واختيار لك ورضى بك، أم بالمغالبة لهم، والقوة عليهم بسلطانك .قال المأمون :لم أجلسه بواحد منهما ولكن كان يتولى أمرهم سلطان قبلي احتمله إما على رضى منهم، وإما على كره، فعقد)لي ولاية الأمر بعده (باتفاق من حضر من المسلمين، فأعطوا ذلك إما طائعين، وإما كارهين، فلما صار الأمر إلي، علمت أني محتاج إلى إجماع كافة المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها على الرضى بي، ثم نظرت فرأيت أني متى تخليت عن هذا الأمر اضطرب المسلمون، وغلب على الناس الهرج والفتنة، ووقع التنازع فتعطلت أحكام الله ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم، وانقطعت السبل ولم يحج بيت الله ولم يجاهد في سبيله إذ لم يكن سلطان يجمعهم ويسوسهم، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين، إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضى به، وأسلم الأمر إليه وأكون أنا كرجل من المسلمين.

وأنت أيها الرجل، رسولي إلى جميع المسلمين بهذا .فقام وقال :السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .قال :فأمر المأمون علي بن صالح أن يوجه من يتبعه حتى يعلم أين يقصد، ففعل ثم رجع، فقال :مضى إلى مسجد فيه جماعة على هيئته وزيه، فقالوا :لقيت الرجل، قال :نعم، وقص عليهم القصة، فقالوا :ما نرى بهذا بأسا وافترقوا .فأقبل المأمون على يحيى بن أكثم وقال :يا أبا محمد قد كفينا مؤنة هؤلاء بأيسر خطب .قال ابن أكثم :ما رأيت ولا سمعت بأكرم من المأمون، وأخذ في الحديث عنه، قال :بت عنده ليلة فانتبه بالليل فظنني نائما، فجعلت أراعيه وقد عطش فلم يدع بالغلام، لئلا ينبهني، فقام متسللا حافيا، يقارب الخطو، حتى أتى البرادة فتناول كوزا منها فشرب، ثم رجع يخفي وطئه كأنه لِصٌّ حتى اضطجع في مضجعه، وأخذه سعال فرأيته يجعل كمه في فيه، لئلا أسمع سعاله فأنتبه، وطلع الفجر وأراد القيام وقد تناومت إلى أن كادت الصلاة تفوت، فتحركت، فقال :الله أكبر، يا غلام هات نعل أبي محمد، فقلت :يا أمير المؤمنين إن بعيني جميع ما كان الليلة من صنعك ولذلك جعلكم الله لنا موالي وجعلنا لكم عبيدا .قال :ولقد سايرته يوما إلى البستان، فحاذيته من جهة الشمس لأستره منها، فلما عاد في طريقه دار في الموضع الذي كنت فيه، وقال :من حق المسايرة، أن آخذ بنصيب من الشمس،

كما أخذت أنت منها، فقلت :والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك هول المطلع لفعلت، فقال :لا بد، فسترني من الشمس حتى عدنا.

قال :وكان ابن أبي خالد يعرض الكتب بين يديه يوما فجاءته عطسة شديدة، فأدخل وجهه في كمه وكتمها، فكادت تأتي على نفسه وفطن المأمون له، فقال :يا أحمد بئس ما صنعت بنفسك، إنا لا نحمد أحدا على هذه الخطة، فقال :يا أمير المؤمنين ما سمعت لأحد من الملوك بمثلها، فقال المأمون :بلى، أراد الأبرش ()أن يعمم سليمان بن عبد الملك ()، فقال :إنا لا نتخذ الإخوان خولا .قال يحيى بن أكثم : وتوضأت يوما عنده، فلما أتيت بالوضوء إذا بالإبريق له أنبوب طويل، نحو من أربع أذرع، فجعلت أتعجب منه وأدير فيه الفكر وأحد النظر، فقال لي المأمون عند ذلك :يا أبا محمد كأنك تعجب من طوله، قلت :نعم يا أمير المؤمنين، فقال :إن هذا الغلام قد اعتاد أن يوضئني، وله صحبة قديمة، وهو يأكل البصل كثيرا، فنهيته عنه غير مرة، فلم ينته، فأمرت بعمل هذا لئلا أقطعه من شهوته وأتباعد عن رائحته .

وروي أن دعبلا ()هجاه فقال:

أوَ مَا رَأى بالأمْسِ رَأسَ مُحَمَّدٍ وَيَسُومُنِي المأمُونُ خطَّةَ عَارفٍ

يُوفِي الجِبَالُ على رؤُوس القِرْدَدِ يُوفِى كلى رؤوس الخلائق مثلما

قتلوا أخاك وشرفوك بمقعد إني من القوم الذين هم هم

واسْتَنقَذُوكَ من الحضيض الأوهَد () شادُوا بذكرك بَعدَ طول خُمولِه

فبلغه ذلك فقال :قبحه الله ما أبهته، متى كنت خاملا ومن حجر بالخلافة درجت وبدرها غذيت .وظفر به بعد ذلك فعفا عنه.

ولما حبس يحيى بن أبي خالد كتبت إليه أم ولد له :إن جميع أمهات أولادك، قد نالوا فضل أيامك سواي، فوقع لها :قد أعددت لك الفضل بن سهل، فلما ورد الفضل بن سهل، وبلغ ما بلغ، دفعت الجارية توقيع يحيى ين خالد إليه، فلما رآه بكى، وأمر لها بعشرة آلاف دينار وقال :إذا فني منك فطالعينا .قال أحمد بن أبي خالد :ما رأيت مثل الفضل بن سهل، أصبر على الجلوس، ولا أقوى على كتاب، ولا أنزه نفسا، ولا أشد ارتفاعا عن الدنيا، ولا أطلب لجميل الذكر، وحسن الأحدوثة منه، ما جمع مالا قط ولا ادخره، وكان يلبس من ثياب المأمون، ويركب من دوابه وما وجد له يوم قتل شيء.

وكان الفضل بن سهل في الحمام، فهجم عليه جماعة من غلمان المأمون ()، فقتلوه فيه فارتفعت الضجة وركب المأمون إلى الحمام حتى وقف على باب الحمام،

فأخرج الفضل فنـزل المأمون فوقع عليه، وقبل وجهه وهو يبكي ومشى المأمون من الحمام إلى الدار، ثم وقف عليه حتى غسل وكفنه بيده وحنطة وركب حتى صلى عليه، وغلبته العبرة حتى ارتفع صوته، فلما انصرف طلب قاتليه فقتلهم، ثم التفت إلى علي بن موسى الرضى ()عليه السلام، فقال :لقد أصبحت والله بعد فقد ذي الرياستين ()، بمنـزلة رجل في فلاة، إن دهمه الليل خاف من السباع، وإن وافاه نهار :خاف العدو وهو ما بين ذلك معدم من الزاد .وجعل يبكي وأخذ بيد علي بن موسى الرضى، ودخل على أم الفضل ()يعزيها فقال :أتجزعين يا أمة وقد خلف لك ذو الرياستين ابنا، فقالت :كيف لا أجزع على من جعلك ابني.

رجعنا إلى الكتاب قال دخل أبو إسحاق المعتصم ()على المأمون فقال له :إن عبد الله بن طاهر ()يميل إلى ولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فدفع المأمون ذلك وأنكره، ثم عاد إليه بمثل ذلك، فدس المأمون إليه رجلا وقال له :امض إلى عمالة عبد الله بن طاهر، إلى مصر على هيئة الناسك، فادع أهلها إلى القاسم ()بن إبراهيم بن طباطبا العلوي واذكر مناقبه وعلمه، ثم إئت عبد الله بن طاهر، فادعه ورغبه وابحث لي عن دفين نيته، بحثا شافيا وجئني بما تسمع منه، فأتى الرجل مصر فدعا جماعة من الرؤساء، وقعد لعبد الله بن طاهر فلما انصرف من مركبه، قام إليه فأخرج رقعة من كمه فدفعها إليه، وأدخله عليه فقال :هات ما عندك قال : بأمان منك قال :نعم، فأظهر له ما أراد ودعاه إلى القاسم بن إبراهيم عليه السلام، وأخبره بفضائله وعلمه وزهادته، فقال عبد الله بن طاهر أتنصفني قال :نعم، قال : هل يجب شكر الله على العباد، قال :نعم، قال :فهل يجب شكر بعضهم بعض على الإحسان؟ قال :نعم، قال :فتجيء إليَّ وأنا في هذه الحال التي تراها، ينفذ خاتمي من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ما ألتفت يميني ولا شمالي، ولا قدامي ولا خلفي، إلا رأيت منة منه ونعمة على ختم بها رقبتي، فتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة، وتقول لي أغدر بمن ولاك هذا كله، واسعى في إزالة ملكه، فسكت الرجل فقال له عبد الله بن طاهر :قد بلغني خبرك، وبالله ما أخاف عليك إلا نفسك، فارحل عن هذه البلد فإن الخليفة إن بلغه أمرك .كنت الجاني على نفسك، فرحل من وقته حتى وافى المأمون، فأخبره بما سمع من عبد الله بن طاهر، فاستبشر به وقال :ذلك غرس يدي ونشو أدبي، فلم يظهر لأحد من ذلك شيء ولا علم به عبد الله إلا بعد موت المأمون.

وقيل اجتاز عبد الله بن طاهر بالرقة بمنـزل العتابي ()فقال أليس هذا منـزل كلثوم، قيل :بلى، فثنى رجله ودخل عليه، فألفاه جالسا في بيت كتبه فحادثه وذاكره

ثم انصرف، وتحدث الناس في ذلك، فقالوا :إن الأمير لم يقصده، وإنما اجتاز به فأخطر بتلك الزيارة فكتب إليه:

بَعْدَ الخمول نَباهةَ الذكْر	**يا مَنْ أفادَتْنِي زيارَتَهُ**
وبحارُ برِّكَ لَيْسَ بالخطر	**قالوا الزيارةُ خَطْرَةٌ عرضت**
تستَنْفِذ المجهودَ مِنْ شُكري	**فادفعْ مقالَتَهُم بثانيةٍ**
إنَّ الثلاثَ تتمـةُ الـوتْـرِ	**لا تجعلَنَّ الـوتْرَ واحـدةً**

فبعثه الأبيات إلى أن زار ثلاثا.

وحدث صالح بن علي وكان من وجوه الكتاب، قال :طالت بي العطلة، وبلغ بي ذلك أعظم الحاجة، فبكرت يوما إلى أحمد بن أبي خالد، الوزير، لأعلمه بجليل أحوالي وأسأله لم شعثي، فخرج من بابه وبين يديه قاصدًا باب المأمون، فلما نظر إلي أنكر بكوري وعبس في وجهي وقال :في الدنيا أحد بكر هذا البكور ليشغلنا، قال :فقلت ليس العجب منك أصلحك الله فيما لقيتني به، إنما العجب مني إذا أسهرت ليلتي وأسهرت جميع أهلي، يرقبون الصبح حتى أصير إليك، في صلاح أحوالي بعد وقوع الاختيار عليك فيما آمله عندك، ولكن علي وعلي أن وقفت لك بباب أو سألتك حاجة، إلى أن تصير إلي معتذرا مما لقيتني به، وانصرفت مغموما مفكرا فيه نادما على ما فرط مني من اليمين، آيسا من الفرج لاستبعاد مجيء الوزير إلي واعتذاره مني، راجعا على نفسي باللوم، فإني لكذلك إذ دخل علي بعض الغلمان، فقال :إن الوزير أحمد بن أبي خالد آخذا في شارعنا ودخل آخر فقال :إنه دخل دربنا، ودخل ثالث فقال :إنه قرب من دارنا ثم دخل رابع فقال :إنه دخل دارنا، فخرجت مستقبلا له فلما استقر به المجلس قال لي :كان أمير المؤمنين قد أمرني بالبكور إليه، في بعض مهماته فدخلت إليه وقد غلبني الهم والغم بما فرط مني إليك، حتى أنكر حالي فقصصت عليه القصة، فقال :قد أسأت إلى الرجل ولا عليك أن تعتذر إليه قلت :فامضي إليه فارغ اليد، قال :فتريد ماذا قلت تقضي دينه، قال :وكم ذلك قلت مائة ألف درهم فأمرني بالتوقيع لك بها، قلت :فإذا قضى دينه فيرجع إلي ماذا قال فوقع له بمائة ألف درهم أخرى، يصلح بها حاله .قلت :فولاية يشرف بها قال :له مصر أو غيرها مما يشبهها، قلت :فمعونة يستعين بها على سفره، فأمر بأن يوقع لك بمائة ألف درهم وهذه التوقيعات لك بكل ذلك فنثرها وانصرف.

وقال محمد بن عباد المهلبي :()دخل أبي على المأمون فوصله بمائة ألف درهم، فلما قام من عنده تصدق بها، فأخبر المأمون بذلك فلما عاد إليه عاتبه في

ذلك، فقال :يا أمير المؤمنين منع الجود سوء ظن بالمعبود، فوصله بمائتي ألف درهم.

وأنهى إلى المعتصم أن الحسن بن سهل قد أضاف إلى ضياعه التي أقطعها، ضياعا كثيرا خراجية، فتكرم المعتصم أن يأمر بمناظرته دون سائر أصحاب الإقطاعات، فأمر بكشف الإقطاعات كلها، فدخل الحسن بن سهل لما بلغ إليه ذلك عن المعتصم، فقال :يا أمير المؤمنين ما كانت لي ضياع ولا لأبي من قبلي، ولكن هي نعمتكم التي أنعمتم بها علي وقد رددت جميعها، إلى أيدي عمال أمير المؤمنين، وما كان لي فيها ملكا فأمير المؤمنين منه في حل، ولا أكون سببا لهلاك الناس وضررهم فاستحيا المعتصم وغض طرفه، وقال :لا أكشف إقطاعاتك ولا إقطاعات غيرك ولم يزل على بر وإكرام .وقال أحمد بن أبي داوود القاضي :ما رأيت أجمع لفضيلة ولا أوصل لرحم، ولا أرق قلبا على ذي حاجة، وأصدق وأوفى بقول واكظم لغيظ وأعفى عن مسيء، وأشد تفقدا للصاحب والخادم، وأشجع قلبا وأحسن سياسة من المعتصم، فأما صلته للرحم، فكان إبراهيم بن المهدي أعدى خلق الله له وأشدهم استخفافا له في أيام المأمون وكان المأمون زوج المعتصم لبابة بنت إبراهيم فمنحه وقال لا أرضاه لها فلما صارت إليه الخلافة بره وآثره وكان أحضى الناس عنده.

وقال المعتصم :يا أبا عبد الله لقد كنت ألقى من جماعة في أيام المأمون، كل ما أكره ويذكرونني له بأسوء الذكر، ويقولون في أقبح القول فظننت أني متى قدرت عليهم، لم أبق على أحد منهم، وكان أشدهم قصدا لمكروهي وعيي إبراهيم بن المهدي، وكأن يذكرني بالقبح إذا غبت وينتقصني إذا حضرت، ويحكي كلامي في مجلس المأمون، ويهجوني بأقبح الهجاء حتى هممت مرة بعد أخرى، أن أفتك به في مجلس المأمون، فأقطعه إربا إربا، فلما قدرت وصار إلى السلطان، ذهبت الحفيظة من قلبي عليه وعلى أمثاله، ممن تقدمت إساءته فرأيت العفو عنهم أحسن من المكافأة وأنفع في الآخرة.

وقال إبراهيم بن المهدي لما ولي المعتصم :والله لقد ظننت أنه يأمر بضرب عنقي إذا وقعت عينه علي ولو أمكنني الهرب منه لهربت فما دخلت عليه يوما إلا جدد لي بشرا وإكراما ولا خرجت إلا بصلة وخلع وحملان.

وقال ابن أبي داوود وكان محمد بن قاسم العلوي خرج عليه بخراسان، فحمله عبد الله بن طاهر في الحديد إلى حضرة المعتصم، فاطلع عليه يوما من

مشرفه، فرآه وعليه جبة صوف وفي رجله الحديد، وقد تغير لونه فرق له ودمعت عيناه، ثم قال لي :يا أبا عبد الله هذا ابن عمي وأدنى الناس رحما، وما يحتمل قلبي أن أراه على هذه الحال، ثم دعا بعض الذي كان قائما على رأسه، فقال :اذهب فقل له ما الذي دعاك إلى الخروج علي، ولم ينلك مني سوء قط، فمضى الرسول فأبلغه، فقال :رأيت جورا شديدا، لم يسعني فيما بيني وبين الله إلا إنكاره فقال المعتصم : ارجع إليه فقال له هل هذا جور أحدثته أنا، أم كان شيئا فعله سلفي قبلي، قال :بل كان فعله سلفك قبلك وسلكت سبيلهم، فقال :ارجع وقل له أيما أفضل أنت أم من تقدم من سلفك، فقال محمد :بل من تقدم من سلفي، فقال :قل له يا هذا كيف وسع سلفك مع فضلهم وسابقتهم، أن لا يخرجوا على سلفي، ولم يسعك أنت إلا الخروج علي، فأبلغه ذلك فسكت ولم يجبه .فرجع الرسول فعرفه ذلك .قال :لي يا أبا عبد الله ما أصنع بهذا، أخاف والله إن أطلقته معاودة مثل الذي كان منه، فيسفك دماء المسلمين بيننا وبينه، قال قلت :الحبس الذي يؤمن مكروهه، قال فأمر بفك قيوده في الوقت، وأنـزلت عنه ثقل الحديد، ونقله إلى دار ووسع عليه في مطعمه ومشربه وملبسه.

قال :وكنت يوما عنده وقد امتلأ غيظا فدعى بعمر بن فرج ()وهو يتناوله بالشتم، فلما جاءه قال :يا ابن اللخناء، متى أمرتك بجعل أصحاب أخبار علي الطالبيين وتتبع أمرهم، قال :يا أمير المؤمنين بلغني أن رجلا منهم كاتبه أهل خراسان وأرمينيا، فأردت أن أعرف وأتيقن حقيقة ذلك وأنهيه إلى أمير المؤمنين، فقال :وما الذي عليك منهم، فوالله لأغفرن ذنوبهم، ولأصلن أرحامهم، ولأعفون عن مسيئهم ولأعطفن على كبيرهم وصغيرهم، فإن أرادوني بسوء فالله بيني وبينهم.

قال :ودخلت إليه فقلت إن أهلك، وذوي رحمك من آل أبي طالب في ضر شديد بالمدينة، وقد نالتهم مجاعة شديدة وسنة مجدبة، وتأخرت أرزاقهم، فدعا ابن الزيات ()وقال :يا محمد احمل إليهم الساعة ولا تتوقف مائتي ألف درهم، ووالله لإن أخرت إلى غدٍ، لأنهكتك عقوبة فحمل إليهم ذلك من وقته.

قال :وكنت عنده يوما فدخل عليه بعض من يحضر مجلسه فقال إني كنت بالأمس عند عبد الله بين أيوب ()، قال فما كانت حالتكم فقال :أطعمنا ثلاثة ألوان ليس فيها لحم، فقال ويلك :ذلك حسن المروءة وكثير الطعام قال انفذْ إلى القصَّاب رقعة يعطه وظيفته من اللحم وإلا لم يأكل هو ولا أولاده لحما فأطرق مفكرا وقال بلغت به الحال إلى هذا قلت نعم فدعا بإيتاخ ()فقال احمل إلى عبد الله بن أيوب

مائتي ألف درهم وقل للرسول لا يأخذ منه شيئا فإذا رجع من عنده فاعط رسولك ألفي درهم.

قال :ورأيته وقد حاصر عمورية، وأنه لواقف والحجارة تأتي من كل موضع حتى يناله بعضها وهو لا يزول، فقلت :الله الله يا أمير المؤمنين نشدتك الله لما تنحيت، فقال :والله ما من موضع يأتيني فيه الموت أحب إليَّ من هذا الموضع، فقلت :إن أرواح المسلمين بروحك معلقة، فإن حدث حادث فإنهم مضيعة جازر فما التفت إلى قولي وثبت مكانه.

وقال :وخرجنا في تلك الغزاة، فكنت على جمل في محمل، وكان يجيء على فرسه حتى يصير تحت محملي ويحدثني، فأقول :انـزل واركب دابة وأكون بين يديك يا أمير المؤمنين، فيقول :لا والله لا فعلت، المحمل أبر بك وأرفق.

وصرنا إلى مخاضة فقال للجمال :قف ثم إنه تقدم حتى عرف مقدار الماء وجعل يقول للجمال :خذ كذا خذ كذا بلطف ورفق حتى عبرت.

وقال يوما ونحن بعمورية :ما تقول في البسر يا أبا عبد الله، فقلت :نحن ببلاد الروم والبسر بالعواق، فقال :قد جاءنا عذقان .فقال :يا ايتاخ هات أحد العذقين، فجابه فمد المعتصم يده وحسر عن ذراعه، وقال :بحياتي عليك كل ين يدي فقلت : جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، بل تضعه فآكل منه كما أريد، قال :لا والله إلا من يدي، قال أحمد :فوالله إن زال حاسرا مادا يده وأنا أجتني، حتى رمى به وما به بسرة واحدة.

قال :ووقف يوما على الدور بعمورية، رجل فصيح بالعربية فجعل يشتم النبي صلى الله عليه وسلم فاشتد ذلك على المعتصم وعلى المسلمين، وحاولوا قتله ورامـوه بكل مرام، من النشاب والعرادات ()وغيرها ولم يلحقه شيء حتى رمى رجل من الناشبة، فأصاب نحوه فوقع اللعين من السُّورِ إلى خارج، وكبر المسلمون وسر المعتصم بذلك سرورا عظيما، وقال :أخبروني عمن رمى هذا السهم المبارك، فأوتى بالرجل فأدخل عليه، فقال له :سألتك بالله لتبعني ثواب هذا السهم بمائة ألف درهم، فقال الرجل :يا أمير المؤمنين ليس الثواب مما يباع، قال :فما زال يرغبه حتى بلغ معه خمسمائة ألف درهم، فقال ما أبيعه بالدنيا بأسرها وما فيها، ولكني أشهد الله أني قد جعلت نصف ثوابه لك يا أمير المؤمنين، فقال :قد رضيت بهذا أحسن الله جزاءك، وأمر للرجل بمائة ألف درهم، فقبضها من ساعته .وقيل لما وقع الحريق في الجانب الغربي ببغداد وجه المعتصم ابنه هارون ()فقام بأمرها حتى

أطفيت، وأمر بكتب أسماء من احترق له شيئا، ومبلغ ما ذهب لهم ثم أعطى كلا منهم على قدر حاله فبلغ إعطاؤهم عشرين ألف دينار وخمسماية ألف ألف درهم.

وقال ابن أبي داوود الماضي :ما رأيت رجلا عرض على الموت فلم يكترث به ولا عدل به عما أراد، إلا تميم بن جميل الخارجي ()وكان قد خرج على المعتصم، فرأيته وقد جيء به أسيرا، فأدخل عليه في يوم مركب، وقد جلس المعتصم للناس مجلسا عاما فدعا بالسيف والنطع ()فلما مثل بين يديه، نظر إليه المعتصم فأعجبه حسنه وقده، ومشيته إلى الموت غير مكترث به فأطال الفكر فيه ثم استنطقه لينظر أين عقله ولسانه من جماله، فقال :يا تميم إن كان لك عذر فأت به، فقال :أما إذا أذن أمير المؤمنين في الكلام فأني أقول :الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الإسلام، ولم بك شعث الأمة، وأخمد بك شهاب الباطل، وأنار بك سبيل الحق، إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع الأفئدة، وأيم الله لقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجة وساء الظن ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأنت إلى العفو أقرب، وهو بك أشبه وأليق ثم أنشد:

يلاحظُني مِنْ حيثُ ما أتلفتُ ... أرىَ الموتَ بينَ السَّيف والنَّطع كامناً
وأيُّ امرئ عما قضَى اللهُ يُفلتُ ... وأكثرُ ظنّي أنكَ اليومَ قاتِلي
وسيفُ المنايا بينَ عَيْنيه مُصْلَتُ ... فمَنْ ذا الذي يأتي بعُذْرٍ وحُجَّةٍ
يسل علّي السيفُ فيه وأسكتُ ... يعز على الأوس بن ثعلبة موقفي
لأعلمُ أن الموتَ شيءٌ مؤقَّتُ ... وما حزني مِنْ أن أموتَ وإنني
وأكبادُهم من حَسْرةٍ تتفتَّتُ ... ولكنّ خَلْفِي صِبْيةً قد تركتهم
وقد لطموا تلك الخدود وصوّتوا ... كأني أراهم حين أنْعَى إليهمُ
أذُودُ الرَّدَى عنهم وإن متّ موَّتوا ... فإن عشتُ عاشُوا خافضين بغْبطةٍ
وآخرَ فرحانُ يُسَرُّ وَيشْمَتُ ... وكم قائـل لا يُبعدِ اللهُ دارهُ

قال :فبكى المعتصم ثم قال :إن من البيان لسحرا ()كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال :يا تميم كاد والله يسبق السيف العذل، وقد وهبتك لله تعالى وللصبية، وعفوت عن زلتك .وعقد له ولاية على عمله وخلع عليه وأعطاه خمسين ألف دينار.

قيل :وكان الأفشن ()مغضبا على أبي دلف العجلي ()، وحاسدا له على فضله فحمل نفسه يوما على قتله، فاستدعاه باستحثاث وإزعاج .وكان صديقا للقاضي

أحمد بن أبي داوود فبعث إليه أن أدركني، فمن أمري كيت وكيت فركب مسرعا واستحضر من حضره من الشهود، فلما ورد باب الأفشين قال له الغلمان :نستأذن لك، فقال :الأمر أعجل من ذلك، ونـزل ودخل على الأفشين وهو جالس في مجلسه، وقد أقيم أبو دلف بين يديه في الصحن، فلما رأى الأفشين القاضي قد دخل بلا إذن بهت فقال" :إن أمير المؤمنين أمرني إليك أيها الأمير "أن لا تحدث في أمر القاسم حدثا، إلا بإذنه ثم التفت إلى الشهود، فقال :اشهدوا أني قد بلغت رسالة أمير المؤمنين، ثم خرج فأتى باب المعتصم مسرعا، فاستأذن عليه فأذن له، فلما دخل عليه قال :يا أمير المؤمنين قد كذبت عليك واحدة، ثم أرجو بها الجنة، ولك الفخر، قال :وما هي، قال :كان من الأمر كيت وكيت، فضحك المعتصم وقال :أحسنت أحسن الله إليك، ثم لم يلبث أن جاء الأفشين مستأذنا فأذن له، فلما استقر مجلسه قال : يا أمير المؤمنين جاءني رسالة منك مع قاضي القضاة في معنى أبي دلف، فما تأمرني في شأنه، قال :نعم أنا أرسلت إليك فيه فاحذر أن تتعرض له إلا بالخير، فأفلت من يده بذلك.

وروي أن بعض العمال رفع على خالد بن يزيد بن مزيد ()، أنه اقتطع أموالا واحتجز بعضها فغضب المعتصم وحلف ليأخذن أموال خالد وليعاقبنه، فلجأ خالد إلى القاضي أحمد بن أبي داوود فاحتال أحمد حتى جمع بينه وبين خصمه الذي رفع عليه، فلم تقم على خالد حجة، فعرف ابن أبي داوود المعتصم بذلك، وشفع إليه في خالد، فلم يشفع فأحضر خالد وأحضرت آلات العقوبة، وقد كان قبل ذلك قبض على أمواله وضياعه وصرفه عن العمل، فحضر ابن أبي داوود المجلس فجلس دون مجلسه الذي كان يجلس فيه، فقال له :المعتصم ارتفع إلى مكانك، فقال :يا أمير المؤمنين ما استحق إلا دون هذا المجلس، قال :وكيف قال الناس يزعمون أنه ليس محلي محل من يشفع في رجل قذف ليس بما ليس فيه، ولم يصح عليه فلم يشفع . قال :فارتفع إلى موضعك قال :مشفعا أو غير مشفع، قال :بل مشفعا قد وهبت لك خالدا ورضيت عنه، فقال :إن الناس لا يعلمون بهذا، قال قد وهبت عليه جميع ما قبض عليه من ضياعه وأمواله، قال :فمن له بفك قيوده والخلع عليه ففعل ذلك، قال :قد استحق هو وأصحابه رزق سنة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجعلها صلة له لتحمل معه ففعل ذلك .ثم خرج خالد وعليه الخلع والمال بين يديه، والناس ينتظرون الإيقاع به، فلما رأوه على تلك الحال سروا بذلك، وصاح به رجل نحمد الله على خلاصك يا سيد العرب، فقال :مه سيد العرب والله بعد أمير المؤمنين أحمد بن أبي

داوود الذي طوقني هذه المكرمة.

قال أبو عبد الله النديم :لقد رأيت الملوك في مقاصيرها ومجامعها، وما رأيت أغزر أدبا من الواثق ، خرج إلينا ذات يوم وهو يقول لعمري لقد عرض عرضه من عرضه لقول الخزاعي:

طوى الكشحُ عَني اليومَ وهو مكينُ خليليَّ ماذا أرْتجي مِنْ غدِ امرىءٍ

يَسُدُّ بـهِ فقْرَ امـرئٍ لضنـينُ وإنَّ امـرءًا قـدْ ضَنَّ يوماً بمنطق

فانبرى أحمد بن أبي داوود كأنما أنشط من عقال يسأله في رجل من أهل اليمامة فأسهب في الشفاعة وأطنب وذهب في القول كل مذهب .

فقال له الواثق :يا أبا عبد الله لقد أكثرت في غير كثير وأطنبت فقال :يا أمير المؤمنين إنه صديقي وأنشد:

مِنَ الهيِّن الموجودِ أنْ يتكلَّما وأهونُ ما يُعطي الصَّديقُ صَديقهُ

قال الواثق :ما قدر هذا اليمامي أن يكون صديقك، وإنما أحسبه أن يكون من بعض خولك، فقال :يا أمير المؤمنين إنه قد اشتهر بالاستشفاع بي عندك وجعلني بمرأى ومسمع من الرد والإسعاف، فإن لم أقم له هذا المقام، كنت كما قال أمير المؤمنين:

يَسدُّ بهِ فقرَ امرئٍ لضنينُ وإنْ امرىءٌ قدْ ضَنَّ يوماً بمنطقِ

فقال الواثق لمحمد بن عبد الملك الزيات، بالله يا محمد ألا عجلت لأبي عبد الله حاجته، ليسلم من هجنة المطل، كما سلم من هجنة الرد.

وقال أحمد بن إسرائيل فرق الواثق في الصدقة ووجوه البر على المساكين والفقراء واليتامى الذين أقيمت لهم الكفايات للتعليم، خمسة ألف ألف دينار وفرق على التجار الذين ذهبت أموالهم في الحريق في زمانه سنة إحدى وثلاثين ومائتين خمسمائة ألف ألف دينار، وكان عمر بن فرج يقول .أمر الواثق بحمل الأرزاق لآل أبي طالب إلى المدينة وكان يصل إليهم في سنة مائتا ألف دينار فكان مبلغ ما حمل إليهم ألف ألف دينار .ونظر عمر بن فرج فيما تصدق به الواثق في علته التي توفي فيها، فكان ثلاثة ألف ألف دينار، فأنهى ذلك إليه فاستقله .وكان الواثق قد أمر أن تبنى حضائر فيها بيوت، يجمع فيها المساكين فيجرى لهم الطعام والكسوة، ويمنعوا من السؤال في الطرق والأسواق والأبواب ببغداد وبسر من رأى، وأمر بكتاتيب للصبيان الأيتام والمساكين فيتعلمون القرآن .وقال ابن أبي داوود :لقد فرق الواثق من الأموال، ما خفت أن يخلي بيوت الأموال، فلا يوجد فيها شيء إن جرى أمر أو

حدث حادث، ولقد كنت أعجب من تفرقة المعتصم الأموال، فلما رأيت الواثق وما فعل أنساني فعل المعتصم .قال وكنت لا أذكره بشيء من الخير وأبواب البر، وما فيه ثواب وقربة إلى الله تعالى إلا سره ذلك، وشكرني عليه وجزاني خيرا، وحضني على أن أذكره به.

وكان يجلس للمظالم فيكون غايته انصاف الناس، والإحسان إليهم ودفع الظلم عنهم ورد حقوقهم إليهم، فإذا فعل من ذلك شيئا حمد الله على ما وفقه وأجرى على يديه من الإنصاف .وكان ابن الزيات ربما تكلم عند تظلم المتظلمين بما يريد أن يدافعهم به الواثق النصيحة والإشفاق فينتهره ويؤنبه ويحذره الظلم.

ونال الناس بالعراق غلاء شديد سنة إحدى وثلاثين ومائتين حتى بلغ الكر () الدقيق مائة دينار، فجهد الناس فأمر الواثق بتفرقة الأموال ببغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة فكان ذلك ستمائة ألف دينار .وبلغ إليه أن العمال يأخذون من السفن، التي ترد من الهند والصين العشر، فقال هؤلاء تجار مسلمون، يغدون بأموالهم وأنفسهم، ويركبون البحر فيطول مكثهم فيه، فأمر بإسقاط العشر عنهم .قيل وكان يصلي في داره الصلوات كلها جماعة، يوؤذن المؤذن فيقوم فيركع ثم يتقدم فيصلي، ويصلي خلفه من حضر من أصحابه وقواده وغلمانه، وكان يركب إلى الجامع فيخطب ويصلى وكان كثيرا ما يخطب بخطبة المأمون المشهورة التي تقدم ذكرها في هذا الكتاب .ولما اعتل علته التي مات بها، اجتمع القواد إلى ابن أبي داوود فقالوا :كلمه، يعقد العهد لابنه محمد، فذكر له ذلك فأعرض عنه بوجهه فكلمه ثانية، فقال :يا أبا عبد الله أما كفاني أني تقلدت الأمر في حياتي حتى أتقلد تبعته وأثمه بعد وفاتي، إن عمل من أعهد إليه صالحا، كان له ثوابه، وإن عمل سيئا كان علي وزره، إذ صيرت أمور المسلمين إليه، ومن أين أجد رجلا أرضى دينه وأمانته وفضله، وجمع القواد فقال لهم :عليكم بتقوى الله وأحسنوا الاختيار لأنفسكم بعدي والله خليفتي عليكم وعلى جميع المسلمين .

ولما أزمع المتوكل ()على الرحيل إلى دمشق أمر ابنه محمد ()المنتصر المهلبي يزيد

فقال بيتين على لسانه، ودفعهما إلى من يحسنهما وغنى بهما المتوكل وهما:

وَلَوْ قدْ حدَى الحادي بطلبٍ يحذرُ إلى اللهِ أشكو عَبْرةً نتخيرُ

مقيماً وفي الشام الخليفةُ جعفرُ فواحسرتَنا أنْ كنتُ في سُرَّ مَنْ رأى

فأعجب بهما المتوكل وارتاح وبكى ثم قال :من يقول هذا فقيل قاله محمد المنتصر فقال هو على لسانه :لكن من قائله قالوا :يزيد المهلبي فقال ادعوه فوالله لأضحكنه كما أبكاني فلما دخل عليه أمر له بخمسين ألف درهم.

وروي أن محمد بن عبد الله بن طاهر ()كان مولودا بحد السرطان ()، فلما كان ذات ليلة جمع أهل بيته، فقال لهم :إني مولود بحد السرطان وإن طالع السنة السرطان وإن القمر ينكسف الليلة بالسرطان وهي ليلة الأحد فان نجوت في هذه الليلة فسأبقى سنتين وإن كانت الأخرى فإني ميت لا محالة قالوا :بل يطيل الله عمرك، قال :فلما كان الليل دعا غلاما له كان قد علمه النجوم ()، فأصعده إلى قبة له فأعطاه بنادق وأسطرلابا ()، وقال له خذ الطالع فكلما مضى من انكساف القمر دقيقة فاقذف إلي ببندقة حتى أعلم بذلك .وجلس محمد مع أصحابه وجعل الغلام كل ما مضى من انكساف القمر دقيقة قذف إليه ببندقة، فلما انكسف من القمر ثلثه قال لأصحابه :ما تقولون في رجل معكم قاعد يقضي ويمضي وقد ذهب منذ جالسكم ثلث عمره قالوا :بل يطيل الله عمرك .فلما مضى من الليل ثلثاه، عمد إلى جواريه فأعتق منهن من أراد عتقها، ووقف من ضياعه ما أوقف .وقال لهم :ما تقولون في رجل معكم يقضي ويمضي، وقد ذهب جل عمره، فقال القوم :بل يطيل الله عمرك وبقاك أيها الأمير فلما مضى من الثلث الثالث دقيقتان، قال لهم :إذا استغرق القمر فامضوا إلى أخي عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ()، ثم قام فاغتسل ولبس أكفانه وتحنط ودخل إلى بيت له، ورد عليه الأبواب واضطجع فلما استغرق القمر في الكسوف فاضت نفسه فدخلوا عليه فإذا هو ميت، فانطلقوا إلى عبيد الله أخيه ليعلموه، فإذا عبيد الله على طيار له على باب القصر قد سبقهم، فقال لهم :مات أخي، قالوا :نعم .قال :ما زلت آخذ الطالع حتى استغرق القمر في الكسوف فعلمت أنه قد قبض ثم دخل فأكب عليه طويلا.

ثم خرج وهو يقول:

زالَ عنها السّرادِقُ الممدودُ ... هُدَّ ركنُ الخلافةِ الموطودُ

جَدَّ أطنابَها فمالَ العمودُ ... حطَّ فسطاطها المحيطُ عليها

والناد شبَّ منها الوقود ... أحد كان خدّه مثل حدِّ السيف

حدَّها إليهِ الأجودُ ... أحدٌّ كان خدُّهُ مِن نُحوسٍ جُمِعَتْ

فانجلى البدرُ والأميرُ عميدُ ... كُسِفَ البدر والأميرُ جميعاً

ونورُ الأمير مالا يعودُ ... عادَ البدرَ نورُهُ لتجليه

فالدُّنيا عليها كآبةٌ وجمودُ أظلمتْ بَعدَهُ الخلافةُ
قدْ قضى وَمنها عتيدُ الأمورُ قدْ كانَ دَبَّرَ منها مبرمٌ
والغربُ فمنها تهائِمٌ ونجودُ 0 قدْ بكاهُ العراقُ والشرقُ

فلما حُمِلَ على سريرِه أنشأ يقولُ:

ألا لله ما حَمَلَ السريرُ تُداولُهُ الأكفُّ على سريرِ
إذا رَجعتْ وأطولُها قصيرُ أكفٌّ لو تُمدُّ إليه حيّاً
تبكيهِ الأرامِلُ والفقيرُ تباشرتِ القبورُ بهِ وأضحى

حكي أن محمد بن زيد العلوي 0الداعي بطبرستان كان إذا افتتح الخراج نظر في بيت المال، من خراج السنة التي قبلها، وفرقه في قبائل قريش على دعوتهم، وفي الأنصار وفي الفقهاء، وأهل القرآن وسائر طبقات الناس، إلى أن يفرق جميع ما بقي .فجلس في سنة من السنين ففرق مثل ذلك على عادته، فلما بدأ ببني عبد مناف وقد فرغ من بني هاشم، دعا بسائر بني عبد مناف، فقام إليه رجل فقال له : من أي بني عبد مناف أنت؟ فقال :من بني أمية، قال :من أيهم فسكت فقال لعلك من ولد معاوية قال :نعم فقال :من أيهم فسكت فقال :لعللك من ولد يزيد .قال :نعم .قال : بئس الاختيار اخترت لنفسك من قصدك بلدا ولايته إلى آل أبي طالب وعندك ثأرهم في سيدهم، وقد كانت لك مندوحة عنهم بالشام والعراق عند من يتولى جدك ويحب برك، فإن كنت جئت عن جهل منك بهذا فما يكون بعد جهلك شيء وإن كنت جئت مستهزئا بهم فقد خاطرت .فنظر إليه العلويون نظرا شديدا وهموا به، فصاح بهم محمد، فقال :كفوا عافاكم الله كأنكم تظنون في قتل هذا، دركا وثأرا بالحسين بن عليٍّ عليهما السلام وأي جرم لهذا إن الله تعالى حرم أن تطالب نفس بغير ما اكتسبت .والله لا يعرض له أحد إلا أقدته به، واسمعوا حديثا أحد ثكموه به يكون لكم قدوة فيما تستأنفون، حدثني أبي عن أبيه قال :عرض علي المنصور سنة حج جوهرا فاخرا فعرفة وقال :كان هذا لهشام بن عبد الملك وهذا بعينه قد بلغني خبره عند ابنه محمد 0، وما بقي منهم أحد غيره، ثم قال للربيع :إذا كان غدا، وصليت بالناس في المسجد الحرام وحصل الناس به، فأغلق الأبواب كلها، ووكل بها ثقاتك من الشيعة واقفلها وافتح للناس بابا واحدا وقف عليه، ولا يخرج أحد إلا من قد عرفته، فلما كان من الغد فعل الربيع ذلك .وتبين محمد بن هشام القصة، فعلم أنه المطلوب وأنه مأخوذ، فتخير وأقبل محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام على أثر ذلك، فرآه متحيرا وهو لا يعرفه فأنكر أمره، فقال

له :يا هذا أراك متحيرا متلددا فمن أنت ولك أمان الله تعالى العام التام، وأنت في ذمتي حتى أخلصك بعون الله عز وجل .قال :أنا محمد بن هشام بن عبد الملك فمن أنت قال :أنا محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي قال :فعند الله احتسبت نفسي، قال :لا بأس عليك يا ابن عم فانك لست قاتل زيد، ولا في قتلك إدراك ثأره، وأنا الآن بخلاصك أولى مني بإسلامك، ولكن تعذرني فيما أتناولك به من مكروه وقبح مخاطبة، يكون فيه خلاصك بمشيئة الله وعونه .فقال :يا سيدي أنت وذاك، فطرح رداءه على رأسه ووجهه ولثَّبَهُ ()به، وأقبل يسحبه فلما وقعت عين الربيع عليه، لطمه لطمات وجاء به إلى الربيع، وقال يا أبا الفضل أن هذا الخبيث جمال من أهل الكوفة، أكراني جماله ذاهبا وعائدا، وقد هرب مني في هذا الوقت، وأكرى بعض القواد الخرسانية ولي عليه بذلك شهود فضم إلى حرسيين يصيران به معي إلى القاضي ويمنعان الخرساني من اعتراضه إن اعترضنا .فضم إليه حرسيين وقال :امضيا به معه فلما بعد عن المسجد، قال له :يا خبيث تؤدي إليَّ حقي، قال : نعم يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .فقال للحرسيين :انصرفا في حفظ الله، فلما بعدا أطلقه، فقبل محمد بن هشام يده ورأسه وقال :بأبي أنت وأمي، الله أعلم حيث يجعل رسالاته، ثم أخرج جوهرا له قيمة وقدر عظيم، ودفعه إليه وقال شرفني يا سيدي بقبوله مني، فقال :اذهب بمتاعك يا ابن عم، فإنا أهل بيت لا نقبل على المعروف مكافأة، وقد تركت لك دم زيد وهو أعظم قدرا من ذلك، فانصرف راشدا ووار نفسك عن هذا الرجل إلى أن يخرج، فإنه مجد في طلبك . فمضى وتوارى ثم أن محمد الداعي أمر للأموي بمثل ما أمر به لسائر بني عبد مناف وضم إليه جماعة من مواليه وأمرهم أن يخرجوه إلى الري ويأتوه بكتابه بسلامته فقام الأموي وقبل رأسه ومضى ومعه القوم حتى وصل مأمنه وجاؤه بكتابه بسلامته .تقطيع بالأصل وصلاته على سيدنا محمد وعلى آله ورضي الله عن أصحابه.